خيرى شلبى

زَهْرة الخُشْخَاشْ

رواية

دار الشروق

خيري شلبي

زَهْرةُ الخُشْخَاشْ

رواية

دار الشروق

خيري شلبي

زهرة الخَشْخَاش

دار الشروق

زهرة الخَشْخَاش

خيري شلبي

تصميم الغلاف: حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

تصنيف الكتاب: رواية

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر القاهرة مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٢٩١١/٢٠٠٧

ISBN 978-977-09-2219-3

إهداء

إلى حفيدي الثاني زين حاتم حافظ، ابن ابنتي الثانية إيمان. كانت لحظة حضورك إلى الدنيا هي لحظة فض الاشتباك مع هذه الرواية التي شقيت فيها خمس سنوات إلى أن وفقني الله في فصلها عن توءم لها كان ملتصقا بها واضطررت إلى التضحية به من أجلها.. كانت صيحتك الأولى في المهد مكافأة لي على هذا الضنى الغالي.. مثلك بالضبط. دمت لجدك.

خيــري

المعادي في: ٥ - ٥ - ٥٠٠٢

موال اللعبة دِيَّه

موال العباديَّه

موال اللي اختشى

زي اللي ما اختشاش

الأولة كان أخوك صابر ولا حَوْل

والتانية بايت ما قلتش بالنجاح أولى

والتالتة أدنْت أو قدمت في محاولة

والرابعة يا خِلِّي شوف الفجر لاح أو.. لا

والخامسة حوله..

وكان للزهر ستّ أوشاش

«فؤاد حداد»

المحتويات

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
(١٥)
(١٦)
(١٧)
(١٨)
(١٩)
(٢٠)
(٢١)
(٢٢)
(٢٣)
(٢٤)
(٢٥)
(٢٦)
(٢٧)
(٢٨)
(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

(٣٣)

(٣٤)

(٣٥)

(٣٦)

(٣٧)

(٣٨)

(٣٩)

(٤٠)

(٤١)

(٤٢)

(٤٣)

(٤٤)

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧)

(٤٨)

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

(١)

قرص الشمس يتسلطن على شباك الفصل، يملؤني بالحنق كما لو كان يتقصدني، يعطل بصري - الضعيف من حاله - عن رؤية السبورة والمدرس، إذ إنني أجلس إلى القمطر الملاصق للشباك الشرقي وذلك نظرًا لقصر قامتي وضعف بصري. لا حل أمامي سوى تحويل بصري عن منطقة السبورة وتسريبه خلسة إلى الشارع الممتد أمامي آتيًّا من وسط البلد إلى زمام الطريق الزراعي الموصل إلى بلدة «نشرت» حيث توجد محطة القطار على بُعد خمسة كيلومترات من بلدتنا «ميت الديبة». لخوفي من خيزرانة المدرس التي تدهمنا فجأة كالقضاء المستعجل رحت أركز انتباهي على ما يقول.

المدرس ذو الجسد الضخم والصوت الجهوري الرنان، واسمه السيد أفندي جابر، قد نسي في فورة حماسته العصبية دائمًا فمسح من التاريخ اسم اليوم والشهر والسنة فيما هو يمسح السبورة من آثار طباشير الحصة السابقة. ثم انتبه فكتب في عجالة على ركن في أعلى السبورة: الثاني من يونيو سنة ألف وتسعماية وخمسة وأربعين، وبرم كعبه في الأرض مستديرًا في رشاقة مزعومة لكي يواجهنا. ألقى علينا نفس المقدمة التي يمليها علينا كل مدرس في كل حصة: علينا أن نظل نتذكر أننا سنكون أول دفعة تحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلد لأول مرة في التاريخ! ومدرسنا الأول ريشة أفندي مصمم على أن ننجح جميعًا بتفوق يقنع وزارة المعارف العمومية بأنها كانت محقة حينما صرحت لمدرسة البلد الإلزامية بمنح الشهادة الابتدائية لتلاميذ الصف السادس ولا الحوجة للسفر إلى المدينة وبهدلة الغربة ودفع مصاريف باهظة! وإذن فعلينا جميعًا يا أولاد أن نجتهد لنرفع رأس ريشة أفندي الذي ناضل لإقناع الوزارة! وإذا كان الرجل قد ألغى إجازاته من أجلكم ويبقى معكم طول النهار ويمر عليكم في دوركم فلنضع في أعيننا حصوة ملح ونذاكر بإخلاص.. إلخ.

في وسط السبورة كتب بالخط الثلث عنوان درس اليوم: «الطيور صديقة الفلاح». راح يشرح لنا الفوائد والخدمات العظيمة التي يؤديها طائر أبي قردان لأهالينا الفلاحين، حيث يأكل الديدان والحشرات التي تهلك الزرع قبل تمام نضجه؛ فإذا بضجة صاخبة تقتحمنا من الشارع: أبواق سيارات ملحاحة مع أصوات زاعقة لمحركات تزحف مقبلة من الطريق الزراعي إلى أن صارت تحت شباك الفصل الذي به ينتهي جدار المدرسة المستطيل حيث اعتادت السيارات القادمة إلى البلدة أن تتمهل ها هنا قبل أن تحود إلى الباحة الواسعة أمام المدرسة، إذ يتعين على السائق أن يمشي ببطء شديد خشية اصطدامه بعيال يلعبون أو ببهيمة شاردة، وتحسبًا للأرض المقلقلة المليئة بالروث وأكوام السباخ وأسراب من الدجاج والبط والإوز والمعيز والكلاب السأمانة الغافية بعد ليل عصيب.

دخول سيارة إلى بلدتنا يعتبر حدثا جللا ينتفض له القوم للفرجة على السيارات التي تجري من تلقاء نفسها من دون أن تجرها خيول. الفرحة التي ظهرت في تجمع الناس في الشارع، والتي تظهر دائمًا مع ظهور أي سيارة، حتى وإن كانت فنطاس الجاز أو عربة رش المبيدات، ليست هي الغرض الوحيد وراء تجمهر الناس حول السيارة؛ إنما السبب الرئيسي الذي أصبح مقدّمًا على الفرجة هو توقع الناس أن يكون القادم ضيفًا من الشخصيات المهمة، أو غائبا عاد بعد اغتراب، أو موادّ غذائية من المعونة الأمريكية كالجبن الأصفر واللبن البودرة مما ترسله الحكومة لإغاثة الجياع في مدارس القرى.

جميع العيال في الفصل وقفوا نصف وقفة ومدوا أعناقهم لاستطلاع خبر هذه السيارات الثلاث. السيد أفندي جابر نفسه رمى بالطباشيرة وهرول نحو الشباك، انحنى مرتفقا حافته ناظرًا في السيارات بإمعان وتدقيق، وعلى سبيل التحية يرسل الترحيب بحماسة بصوت خطابي جهير. سيارة رابعة ظهرت، وضح أنهم كانوا في انتظارهم؛ وضح أيضًا من حركتها أنها ستقودهم إلى وسط البلد. السيارات الأربع مختلفة الألوان والأشكال والأحجام؛ فيها أفندية وهوانم وشبان وأطفال. أسقف السيارات محزمة بالحبال على حقائب كبيرة كثيرة.

غادر الشحوب وجه السيد أفندي بعد إذ تأكد أن واحدة من هذه السيارات لا تحمل مفتش المنطقة التعليمية. ما لبث حتى اعتدل فاستدار عائدًا يغمغم في شيء من الحقد والأسى:

- «عجيب أمر الشماشرجية هؤلاء! واضح أنهم سيمكثون في البلدة مدة طويلة!! وهذا معناه أن في الإسكندرية قلاقل ومخاطر سياسية!!».

ثم حملق في الفضاء لبرهة وتمتم لنفسه:

- «ما داهية إلا أن تكون الحرب العالمية رجعت!! وما هو ببعيد!! البر كله مضطرب! ربنا يستر!».

لحظتئذٍ ثقلت رأسي بحمل باهظ من الأحلام والطموحات حاولت الزوغان منها لأنتبه إلى شرح السيد أفندي ولكن دون جدوى؛ صوته جعل يطن فوق رأسي كطبل أجوف يشوشر على فرحتي بعودة الشماشرجية من الإسكندرية.
إنني أفرح برؤية المدينة في أشخاصهم، مدينة الإسكندرية على وجه التحديد،تلك التي ولدت فيها ولم أرها برغم حضورها الدائم في دارنا من خلال الجوابات التي يرسلها أعمامي المقيمون فيها، كما أن الغجرية ضاربة الودع شافت بختي وقالت إنني مكتوب لي عيش في مدينة كبيرة. الجميل أن كبار هؤلاء القوم السكندريين هم من أعز أصدقاء أبي، الذي كان ذات يوم ليس بالبعيد موظفًا كبيرًا ببلدية الإسكندرية قبل إحالته إلى التقاعد ومجيئه إلى بلدتنا للعيش فيها من ريع ثلاثة أفدنة ورثها من تركة جدي حبيب الراوي، وليمتع نفسه بالهدوء وبساطة العيش ووفرة المأكولات بثمن ضئيل.

ما إن يأتي أحد من كبار الشماشرجية إلى البلدة حتى يخلع البدلة ويلبس الجلباب.. يتناول طعاما ثم يعرج على أبي في المندرة المفتوحة ليل نهار، يأتنس بخفة ظل أبي وبما تحويه جعبة الذكريات من حكايات ونوادر وطرائف سكندرية لا تنفد أبدًا.. ناهيك عن أن جميع الشماشرجية مبهورون بوعي أبي السياسي كعضو في الجمعية التأسيسية لحزب الوفد؛ مبهورون أكثر بذاكرته الحديدية التي تحتفظ بكثير مما لا يعرفه كثيرون منهم عن تاريخ أجدادهم القدامى.

(٢)

في المساء شرُفت مندرتنا بقدوم الحاج مصطفى الشماشرجي وشقيقه عنتر بك الشماشرجي وابن أخيهما - المقارب لهما في العمر - هاني بك الشماشرجي ابن عزت باشا الشماشرجي الذي قيل إنه كان شريكا للرأسمالي اليهودي الكبير سليمان باشا داود الشهير بالقططي في شركات ومشروعات استثمارية ومقاولات لا حصر لها قبل أن يستقل كل منهما بنفسه بعد إذ أصبح كل منهما يكاد يكون بنكًا قائما بذاته..

كانوا جالسين في مندرتنا بالجلاليب البلدي مثلنا، قد فصلها لهم نفس الخياط الذي يخيط لنا جميعا؛ مع ذلك يبدون أكثر تميزا ووضوحا بين الجالسين: وجوه حمراء يبكُّ منها الدم، أعناق مبرومة مدكوكة كعواميد من الرخام؛ اللغدُ البيضاوي المنبط تحت الذقن متناسخا في طبقات من الألغاد المتحاضنة قاسم مشترك بين جميع الشماشرجية بجميع أفرعهم في كل مكان؛ الأذرع السِّرحة المليئة بغابات من الشعر المتكور، الساعات والخواتم الذهبية مرصعة كلها بالأحجار الكريمة تلمع في معاصمهم وأصابعهم؛ علب السجائر المَكّن ذات الأشكال والألوان البهيجة ملقاة أمامهم مباحة للجميع دونما استئذان أو عزومة؛ فإن أخذ واحد من غير الشماشرجية سيجارة اقتسمها إلى نصفين وأعاد لفّ كل نصف في ورقة بافرة؛ أما الشماشرجية فإن السيجارة بين أصبعي الواحد منهم ما تكاد تحرق نصفها حتى يرمي بها على الأرض ويسحقها بقدمه وسط نظرات الحسرة والغيظ المكتوم بين بقية الجالسين.

سرعان ما احتدم النقاش حول أمور كثيرة متفرعة، وجدتني أنصت إليها بشغف مفتونا بهذه المفردات الجديدة المنشطة للخيال: اشتراكية هتلر وحزبه، شيوعية الروسيا، البُلْشفية، التشيك، بلغاريا، سلوفينيا، كوريا، صحراء العلمين، المحور، الحلفاء، الرايخ الثالث.. إلخ إلخ. صرت فخورا بأبي وهو يضيف إلى هذه المفردات شروحا تنتهي إلى أن هذه المفردات بعضها أسماء دول وبعضها الآخر أسماء أحزاب ونظريات سياسية واقتصادية. أهم ما سمعته في تلك الليلة أن الإسكندرية أصبحت عرضة لمخاطر شبه يومية، وأن أسعار السلع والمأكولات بخاصة قد ارتفعت إلى حد ليس يبلغه إلا الموسرون، وأن الجاليات الأجنبية ذات الحماية تعيث في المدينة فسادا، خطفا واغتصابا ونهبا لكل ما تطوله أيديهم، بل إن الجنود منهم يتسلون بإطلاق الأعيرة النارية بشكل عشوائي، فلا يجد قتلاهم من يثأر لهم أو يوقف هذا الجنون.

(٣)

حضور الشماشرجية بات كثيفا في البلدة. أصبحت سياراتهم مصدر بهجة للناس في غدوها ورواحها، يجري وراءها الأطفال، يتشعبطون في المصدات الحديدية الخلفية. عيال الشماشرجية النواعم وبناتهم الشيكولاتة غيروا منظر البلدة بألوان ثيابهم الزاهية وعطورهم الزاعقة ولعبهم وألعابهم التي يشركوننا فيها بأريحية جعلتنا نحبهم ونصاحبهم ونتسابق في خدمتهم وتلبية طلباتهم. لا حديث للبلد إلا الشماشرجية الإسكندرانية الذين شرفونا بالإقامة في بلدتنا فأحدثوا فيها رواجا بما يشترونه من سجائر وحلويات وشاي وسكر وجاز وفاكهة وأسماك ولحوم وطيور. قروشهم وشلناتهم وبرايزهم انتشرت بين أيدي ناس كثيرين. على المصطبة المحازية لجدار بيتنا حيث يضطجع أبي عليها في قيلولة الصيف ويقضي عصريته يقرأ في الجرنان أو في صحيح البخاري. على هذه المصطبة في إحدى العصريات الرقيقة النسمات، وركية نار القوالح تلهب براد الشاي فيغني ويزغرد ويتراقص باعثا في أنوفنا نكهة حريفة لشمخة الشاي المطبوخ، كم هي نفاذة ومنعشة. بين رهط من جيراننا الذين يحبون الاشتراك مع أبي في تكاليف زردة شاي في عصرية كل يوم، فتح أبي قربة الذكريات، فصبت على رءوسنا سيلا من وقائع تاريخ لم يكن معظمنا يعرفه بهذا الفيض. لقد عاشر أبي أكابر الشماشرجية منذ طفولته في الإسكندرية عند أخواله أعيان كنج مريوط إلى أن توظف في المجلس البلدي ووصل فيه إلى أعلى درجة في سلم الترقية ثم غادر الإسكندرية بعد بلوغه الستين من عمره.

حديث العصاري فوق المصطبة البحرية تحت جدار مندرتنا أفاض علينا كثيرا مما نشغف بمعرفته. قيل لنا بوضوح إن عزت باشا الشماشرجي، والد هاني بك الشماشرجي الذي شرفت مندرتنا بزيارته عدة ليال متتالية، هو أشهر وألمع كبراء هذه العائلة على امتداد ما يقرب من مائتي عام من تاريخها.

كان محمد علي باشا الكبير قد استقطب جدهم الأكبر الحاج عبد الرءوف البدوي، أحد كبار عربان الشرقية، وأقطعه أرضا زراعية، سمح له باستصلاح وامتلاك ما ينجح في استصلاحه من الأرض. هكذا فعل محمد علي باشا الكبير مع كبار قبائل العربان في محافظات الشرقية والفيوم والواحات والصعيد الجواني؛ فضمن بذلك ولاء قبائل شاسعة كانت تناوئه وتسبب له كثيرا من وجع الدماغ. إقطاعية الحاج عبد الرءوف البدوي كانت في زمام بلدتنا، فانتقلت قبيلته من محافظة الشرقية إلى بلدتنا في محافظة كفر الشيخ؛ اشتروا وابتنوا البيوت في ضواحي البلدة مما ييسّر لهم فلاحة الأرض. تلك كانت مهنة لم يعرفوها من قبل على أصولها؛ فلجأ البدوي الأريب إلى اكتراء الأنفار على مختلف مستوياتهم من عمال زراعيين موسميين إلى تملّية دائمين إلى خولة وملاحظين وكتبة وخفراء. كان عقلية كبيرة نيرة؛ أدرك أن مصر فلاحة من ساسها لرأسها، وأنه لكي يعيش في أمن وسلام، ويضمن لعيال عشيرته مستقبلا مرموقا ومأمونا معا، يتعين عليه أن يندمج في الفلاحين اندماجا كليا من أجل خاطر عيون الفلاحة. من أقواله المأثورة آنذاك أنه إذا كانت الزراعة علما واسعا وغويطا فإن الفلاحة - التي هي شغلة الفلاح - هي فن الزراعة القائم على عشق الأرض بعاطفة مشبوبة. إن الغرام الأسمى في حياة الفلاح هو غرامه بالأرض؛ يتزوجها بمعنى الكلمة، ينجبان معًا صبيانًا وبنات وحقولا خضراء وحدائق يانعة. بهذا الإدراك - يعلق أبي - يعتبر عبد الرءوف البدوي صاحب ثورة في تاريخ البدو المصريين، أولئك الذين كانوا ولايزالون يحتقرون الفلاحة والفلاحين باعتبارهم رُحّلا لا مكانة للأرض في قلوبهم، وما الفلاحة في أنظارهم إلا أقنان من عبيد الأرض يسجنون أنفسهم فيها مدى الحياة، ومن ثم لا يليق بالعربان والبدو أن يصاهروا الفلاحين. الحاج عبد الرءوف البدوي هدم ذلك السور الوهمي واثقا من طيبة قلب الفلاح وإخلاصه للزرع حتى وإن شقي فيه ليستفيد غيره بثمرته. أول شيء فعله أن شجع أبناءه وأبناء إخوته وأخواته على الزواج من بنات الأعيان الجميلات؛ في المقابل كان في القبيلة بدويات ساحرات الطرف والقدّ طيرن ألباب شبان قرى شمالي الدلتا وتم زواجهم منهم بسهولة غير متوقعة.

في بحر عشرين عاما ضوعفت قوة القبيلة بأصهار من الفلاحين؛ كل عائلة أخذ منها عروسا أو كسب فيها عريسا أصبحت جزءا من أهله، كما أصبح هو نفسه كبيرا بين فحول من أكابر الفلاحين منحوه الثقة والخبرة والنجاح.. توالت بعد ذلك مساهماته في أعمال الخير والبر والإنفاق على مدارس وملاجئ ومساجد وكتاتيب وغير ذلك من أعمال خيرية مكنت له في الأرض وأقامت بين عشيرته وأهالي بلدان الناحية كلها جسورا من الود والتواصل والهيبة والاحترام. هداياه إلى محمد علي باشا وأسرته كانت سخية وغزيرة، فسرعان ما منح بسببها لقب الباشوية. أولاد الحاج عبد الرءوف ما أكثرهم؛ يشاع عنه أنه تزوج حوالي أربعين مرة من بدويات وريفيات وحضريات أنجب منهن جميعا فيما عدا بضع عاقرات بعدد أصابع اليد الواحدة؛ وهو دائما أبدا يحتفظ بأربع في عصمته، أما الباقيات فإنه يسرحهن بالمعروف. يشاع أيضا أنه ينسى أسماء عياله من فرط كثرتهم، ناهيك عن أحفاده الكثر من ذكوره

وإناثه معا.

الرعيل الأول من عياله تعلموا فك الخط وحفظوا القرآن وباتوا تجار أقطان ومحصولات زراعية ودواب وألبان وأقمشة. الرعيل الثاني تعلم في مدارس الحقوق والمهندسخانة ثم اشتغلوا معاوني إدارة ومحامين ومهندسين ومعماريين وزراعيين وخبراء ريّ. أما الرعيل الثالث من عيال الحاج عبد الرءوف البدوي - وهم من أبناء بنات بلدتنا - فقد سافر معظمهم إلى باريس لاستكمال التعليم العالي.

الابن الأوسط من الرعيل الأول كان لبقا ذكيا خبيرا بالمواد الغذائية من بقول ولحوم وإدام، فعين في السراي العلوية في وظيفة كرارجي أول، يعني هو المسئول عن غذاء العائلة.. نجح في السيطرة الداخلية على الأسرة العلوية وأن يقودها من بطونها: أعداد هائلة من الفراريج وفراخ الحمام والبط والعجول والخرفان تدخل المطابخ العلوية كل يوم مع أطنان من السكر والدقيق والإدام لتصنيع صنوف لا حصر لها من الحلوى الفاطمية، وأطنان من الفواكه والخضراوات الطازجة، ناهيك عن امتلاء المخازن بالبقول ومختلف ألوان المحصولات.

بواسطته تسلل أبناء الأسرة البدوية إلى أرفع مناصب السراي. أخوه الأصغر من الرعيل الثاني، دارس الهندسة الزراعية في سوربون باريس، أصبح مفتشا للدائرة السنية بجميع إقطاعاتها في جميع أنحاء البلاد، يشرف على زراعتها وجني وتصريف محصولاتها الوفيرة. فما أن تولى الخديو إسماعيل عرش البلاد حتى كان عبد الحميد بك أصغر أبناء عبد الرءوف باشا جميعا قد أصبح رفيقا للخديو يرافقه كظله، يسافر معه إلى باريس ولندن وروما وبلاد تركب الأفيال. كان عبد الحميد بك قد عين شماشرجيا للخديو إسماعيل، هو المسئول الوحيد عن ذوق وفخامة أزياء الخديو، هو الذي يختار ويفصل ويشرف على توليف الأطقم ويناولها للخديو في غرفة اللبس قطعة بعد قطعة، يهندمه بهارمونية يتناسق فيها لون الحذاء مع لون الحزام مع العباءة والصديري، وبدورها تتناسق مع اللقاءات والمقابلات والمناسبات.

كل أسرار البلاد كانت في عِبّ عبد الحميد البدوي الذي سرعان ما حظي بلقب الباشوية. قيل إن صدره كان سجنا حديديا للأسرار مما جعله مصدر أمن واطمئنان. الأناقة المبهرة التي أضفاها على أسرة الخديو كلها منحته شهرة ونجومية بين جميع أبناء الشعب: راح الشماشرجي باشا.. جاء الشماشرجي باشا.. الشماشرجي قال.. الشماشرجي فعل؛ صار اللقب اسما، بات علما على أبناء وإخوة عبدالحميد باشا البدوي ابن عبد الرءوف باشا البدوي. أصبح اللقب الاسم مصدر فخر للعائلة بل لأهل بلدتنا جميعا، حتى اسم بلدتنا تغير على الألسنة من خارجها إلى بلدة الشماشرجي.. لكأن عبد الحميد باشا قد ألف عائلة جديدة تماما اسمها عائلة الشماشرجي صار لها أملاكها الخاصة وأوضاعها الطبقية الخاصة وحياتها الأرستقراطية الخاصة.

شجرتها ضربت جذورها في أرض بلدتنا على مساحات عريضة؛ امتدت فروعها إلى مدينة الإسكندرية عن طريق ابنه الكبير عبد المهيمن عبد الحميد عبد الرءوف البدوي الشهير بالشماشرجي. كان عبد المهيمن ضابط شرطة ارتقى بسرعة شديدة، فعيِّن مديرا لأمن الإسكندرية في أواسط القرن التاسع عشر. عبد المهيمن باشا أنجب كثيرا من الأولاد؛ أصغرهم كان عزت عبد المهيمن الشماشرجي، الذي استقبل القرن العشرين وهو في الخامسة والعشرين من عمره. كل إخوته أبناء عبد المهيمن أفلحوا في تعليمهم في بعثاتهم العلمية في لندن وباريس، أصبح منهم الطبيب والمحامي ومهندس الري؛ إلا عزت الصغير الدلوعة، خاصم التعليم مكتفيا بالبكالوريا؛ فغضب عليه أبوه عبد المهيمن، عنّفه بقسوة؛ فما كان منه إلا أن ترك البيت ورمى بنفسه في معترك الحياة متحملا مسئولية حياته؛عمل مساعدا لأحد كبار مستوردي الملبوسات الجاهزة، حقق أرباحا هيأت له حياة هنية رغدة نجحت في علاج صدمة أبيه فيه، فالتأمت العلاقة بينهما وأصبح هو ينوب عن أبيه في الحضور إلى بلدتنا في كل المناسبات العائلية.

في إحدى زياراته للبلدة نضجت الفكرة في ذهنه: أن يضارب في محصول القطن؛ فإذا هو على موعد مع الحظ السعيد. كان بارعا في الشراء، يقرض الفلاحين أموالا على ذمة محصول القطن يفكون بها أعذارهم وينفقون منها على مقاومة دودة القطن؛يضمن بذلك أن المحصول لن يذهب إلى أحد غيره. كان كذلك بارعا في التخزين بارعا في التصدير. تلف الأيام وتدور الأموال كقواديس يتدفق منها الذهب؛ يصبح عزت الشماشرجي من أغنى أغنياء مصر، يسعى إليه لقب الباشوية طائعا مختارا يخطب وده.

عزت باشا الشماشرجي - يقول أبي - كان يملك عدة مصانع للغزل والنسيج الرفيع، وللصباغة، وشركات تصدير واستيراد، ومكاتب استشارية. «أحمد الكويس» ابن ابن عمه - ويشير أبي بذراعه المعروفة في اتجاه دكان أحمد الكويس تاجر المانيفاتورة - ينوب عنه هنا في إقراض الفلاح ما يحتاج إليه من أموال سوف يسددها قناطير قطن بعد

قليل من الزمن. الإقراض محكوم بعدد ما يملكه المقترض من فدادين مزروعة قطنا، كما أن القرض ليس بالضرورة نقودا حية تتلعبط بين الأيدي عند العدّ، إنما قد يكون أقمشة من دكان أحمد الكويس، أو أخشابا من شادره، أو بذورا من صوامعه، أو على الأقل مصاريف العيال في مدارس البندر..

ذلك أن الشماشرجية خلقوا في بلدتنا تطلعات طبقية دفعت الناس تلقائيا إلى تقليدهم في تعليم الأولاد في مدارس البندر، وفي لبس الحرير والكشمير أو على الأقل البوبلين والجبردين ليظهروا بمظهر المحترمين. أصابوا كبار وصغار الملاّك والتجار والحرفيين بمرض الفشخرة الكذابة. أصبحت كل محصولات الأراضي تباع قبل نضجها في الحقول. أصبح هؤلاء وأولئك، برغم كثرة الملابس النظيفة وانتشار التعليم ومحو الأمية بين كثيرين، في عوز مستمر، في ضائقة مالية دائمة، في حاجة ملحة وماسة إلى الاقتراض على المحصولات.. بل إن بعض الموغلين في الفشخرة باتوا يقترضون على الأرض نفسها، برهنها مقابل مبلغ لا يساوي أكثر من نصف ثمنها إذا بيعت.. وبنك أحمد الكويس - الشغال بأموال عزت باشا - جاهز على الدوام لتقديم الكساء والغذاء والدواء والبناء والتعليم بكمبيالات ضوعفت فيها قيمة المديونية تعطي لصاحبها حق الحجز القانوني على المحصول في الأرض، بل على الأرض نفسها، ثم بيعها في مزاد علني لصالح الدائن.

محصول القطن في شمالي وغربي ووسط الدلتا يذهب بكامله إلى مصانع الشماشرجي في الإسكندرية، يتحول إلى غزل رفيع، يتم تصدير نصف الغزل إلى الخارج، يحول النصف الآخر إلى منسوجات، جزء كبير منها يباع كأثواب أقمشة، والباقي يتم تصنيعه قمصانا ومنامات وملابس داخلية وفوط وبشاكير وملاءات وبياضات ومفارش وجوارب. من حسن حظ عزت باشا أنه أنجب أولادا، ومن عميق فطنته وسداد رأيه قام بتوجيه أولاده إلى فروع من العلم تحتاج إليها أعماله، من علم الإدارة والمحاسبة والاقتصاد والقانون إلى هندسة ميكانيكا الآلات، وجميعهم سافروا في بعثات إلى السوربون في باريس وأوكسفورد ومانشستر في لندن لدراسة ما استحدث في صناعات الغزل والنسج والصباغة وموديلات الأزياء والماكينات من تطورات.

هاني بك الشماشرجي العاشق للقعدة في مندرتنا هو أكبر الذكور في أبناء عزت باشا، هو كذلك المدير العام لجميع مصانع أبيه وشركاته ومكاتبه. جميع إخوته وأخواته يعملون تحت إمرته. أما الأرض الزراعية التي اشتراها عزت باشا أو نزع ملكيتها من ملاكها الأصليين تخليصا لديونه عليهم فإن الإشراف عليها متروك للحاج نصر الشماشرجي الشهير بالكويس، والد أحمد الكويس.

يغمز أبي بعينه غمزة ذات معنى وهو يشرح لنا قصة لقب الكويس مع الحاج نصر الشماشرجي: كان الحاج نصر مغرما بالكوسة أكلا وتجارة، يزرعها في حديقة داره، وقد حدت به جنونيات الشماشرجية إلى أن يستورد من إستانبول بذرة نوع من القرع العسلي، زرعها في حوض خاص بها، فإذا القرعة الواحدة في حجم الشمامة الإسماعيلاوية. ارتاع الناس من منظرها، سيما وقشرتها سميكة صلبة كالبطيخة، فكيف يتم تخريطها وطبخها؟ وكان على الحاج نصر أن يقوم بحملة دعاية مبتكرة وواسعة النطاق لكي ينجح في بيع المحصول؛ تمخض عقله عن فكرة إقامة عزومة يقدم فيها للمدعوين أطباق القرع العسلي.

بدأ بدعوة لفيف من أعيان البلدة والبلاد المجاورة، فما إن ذاقوا طعم القرع حتى تخلوا عن قناعتهم ووقارهم وصاروا يطلبون الطبق تلو الطبق يلتهمونه في لذة واستمتاع، والحاج نصر لا يني يشرح لهم مرارا وتكرارا كيفية طبخه وغرفه في أطباق، فإذا هم في نهاية العزومة يعودون إلى ذويهم حاملين ما اشتروه من الحاج نصر من قرعات ضخمة الحجم كانوا مزهوين بحملها فخورين بحجمها بعد أن كانوا يستنكرونه. ثم بدأ الحاج نصر يدعو كبار تجار الفاكهة ويقدم لهم أطباق القرع العسلي، وأوعز لأهل منزله بأن يوزعوا على جميع الدور في البلدة أطباقا على سبيل التحية.. فما إن حان موعد الزرعة الثانية حتى كان جميع الناس في محافظة الغربية من عشاق القرع العسلي، يفضلونه على الأرز باللبن والمهلبية والبليلة.. وهكذا راجت تجارة القرع العسلي في قرانا.

إلا أن الكوسة ارتبطت باسم الحاج نصر الشماشرجي، فسبّب للناس كثيرا من الحرج حين يزلف لسان الواحد منهم دونما قصد ويقول اسم الحاج كوسه. على أن أهل بلدتنا أذكياء يتحلون بالأدب والتحفظ مع كبار القوم، فتكفل اللسان الفلاحي اللبق بتحوير الكلمة من كوسة إلى كويس، منها الانتساب إلى الكوسة باعتبارها علامة عليه وأشهر ما في حياته، ومنها تغطية على المعنى المقصود بعباءة لطيفة فيها فرصة للتعليل بأن المعنى المقصود هو الكواسة، يعني هو رجل «كُوَ يِّس» - بضم الكاف وفتح الواو وكسر وتشديد الياء وتسكين السين - وتلك مفردة شعبية متداولة كصيغة استحسان ومدح.

الحق لله - يعقِّب أبي - أن الحاج نصر الكويس رجل جدع، يعشق عائلته إلى حد التقديس، يُعنى بتجميع صور كل

أعلامها، يبروزها ويعلقها على الحوائط في داره الواسعة مثل التكيَّة، كما أنه معنيّ بشأن كل من ولدت من زوجات أبناء العائلة ومن بطونها في عائلات الأصهار لكي يثبت المولود الجديد بالقلم البسط والحبر الأسود، إذ يرسم له ورقة توت متفرعة من اسم أمه أو أبيه في شجرة العائلة المرسومة على رقعة عريضة جدا من القماش المشمع، ترقد مبرومة على نفسها في قعر صندوق خشبي كبير قابع في ركن في غرفة نومه. كل من سخر من هذه المشغلة المجهدة للحاج نصر الكويس سرعان ما يكف عن السخرية ويحترم نفسه حين تجيء مناسبة يجري فيها رسم شجرة العائلة. إن منظرها يبث في الواحد منهم إحساسًا قويًّا بالعزوة والأصالة، بل يشعر بالأمان والونس؛ إنها بالفعل ضرورية لتوثيق الروابط والصلات وبعث روح التواد بين الأصهار والأقارب، وبخاصة من يقيمون منهم في بلاد بعيدة، وليس عبثًا أن يقوم الحاج نصر الكويس بنسخ صورة طبق الأصل من هذه الشجرة على فرخ من الورق المقوى يعلقه على حائط حجرة الاستقبال في الصدارة، ليعرف كل داخل إلى هنا أي دار هذه التي شرف بدخولها، فيلزم حدوده قبل أن يجلس. وإذ يفاجأ الضيف بأنه قد عومل بكل حفاوة واحترام رغم أنه ليس من علية القوم، فحينئذ يشعر بأنه قد كبر مقامه حقًا.

من لم يشرف برؤية عزت باشا الشماشرجي يمكن أن يلتمسه في ابنه هاني بك الشماشرجي؛ إنه صورة طبق الأصل من أبيه، ومن عم أبيه الحاج نصر الكويس. في هاني بك تجمعت كل محاسن الملَكة التجارية لعائلته. إنه تاجر بالسليقة، يستفيد من كل شيء، من كل علاقة، إن قلت له «سلام عليكم» حسبها بمنطق الربح والخسارة، قد صار مليارديرًا كأبيه بل أشد.. كان يدخل في صفقات لحسابه الخاص في مجالات تجارية مختلفة لا شأن لها بشركات ومصانع أبيه، فلما قوي استقل بنفسه، أنشأ شركة باسمه تتخصص في تسويق منتجات مصانع أبيه، افتتح أسواقًا في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ راجت منسوجاتهم القطنية في كل مكان بشطارة هاني بك.

إلا أنه لم يستمتع بحياته جيدًا؛ كل أو معظم علاقاته - يغمز أبي بعينه في حرج ويخفض صوته إلى حد الهمس - مضروبة وخاسرة؛ كل من يمعن في الاتصال به يكتشف أنه لم يكن بالنسبة لهاني بك إلا مجرد واسطة انتهى دورها، مجرد شيء قد يبيعه أو يلقي به للسابلة إن يئس من وجود خير وراءه؛ نفسيته - والعياذ بالله - خربانة رغم أنه في حقيقة الأمر أبيض من جواه وطيب القلب جدًّا ومزجنجي قد يعطيك ما في جيبه كله في لحظة روقان عابرة؛ أبوه عزت باشا كثيرًا ما يثور عليه نتيجة لعدم انضباطه النفسي الذي كثيرًا ما يكلفهم خسائر باهظة، يقول له بانفعال مقموع وهو يهز المنشة ذات اليد العاجية بيده: «يا ولد يجب أن تعرف أن الله يرزقك ببركة دعاء الوالدين وليس لشطارتك! إنك تغرق في شبر ماء! تريد أن تعمل رأسك برأسي؟! إنها إذن لمهزلة!!»؛ مثل هذه التوبيخات كانت هي السبب في أن هاني بك سعى بكل جد واجتهاد حتى يستقل بنفسه متحديًّا أباه تاركًا له ولإخوته الجمل بما حمل.

مسحة لطيفة من الفخر تتفتح على وجه أبي إذ يؤكد أنه شاهد بعينيه أكثر من موقف مشابه بين عزت باشا وولده هاني بك. يتذكر الآن مشهدًا عاصفا: كان عزت باشا في زمن الكهولة حريصًا على شرب الشاي - كالإنجليز - في العصاري تحت خميلة في القصر العتيق على شاطئ ترعة المحمودية في آخر شارع الرصافة، وكان أبي آنذاك على وشك الإحالة إلى التقاعد كرئيس للمجلس البلدي؛ ورغم ارتفاع الفارق في السن بينه وعزت باشا فإن كلا منهما كان يطرب للآخر ويأنس لقعدته، وبخاصة قهوة شاي العصر تحت الخميلة الناعمة في القصر العتيق.

وفي ذلك اليوم البعيد كان عزت باشا يعاني ليكتم غضبًا داخليا يمور في صدره، لا يني يرسل بيانات السباب للذباب الملحاح السمج، يضرب الهواء بالمنشة في عصبية، إن هي إلا دقائق معدودة وأتى هاني بك ليشرب شاي العصرية مع أبيه؛ ولأول مرة في حياته يخرج عزت باشا عن طوره ويعنف ابنه الكبير أمام ضيف حتى وإن كان في حميمية أبي؛ لا يتذكر أبي تفاصيل الحوار بدقة، لكنه يتذكر جيدًا أن هاني بك يومها لم يكن لطيفا مع أبيه، بل كان يرد عليه كلمة بكلمة وفي غلظة وخشونة، إلا أنها - كما لاحظ أبي - خشونة اليائس التعيس المغلوب على أمره؛ يتذكر أبي أن العركة كانت بسبب سلوك مشين لم يحتمل الباشا السكوت عليه. الأمر، تقريبًا، والله أعلم - وتلمع في عيني أبي بارقة خبث وشقاوة عجوزة تشي بأنه يعرف حقيقة الأمر من طقطق لسلامُه عليكم - أن هاني بك ربما يكون قد تزوج سرًّا من يهودية طليانية تحمل الجنسية المصرية؛ وفيما يبدو، مما بقي في الذاكرة الخئون، أنه أنجب منها ولدًا، ثم أنكره، ثم عاد واعترف به، ثم أنكره مرة أخرى، ثم اعترف ثم أنكر ثم اعترفٍ وأنكر في آن معا، مما يشي باضطراب وحيرة وصراع هائل الحجم بين شخصيتين متناقضتين في شخصية واحدة كلٌ منهما أقوى من الأخرى.

يومها، بعد مبادرة هاني بك بالانصراف غاضبًا قبل أن يشرب الشاي، مال عزت باشا نحو أبي واعتذر له عما حدث قائلا إن الولد - يعني هاني بك - شخصيته قوية ومستقيمة وناجحة باسم الله ما شاء الله ولكنها معطوبة عاطفيًّا! منقسمة عاطفيًّا! إنه لا يضطرب هكذا ويتدهول ويخيب على عينيه إلا في المسائل الخاصة بعواطفه مع النساء. ثم تنهد الباشا وقال إنه حزين على الولد لأنه هو المسئول عن سلوكه هكذا، حيث ورث عن أمه إخلاصها العاطفي

المشبوب على الدوام، وورث عن الباشا تقلباته البدوية البراوية.. ويضيف الباشا متفكها ساخرًا: يظهر أن آل البدوي يلزمهم مائة عام أخرى حتى يتمدنوا تمامًا وتنعم عقولهم الصلبة وطباعهم المجبولة على الارتحال الدائم!! ثم قهقه في طرب وأضاف وهو يكح ويبصق في المنديل: باريز بجلالة قدرها لم تفلح في تنعيم عيالنا برغم طول الإقامة فيها!!

شقاوة أبي تستحق أن ألاحظها. هي التي تستلفت نظري دائمًا لدرجة أنني صرت خبيرًا في قراءة وجهه؛ فمن المشهد العاصف الذي حكاه منذ هنيهة ينتقل نقلة غير متوقعة بدت لي ذات معنى، حيث قال بعد برهة صمت إن زوج هاني بك، السيدة هانم بنت الحاج نصر الكويس، الفلاحة التي تمدنت على يديه وصيَّفت في باريس كل عام وأنجبت له ما يقرب من دستة عيال، كانت ولا تزال أنثى فتية كالفرس أعدت للإنجاب فحسب؛ تعرف فراغة عين زوجها وريالته الدائمة على أشكال وألوان من النساء والفتيات المراهقات، وبخاصة الشغالات في المصانع والشركات من النوع البلدي الذي يؤكل؛ إلا أنها حكيمة كأبيها نصر الكويس، متودكة كأخيها أحمد، فيها نفس الوعي بمعنى العائلة واستمرارها مستقرة مترابطة؛ نزعته من دماغها، تركته يفعل ما يشاء عملا بالمقولة الحكيمة الدارجة: كل واحد في الحياة معلق من عرقوبه.

ثالث علم من أعلام الشماشرجية هو عنتر بك الشماشرجي؛ يملك مصنعا للبويات، له عملاء في جميع أنحاء البر المصري تصلهم البضاعة لحد عندهم، وبعدها بفترة وجيزة يمر عليهم مندوب للتحصيل ويأخذ قائمة بطلبات جديدة. عنتر بك هو أكثر الشماشرجية تنظيما ودقة في العمل. أمضى فترة تمرين طويلة وشاقة بين اليونانيين والإيطاليين من محتكري تصنيع واستيراد وتوزيع البويات، حيث عمل مندوبا مفوضا لدى كثيرين منهم. ولما كان ميسور الحال من حاله، فقد شارك بعضهم في مصانع وصفقات وسفريات حتى تشرب المهنة؛ أقام أكبر مصنع للبويات في حي محرم بك على شاطئ ترعة المحمودية، استدعي له الخبراء والمهنيين من الخارج، وضع تحت إمرتهم فريقا من عيال العائلة ليتدربوا على أيديهم، جهز للمصنع أسطولًا من السيارات والحافلات والناقلات والشاحنات تجوب المحاجر والمناجم في جميع أنحاء القطر، تسرح بالخبراء في الصحراوات بخرائط استكشافية تقتفي آثار أسرار اللون في بطون التلال والجبال والرمال.

يفخر أبي بأنه دخل هذا المصنع يوم افتتاحه - وكان لايزال شابا آنذاك - فبهرته معامل الكيمياويات والأحماض بأجهزتها المعقدة، بهرته العنابر الضخمة بماكيناتها المتمددة على مساحات شاسعة كالأخطبوط تتفرع منها ألسنة تسرسب في البراميل الصاج مساحيق وسوائل صلبة القوام من جميع الألوان الزاهية الخاطفة للبصر. في عنابر أخرى شاهد مكاتب الإدارة واستراحات بحمامات ومساكن للخفراء والحراس. ثمة مصنع مستقل، تحت مظلة المصنع الكبير يصنع البراميل والعلب الكبيرة من الصاج المصقول، بعضها لتعبئة المسحوق وبعضها للسائل.. مدينة كبيرة يحار المرء في وصفها.

لعنتر بك أولاد كثار ناجحون، تخرجوا في الجامعة الأمريكية والتحقوا بوظائف مرموقة، لعل أشهرهم وأنجبهم ابنه الأكبر نصر بك المسمى على اسم جده لأمه الحاج نصر الكويس. ترقى نصر بك في الوظيفة بسرعة شديدة، أصبح محافظا لمدينة الإسكندرية: شوف الأملة! ربنا يعطينا جميعًا من وسع. المعروف طبعًا أن عنتر بك الشماشرجي مثل دائرة بلدتنا عدة دورات في البرلمان، وهذه الدورة الأخيرة تنازل عنها لواحد من أبناء عمومته هو الحاج أحمد الكويس. إن السياسة ومناصب الحكم في بلادنا تحتكرها العائلات على امتداد أزمنة طويلة؛ لا يستطيع واحد من غير عائلة أن يكون شيئًا يعتد به أعلى من موظف حكومة يخضع لنفوذ عائلة من العائلات.

رابع علم من أعلام الشماشرجية السكندريين هو الحاج مصطفى الشماشرجي. رجلٌ يُعدّ من الرموز المشرقة للشماشرجية؛ محبوب من السكندريين كافة وأهل بلدتنا على السواء، مشهور جدًّا جدًا، من المكس إلى القباري، ومن محرم بك إلى باكوس؛ يمتد صيته إلى جميع البلاد بوصفه «قعر مجلس» محترم؛ يستعين به الناس في فض الاشتباكات، وحل النزاعات، واسترداد الحقوق، والسعي بالصلح نيابة عن حي بأكمله مع حي بأكمله.

المؤكد أنه يفلح في كل مهامه على تنوعها وتفاوتها في الأهمية والخطورة. سحر عبقريته في بساطته المطلقة، في نفاذ بصيرته، ذكاء خواطره، زرابة لسانه الذي يعف عن السوقية والغلط. قبل أن يدخل في الحديث يبحث أولا عن السكة السالكة التي إن دخل منها صار في قلب الموضوع مباشرة دون إجهاد أو توتر أعصاب. نفاذ بصيرته يريه ما في السكك من صخور وألغام وحساسيات قد تسدها وقد توصل إلى المخاطر المحققة؛ فإن اهتدي إلى أقربها واكتشف أنها ملغومة بعراقيل لم يحسب حسابها فإنه حينئذٍ يبرع في تجنيبها، في القفز من فوقها برشاقة ولياقة متحدث بارع حكيم: «أعرف أنك زعلان من كذا وكيت، أليس كذلك؟! لكن ما عاش من يزعلك! إني جاهز لتنفيذ ما تأمر به على

الفور حتى وإن كان الفداء رقبة ولد من أولادي!»؛ فكأنه سيطر على منطقة الدمَّل الملتهبة وبَرَّدَها، وقبض في نفس الوقت على منفذ العداوة فأغلقه بأريحيته الرجولية الخلابة؛ ثم يبدأ التفاوض فوق مخدات لينة ملساء يجيد هو نسجها في الحديث؛ يهدهد الطرف المتشدد حتى يروِّق أعصابه بسيل من الفكاهة الرصينة المحتشمة العميقة بمغازيها ودلالاتها الإنسانية.

في النهاية سيكون حكمه عادلًا تمامًا. إنه مشروع قطب صوفي لم تمهله الحياة، لم تعطه فرصة السباحة في الملكوت الأعلى.

يمتلك الحاج مصطفى الشماشرجي «سيرجة» لتصنيع الزيوت من بذور الكتان (الزيت الحار)، ومن بذور القطن (الزيت الفرنساوي)، ومن السمسم والزيتون. يمتلك مصنعا للصابون، جميع أنواع الصابون: النابلسي لغسيل الثياب، والمعطر لغسيل الوجه والاستحمام، والخشن لغسيل المواعين. يمتلك مصنعا لزهرة الغسيل، ومصنعا للكبريت.. ناهيك عما لم يعرفه أبي بعدُ من مشروعات لا تخطر فكرتها على البال، وهذا ما يميز الحاج مصطفى.

في رأي أبي أن الهيبة التي يتمتع بها الشماشرجية في محافظات الغربية والمنوفية والشرقية والبحيرة يؤدى الحاج مصطفى أكبر دور في استمرارها وضخ الحيوية فيها على الدوام؛ يده ممدودة دائمًا للفقراء والمحتاجين والملاجئ والمساجد سرًّا وعلانية، سرًّا للأفراد وعلانية للجمعيات الخيرية. أكبر مسجد في بلدتنا هو الذي أعاد بناءه بعد انهياره وقام بتوسيعه ضعفين على أرض من أملاكه. هو الوحيد تقريبًا في الشماشرجية الذي يعطف على الناس عطفًا حقيقيًّا لا يعرف المن والأذى. تسعون في المائة من عمال وموظفي مصانعه من أهل بلدتنا والبلاد المجاورة.

توقف أبي عن الحديث ريثما يلف سيجارة من علبته المعدنية الأثرية. حينما أشعلها ونفث دخانها الهزيل المهيض فيما يشبه الاستمتاع بمذاق التبغ، بدا كأنه نسي الوقفة التي تمهل عندها. يبدو أنه قد أجهد، شوَّح بذراعه كأنه يجمع نهاية الحديث من الهواء ليجملها في عبارة واحدة:

- «بصراحة يا جماعة! الحاج مصطفى الشماشرجي فيه شيء لله! أنا شخصيًّا من دراويشه! عندي إحساس بأن هذا الرجل ستظهر له كرامات عما قريب!!..».

قبل أن يكمل جملته فوجئنا بالحاج مصطفى بجلالة قدره قد حود من الشارع العمومي وأقبل في اتجاه دارنا، ثم وقف على مقربة لتبقى صلته بالشارع العمومي متصلة. نادى في وقارٍ وأبهة:

- «قاسم أفندي!».

وقف أبي يصفق ويهلل صائحًا في فرح طفولي:

- «ماذا كنت أقول لكم يا جماعة؟ الحاج مصطفى سوف تظهر له كرامات، أليس كذلك؟ هذا مصداق كلمتي! جاء بنفسه على السيرة!! تفضل يا حاج مصطفى!».

تبسم الحاج مصطفى عن أضراس بلاتينية لامعة:

- «تعال أنت نصلي المغرب جماعة في الجامع الكبير! أنت واحشني! منذ ليلتين لم أرك، وهذا كثير عليّ طالما كنت في البلد! حقي عليك أن تتعشى وتسهر عندي هذه الليلة! هيا.. قم يا رجل!».

لبس أبي شبشبه الباقي له من رائحة الحياة السكندرية، عدل طوق ثوبه، انطلق يهرول نحو الحاج مصطفى. تسللت وراءهما من
بعيد.. لبعيد.

(٤)

كان لا بد لأبي أن يرد العزومة للحاج مصطفى. نشطت أمي، هجمت على حجرة الطيور، انتقت بطتين وإوزة وبضع فراريج، صعد أبي إلى البناني في برج السطح فانتقى عدة أزواج من الحمام. الطريف أن أبي الذي لا يكف عن السخرية من الفشخرة الكذابة هو نفسه يعشق الفشخرة وكثيرًا ما يجيد إتقانها. قام بتغيير كسوة الكنب البلدي بالكسوة النظيفة المدخرة في صندوق الثياب لمثل هذا اليوم، فرش الأرض بالحصائر الجديدة المزركشة بألوان خضراء وحمراء، نزلت إليها مساند الكنب. ارتصت عدة طبليات في صف مستطيل، انطرح فوقها المفرش الثمين، ارتصت فوقه الأطباق العامرة بالفتة والأرز المعمر والكسكسي وسلطانيات الشوربة الحريفة وتلال من الأفخاذ والصدور وأفراخ الحمام، وقطع اللحم المقلي بعد سلقه. صفان متقابلان بالمساند، صف احتله الشماشرجية والآخر احتله أبي وصحابه: الشيخ عبد الرشيد الجعفري، وخَلَاف زوج أختي الكبرى صفية، وخالي محمود السلامي شيخ خفراء البلدة.

بعد العشاء جيء بالمنقد الفخاري الكبير مع صينية البراريد والغلاي والأكواب. تولى خالي محمود سلطنة الشاي المطبوخ على نار القوالح المشتعلة. راح الشماشرجية - كالعادة - ينكشون في ذاكرة أبي بلطف وحميمية. انبرى يحكي لهم طرائف ونوادر عن رءوس العائلة القدامى، عن وساخة السكندريين في خصلة سبّ الدين كأنه لبانة في أحناكهم، وكيف كان وجود الجاليات الأجنبية في المدينة بكثافة هو السبب في تفشي هذه الآفة اللسانية على ألسنة الإسكندرانية، إذ كان يحلو لهم سبُّ الدين للخواجات الأجانب لأنه - الدين الأجنبي - يسمح لهم بالفسق والتهتك في البارات والصالات والشوارع، كأن المصريين السكندريين يريدون التباهي على الخواجات بدينهم الإسلامي العظيم الذي يحضّ على المروءة والأخلاق الحميدة، ولكن بصورة عكسية، لكأن السكندري حين يسب دين الخواجة يريد أن يقول له بشكل غير مباشر: ملعون ذلك الدين الذي رباك على هذا النحو!!..

هاهاها.. ا.. ا.. يْ.. ظريف يا قاسم أفندي! ظريف!.. تخريجة لا بأس بها.

تخلل ضجيج القهقهة صوت نقر على باب المندرة مع أنه مفتوح. أنيرت اللمبة المتدلية من سقف المندرة تحت قبعة مربوطة بجنازير دقيقة تغلف الضوء بغلالة شاحبة تضفي على الجالسين خيمة من الرسوم الشجية الخيالية الغريبة تتكسر أشكالها على أكتاف الجالسين وأذرعهم ووجوههم. انبثق من هذه الخيمة ظل طويل كمارد من الدخان يتداخل ظل ذراعيه الطويلتين في ظل ساقيه العاليتين فتتكون على الحائط المواجه للباب مثلثات ودوائر. سرعان ما دخل الظل في خيمة التحميض فتمثل أمامنا بشرا سويًّا طويلا نحيفا أشقر الوجه رقيق الملامح كأنثى في ملبس ذكري عبارة عن قميص مشجر بالأخضر والكناري والأحمر من الحرير الخالص بنصف كم وياقة واقفة مفتوح الزرارين على الصدر البادي قفصه التعيس مثيرًا للإشفاق، على بنطلون من الصوف أسود اللون سخي اللمعان يترجرج في الضوء، له حزام جلدي عريض بتوكة ذهبية يلتف حول خصره في إحكام متسق جميل، حذاء أبيض على بني، رائحة عطر شهي يغريك بأن تتلقفه في حضنك وتحتويه. وقف مرتبكا. من فرط الخجل صار وجهه قنديلا أحمر بأنف طويل مدبب أقرب إلى المنقار، من فوقه جبين بارز وضاء تحت شعر غزير مجعد في لون العسل إلا أنه مصفف ومفلوق من الجنب الأيسر، تنام خصلات الجنب الأيمن على الجبين تكاد تصل إلى حاجبيه، مما أضفى على عينيه اتساعًا وقوة. عيناه ذكرتاني بصورة الإسكندر الأكبر المنشورة في كتاب التاريخ المقرر علينا.

تأملناه جميعا باندهاش كأنه مخلوق هبط علينا من أشباح جنازير اللمبة ذات القبعة المدلاة من سقف المندرة. ثمة تساؤلات قامت في دماغي، وجهت نظراتي إلى أبي كأنني أريد أن أسأله: هل هذا هو ابن هاني بك الذي حدثتنا عنه؟ لمحت نظرات أبي وهي تتجه تلقائيًّا إلى هاني بك واستشعرت فيها نفس تساؤلي.

قال هاني بك وهو يفرد ذراعيه في ترحاب كأنه لم يره منذ سنوات، مما جعلني أشعر بأنه ترحيب مصطنع لا يستأهل التصديق:

- «أهلا حمادة! تعال يا حبيبي!».

وسَّع له مكانا بجواره على الكنبة هاتفا فيما يضع يده على كتف الغلام:

- «أعجبتك البلدة يا حبيبي؟».

تبعت نظرات أبي المستفهمة التي أشعر بمعانيها وأفهمها جيدًا. استقرت نظراته على وجه الحاج مصطفى، فإذا هو قد ظهر عليه الامتعاض، لكن ملامحه يغلب عليها مظهر التسامح. أعجبني منظر الحاج مصطفى لما فيه من شفافية وصلاح وجاذبية. إن ملامحه خفيفة الظل جدًّا، كثيرًا ما تنوب عن لسانه في قول تعليق يعجز أبلغ الألسنة عن قوله بهذه الحلاوة. ها هو ذا يرسل من تحت جبينه نظرات مقصودة موجهة هنا وهناك ذات معنى. خيل لي أنه يشعر بشيء من التواطؤ يجب الاعتذار عنه بالنظرات. تكاد ملامحه تقول: دع
الخلق للخالق.

عنتر بك لم يُخْفِ اشمئناطه، ازورَّ عن الجميع شاغلًا نفسه بإشعال سيجارة. صار من الواضح أن القعدة قد انتابها شيء أشبه بالمغص الباطني حيث سيطر عليها شعور بالترقب، سرعان ما أنهاه أبي هاتفا فيما ينظر للغلام في ترحيب خجول:

- «أهلا بالبيه! أعجبتك بلدتنا؟».

رنا الغلام إلى هاني بك كأنه يطلب منه الإذن بالرد على أبي، لكن أبي سرعان ما نظر إلى هاني بك:

- «يتكلم بالعربي؟».

انفجرت قهقهة عالية كأنه قال نكتة جديدة طازجة، مما جعلني أشغّل مخي بسرعة لعلني أفهم معنى النكتة فيما قاله أبي، إلا أن الحاج مصطفى قال بجدية لا أدري لماذا بدت لي محض سخرية واستهزاء:

- «خواجة طبعًا من صلب خواجة!.. كلمه يا قاسم أفندي بالطلياني بالفرنساوي باللاوندي تراه يفهمك في الحال!!».

تبسم الغلام في خجل فصار وجهه كالأوطاية. مال مرتفقا ركبتيه ناظرًا للحاج مصطفى، وبخفة ظل ولباقة قال:

- «كتر خيرك يا آبا مصطفى!».

ضحكنا لبراعته في تقليد لهجتنا الفلاحية ذات الإيقاع الدافئ دفء عبارة: كتر خيرك يا آبا مصطفى.

وضع هاني بك يده على كتف حمادة كأنه يطيب خاطره، ثم قال كأنه يكلم صديقا:

- «أبوك الحاج مصطفى لا يسخر منك! أنت تفهمه جيدًا!.. تنسى أنه صديقك الصدوق في العائلة كلها؟!».

شوح الغلام في رقة وصاح بلهجة سكندرية ممطوطة على إيقاع الشخرة الإسكندرانية التي يحلو لأبي أن يقلدها في لحظتي الغضب والسخرية:

- «طا.. ا.. ا.. بعًا يا بابي!.. أنا أيضًا صديقه! أحبه أكثر من حبي لأي أحد في الدنيا كلها!.. لكن خلوا بالكم!.. هو الآن يتمقلت عليّ لسبب لستم تعرفونه!.. أصل السبب أنني عجزت عن قراءة إشعار حسابي جاءه من البنك الإيطالي باللغة الطليانية!.. وأنا قرأت الكلام ولكن ما أدراني بلغة البنوك ورموزها يا آبا مصطفى؟! إنها مصطلحات معقدة!».

الحاج مصطفى شوح بذراعه في فروغ بال:

- «ما علينا!».

قال أبي كأنه انتهى من بحث مسألة مهمة:

- «وإذن فالبيه الصغير ابن البك الكبير هاني بك!.. ما اسم الكريم؟».

- «حمادة!».

هكذا نطقها الغلام بلهجة من يقول: خدامك. قال أبي في جدية متلطفة:

- «أنعم وأكرم! شرفتنا!».

- «متشكر يا عمي! أنا الذي يزداد شرفًا!».

بشيء من المرح المتكلف قال عنتر بك مشيرًا إلى حمادة:

- «تعطيه كم سنة يا قاسم أفندي؟».

حملق أبي في حمادة متفحصا.. من بين حاجبيه المعقودين صاح خالي محمود:

- «عشرون عاما؟!».

هتف أبي مصححا:

- «طب قل سبعة عشر عاما!».

صاح الشيخ عبد الرشيد زوج أختي:

- «لا يزيد عن خمسة عشر عامًا! أقطع ذراعي!».

بابتسامة حمراء كأنها فتق في كيس اللغد المبطوش، رفع عنتر بك أصبعه المقوس من فرط الاكتناز كأصبع الموز مؤكدا:

- «عمره أقل من السنة الثالثة عشرة شهرين!!».

- «يا.. لَ.. هْو بالي! ما هو معقول!».

هكذا صحنا جميعا ونحن نعيد النظر في كل شيء فيه، نتفرج عليه باعتباره أعجوبة من الأعاجيب. أضاف عنتر بك وهو ينزع السيجارة التي التصقت بشفتيه:

- «لا يغرنكم طوله الفارع!.. إنه يرعى في قثاء محلولة كما تقولون في أمثالكم الفلاحية!.. كلنا نحبه! كلنا نعلفه بالأكل السمين!».

هتف أبي في اتجاه الدهاليز:

- «هاتوا عشاءً لحمادة يا غجر!».

هبَّ حمادة واقفًا يهتف بحرارة:

- «لأ! أرجوك!.. أول ما صحوت من النوم عشوني في الدار!».

ثم جلس. رحت أنا وأهل الدار نتطلع بعضنا إلى بعض في ابتهاج بسبب من استطعامنا لكلمة «الدار» منطوقة من حمادة بتفخيم أراد به تقليد لهجتنا.

كنت - لزحام في المندرة - جالسًا في صدغ باب الدهاليز فوق حلة الغسيل المقلوبة وقد امتلأ فراغ باب الدهاليز بكتل من الأشباح السوداء بارشة على الأرض هي أمي وأختي المتزوجة من الشيخ عبد الرشيد وزوج خالي محمود وبعض نساء من أقاربنا جئن يتفرجن على أهل الإسكندرية. ومنذ أن دخل حمادة انحرفت إليه نظراتهن في تلصص شغوف، يمصمصن بشفاههن من شدة الانبهار بهذا الطفل العملاق، رحن يغمغمن:

- «يا اختي على جماله!».

- «سبحان الخلاق!».

- «طبعا! أكل ومرعى وقلة صنعه!».

- «تعال يا بهاء!».

هذا صوت أبي يناديني. هممت إليه:

- «نعم يا آبا».

وضع يده على كتفي:

- «يجب أن تتعرف على ابن الأصول!! من يدري؟ لعل الله ينفخ في صورتك وتزامله في الجامعة!».

من خلف باب الدهاليز تماوجت أصوات النسوة في ابتهاج وابتهال:

- «إنشا الله يارب.. إنشا الله يارب!».

سلمت علي حمادة، صافحته بحرارة. وقف واحتواني في حضنه وقبَّل كلٌّ منا الآخر في خديه ثم أجلسته في مكانه وبقيت واقفا. شملني هاني بك بنظرة تعطف وتلطف، ثم نظر لأبي بوجه تعلوه بهجة:

- «بهاء ابنك يظهر عليه الذكاء يا قاسم أفندي! إن شاء الله ربنا سيأخذ بيده! طبعًا ستكمل تعليمك العالي يا بهاء!».

هززت رأسي في حماسة، وبصوت جَيَّاش بالأمل قلت:

- «طبعًا يا سعادة البيه ناوي أكمل بإذن الله!».

براحة يد ثقيلة مرصعة بخواتم فضية بفيروزات زرقاء بيضاوية الشكل، شوح الحاج مصطفى، زأر بقرار صوته التخين كأن في حلقه بقايا خروف مشوي:

- «يتجدعن يأخذ التوجيهية وأنا أشغِّله كومندانًا في مصنع من مصانعي لينفق على نفسه في الجامعة!».

رشف عنتر بك الشاي الثقيل بلذة ورنا إلى الحاج مصطفى:

- «وما المانع أن تشغِّله من الآن؟ ما أجمل أن يأخذ التوجيهية من مدارس الإسكندرية!.. أعرف أن بيوت أعمامه الثلاثة في الإسكندرية مفتوحة له، لكن لو سمح لي قاسم أفندي فأنا في بيتي متسع! عندي غرف كثيرة فارغة لا يستعملها أحد، فليسكن في واحدة منها على الرحب والسعة!.. وعلى فكرة! أنا مستعد لتشغيله عندي في وظيفة نظيفة مريحة تعطيه وقتا للدراسة، ويكون تحت إشرافي طبعًا! ثم إن أولادي وأحفادي سيحبونه جدًّا ويأتنسون به! أرجوك يا قاسم أفندي اترك هذا الولد لي! إني أحتاجه بالفعل.. صدقني واللهِ ما فيها أي مجاملة!.. عيالي وأحفادي لسانهم بات معووجا من التعليم الأجنبي! ويظهر لي أن بهاء يفهم جيدًا في اللغة العربية، أليس كذلك يا بهاء؟».

وكأنه سيلقي خطبة، ارتكز أبي على ركبتيه هاتفا:

- «جئت بالفائدة يا عنتر بك! بهاء ابني ما شاء الله ضليع في اللغة العربية. إنه يكتب الشعر مثلي، ويأخذ في دروس الإنشاء عشرة من عشرة. حسن جدًّا!.. خذه الله يخليك إن كنت تريد أن يتعلم عيالك قواعد اللغة العربية كما أنزلت!.. وعلى فكرة، أنت نبهتني إلى نكتة مهمة!.. فعلا فعلا أنا غير مرحب بأن يقيم في بيت واحد من أعمامه، حتى لا يتصوروا أنني أطلب مقابلا للخدمات التي أؤديها لمصالحهم هنا في البلد!».

- «يا قاسم أفندي يكفيني أنه ابنك! لا أريد منه شغلا ولا دياولو! فليكن ابنا من أبنائي الكثيرين! مستعد أنا لأخذه معي من الآن! من حسن الحظ أننا باقون هنا إلى أن يتم جمع القطن وتهدأ الأحوال المضطربة في الإسكندرية!».

رمقني الحاج مصطفى بنظرة لطيفة فيها من الغبطة قدر ما فيها من رغبة في توريط عنتر بك وتثبيت الوعد قبل أن يراجع نفسه ويتردد:

- «إذن جهز أوراقك يا بهاء! خير البر عاجله! أنت فعلا ابن حلال والفرصة جاءتك لحد عندك فلا تضيعها! مبروك عليك! وإذا لم تسترح في رحاب عنتر بك - وهذا غير واردٍ بتاتًا - فتعال عندي تجد ما يسرك!».

ابتهج أبي من فرط الغبطة، تربع منجعصا يلف سيجارة إذ هو لم يعد يستطعم السجائر المكن الناعمة. كان قلبي ينتفض يكاد يقفز طائرًا. غمزني صوت أمي قادمًا من عتمة الدهاليز يشكشكني في جنبي، يدغدغني، يجعل الدماء تبرطع في عروقي:

- «قم الآن واذهب إلى ريشة أفندي معلمك واعرف منه كيف يمكن نقل أوراقك من مدرسة البلد إلى مدرسة في إسكندرية!».

قالت أختي زنوبة كأنها تهدهدني:

- «صدقت الغجرية التي شافت بختك وقالت مكتوب لك عيش في المدينة! مبروك يا أخويَ! ربنا لا يقطعه أبدًا!».

لاحظت أن عنتر بك قد استوعب وصية أمي فابتسم في رضاء وأريحية. سألته على سبيل المزاح:

- «صحيح يا عمي؟!».

بكل بساطة قال:

- «نفِّذ ما قالته الست والدتك! واطمئن فأنا عمري ما رجعت
في كلامي!».

قال هاني بك:

- «أنا أشهد! عنتر بك يفعل خيرًا كثيرًا جدّا في ناس ربما لا يستحقونه، فمن باب أولى يفعله مع أهالينا!».

خالي محمود هزته الحماسة والشجن، فمال على أبي بقصد أن يهمس في أذنيه مع أن صوته مسموعٌ للجميع:

- «وإذن فالولد يلزمه لبس جديد! أنت تعرف طبعًا أن تلاميذ البندر يلبسون البدلة والحذاء والطربوش! على فكرة! دسوق فيها بدل جاهزة ورخيصة الثمن يمكن أن...».

بلهجة احتجاج قاطعه أبي ساخرًا من هذه التذكرة التي لم يكن في احتياج إليها:

- «ربك كريم يا بو نسب! كل شيء على ما يرام بإذن الله!».

ارتفع ذراع عنتر بك في احتجاج أقوى امتلأ به صوته الشماشرجي التخين الدافئ دفئًا موروثا عن الصحراء:

- «لا وحق جلال الله ما تصرف مليمًا واحدًا!! أنا خلاص تبنيت الولد وهو مسئوليتي مما جميعه!.. لسوف يلبس أفخم لبس كأولادي! هاته بهدومه فحسب ودع الباقي على الله!!».

عيار أمي انفلت، فقدت السيطرة على عواطفها الجياشة السخنة، أسفر صوتها عن نفسه قويًّا بالرعشة أو مرعوشًا بالقوة، قوة الانفعال بالامتنان والفرحة:

- «إن شا الله ما اشتهيك! إلهي يجعل لك في كل خطوة سلامة! إلهي يعلي مراتبك كمان وكمان يا عنتر يا بن الشماشرجي! يا بن الأكابر الطيبين! إحنا الليلة زارنا النبي وأهل بيته! زغروطة يا بت ساكتة ليه؟!».

ثم انهمر بكاؤها من فرط الفرح فاختلط بزغاريد أختي المنطلقة. ونظر الحاج مصطفى لعنتر بك في حسد حقيقي صريح:

- «مبسوط يا عم؟ كم يساوي كل هذا الدعاء الحار؟ أشعر بأنه صاعد إلى السماء رأسا! أنت الآن أخذت حقك مقدما تالت ومتلت! شف ماذا سيعطيك الله بعد الآن جزاء هذا العمل الطيب!».

- «الحمد لله! نحمده ونشكر فضله! صدقني والله يا حاج مصطفى أنا الآن صرت مدينا للست أم بهاء بديون ربنا يقدرني
على سدادها!».

هكذا تقرر مصيري في خمس دقائق. من فرحتي بتحول مجرى حياتي صرت في ذهول عما دار في بقية السهرة، لدرجة أنني لا أذكر ما دار بيني وبين حمادة في الطريق وأنا أوصلهم آخر الليل إلى منازلهم. كل ما أذكره أنني في أثناء عودتي إلى دارنا كان القمر في عليائه يرافقني خطوة بخطوة ويفسح مجال الرؤية أمامي إلى الأفق البعيد.. البعيد.

(٥)

لأننا أول دفعة ستحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة بلدتنا، تقرر أن نؤدي الامتحان في إحدى اللجان بمدينة دسوق. كانت أرقام الجلوس قد وزعت علينا قبل أسبوع أمضيناه ساهرين قائمين في بيت ريشة أفندي نحل نماذج من امتحانات الشهادة الابتدائية لأعوام سابقة ومجموعة في كتاب خارج كتب الوزارة اسمه «سلاح التلميذ»، ورغم أن الكتاب عبارة عن نماذج من الامتحانات في جميع المواد وتوجد تحتها الأجوبة النموذجية، فإن ريشة أفندي كان يمنعنا من النظر في هذه الأجوبة لنجيب من أدمغتنا وهو يراجع علينا بطرق فنية حوارية تحرك الذهن وتوقظ الصفحات وتثبت المعلومات في الدماغ. ثم سافرنا إلى مدينة دسوق فأدينا الامتحان. وعلمت أن حمادة سافر هو كذلك إلى الإسكندرية في رفقة السائق الذي تكفل بأن يعود به إلى البلدة بعد أدائه الامتحان. ولما كان ريشة أفندي يراجع أجوبتنا كل يوم فردًا فردًا على حدة، فإنه صار واثقًا بنجاحنا بدرجات متقدمة. وفيما كنا عائدين في القطار في شبه زفة صاخبة، أشار لي ريشة أفندي أن أجلس على الكرسي المقابل له. ربت كتفي وهدر صوته في ابتسام عميق الفرح:

- «مبروك يا بهبوه! نظرتي لا تخيب! قلت عنك إنك ولد شاطر وذكي وموهوب! وأقول لك الآن إنك بالتحاقك إن شاء الله بالمدرسة الثانوية في الإسكندرية تكون وضعت قدمك بالفعل على عتبة الترقي! ستتعلم تعليمًا عاليًّا وستكون من المرموقين بإذن الله.. ولكن حذار من الإسكندرية أن تذهلك عن نفسك! إياك والفساد وأماكن اللهو. لا أتمنى أن ينتهي بك الأمر عاملا في فابريقة يقنع من الطموح بالعيش في الإسكندرية!.. اضرب الإسكندرية بالصرمة القديمة! اقهرها! كيف تقهرها؟ بالابتعاد عن أماكن لهوها، عن مفاسد أهلها! اجعل المدرسة قبلتك والدروس صلواتك، وبعد أن تصبح رجلا ذا شأن سوف تعطيك الإسكندرية نفسها بالمجان! اتكل على الله يا ولدي! ربنا معك!».

في ظل طغيان الفرح لم أهنأ بالنوم لياليَ طويلة داعبتني فيها أخيلة ساحرة عن الإسكندرية وعن حياتي التي ستتغير تمامًا. ياللفرحة الكبرى التي تفجرت في دارنا يوم جاءتنا نتيجة النجاح بدرجات متقدمة. يومها شاركنا هاني بك الفرحة بالمكالمة الهاتفية التي جاءته اليوم من الإسكندرية تبشره بنجاح حمادة. وكان حمادة قد أرسل السائق مفضلا أن يبقى هو في الإسكندرية حتى يطمئن على نتيجة الامتحان. وهكذا تعين على السائق أن يعود إلى الإسكندرية ليأتي به يكمل فرحته معنا، وفي نفس الوقت يحمل السائق بعض رسائل مدراء العمل وبعض أفراد العائلة هناك، فتقرر أن يؤجل السائق سفره بضعة أيام حتى أجهز أوراقي ليأخذها معه ويضمها إلى أوراق حمادة ويقوم واحد من كبار الموظفين عند هاني بك بتقديم أوراقنا معا إلى مدرسة محرم بك الثانوية ويدفع كل المصروفات اللازمة.

ظل الأرق يلازمني ويرهق بدني إلى أن جاء الهاتف من منازل الشماشرجية يبلغنا أن أوراقي قد قبلت بالفعل في المدرسة وتم إدراجي بين طلابها. في تلك الليلة اختطفني النوم وطار بي إلى أعماق قطعت صلتي بالحياة تمامًا.

بدأت أشعر بألسنة من اللهب تشبط في أنحاء كثيرة من جسدي، ثم صرت في قلب النار أطبِّش بذراعي وقدمي في محاولات يائسة لاتقاء لسع النار والخروج تمامًا من الجحيم. وجدتني أحاول الصراخ لكني عاجز مكتوم الأنفاس. أخيرًا وبعد لأي امتدت يد مجهولة وقبضت على رسغي سحبتني من جورة اللهب.. انتفضت ثم استويت قاعدا، فإذا بأمي مقعية أمامي ممسكة برسغي:

- «يا قلب أمك! تنام هنا في العراء والشمس تفرفط نارًا فوق رأسك؟! جننت يا ولد؟! ربنا يستر! الشمس اليوم جاءت لا شك من جهنم الحمراء وأنت بسلامتك تجيء تحتها وترقد! تقول لها احرقيني! متى قمت من جواري وجئت إلى هنا؟!».

فعلا! كيف حدث هذا؟.. سرعان ما بربشت ذاكرتي بعينيها في ظلام وصداع.. تبينت أن الحر الشديد في القاعة الجوانية التي أبيت فيها وحدي ومع أمي أحيانًا قد خنق أنفاسي، حمَّلها بالكوابيس المزعجة، فخطر لي أن أنتقل إلى هنا فيما بين الزريبة ومخزن التبن حيث يفصل بينهما هذا المنور الشبيه بشارع واسع يحلو لنا الجلوس والنوم على أرضه ساعة القيالة تحت ظلال الجدران بكونه ملقف هواء سخي يلطش الرأس يغرقها في النوم قبل إغماض العينين، ولقد استغرقت في نوم كالموت إلى أن حميت الشمس ووصل قطارها السريع بين رصيفي هذا المنور، ثم توقف فوق رأسي وملأ أذني بوشيش ودمدمة وصداع وراح يعصر جسدي في عرق غزير مغلي.

أمي تتأملني مليا، لعلها تبحث فيّ عن شيء يكون قد نقص مني. قلت لها:

- «مالك يا أمي؟!».

- «مالك أنت؟ قُم طسّ وجهك بحفنة ماء كي تفيق!.. سعادة البيه جاء يسأل عنك!».

- «سعادة البيه من فيهم؟».

- «البيه الصغير.. حمادة!».

- «أين هو؟».

انتفضت واقفًا.

- «ينتظرك وحده في المندرة! اغسل وجهك وغيِّر هدومك!».

وكانت موجات من الدخان قد راحت تتكاثف آتية من دويرة الفرن جنب منور السلم. شوحت بيدي لأبعد الدخان عن وجهي، هممت بسبِّه لكن مهرجانا من الروائح الشهية كانت تركب فوق سحب الدخان تزف إليّ نبأ فطور ساحر، الفطير المصنوع من دقيق الذرة المعجون باللبن الرايب ويتم تغطية الفطيرة بطبقة من القشدة قبل الدفع بها إلى الفرن، فما إن تشم النار حتى تطشطش وتملأ الكون بروائح ذات موسيقى تطرب لها البطون. إن أمي التي عاشت معظم عمرها في الإسكندرية ولبست الثياب البندرية وعاشرت عائلات عريقة في الأرستقراطية وتفوقت على نساء الجميع - فيما يقول أبي - في الحشمة والجمال، لم تنس قط أنها فلاحة قرارية تعجن وتخبز وتحلب الماشية وتزغط البط وتصنع الفطير وترتد إلى الثياب الريفية الواسعة لتتربع بها على الأرض وتنام على المصطبة بغير مراتب ولا ألحفة مع أن هذه وتلك متوافرة عندنا.

كان حمادة يرتدي جلبابا فلاحيا من جلابيب أبناء عمومته الكثار. كان متسقا على جسده بصورة جعلتني أكتشف لأول مرة في حياتي جمال الجلباب البلدي فوق الأجساد الناعمة، حيث لاح لي كورق السوليفان يغلف بضاعة ثمينة واضحة للعيان، كذلك الطاقية الصوف والبُلغة الصفراء المورنشة. كان كفلاح مصنوع من حلوى مولد النبي.

فتح ذراعيه ليحتويني في حضنه، مما أخجلني لأن احتضان الرجال للرجال وتقبيلهم لم يكن شيئًا مألوفا عندنا في القرية. شعرت بأنه كائن هش كاد يتبطط في حضني، لكن رائحته الزكية أنعشتني. أجلسته بجانبي على الكنبة:

- «حمد الله على السلامة! متى وصلت؟».

- «منتصف ليلة أمس! وصحوت من النوم منذ حوالي ساعة!».

- «نورت دارنا واللهِ!».

- «ضقت وسئمت من قعدة أولاد عمي! ليس لهم أي اهتمامات سوى الأكل والشرب والكسوة والحب والزواج والخلف الصالح! لا أحد فيهم يعرف السينما ولا المسرح ولا قراءة الكتب والصحف والمجلات! لم يسمعوا عن الراديو! تخيل؟! يظهر أنني وأنت سنصبح أصدقاء!!.. قم بنا نتمشى في الغيطان ونتكلم! أريد أن تفرجني على العزيق والسواقي والمحاريث والطنابير والشواديف والنوارج وتذرية القمح في الأجران بالمذراة.. والدريس.. وماكينة الطحين.. طبعًا أولاد عمي يستطيعون القيام بهذه المهمة، لكنني محروم هنا من الكلام! أصبحت أتمنى شخصا يكلمني وأكلمه من غير أن أكون مضطرا لأن أشرح له كل كلمة أقولها! أتمنى رفيقًا يفهمني وأفهمه حتى أستمتع بالمدة التي سأقضيها هنا لكي تتجدد نفسي!».

- «تحت أمرك يا حمادة بك!».

- «ستقول بك من أولها؟! يا جدع بلا بك بلا وجع دماغ!.. المشكلة أن كل من يلتقيني يقول لي أهلا يا بيه! حتى الرجال الكبار يعتبرونني سعادة البك ويجلسون أمامي مؤدبين ينتقون ألفاظهم! فبعد خمس دقائق يقتلني الشعور بالغربة مع أنني لبست الجلباب لكي أصير واحدًا منهم يتصرفون أمامي بحرية ويلعبون معي!».

- «هذا ما تربوا عليه يا حمادة بك!».

- «أرجوك يا بهاء سيبك من البك هذه فأنا لست بيكا ولا يحزنون! البكوية تحوش الناس عني، لذا أصبحت أكرهها! قل لي يا حمادة وأقول لك يا بهاء. تكلمني عن نفسك أكلمك عن نفسي.. تجاربك وتجاربي.. أفكارك وأفكاري.. الشعر الذي قالوا إنك تكتبه. فاهمني طبعًا! يلا بينا!».

لحظتئذ دخلت علينا صينية العشاء - هكذا نسميها نظرًا لاتساع قطر دائرتها - تنطرح فوقها الفطائر الذرة، وموسيقى الروائح الشهية تملأ الكون بأنغام القشدة السخنة الفواحة. أمي بنفسها وضعت الصينية على رخامة الترابيزة البيضاوية ووقفت. فوجئت بأنها قد ارتدت واحدًا من فساتينها السكندرية المدخرة في صندوق كبير عندنا يحوي تاريخ الذكريات العزيزة شاخصة في ملبوسات وأشياء للزينة. بهرتني، بدت لي بقوامها البديع الرشيق سيدة من سيدات الصالونات اللائي أقرأ عنهن في مجلة المصور التي يواظب أبي على شرائها. حمادة أيضا انبهر بها وفوجئ، بل التبس عليه الأمر. بذكائها الفطري أدركت أمي أنه تصورها سيدة أخرى قادمة لتوها من الإسكندرية أو من روما، فأضاءت البسمة العريضة وجهها النبيل وهي تشير بيدها البيضاء البضة الناعمة إلى الفطائر ذات الوجوه الموردة وفقاقيع القشدة السائحة لا تزال تطشطش بل تزغرد في نداء الأكال، قالت:

- «عشمي أن أتفرج عليك وأنت تأكل بشهية! هذا عسل نحل وهذا جبن قديم وهذا بيض مقلي وهذا لفت! كل يا حبيبي!».

رأيت صورة الفطير منعكسة في صفاء عيني حمادة وهو ينحني على الصينية مشمرًا ذراعيه كالفلاحين، فضحكت وضحكت أمي في ابتهاج. قال حمادة بلذة وهو يوحوح من سخونة الفطير:

- «هريسة فلاحي! رغم أنني أفطرت لكني لا أستطيع مقاومة هذا الفطير!».

بنفسها أيضًا أحضرت أمي كوبتين من الشاي فوق صينية صغيرة على طريقة أولاد البندر، وإن كان الشاي ثقيلا على غير عادتهم.

لبستُ جلبابا نظيفًا من جلابيب السفر ذا ياقة وأساور وجيب على الصدر كالقميص الإفرنجي. انتعلت الصندل ماركة باتا أبو تسعة وتسعين قرشا. تأبطني حمادة وطلعنا إلى الخلاء، أكاد من فرط الزهو أقول يا أرض اشتدي ما فوقك قدي، فمن الآن فحسب أصبحت ابن مدارس بحق وحقيق، صرت بندريًّا حتى قبل سفري.

في كل خطوة كان يسألني أسئلة غريبة عن أشياء أغرب وأمور أكثر غرابة: كم نسمة في بلدتنا على وجه التحديد أو التقريب؟ كيف يتم الزواج في بلدتنا؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن واحدا من رجال الأعمال أتى بماكينات مياه إلى بلدتنا؟ هل يرحب الفلاحون باستئجارها للري السريع أم يظلون على ولائهم للشادوف والطنبور والساقية؟ هل يملك الفلاحون أموالا؟ وهل يعرفون التعامل مع البنوك؟ وفيم ينفقون الأموال؟ كم سعر فدان الأرض؟ كم قنطارا من القطن وكم أردبا من القمح يعطي الفدان؟ وكم سعر القنطار وكم سعر الأردب؟ وكم أردبا يكفي خبزًا لعائلة كعائلتنا؟ هذا التوت العسلي الرائع لماذا لا يفكر أصحاب الأشجار في تنظيفه وتعبئته في أكياس نايلون ليباع في محلات الفاكهة؟ ولماذا لا يفكر واحد من أهل البلد الموسرين في افتتاح محل لعصير التوت ولو في مدينة المركز مثلا؟

عندئذ أيقنت أنه شماشرجي حتى النخاع، مشروع رجل أعمال موهوب بالسليقة!

ريقي نشف من كثرة الكلام، أرهق ذهني الغض من فرط الإجهاد في الطرح والجمع والضرب والقسمة للوصول إلى نتائج تقريبية. صعب عليَّ أن أقول له: لا أعرف. أسعفتني حماسة التحدي في التخلص بلباقة مما لا أعرفه، وفي الإجابة عما أعرف بقدر ما أستطيع من الشرح التفصيلي. العجيب أنه كان يضجر من إسهابي فيهزهزني بوابل من الأسئلة الفرعية بشكل متلاحق. أخيرًا جلسنا على مدار ساقية من سواقي عائلته المنتشرة في جميع الأحواض الزراعية إلى خارج زمام بلدتنا. كان الحديث قد توقف منذ برهة فأخلدنا إلى صمت عميق. خيل إليَّ لحظتئذ أنني الآن أرى حمادة لأول مرة، أراه حقا. كان يبدو لي أشبه بالمجنون المصاب بخبل يظهر واضحًا في عينيه الواسعتين القويتين، لنظراته دوي يكاد يزلزلني. إنه فيما يلوح لي مجنون بالأرقام، كل ما يخرج من حنكه أرقام في أرقام. ذاكرته مروعة بصورة جعلتني أشعر معها بالضآلة وبأننا - أبناء القرية - في منتهى الغلب مهما تعلمنا في المدارس وقرأنا من كتب. ذاكرة كذاكرة هذا الغلام الذي يكبرني بشهر واحد كما قال أبوه لابد أنها وجدت من ينميها ويملؤها بالوعي بكل هذه الاهتمامات وهذه الرغبة الملحة في استلاب المعلومات والتفتيش عنها هكذا كأنه أحد كبار المحققين والخبراء. المدهش أنه كان وهو يسألني وينصت إليّ بإمعان لم يكن يفوته من المرئيات مرئي واحد، بل كان يفاجئني بملاحظات من قبيل: مررنا بعشر سواقٍ، بثلاثين شجرة توت، بمائة صفصافة، بمائتي جزورينة، بخمسة عشر رجلا من أبناء عمومتي.. إلخ إلخ.

مضجر هو، لكنه جذاب ومثير ولا مفر من حبه. لقد أحببته وأحببت ضجره. أحببته بنفس الحميمية التي أحب بها فكرة نيرة تشرق في ذهني، أو سرحة وردية نشط فيها خيالي، أو قصيدة شعرتها ووفقت في سبكها دون كسر أو زُحاف. أحببته حبي لمستقبلي المرموق، وحلمي بأن أكون في لباقته، في لياقته الذهنية التي تكشف عن بواكير

عبقرية ستكون لا شك فذة في مجال من المجالات. أحببت جنونه، نزقه، جرأته، ذكاءه الحاد، حيويته، شخصيته اللطيفة الناعمة..

حبي له كان يزداد عمقا كل يوم. صرت أتلذذ بالتغاضي عن قلة حيائه في بعض ألفاظه الصريحة وبعض تصرفاته التي يستهجنها الناس في بلدتنا. كان بالنسبة لي «لُقطة» لا يجود الزمان بمثلها. إنه النافذة التي سأطل منها على الحياة السكندرية والطلابية. إنه نموذج لأولاد البندر الذين أحب أن أتشبه بهم في حياتي القادمة. الأهم من ذلك أنه يعرف الكثير مما لا أعرفه. في خلال هذه الأيام القليلة الماضية أصبح بالنسبة لي منبها، ملهما، موحيا، محفزا، موسعا لدائرة اهتماماتي، دافعًا لي إلى النظر فيما يدور حولنا من أحداث لم أكن في الأصل منتبهًا إليها. ما أشد امتناني له إذ يشرح لي، وإن بطريقة بسيطة ساذجة، حقيقة الحرب العالمية الثانية ومَن ضد مَن؟ من هم الحلفاء؟ ما هو الوضع الراهن بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

المؤلم أنني لم أكن عرفت بعدُ أن ثمة حربا أولى قد وقعت في العقد الثاني من القرن العشرين بسبب كذا وكيت مما راح يحكيه لي كأنه يسمِّع درسًا محفوظا من دروس مادة التاريخ. أما هذه الحرب الثانية التي لاتزال آثارها ماثلة في صحراء العلمين المصرية قرب الإسكندرية فقد أشعلها هتلر الألماني النازي المجنون بتفوق الجنس الألماني ضد البلشفيك الذين كانوا يزحفون على بلاده بقيادة الروسيا - هكذا يقول - وضد أوروبا ليجعل من ألمانيا سيدة العالم، لكنه انهزم فانتحر بعد خراب بيت الألمان، وأخذ البلاشفة نصف عاصمته الألمانية وأصبح هناك ألمانيتان: واحدة شرقية تابعة للبلشفيك وأخرى غربية موالية لأوروبا وأمريكا. عندئذ فهمت سر شيوع ذلك القول المأثور الذي انتشر على ألسنة الناس في قرانا خلال الأعوام القليلة الأخيرة، إذ يقول الواحد من أهالينا إذا تحزبت الأمور بين طرفين كلاهما متشدد في طلباته: «خلاص يا جماعة نقسم البلد بلدين»، يعني أن يتنازل المهزوم عن نصف عرينه في مقابل أن يتنازل المنتصر عن بقية أطماعه!

حينما سألت أبي عن مدى صحة هذا الكلام هز كتفيه في خليط من الاستحسان والاستخفاف قائلا:

- «يعني.. إلى حد ما!».

ثم أحنى رأسه على علبته المعدنية وجعل يلف سيجارة في شيء من التركيز يشي منظره على وجه أبي أنه يستجمع في ذهنه حاجات يريد أن يكلمني فيها، وقد صدق حدسي وصحّ توقعي.

(٦)

- «بالمناسبة يا بهاء يا ولدي، خل بالك جيدًا.. هذه العائلة صديقة لنا أبًا عن جد.. أي نعم.. لكن لا بد أن تكون أنت على علم بأنهم لا يغفرون لمن يخون عيشهم وملحهم!.. هذه واحدة ضعها في رأسك!..

«هي أيضًا عائلة فيها من الجنون أضعاف مما فيها من الطيبة.. فإن أغرتك طيبتهم بشيء من الإهمال أو سوء الاستغلال، أو الاستغفال فعليك أن تحسب لجنونهم ألف حساب وإلا قتلك بيد باردة وهو لا يبالي! هذه نقطة ثانية ضعها في رأسك أيضًا..

«هي كذلك عائلة مترابطة متعاشقة إلى حد الوقوف صفا واحدًا في مواجهة أي خطر ولو كان تافهًا يتعرض له واحد منهم، حتى وإن كان مجرد خادم عند أحدهم!.. لكنهم كأفراد ربنا يكفيك شرهم!.. كل واحد منهم دغل بوص يصعب عليك المرور فيه بسلام! في الظاهر ستتخيل أنهم في غاية السهولة والبساطة والصفاء، لكن في الباطن هم غير ذلك وإن نجحوا في إيهامك بذلك حتى تأنس إليهم وتتكلم على راحتك فتقع منك الأسرار من دون أن تدري!.. يجب أن تكون ذكيا وتدرك أنهم مثل أي عائلة في الدنيا يخاف بعضهم على مصالح بعض، ولكن المصالح حتى في العائلة الواحدة كثيرًا ما تتصادم، والرغبات والطموحات كثيرًا ما تتناقض وتتنافر. معنى كلامي يا ولدي أن احذر كل الحذر أن تنقل إلى أحدهم كلمة قالها الآخر فيه حتى وإن كانت مدحا، إذ إنهم في النهاية سيتصالحون على حسابك وينبذونك! إن لفَظك واحد منهم فلن يقبلك أيٌّ منهم على الإطلاق!.. إن رأيت ما لا يعجبك، أو سمعت ما لا يرضيك، فكأنك لا رأيت ولا سمعت. شف شغلك أنت على قدر ما تستطيع ولا تتدخل فيما لا يعنيك بهدف أن تثبت ذكاءك ومفهوميتك، فمن الذكاء والمفهومية ألا تقحم نفسك في شيء لايخصك!.. أنت فاهمني يا ولد؟.. أنصت إليّ جيدًا حتى تعرف كيف تعيش وسط هذه العائلة.

«ولعلمك أنت وحدك: إن أصلح من في الشماشرجية السكندريين هما الحاج مصطفى وعنتر بك من الأعلام المشهورين، وأفسدهم بصورة محتملة هو هاني بك، أما أفسدهم على الإطلاق فهو عمرو بك!.. أما باقي أفراد العائلة أعلامهم وعامتهم على السواء فإنهم إلى الصلاح أمْيَل وأحبّ.

«ليكن في معلومك يا ولد: لن أدعهم ينفقون عليك وأنا على قيد الحياة، إنما سأواليك بما يقدرني الله عليه من مصروفات ومأكولات وملبوسات.. يعني فلتكن حريصًا على كرامتك بينهم حتى يحترمك الكبير قبل الصغير منهم!.. كن كأبيك يتعفف حتى على هدايا أعمامك الموسرين في الإسكندرية. لا تأخذ قرشا واحدًا من أي مخلوق إلا إن كنت قد شقيت من أجله في عمل يساوي أضعاف ما ستأخذ! الأجمل دائمًا أن يبقى لك عند الآخرين لا أن يبقى لهم عندك! إياك إياك والبقشيشات قاتلها الله! إنها مصارع الكبرياء ومقاتل الشخصيات! إنها دخل مادي سهل بدون عمل حقيقي، فيغري ضعاف النفوس بقبوله وهو في حقيقة أمره ثمن نجس لقتل الكبرياء حتى وإن لم يطلب الراشي خدمة مقابله!.. مجرد قبولك للهدية أو البقشيش تصغير لك!.. به تضع نفسك بين الرعاع والمأجورين والسفلة، فلا يحق لك بعدها أن تندهش إذا صفعك السيد المانح أو أهانك أو أرسلك في مهمة خسيسة أو ساومك على شرفك!.. لا تقبل من أي أحد هدية إلا إذا كنت قادرًا على ردها أضعافا مضاعفة!.. إذ إن قبولها منذ البداية قد يورطك في البحث عن أموال تردها بها، مما قد يجبرك على فعل ما لا يليق بك أو التنازل عن شيء من كبريائك أو تغيير بعض اقتناعاتك!.. فاهمني يا ولد؟..

«يجب أن تفهم أن كبرياء المرء لا يصلح للتجزؤ! يعني إن تنازلت عن شيء طفيف منه تكون قد تنازلت عنه كله وجنيت على نفسك بيدك لا بيد عمرو!.. الأحري بك إذن والأمر كذلك أن ترفض سلوك الهدايا.. تغلق بابها من أصله!.. تذكر دائمًا أبدًا أن الفرق المالي الهائل بينك وبين الشماشرجية، بوصفك فقيرًا وهم من الأثرياء الضخام، هو أتفه الفروق قاطبة إلا على الضعفاء الذين يفكرون ببطونهم ويشتغلون خدمًا لدى أجسادهم. أما أبناء القناعة من أصحاب العقول النيرة الذين أود - وتود أنت بالطبع - أن تكون منهم فإنهم لا يضعفون مطلقا وإن جاعوا وتعروا وتشردوا! عندئذ يبطل سحر المال.. يفقد قوته عليك!.. إن المال حين يعجز عن شرائك يتحول صاحبه أمامك إلى حشرة بغيضة يمكن أن تسحقها بين ظفريْك كالبَقَّة.. كالقملة.. كالبرغوث.. كالبعوضة.. وغير ذلك من حشرات تمتص دم الإنسان!..

«لست أريدك حشرة تأكل متاع الناس لتتضخم!.. لست أريدك في المقابل أن تكون نبيا أو متصوفا ورعا تقيا كدرويش مجذوب.. إنما أرغب وأحلم أن تكون إنسانا نظيفا لطيفا يعرف حدود الله فلا يجور عليها».

(٧)

كأن نصائح أبي كانت فيتامينات مقوية، إذ شعرت في أثنائها وبعدها بأنني قد صرت رجلا محترما بحق، فمجرد أن أفهم هذه المعاني الكبيرة وأستوعبها يُطيل قامتي ويملؤني بالعزة والكبرياء. ثم شعرت بأنني قصرت في تقدير أبي حق تقديره، ها هو ذا الآن، بالتحديد منذ ليلة أمس لحظة انفراده بي رجلا لرجل، يبدو لي عملاقًا عظيمًا كالملاحم الشعبية، هذا الرجل الذي كان منذ سنوات قليلة نائبًا أول لرئيس المجلس البلدي السكندري، وكان الرئيس الفعلي في الواقع، والذي أحيل إلى التقاعد فجاء إلى قريته ليفلح بنفسه أرضه وأرض إخوته، يخلع البدلة ورباط العنق ويلبس الفانلة أم كمّ والسروال أبو دكة صوفية والبُلغة الصفراء والطاقية والجلباب ثم لا يأنف من حمل الفأس والمذراة والإمساك بالمحراث والركوب على النورج وحشّ البرسيم وتحميله على الحمار والركوب فوقه، ثم لا يكف عن قراءة الكتب الثمينة والجرائد والمجلات، ولا يتوقف عن كتابة الشعر العمودي الرصين في رثاء الأحباب وفي المناسبات العامة، وإذا تخلف إمام المسجد عن خطبة الجمعة استغاث به المصلون للصعود إلى المنبر فيشنف آذانهم بخطبة تتكلم في مجريات أمور حياتهم اليومية.. مثل هذا الأب يجب أن أفخر به!

هكذا كنت أفكر وحدي مضطجعًا على المصطبة الخارجية محملقا في الفضاء مفعما بخدر لذيذ. خللَ استغراقي شعرت بأنامل ناعمة ملساء تجوس بين شعر رأسي، انتفضت قاعدا، كان حمادة يبدو عليه الابتهاج لأنه وجدني. وسَّعت له مكانا على المصطبة. لحظتئذ كان أبي قد أنهى نومة القيلولة وتوضأ وصلى ركعتين تحية للوضوء، فلما سمع ترحيبي الحار بحمادة وضع قدميه في البلغة الصفراء وخرج علينا بالسروال والفانلة والصديري:

- «يا مرحب يا مرحب!».

وقف حمادة وصافح أبي بحرارة، ثم وسع له مكانا بجواره
على المصطبة:

- «نورت ميت الديبة!».

فقال حمادة وهو يجلس ممددًا ساقيه الطويلتين على مساحة ابتلعت نصف الممر العريض الموصل إلى الحارة الجانبية:

- «نوركم أنتم يا عمي!».

- «كيف حال الست الوالدة؟!».

بُهتُّ أنا، وبوغت حمادة. كادت الأرض تميد بي وبه من هول هذه المفاجأة..

- «تعرفها يا عمي؟!».

- «طبعًا أعرفها جيدا! خالك يوسف رحمه الله كان يودني كثيرًا في مكتبي في المجلس البلدي. مصالحه كانت كثيرة عندي. كان مغرمًا بشراء الـ□يلات والمنازل الأثرية ليبيعها أنقاضا فيثرى من ثمن الأنقاض والأسقف والأبواب والشبابيك نادرة الطراز، وبالمكسب ينشئ عمارة حديثة على النظام الأمريكاني الناطح للسحاب! كان من غير مؤاخذة يثير كثيرا من المشاكل بسبب الهدم المخالف والبناء المخالف!.. أخته السيدة راشيل - والدتك - كانت دائمًا تأتي معه. كانت تقريبا سكرتيرته الخاصة. على فكرة كانت تعجبني جدًّا بذكائها وإخلاصها في حماية وتكبير ثروة أخيها التي كانت باسم الله ما شاء الله ضخمة متشعبة ليس من السهل حصرها.. هه ها.. ها ها ها.. شيء مضحك حقا فيما يبدو لي الآن!.. ياما دخلت مع أمك في مناقشات تصل إلى حد العراك!! أيامها كانت لا تزال فتاة صغيرة، لكنها لبقة تجيد الرطانة بأكثر من لغة.. زمانها الآن نسيت تلك الذكريات الطريفة!.. ما أحوالها اليوم يا ولدي؟».

- «بخير يا عمي! بخير والحمد لله!».

وربت بكفه ركبة أبي المشعرانية في تحنان..

- «وصحتها؟!».

- «طيبة! سأبلغها سلام حضرتك!».

- «أكون ممتنا لك!».

اتكأ على ركبتيه ونهض واقفا، تلقف الجلباب من يد أمي الممدودة من بين حديد الشباك، سكبه فوق جسده في لمح البصر:

- «اتركاني ألحق بصلاة العصر جماعة. الدار دارك يا حمادة يا ولدي وبهاء أخوك. عن إذنك».

- «تفضل يا عمي!».

ابتعد أبي وانعطف شبحه إلى اليمين في شارع داير الناحية، فعرفت أنه سيصلي في المسجد القرىب من منازل أحبابه الشماشرجية.

ما كاد أبي يختفي في المنعطف الأيمن حتى خرجت إلينا خالتي أم السعد بكوبتين من الشاي على صينية صغيرة:

- «نورتنا يا باشا!».

- «متشكر جدًّا!».

مضت خالتي أم السعد إلى الدهاليز تجرُّ فخذيها الثقيلتين في هدوء وتؤدة:

- «خالتك فعلا؟!».

- «جارتنا! تحبنا وتساعد أمي في شغل الدار!».

أمسك بكوبة الشاي المصنوعة من القصدير الملون، رشف بلذة:

- «حتى شايكم مختلف! طعم تاني خالص!».

رشفت بدوري عدة رشفات خاطفة:

- «الشاي هو نفس الشاي، إلا أننا نطبخه هنا على نار القوالح التي تعطيه طعما وشمخة!».

حضرت أمي مرتدية الثوب الواسع المحتشم. لفَّت يدها في طرف الإيشارب الحريري وصافحت حمادة:

- «أهلا بالغالي! أنت نورتنا!».

ثم أردفت:

- «تتغدى يا حبيبي؟».

- «عدم المؤاخذة يا مامي! أنا طهقت من كثرة الأكل في بلدتكم! كل من يراني يسارع بعزومتي كأنني جئت إلى البلدة للأكل فحسب! وزني زاد في الكم يوم الماضية!.. أحب الآن أن أمشي مسافات طويلة لأعود إلى وزني القانوني».

- «الدنيا حر يا ضنايَ.. الشمس لا تزال عفية!».

- «مصطبتكم طراوة كأنها شاطئ العجمي!».

- «طبعا! ملقف هواء من الناحية البحرية».

ثم لوحت أمي بذراعها في زهو وإغراء:

- «يا سلام لو طلعت فوق عندنا في المَقْعَد الفوقاني! ريح! عواصف تخلع الباب لو نسيناه مفتوحا في مواجهة الشباك البحري! لو نظرت من هذا الشباك البحري ترى أمامك الهوّ مفتوحا على مدد الشوف! ترى الغيطان والسكك والدنيا كلها».

- «قلتِ المقعد يا أمي؟!».

- «الغرفة في الطابق الثاني للبيت نسميها المقعد، على أساس أنه مجعول للقعدة وللنوم في الصيف».

- «داركم شكلها جميل فعلا من الخارج والداخل!».

هتفت أمي بحماسة:

- «المقاعد فوق أجمل بكثير! إنها مبنية من شرائح الخشب البغدادلي ومغفقة بالطين المخلوط بالتبن ومدهونة

بالجير وفوقه تصاوير بالألوان الزاهية! حاجة نظاكة أحسن من مليون بحر!».

أضفت أنا:

- «ساعة نوم واحدة في المقعد بمقام ليلة كاملة في أي مكان!.. على فكرة، أنا لي مقعد خاص بي وحدي أذاكر فيه وأقرأ وأكتب وأدير ماكينة الغناء لأستمع إلى أسطوانات الأغاني القديمة والجديدة».

- «إيه! عندكم جرامفون؟!».

- «وصناديق من الأسطوانات».

- «إنها من ريحة أيام الإسكندرية!».

ثم أضافت بعد هنيهة موجهة الكلام لي:

- «خذ حمادة واستريحا معًا في المقعد في الطراوة لحد ما ينطفئ لهيب الشمس!».

- «يكون أحسن! يا ريت!».

قالها وهو يتأهب للقيام.

- «تعال إذن ورائي!».

تقدمته إلى الدهاليز. صعدنا السلم الخشبي. بسطة والثانية صرنا في المقعد البحري. يا لتلك العصرية المشحونة بكثير من الغبطة والشجن! تمددنا على الأرض فوق سجادة عتيقة مفروشة بدورها فوق حصير. يوجد كنبة للنوم بمرتبة ومساند ووسائد. يوجد صندوق ملابس، وترابيزة وسط برخامة بيضاوية وضعت فوقها ماكينة الغناء؛ بجوار الترابيزة طاولة خشبية وضعت فوقها صناديق الأسطوانات، وكرسيان من الخيزران بقاعدتين متهتكتين. يوجد كذلك طبلية صغيرة أتناول عليها وجباتي وأذاكر فوقها أحيانا.

استمعنا إلى عدد من أسطوانات محمد عبد المطلب ومنيرة المهدية وصالح عبد الحي وهم ممن يشاركني حمادة في حبهم. تحت إلحاحه قرأت عليه بعض أشعاري بحماسة استقطبته وأثرت فيه بإعجاب واضح من قدرتي على ضبط الموازين واستنباط القوافي دون افتعال، أو هكذا قال. وفيما كان هبوب الريح يسكرنا بنشوة استرخاء لذيذة، أفزعنا دوي هائل ارتجت له الجدران، تجمدنا من الرعب، رحنا ننظر إلى الباب المرزوع في غيظ، فإذا به ينفك من كالونه ليرتد ضاربا الحائط بنفس العنف المزلزل، ثم يرتد من جديد بعنف الضربة، فلحقت به في منتصف المسافة متشبثًا به. هتف حمادة:

- «اقفله خالص! شنكله بالشنكل من جوه!».

هذا ما كنت أنتويه فعلا. صارت القعدة منعزلة عن الدار تمامًا، شديدة الخصوصية عميقة الهدوء، تغري بشيء من اثنين: الاستغراق في النوم أو في فض الأسرار الخاصة ذات الحميمية. إلا أننا ارتفقنا المساند واسترسلنا في الحديث على السجية وقد أزيلت من بيننا التحفظات كافة.

كنت مبهورًا بكلام حمادة، مفتونا بأشياء فيه لم تكن تخطر لي على بال. حسدته على ما يتمتع به من جرأة وانطلاق وحرية واستقلالية لا أحلم ولو بجزء يسير منها:

- «شف يا صديقي، عليك أن تنصت إلى نصائح الكبار جيدًا لتعرف كيف يجب عليك ألا تنفذها!.. لا تفعل إلا ما يأمرك به عقلك ثم مزاجك!.. إن خسرت تعلمت كيف لا تخسر مستقبلا!.. إن جاءتك متعة خذها في الحال بلا تردد لأنها لن تجيء مرة أخرى!.. عش حياتك، لأنك لن تستطيع إرجاع الأيام بعد مرورها، ولا زرع الوردة بعْد قطفها! ولا العودة إلى بطن أمك!.. على فكرة يا بهاء، جدي لأمي خلف رجلين ماتا، الأول قبل أن أولد، والثاني وأنا كبير في المدرسة. شفت جثة خالي الثاني وقبلت جبينه قبل وضعه في صندوق الدفن، وحينما فتحوا المقبرة لدفنه رأيت بقايا عظام خالي الأول بعد أن أكل الدود لحمها بالكامل! قررت في الحال أن أفني جسدي هذا قبل أن أموت حتى لا أترك للدود شيئا ولو ضئيلا يأكله! أنا أوْلى بجسدي من الدود الذي سيتحول بدوره إلى تراب ينشأ منه دود آخر جديد! الحياة قصيرة يا صديقي فلا تدع أحدا - حتى وإن كان أباك - يحرمك من دقيقة واحدة فيها بأي حجة أو أي كلام منمق مما يسمونه الأخلاق والقيم الرفيعة! كله كلام فارغ، صدقني يا صديقي!».

مثل هذه العبارات، على خطورتها، صدمتني لأول وهلة صدمة عنيفة، بقدر ما صادفت في نفسي هوى فلسفيا مراهقا

مفتونا بكل ألوان التمرد. فتنتَ أكثر، ولا أدري لم، بميوله تلك التي لم أكن قد علمت بعد أنها توصف بالعدمية كما تلقيت في دروس الفلسفة في الشهادة التوجيهية. خيل إليّ لحظتذاك أن قعدتنا هذه في هذا المقعد في مهب هذه الريح المسكرة هي التي قادتنا إلى موارد الشطط!

تناهت إلينا أصوات مأمأة خرفان هائجة ملتهبة الصوت بالشبق الحارق الصريح صراحة الطبيعة. أنصت حمادة إليها محمر الوجه واقف الشعيرات:

- «ماذا؟ لديكم غنم هائجة إلى هذه الدرجة؟! يخرب بيتك يا غنم! إن صوتها مثير جدًّا، ألست تلاحظ؟!».

تمشت في عروقي جيوش من النمل ألهبتني أرهبتني، أغرقتني في الخجل. مَن علَّم هذا السكندري الرهيف هياج الغنم؟! ردت نفسي على نفسي بأن صوت الغنم فاضح وصريح وحيواني محض، يعني لا بد أن يفقهه كل من جاء الدنيا من كائنات عن طريق الجماع الجنسي بين ذكر وأنثى؛ فما هذا الملتهب إلا صوت الرغبة الملحة في لغة الطبيعة الفطرية.

- «هل أنت خبير بالغنم أيضا يا حمادة؟!».

لوح بيده خلف ظهره رافعًا حاجبيه وقد بدت عليه بعض أمارات الاستثارة:

- «صوت الهياج الجنسي لا يحتاج خبيرا ليعرفه! إن بعض الرجال والنساء حين يمارسون الجنس يصدرون مثل هذه الأصوات النشوانية المنتشية. بالمناسبة يا بهاء، هل لك تجارب جنسية؟!».

فزعت قليلا، لكنني استثرت، استمتعت بهذا المنعطف الذي دخل فيه الحديث بيننا.. وجدتني أقول:

- «أظنك لاحظت أن هذا مستحيل في بلدتنا! كل الناس هنا يعرف بعضها بعضا ويتسقط بعضُها أخبار بعض!.. مقابر الأسرار وآبارها دائمًا مفتوحة على البهلي تتصاعد منها روائح جثث الأسرار النتنة بعد طول دفنها. حتى الأسرار قبل دفنها في محاولات فاشلة لكتمها يكون لها روائح كعطر المناديل المهداة من البنات المراهقات.. كدخان السجائر.. كرائحة الجوافة في الجناين حيث يختبئ العشاق والمجانين تحت ظلال أشجارها لاختلاس قبلة أو ضمة أو كلمة وعد بالزواج!».

- «أليس لك قصة حب؟ أنت شاعر، ولا بد للشاعر من حب يشعلل خياله!».

- «أشك في صحة هذا القول! هناك أمور كثيرة تلهب خيال الشاعر كما يقول أبي وهو شاعر فحل، كفراق الأحبة.. كالغربة.. كالحزن كالفرح كالملمات التي تلحق بالوطن.. ولا شك في أن الحب من بين هذه الأمور التي تبعث على الشعر بحرارة!».

- «فليكن! كلامك صحيح! لكن الجنس حاجة مذهلة! أعظم متعة وهبها الله للإنسان! هل تشك في هذا، أم أنك لم تجرب فحرمت من نسمة الدنيا، أو لعلك لم تبلغ بعد؟!».

- «بلغت طبعا! كل يوم والثاني أمارس الجنس في المنام وأكُبُّ على لباسي! أمي أصبحت تخجل وهي تغسله!».

- «تحلم بمن في العادة؟».

كدت أندلق على طرف لساني قائلا بتلقائية إنني أمارس الجنس في المنام وحلم اليقظة معًا مع نسوان الشماشرجية وبناتهم باعتبارهن جميعًا أجمل نسوان وبنات البلدة على الإطلاق، معظمهن كاللبؤات، عيونهن تندب فيها دانات مدافع، يتمخطرن في الشرفات الأرضية بأذرع عارية وصدور مندلقة ومؤخرات بارزة رجراجة وجدائل شعر سائب. إنهن مصدر بلوغ الصبيان في وقت مبكر في بلدتنا. ليس في البلدة كلها صبي بالغ أو عريس يطلب التأهيل إلا وتحتل عقله وقلبه وخياله واحدة من نسوان الشماشرجية وبناتها الكثار اللائي يتدورن ويخرطهن خراط البنات في سن العاشرة على الأكثر، فيصرن فتنة تمشي في الشوارع والمدارس؛ إلا أن الشماشرجية ما إن يرتفع صدر بنت من بناتهم وتتقلوظ مؤخرتها حتى يمنعوها من الذهاب إلى المدرسة فلا تخرج من البيت إلا للضرورة، ولكن ما أكثر الضرورات التي تجبرهن على الخروج وعلى البهلي أحيانا لشراء عطارة أو شيء من بائع سريح، أو من الدكاكين، أو من السوق يوم قيامه في الثلاثاء من كل أسبوع، أو على الموردة لغسيل القمح في الترعة.. إلخ إلخ. أما التي تصر منهن على مواصلة التعليم فيتم تصديرها إلى الإسكندرية أو القاهرة أو طنطا أو دسوق حيث يوجد في كل هذه البلاد فروع وأنساب وأصهار للشماشرجية يأتمنونهم على فلذات أكبادهم.

لحقت بنفسي قبل الوقوع في الغلط، تباطأت في الإجابة قدر الإمكان:

- «الصراحة يا حمادة، أي امرأة تجيئني في المنام تكون دائمًا غامضة لم أرها من قبل! إنها هي التي تجيء وأنا لا أذهب إليها أبدًا، فإني في الواقع خواف! ولهذا فالمنام يجيئني بها لحد عندي! يجعلني أفاجأ بنفسي معها في حديقة أو خرابة أو حوض ساقية!».

- «ولست تمارس الجنس بيدك؟».

- «كيف؟!».

- «تجعل من قبضتك فرجا تدكه فيه! لو دهنت بطن يدك بالصابون وجعلتها تقبض عليه وتجري صاعدة هابطة بشرط أن تتخيل امرأة بعينها تتمنى أن تنام معها، دقائق وتجيئك اللذة تنفض جسدك نفضا!».

شعرت بكثير من الغثيان. بدأت أتوجس من هذا الشطح الذي اشتط إليه الكلام، لكنني من أسف لم أقو على إيقاف رغبتي في استمراره بقدر ما في الإمكان من صراحة مطلقة. قال مسلطا عينيه في عيني بما بدا لي أنه منتهى الفجور:

- «بذمتك ودينك ألم تجرب؟».

قلت ورعشة غير عادية تسري في أوصالي:

- «لا والله يا حمادة، لم يخطر هذا ببالي من قبل!».

حانت مني التفاتة إلى حجري لأطمئن إلى أن عضوي الذي استثير تماما لم يفضحني بصلابة رأسه المعتادة. هالني أن الجلباب تحول في منطقته إلى خيمة صغيرة. سربت نظرة إلى حجر حمادة فوجدته غير مستقر. نظر هو إلى حجري وابتسم. على غير توقع انقضت كفه الكبيرة فوق رأس خيمتي تحاول كبسه بقوة، فتلقى صدا عنيفا.

- «ما هذا يا نمس؟!».

انتفضت فزعا أشوشر على نفسي بضحكات هستيرية صاخبة. وقفت، قفزت متجها إلى الشباك البحري لكي أداري نفسي في الحائط. لحق بي، وقف بجواري. مراح الغنم تحت بصرنا بالضبط، لا سقف له، خروف واحد هو الذي يثير كل هذه الضجة كأن الكون كله قد أصيب بالهياج، فراح يزأر بهذا الصوت الملتاث، يجري بين الأغنام يصرخ بالتياع في طلب الجماع، يقفز فوق واحدة فتنفر منه منسربة من تحته في خشونة وسأم، فيلهث وراء أخرى فلا يفلح في السيطرة عليها، فينعطف على ثالثة تنشغل عنه بأطفالها مضطجعة يلتقم عيالها أثداءها.. مأمأته، أو بأبأته، مشحونة بالحرقة الشبقة والنداء بصوت بدأت تشرخه تعاسة مؤلمة. في إحدى ارتفاعات قدميه الأماميتين صارت خيوط المني تتدافع منه بغزارة مثيرة جدًّا تتناثر على فراء الغنم.

لحظتئذٍ كان حمادة وهو يتحكك فيّ كأنما عن غير قصد ويترك فخذه ملتصقا بعضوي دونما حرج، قد راح يحدثني بإغراء عن عشيقاته السكندريات من يونانيات وإيطاليات ومصريات، من خادمات وبنات بيوتات. بل جعل يحدثني - ياللأهوال - عمن يعشقونه من الرجال والصبيان. ثم، ياللبشاعة، فوجئت بأن حمادة الذي كان منذ برهة رجلا ينتفض تحت حجر جلبابه ويتحدث عن عشق النساء بخبرة وحرفنة وثقة، قد تحول في لمح بالبصر إلى أنثى، أنثى بكل معنى الكلمة، فجأة طرأت عليه ملامح أنثوية قرارية، شع بجاذبية أنثوية طاغية، رخرخ، صار طريًّا جدًّا، يتأود ويتقصع، اتسعت عيناه، فإذا هو صورة طبق الأصل من نسوان الشماشرجية المثيرات الفاتنات. وأنا الذي تحرقت في المنامات وحلمت بالاختلاء - ولو لمرة واحدة في العمر - بإحدى نساء الشماشرجية، فوجئت بأن الحلم قد صار حقيقة ماثلة، وها هي ذي تخلع ملابسها بعهر ونعومة وتستميلني لتقبيلها في شفتيها فتلفحني أنفاسها العطرة الحارة ويتهدج صوتها حول عنقي، فيما يغوص أنفي في جدائل شعرها الناعم ويلتصق لحم ظهرها بحوضها العريض اللين، فإذا بي قد اندفنت فيه حيث لاح لي لومضة خاطفة أن قوة في الأرض لن تستطيع إيقاف الفعل قبل تمامه!

لا أدري كيف حدث ما حدث؟! كيف اكتمل الفعل بنشوة جنونية لدرجة أنني كدت أصدر صوتًا كصوت الخروف من فرط استمتاعي - أنا الفاعل - باستمتاع حمادة - المفعول فيه. لكنني أدري أن لذة أخرى، ربما أقوى من لذة الفعل نفسه، كانت تسيطر عليّ تماما، وكنت قد استسلمت لها بدون وعي أو تفكير، تلك هي لذة الخروج على قواعد وقوانين أبدية راسخة، لذة ارتكاب المغامرة وإن كانت فاحشة إلا أنها مثيرة بما تحتويه من إثارة للحدس والتوقع والاستكشاف، لا سيّما إذا كانت تجربة سيق إليها المرء دون إرادته متسلقة على مناطق الضعف فيه، كما أن

خسارته فيها لم تكن فادحة. كانت لذة فوقجنسية بدأت وانتهت كبرق راعد نتيجة اصطدام سحاب بسحاب، ثم انحفرت في الذاكرة كحدث فريد لم يتكرر بقية العمر لشدة ما أصبحت ذكراه تثيره في النفس من تقزز ونفور!

العجيب حقًّا أنني بقيت أحب حمادة؛ ذلك أن القوة الجاذبة فيه - وهي مجهولة لي في ذلك الحين - كانت أقوى من أن أقاومها. وبعد إذ تكسرت كل الحواجز بيننا، سألته عمن زرع فيه هذه المتعة الشاذة؟! كيف اهتدى إلى هذا اللون من اللذة؟!

كنت أظنه سيتهرب من الإجابة، أو سيلقي باللوم على أحد الأشقياء من ولدان الشوارع، فإذا به دونما حياء وبكل جرأة يقول بالفم المليان إنها: أمه! ثم ضحك ضحكة عالية شعرت أن فتافيت الجنون تتطاير من أصدائها الرهيبة. ثم انبرى على الفور يحكي.. عن طفل عمره خمس سنوات كان يلعب ذات يوم في حجرة المعيشة بلعب كثيرة، قد كمنت في أعماقه البعيدة صورة لرجل أغلب اليقين أنه أبوه يجلس على حافة كرسي المائدة عاريًّا تمامًا وفاشخا ساقيه، أقبلت عليه من الحمَّام امرأة عارية تماما أغلب اليقين أنها أمه، جلست على حجر الرجل مثنية ساقيها فاندكّ عضو الرجل في مؤخرتها حيث احتواها من الخلف بذراعيه قابضا على ثدييها بقوة، فما لبثت هي حتى استغرقت في شهيق وشخير وفحيح فبدا عليها أنها ستجن من فرط السعادة بنشوة اللذة. كلاهما غير منتبه إلى أن باب حجرة المعيشة قد وورب من تلقاء نفسه وأن الطفل صار يراهما جيدا من خصاص الباب وقد تسمر مذهولا في قعدته، حيث خيل إليه أنه اكتشف لعبة جديدة يتمتع بها الكبار وحدهم. تجمدت يده على القطار اللعبة حتى لا يصدر صوتا يزعجهما، إلا أن انقلابا كونيا مروعا قد حدث: وقفت المرأة فاردة ساقيها مكسورة القوام ممسكة بيديها حافة المائدة، والرجل من خلفها واقف يشدها من خاصرتها ثم يبعدها ثم يشدها ويبعدها كالمجنون.

فزع الطفل وارتعد من هذه اللعبة العنيفة، ومع ذلك يسعد بها هذان المجنونان. كنوع من مشاركتهما اللعب ضرب القطار بقدمه فطار في الهواء وهوى على الأرض محدثا دويا، فانفصلا أحدهما عن الآخر في شهقة محملة بالفجيعة.. هرولا معا إلى الحمام، ثم عادا بعد قليل وقد ارتديا كامل ثيابهما. حاولا التلطف معه واسترضاءه بأحضان وقبلات وهدايا، لكنه بقى متحجرا لا يقوى على رفع عينيه في وجه أي منهما لشهور طويلة.

انحفر ذلك المشهد في ذاكرة الطفل على رُخامة بيضاء كانت لا تزال طرية، وكانت كلما صلبت بمرور الزمن يزداد المشهد بروزا ووضوحا وسحرا حتى لم يعد في ذاكرته متسع لمشاهد أخرى. لقد اختصرت طفولته كلها في ذلك المشهد الذي كان يكبر معه ويبخ في مشاعره الغضة صهدًا يلهبه، يحفزه على البحث عن سر هذه النشوة في ذلك المشهد.

ما إن أصبح غلاما حتى بدأ يلاحظ أن وجه المرأة هو الأوضح دائمًا لأنه كان الأقرب عندما دهمه المشهد، حيث كان يرى بوضوح وجه أمه المحني على المائدة في حين لم يشهد من جسد أبيه العملاق سوى جنون نصفه السفلي؛ أي أن اللذة التي كانت على وجه أمه النشوان هي مصدر الإلهاب في مشاعره وهو غلام، فكان يشعر كأن ينابيع اللذة قد تركزت في مؤخرته. كان يشعر بخفقان في قلبه يتبعه شعور باللذة كلما لامست يدٌ - ولو بحركة عابرة - هذه المنطقة من جسده. سرعان ما تكونت لهذه المنطقة من جسده مفردات خاصة من مظهر وحركة باتت تخاطب - من تلقاء ذاتها - عيون ومشاعر وخبرات أصحاب نفس المزاج من جميع الأعمار. من تصاريف الزمن، التي هي في الأصل تصاريفنا وننسبها للزمن، أن ينفصل الأب عن الأم بشكل عاصف يوشك أن يكون عداءً مستحكما بينهما!

الطفل كان في حضانة أم ممرورة من الأب كارهة لذكراه المؤلمة كما كانت تصفها. انساقت وراء رغبتها العنيدة الصلبة في الكيد لطليقها وحرق دمه بأي شكل. أكثرت من إقامة الحفلات الصاخبة، في نهاياتها تستقبل بعض الرجال في مخدعها تحت سمع وبصر الصبي التعيس. مُسحت من ذاكرته صورة الأم، ووضعت بدلًا منها صورة الأنثى المثيرة الهائجة الجاذبة لفحول الرجال المستعدين للبذل والصرف بصورة خيالية، حيث الهدايا تترجم إلى أرقام فلكية، ناهيك عن رجال ذوي نفوذ خطير في الدولة تترجم هداياهم إلى توقيعات وتمرير مستندات وتسليك سكك وردع خصوم أقوياء. الصبي التعيس لم تعد تدخل عليه الأكاذيب المفضوحة. استسلم للأمر الواقع وصار جزءًا منه. عشاق أمه المنحلة دخلوا عليه في عباءة الأبوة الفضفاضة بفيض من الحنان الزائف. كان يستشعر مرامهم، وكان جاهزا، بل كان راغبا في الاستكشاف وفضّ سر السلوكات والكلمات المقفلة. فتحوا في جسده هذا النفق السالك، الذي بات يشتاق أبدا
للامتلاء واللزوجة!

يا.. ا.. إله الكون! يالبشاعة هذا الذي يحكيه حمادة في بساطة وصدق وشفافية حتى التبس عليّ الأمر فيما إذا كان عاقلا أم أنه فاقد العقل والأهلية حتى يحكي ما يحكي ويرسم لأمه هذه الصورة بالغة الانحلال، ولأبيه هذه الصورة

بالغة الغلظة والبلادة!.. هل تراه قد وثق فيّ ثقة مطلقة إلى هذا الحد، أم أنه ما صدق أن جاءته فرصة ملائمة لأن يلقي ما تراكم فوق صدره من حمولات ثقيلة مضنية؟!.. هذا الفتي الذي يخدعك شكله بأنه يوشك أن يكون ملاكًا، ويكاد في الواقع أن يكون فيلسوفا صغيرا نصفه خيِّر ونصفه شرير، قد زلزلني فبعثر مشاعري تجاهه. المشكلة أن نصفيه الطيب والفاسد - الأوفق أن أسميهما هكذا بدلًا من الخيِّر والشرير - يتوهان بعضهما في بعض، يتموهان بألوان جميلة براقة جاذبة، وأغلفة من مفردات جديدة لم تسمع بها أذني من قبل. خفت منه جدًّا، لكن خوفي سرعان ما راح يتضاءل أمام شعوري بما هو فيه من تعاسة دفينة يعيها هو جيدًا بذكائه المتوهج اللماح.

كان من الواضح أنه يحتقر أمه وأباه إلى حد الازدراء، إلى حد يوشك أن يكون كراهية. لكنني ما أكاد أقتنع بهذه الرؤية حتى يفاجئني - ربما في نفس اللحظة - بأنه يحبهما بعمق إلى حد الفناء في شخصيتهما!.. أحيانا يتكلم عن أمه مثلما يتحدث العاشق المدنف عن معشوقته الوحيدة في الحياة، وأحيانا أخرى - ربما بعد برهة - يلعنها باعتبارها مجردة من مشاعر الأمومة، بل من كل المشاعر الإنسانية! يتحدث عن أبيه باعتباره الأب الرحيم الحنون، وفي برهة تالية باعتباره أنذل خلق الله على الإطلاق. مع كل ذلك وجدتني منقادًا إلى التعاطف والإشفاق على هذا الكيان الإنساني الجميل الذي أصابته آفة تنتهك شرف الرجولة وتهدر ما يطاولها من كبرياء.

(٨)

في صبيحة يوم جميل أتانا ساعي البريد بنفسه حسب توصية من أبي له، يحمل خطابا من عمي الكبير عوض المقيم في الإسكندرية، يبلغنا فيه أنه عمل بنصيحة أبي وتوجه إلى مدرسة محرم بك الثانوية وتأكد من أنني مدرج بين طلاب السنة الأولى بها، وأنه فوجئ بأن المصروفات تم دفعها. نبرة العتاب في هذه العبارة كانت واضحة؛ أكدها استطراد عمي عوض بقوله: ما علينا الآن، وليكن في معلومكم أننا خصصنا للولد غرفة مستقلة في بيتنا يقيم فيها مدى الحياة لو أراد.

حين أعدت قراءة الخطاب بنفسي لمستني حرارته العاطفية السخنة الصادقة. وجدتني أقول لأبي:

- «ما رأيك يا أبي لو أنني أقمت مع عمي عوض أو عمي إسماعيل أو عمي صلاح؟ أليس ذلك أفضل وأكرم من الإقامة في بيوت الناس؟ إن أولاد أعمامي سيشعرونني بالونس وبالعزوة، وسأجد بينهم أكلا كأكلنا وأما كأمي ترعاني وتغسل ثيابي دون حرج!».

تفكر أبي مليا، ولمدة طويلة هرش فيها خلف أذنيه وتحت ذقنه، وملس على وجهه بكفيه، طرقع أصابعه كأنه يفتت خبزا يابسا للفتة. أخيرا رفع وجهه وحملق في وجهي بعينين ذكيتين باسمتين واثقتين يشع منهما عقل حكيم مرن:

- «شف يا بني..أنت محق في كلامك..كدت تقنعني بوجهة نظرك!.. أنا فعلا أود لو تعيش في حضن أعمامك تحت رعايتهم! إنهم أحنُّ عليك من أي أحد آخر!.. لا أخبئ عليك أنني فكرت في هذا الأمر طوال الشهور الفائتة، إلا أن شعورا ما كان يعطلني عن الاستمرار في التفكير! الآن اتضح لي سر هذا الشعور. أقول لك: إن أولاد أعمامك للأسف ليسوا كلهم من الناجحين المتفوقين. معظمهم اكتفى بشهادة متوسطة. منهم من لفظ الدراسة ليعمل في التجارة المربحة، ومنهم من لفظتهم الدراسة ليشتغلوا عمالا وموظفين صغارا في المصانع والشركات.لم يفلح في الدراسة العليا سوى أبناء عمك إسماعيل لأن بيته فيه جو علمي وثقافي تسري عدواه في كل من فيه، ولكن عمك إسماعيل هو الوحيد الذي لا يتسع بيته الضيق لأي ضيف جديد!!.. أنا يا بني أتوسم فيك الذكاء والرغبة في التفوق، هكذا يشهد لك كل معلميك، ووجودك بين أبناء أعمامك سيكون محفوفا بمخاطر كثيرة.. إن لم ينجحوا في تعطيلك وجرك إلى الملاهي فإنك ستثير أحقادهم فيعاملونك بروح عدوانية قد تؤثر في نفسيتك وتصيبك بالكدر والكآبة والعياذ بالله!.. أنا إن ضمنت أولاد أعمامك فلستُ أضمن نفسيات أمهاتهم! لا ولا بناتهن اللاتي سيختلطن بك! نحن بشر يا بني والبشر خطاءون!.. أما إقامتك في بيت عنتر بك، حتى وإن كانت في عشة فوق السطح، فإنها أنسب لمصلحتك! هدومك يغسلها الخدم ضمن هدوم الجميع، فراشك ينظفونه باستمرار!

«المرتب الذي ستتقاضاه شهريا من عملك لدى عنتر بك - إضافة إلى ما أرسله لك - سيكفيك ويفيض مهما اشتريت من كتب ومذكرات!.. وجودك ضمن أسرة عنتر بك في رحاب الشماشرجية يضعك في وسط ينشد الرقي دائما.وسطٌ طموح.شبان متفتحون سالكون في التعليم العالي إلى بعثات خارجية، ثم إلى أرفع المناصب في الدولة!.. وجودك بينهم يحفزك على تحقيق النجاح، على أن تتعلم لغة أجنبية أو أكثر لتزداد استنارة وقدرة على التفاهم في نطاق أوسع.النجاح بجميع مستوياته يا بني هو أعظم كسوة للإنسان وأقوى سند.أدعو الله أن يبلغك ما تتمنى!».

صرت مقتنعا بما قاله أبي. وفيما جعلت أستعيد بعض العبارات الحكيمة المبثوثة في كلامه، كان هو قد أنهى لف وإشعال سيجارة شفط منها نفسا قصيرا ثم استطرد:

- «إياك إياك أن تقطع صلتك بأولاد أعمامك!

«الصلة الدائمة هي ما أحبها لك ولهم! لا تندمج فيهم تماما وإلا بدَّدوك فيما بينهم!.. أدِّ واجبك تجاههم دون انتظار لأن يؤدوا أي واجب من أي نوع تجاهك! لحمك ودمك لا تؤجر على عطفك عليه! هو نفسه - الواجب - دواء لك.. يشفيك من أمراض نفسية كثيرة لا ينجو منها كثيرون! عطف الإنسان على أفراد عائلته وذوي قرباه هو العطاء الوحيد الذي يعتبر عطاءً وأخذا في نفس الآن، يعني لحظة أن تعطي تأخذ في الحال! كل تصرف جميل يخرج منك له مردود فوري في شعور أجمل يضيفه إليك الآخر مشحونا بسعادته وامتنانه!

«مغزى كلامي يا بني أن التواد يمنح الشعور بالعزة والعزوة للطرفين! يمنحك معنى أن تكون كثيرا ولست مفردا!..خل بالك معي وافهم كلامي جيدا. ستتعامل مع الشماشرجية بروح القوي.بروح الشجرة الوارفة المورقة تغري الناس بأن يستظلوا بها عند القيظ.خل بالك يا ولد: إن المرء لا يؤمَن جانبه مطلقا إذا اتضح أنه مقطوع من

شجرة.تلك هي طبيعة المجتمع الذي ستعيش فيه، ولسوف يستأمنك على سره ويتبادل معك العون والعطاء إذا عرف أن عمك فلان وخالك علان.أرأيت إلى معنى المثل الشائع: «إللي مالوش كبير يشتري له كبيرًا»؟ معناه ببساطة أن الواحد منا محتاج دائما إلى مصدر معلوم يلجأ إليه القوم عند اللزوم ويلجأ هو أيضا إليه إذا ما ألمت به الملمات!..

«يجب أن تفطن يا ولد إلى أن هذه المرجعية الحتمية للإنسان هي سر الإيمان الحقيقي العميق عند الشعب المصري، حيث الله سبحانه وتعالي هو الأب الأعظم للجميع، وهو المرجعية الكبرى التي جُبل المرء على أن يستفتيها طريقا للهداية!! منتهى الحكمة يا ولد! ولهذا يقول المصريون قولهم العبقري العظيم: ربنا عرفوه بالعقل.العقل الذي أقنع المصري القديم بأنه لا بد أن يكون له أب وأصل معلوم، وإلا فمن أين جئت يأيها الإنسان؟.

«يرجع مرجوعنا إلى علاقتك بعائلتك. إذا وجعك أحد من عيال أعمامك فاعلم أنه كأصبعك لا يمكن أن تفكر في بتره إذا آلمك. كعينك كقدمك كذراعك، إن وجعك عضو منها عليك أن تعالجه في الحال!!».

وهكذا لاح لي أن أبي كان قد تضخم فيه الشعور بأنني موشك على الانسلاخ عنه لأصير تحت هيمنة ناس غيره، مهما وثق فيهم يظل شاعرا بأنني لن أتكامل تربويا إلا به. بدا لي تلك اللحظة المشحونة بأن جعبته التربوية - كشاعر فحل وسياسي مثقف واع بالتاريخ - فيها الكثير الكثير مما يريد أن يزرعه في عقلي وقلبي قبل أن أغادره كأني لن أعود إليه بعد الآن.كأن ما ادخره من معلومات ومعان وقيم تربوية وأخلاقية أصبح مهددا بالضياع في الهواء الطلق قبل أن يبلغني. كان فيما يبدو قد خطط لبنائي الأخلاقي والثقافي على مهل، واحدة واحدة، لكل فترة من العمر ما يناسبها من مستويات الحديث، من فترة الاستماع والإذعان، إلى فترة المشاكسة فالمساءلة، إلى فترة المناقشة والمحاورة.. إلخ؛ فإذا بالظروف قد خططت من ورائه تخطيطا قدريا محضًا لاقتناصي منه وإبعادي عنه في هذه السن الحرجة، ومن ثم مصادرة مشروعه التربوي. ها هو ذا يحاول تزويدي بأكبر قدر ممكن من المعلومات والمعارف. كلما التقاني منفردا انتهز الفرصة وفتح معي حوارا حول أمر من الأمور التي قد تعترضني في الدراسة أو تصادفني في المجتمع السكندري. تطول الجلسة أحيانا إلى ساعات.

يوم سفري كان يوما مشهودا، من الأيام التي تبقى في ذاكرة القرية طويلا.

عندما اقتربت سيارة عنتر بك من منزلنا لكي تأخذني بحقيبة ملابسي وكتبي والقفف التي أعدتها أمي، انخرط أبي في أنهار من الحديث يؤدي بعضها إلى بعض ويتفرع بعضها من بعض. حتى بعد أن انحشرت بين الشماشرجية على الكنبة الخلفية أدخل رأسه من نافذة السيارة وراح يوصيني أن أجعل بالي من الشوارع وأنا ماش، ألاّ أصاحب غير نخبة المتفوقين من زملائي، وألاّ يكون لي شأن بالسياسة والمظاهرات إلا بعد أن أتخرج بعون اللهً.

اضطرت أمي إلى أن تشده برفق وهي تجفف دموع الفرح بابتسامة نورت وجهها أعادته إلى شبابه السكندري أيام كانت تلبس وتتكلم مثل الشماشرجية قبل أن تتخفى داخل الملس والطرحة:

- «كفاياك يابو بهاء!.. الناس وراءهم سفر طويل بسلامة الله!».

سحب رقبته من النافذة هاتفا في وجهها:

- «ربنا معهم بإذن الله، سيكتب لهم في كل خطوة سلامة! بالسلامة! بالسلامة!».

زأر محرك السيارة بصوت خشن، كسكست السيارة خطوات إلى الخلف ثم حودت واعتدلت في اتجاه شارع داير الناحية، ثم بدأت زحفها البطيء الرجراج. هتف أبي مهرولا خلفها:

- «اسمع يا بهاء!»

توقفت السيارة وهديرها مستمر. لحق بها أبي لاهثا. بصّ
من نافذتها:

- «سوف أكتب لك خطابات كثيرة، وسوف ترد عليَّ طبعا، أولا بأول.مع كل خطاب سأرسل لك فيه مظروفا عليه طابع بريد حتى لا تتكلف شيئا في الرد.مع السلامة يا بني.طريق السلامة إن شاء الله!..اسم...».

وكاد يهرول مرة أخرى وراء السيارة لولا أن أمي حاشته بذراعيها ثم تأبطته بلطف كأيام شبابهما السكندري. وكان بصري قد استقر على المرآة الداخلية العاكسة وراح يرقب شبحيهما إلى أن اختفى داخل الدار، في نفس اللحظة التي حودت فيها السيارة إلى شارع داير الناحية ثم انعطفت بعد خطوات قليلة على الوصلة الموصولة بالطريق الزراعي حيث يبدأ الشعور الفعلي بمعنى السفر.

الحجرة التي أفردها لي عنتر بك في قصره لم تكن على السطح كما توقعنا. كانت أشبه بكابينة من كابينات الشاطئ، لكنها ببناء أفخم وأجمل من نفس الطراز المعماري للقصر، في ركن بارز من أركان الحديقة الواسعة، تطل على شاطئ ترعة المحمودية وظهرها يحدد ميدان الرصافة. هي وحدة بنائية مكونة من طابقين، كل طابق يحتوي على حجرة وردهة لا بأس بحجمها ودورة مياه بحمام. لها سلم داخلي عبارة عن تحفة فنية من الخشب بدرابزين شديد الفخامة. ترتفع عتبة الطابق الأرضي عن أرض الحديقة بأربع درجات رخامية اقتضت خصما من مساحة الردهة التحتية ليكون باحة أو حرما للباب على شكل شرفة بتراسينة تتسع لوقوف عدد من الزوار، تستظل بأخت لها في الطابق الثاني مساوية لها في المساحة والزخارف، تتسع بدورها لطاقم جلوس من خشب البامبو الجميل الناعم بشلت زاهية الألوان وثيرة.

هذه البناية المحندقة البديعة كعش من أعشاش الجنة كانت معدَّة في الأصل - كما حكى لي الجنايني العجوز - كمكتب للرجل الكبير عزت باشا الشماشرجي عليه رحمة الله، يستقبل فيه عملاءه والعاملين في معيته بمعزل عن حرم القصر وراحة الحريم والأولاد وكثرة الأحفاد المزعجين له بمزاجه، ولا يزال لها مدخل خاص في سور الحديقة قبل مدخل القصر بمسافة تحفظ له حرمته.. كما أن البناية تعطي ظهرها لشرفات القصر المفتوحة على الحديقة، ومدخلها ممر طويل من الحصباء يتسع لمرور سيارة عريضة. الطابق الأول كان خاصا بالسكرتارية والخدم والبوفيه، أما الطابق الثاني ففيه مكتب عزت باشا.

بعد رحيل الباشا الكبير هُجرت هذه البناية هجرانا متعمدا، وصمها الأحفاد بأنها أخذت منهم بابا جدو، فعليها اللعنة لأنه مات فيها وخرج منها جثمانه إلى القرافة! طال الهجران، ظللتها كآبة خرساء، تعطنت فيها الرطوبة المعتقة في أساساتها من مياه ترعة المحمودية السارحة تحت أرضها، ناهيك عن تدفق الخراطيم الساقية للأشجار والورد وأعشاب الخمائل المتعددة في كل أنحاء الحديقة تبعا لمواقع الشمس وحركة الرياح في محيطها الشاسع المخيف ليلا إذا انطفأت مصابيح الشوارع.

انفك الهجران منذ حوالي عشر سنوات؛ أصغر أبناء عنتر بك ما شاء الله مخه مثل الألماظ، كان في كلية «العلما» التي يدرسون فيها العلوم «الظرّية» والكيمياوي وما يسمونه بالنواوي أو ما أشبه، بسلامته احتاج لمكان يسميه المعمل، فاتجه خاطره إلى هذه البناية فوضبها توضيبا آخر نظاكة، كساها ثوبا جديدا وجدد كل شيء فيها حتى الحنفيات، ملأها بأجهزة وأنابيب وهات يا شغل يا سهر يا تجاريب أنبوبية حتى نجح وطلع الأول على دفعته، وقالوا إن أمريكا اختارته في بعثة عندها بين النوابغ. الله يمسيه بالخير كان مقيما فيها ليل نهار، الطابق الأرضي معمله والطابق العلوي منامته. ثم أضاف الجنايني كأنه يغبطني على هذه الأملة التي نلتها:

- «سوف تدعو للبك الصغير من قلبك كلما نمت على سريره ريش النعام.. كلما قعدت على مكتبه الأبهة.. كلما استحممت في البانيو المصنوع من المرمر!»».

حقا إنه مقر لم أكن أحلم به على الإطلاق، أشعرني بالزهو والاستقلالية: مدخل خاص ومضجع خاص بمفتاح خاص في جيبي. سارعت بوصف ذلك كله لأبي في أول خطاب مني إليه، زففت إليه بشائر التفاؤل بإسكاني في قصر خاص بي على قدي، وصفت له الرياش والفروشات الفخمة والستائر المخملية والمقاعد الحنونة والمكتب المحرك للقريحة والخيال. وفي خطاب ثان وصفت له كيف يطرق السفرجي جرس الباب قادما لي بصينية الفطور تحوي ما لذ وطاب من زبد وقشدة وعسل ومربى وبيض مقلي ومشوي وعدة أصناف من الجبنة لم نعرفها من قبل في البلدة؛ وآخر ما تهتم به صينية الفطور هو الخبز؛مجرد قبضة من الخبز الإفرنجي تكفي لقضمة أو قضمتين، إذ لا حاجة أصلا لحشو المعدة بالخبز.

وعند رجوعي من المدرسة أجد أن الفراش قد تمت تسويته وتغيير ملاءاته وبياضات مخداته، والأرض جميعا قد نظفت وانتشرت في أنحاء الغرفة روائح الفاكهة الكثيرة المتدلية من الأشجار حواليها. أجد صينية الفطور قد رُفعت ووضعت بدلا منها صينية الغداء مغطاة بمفرش نظيف أبيض. أخلع ملابسي وأرتدي الجلباب وأجلس على الكرسي الوثير. أرفع المفرش؛ أجد من خيرات الله شرائح لحم مشوي، صدور دجاج، أرز بالمكسرات، معكرونة بالبيشاميل - سمعتها هكذا - وطبائخ مجهولة الاسم لكنها فائقة اللذة، أصناف من الحلوى ذات أسماء غريبة من قبيل أم علي والجلاش والجاتوه والبسيمة والشكلمة ولقمة القاضي وبلح الشام.. هوسة حلويات.. ناهيك عن الفواكه النادرة كالتفاح والكريز والبرقوق والنبق. ما إن أنتهي من مسح الصينية حتى يجيئني صبي بصينية الشاي، سرعان ما

أشربه. أتمطي على الكنبة الاستديو السخية لمدة ساعة أراجع فيها - في ذاكرتي - ما درسته اليوم في جميع الحصص كلمة كلمة، أطمئن إلى أنه استقر وتمدد واتسع بشروحات إضافية من عندي.

في الأيام الأولى كنت أغسل وجهي في الحوض تحت الصنبور، فلما فطنت إلى البانيو المرمر والدش العجيب الذي يعطيك إن أردت ماءً ساخنا وإن أردت ماءً باردا، ولك أن تخلط البرودة بالسخونة أو العكس إلى الدرجة التي يحتملها جسدك، كل ذلك بمجرد أن تحرك قبضة معدنية صغيرة.. لما فطنت إلى ذلك عجبت من نفسي: كيف لا أستحم كيفما أشاء في كل وقت طالما أن الاستحمام هنا سهل ميسور إلى هذا الحد ولن يكلفنا توليع وابور الجاز ووضع الصفيحة فوقه وإعداد طشت الغسيل وسد ثقوب وخصاص شباك الحمام برقاع من الكرتون. وقد كان يا أبي! في الصباح أستحم لإزالة وخم النوم، وعند خروجي بعد الغداء أستحم لإزالة عرق الصباح والضحى، وقبل النوم أستحم لإزالة متاعب الإرهاق الذي شقيته في المصنع. أفيق تماما، أراجع ما سبق أن راجعته ظهرا بالمرور على الصفحات للتأكد من رقم أو تاريخ أو صحة معلومة، ثم أستغرق في نوم عميق جدا حيث لا قمل لا بقّ لا براغيث لا أكلان يقلق الجسد. إنها يا أبي نعمة كبيرة ببركة رضائك عني ودعاء أمي لي.

أما عن الشغل في مصنع عنتر بك فإنني أخرج من مسكني بعد الغداء فأمشي إلى حي غيط الصعيدي وهو كما تعلم قريب، حيث توجد هناك إدارة تحتل بيتا بأكمله، مهمتها تنظيم بيع المنتجات وتحصيل أثمانها من تجار أعجز عن حصر عددهم في كل بلاد القطر المصري وبعض أقطار العرب والعجم. مهمتي التي كلفت بها من عنتر بك شخصيا هي تحصيل كمبيالات الأقساط من تجار الإسكندرية بحيث أخصص لكل حي من أحيائها يوما أو يومين، وقد اشترت لي الإدارة دراجة بخارية اسمها الفسبة درَّبوني على قيادتها، وهي تعتبر لا شيء بالنسبة للأسطول الذي يضم مئات السيارات والشاحنات والمقطورات والسفن والموتوسيكلات والطوريسكلات، وهو أسطول تابع لنفس الإدارة يحتل طابقين كاملين.

أصبحتُ باسم الله ما شاء الله أبرطع بالفسبة غير المرخصة باسمي بعدُ في كل شوارع الإسكندرية من أقصاها إلى أقصاها، من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى قرب منتصف الليل، حيث ينتظرني الصراف مهما تأخرت لأورد له ما حصلته من أموال تقدر بالمئات كل يوم. وقد وعدني عنتر بك بأن يرخص لي بمسدس عند بلوغي السن القانونية ليحميني من غدر اللصوص وقطاع الطرق. إن الحياة هنا سهلة جدا يا أبي وكل واحد في حاله، اللص معروف والشريد ظاهر والشرير مفضوح، ومن ثم فالطريق آمن طالما عرف الإنسان اللص فينتبه إليه والشرير فيتجنبه والشريد فيعطف عليه، أليست هذه بعض دروسك بنصها يا أبي؟.. والسلام ختام. من طرف ولدكم بهاء قاسم الراوي.

خطابات أبي لي كانت هي الأكثر، الأغنى، معبأة بحميمية نفاذة كالزيت الحار بالليمون فوق طبق الفول. أجدني محتاجا لقراءتها أكثر من مرة. ما أكاد أستوعبها وأحتشد للرد عليها حتى تأتيني رسالة جديدة متخمة الصفحات. كانت أخبار البلدة كلها عندي كأنني لم أغادر البلدة، وكانت سعادة أبي كبيرة لمَّا تأكد أنني أعمِّق صلتي بأولاد عمي عوض وعمي إسماعيل وعمي صلاح الذي يلح دائما على استضافتي في بيته الواسع جدا في هضبة كوم الدكة وتطل بعض شرفاته على الممر الموصل إلى مسرح سيد درويش.

عمي صلاح هو أوسع العائلة كلها ثراءً؛ إنه قومسيونجي يوزع جميع مواد البقالة إلى الدكاكين ولديه مخازن كثيرة متخمة بغرائب السلع التي لا تخطر على البال، ومقر استقبال وإدارة في شارع فؤاد شخصيا، وعشرات من راكبي الطروسيكلات يمرون على الدكاكين في أحياء المدينة التي تم تقسيمها عليهم، وعنده موظفون من حملة الشهادات العليا يديرون الحسابات والمخازن وحركة البيع والشراء. ولا يعيب عمي صلاح الراوي سوى أنه غير مؤمن بالعلم والشهادات، فما يكاد الابن من أبنائه يتعلم فك الخط، وبالكثير يحصل على التوجيهية، حتى يلحقه بالمخازن والإدارة أو يفتح له إدارة مستقلة في حي من الأحياء. ولقد أغرقني بالهدايا الثمينة المكلفة: بدلة كاملة من صوف إنجليزي بطربوشها وقميصها وربطة عنقها وحذائها وجوربها، ساعة يد ماركة جوفيال بأوستيك معدني أصفر مطاط، قلم حبر ماركة تروبن وآخر ماركة باركر واحد وعشرين، حقيبة جلدية فخمة للكتب والكراريس.. ناهيك عن فسحه الأسبوعية واستمتاعي بالأفلام الأجنبية التي يعزمني عليها مع زوجه وبناته في سينمات وسط المدينة.

على العكس منه تماما عمي عوض الراوي، مثقل بكثرة العيال الناجحين في تعليمهم بشكل أو بآخر، مصاريفه شديدة الضخامة إذ إنه دائمًا أبدا عنده حالة ولادة وطفل جديد بوجع دماغ جديد. يعمل رئيسًا لشئون العاملين بشركة كبريت البنا. ولأن البنا خال أمه - جدتي معزوزة - فإنه قد وثق في أمانته في جديته في حرارة قلبه على الشغل فترك له مهمة إدارة المصنع برمته، وإن بدون قرار رسمي، وتفرغ هو لمجلس الإدارة وأمور استيراد الأخشاب وفتح أسواق خارجية. وللحق فإنه لا يبخل على عمي عوض بأي شيء يطلبه، يملأ عينيه بالمكافآت الكبيرة والحوافز والراتب

السمين. كان قد أصر على أن يكون هو ولي أمري الرسمي، يُرجع إليه في كل صغيرة وكبيرة خاصة بي. ومن حين لآخر يفوت عليّ في المدرسة، يوصي المدرسين بي خيرًا، وفيما يتأهب للانصراف يدس في جيب سترتي جنيها كاملا، ثم يقبض بيده الكبيرة القوية على يدي إن حاولت الذهاب إلى موقع الجيب وفي عينيه احمرار محتقن يضخ اللهب في وجهي محذرًا إياي من الاعتراض على ما فعل.

أكثرهم حميمية إلى قلبي وأقربهم إلى عقلي واهتماماتي وطموحاتي وأحلامي هو عمي إسماعيل الراوي، مأمور الشهر العقاري فرع محرم بك. تراه فتحسبه خواجه في كل مظهره، من الكاسكيت الأزرق فوق صلعته الدقيقة المقلوظة، إلى خلط الكلام العربي الفصيح برطانة مفخمة النطق، إلى الهوس بقراءة المجلات الأمريكية حتى وإن اشتراها رخيصة بعد صدورها بأسابيع، وبخاصة مجلة المختار من الريدرز دايجست في طبعتها المصرية برئاسة تحرير الصحفي المصري الكبير محمد زكي عبد القادر، مع ذلك يفخر دائمًا بأنه يقرأ الريدرز دايجست في لغتها الأصلية.

لشدة غبائي وقلة خبرتي كدت أضيق به أول مرة زرته فيها، وكنت على وشك أن أمعن في التغابي فأبادر بالانصراف إلى غير عودة، وبالتأكيد كنت سأخسر خسارة فادحة؛ إلا أنه ما إن انتهى من المكالمة الهاتفية التي شغلته عني طويلا إلى حد الشعور بالضيق والملل، حتى هبّ واقفًا ليرحب بي كما ينبغي بالأحضان الحارة والقبلات حتى أحببته جدًّا وبأثر رجعي. رأيت فيه صورة لأبي وقد تفرنجت وألقت بنفسها في حضن الثقافة الأنجلو أمريكية. كنت ألمح في الأعماق البعيدة لآرائه وكلامه بوجه عام أشباح قيم أخلاقية عظيمة من تراث الحكمة المصرية المتربعة في وجدان أبي. إلا أن عمي إسماعيل مع ذلك لم يكن يحب أمريكا على الإطلاق، وكان يفرق دائمًا بينها كدولة من قراصنة العالم ولصوصه وبين الثقافة الإنجليزية التي استعارتها فشوهتها بالأخيلة والأكاذيب عن الحلم الأمريكي المزعوم بأنه سيكون الفردوس المفقود على الأرض قد عاد ليعمرها، أو بمعنى أصحّ ليستعمرها بالمدلول السياسي المتداول. لعمي إسماعيل قراءات عميقة متبحرة في الفلسفة بمختلف عصورها ومدارسها، وفي العلم وتطبيقاته، وفي التاريخ المصري والعالمي، وفي الصحافة الثقافية، وفي السياسة وفي الأدب. لديه قدرة مذهلة على الدخول في مناقشات لا تنتهي في أعقد الموضوعات بكفاءة واضحة وسلاسة وانسيابية تتحدى الملل وتهزمه.

شخصيته جميلة مشعة. إني مدين له بعشق الثقافة بجميع أصعدتها. في ضوئها المشع بدأت ملكاتي تنشط إلى نضج مطّرد. من مكتبة عمي إسماعيل قرأت سارتر وألبير كامي وأفلاطون وكراسات لينين وبيانات الثورة البلشفية وتاريخ ابن إياس والجبرتي وعبد الرحمن الرافعي وعباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وأحمد أمين وتشيكوف وجوركي وديستويفسكي وتولستوي وتورجنيف وبوشكين وجوجول وبلزاك وإميل زولا وفولتير وفيكتور هوجو والمتنبي والشاهنامة ولزوميات المعري ومعروف الرصافي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة والمازني وخالد محمد خالد وشارلز ديكنز وتوماس هاردي وشيكسبير وبايرون وجيته وشلرو..و..و.. كانت مكتبة عمي إسماعيل هذه أشد إبهارًا لي من مدينة الإسكندرية بأكملها.. ولولا ضيق وقتي وضيقي بطقوس الضيافة لخضعت لإغراءات عمي بأن أبقى مقيما في بيته لتكون المكتبة لي بشكل رسمي وفعلي لأن كارثته - كما أسماها - أن عياله لا يقرءون إلا في مجالات تخصصاتهم العلمية، وإنه ليحمل هَمَّ مصير هذه المكتبة التي أسسها بمزاج وأنفق عليها دم قلبه، وإنه الآن لسعيد بحبي للقراءة ويريد أن تكتمل سعادته بأن أغوص فيها وأغربلها قراءة ودرسا.

كلامه كان يزلزلني، أتمنى لو بقيت في المكتبة ليل نهار، لكن خطابات أبي لا تكف عن إلهابي لكي أظل متفوقًا في الدراسة. لن يغيب عن بالي جوابه الذي يعلق فيه على وصفي للنعيم الذي أعيش فيه، حيث قال في إيجاز شديد: «.. بعد كل هذا الدلع إن لم تطلع الأول على البر المصري كله فلتبحث لنفسك عن مشنقة تضع رقبتك في خيتها، فإن لم تجد ففي بحر الإسكندرية متسع لاحتواء الفاشلين!!». كان ذلك التحذير يطن في رأسي كلما انجرفت إلى عمل من أعمال الرفاهية يستغرقني أكثر من ساعتين على الأكثر. العجيب،

أو لعله ليس بالعجيب، أن اختلاطي بعمي إسماعيل وبمكتبته كان له الفضل الأكبر في رفع كفاءتي في الاستيعاب وفي تنظيم الأفكار وترتيبها وفق سياقات تبروزها وتحفرها في الذهن، فكان لا بد أن أطلع الأول بالفعل وإن كان ترتيبا على المدرسة وحدها وليس على البر المصري كله. احتفل الشماشرجية بي في تشجيع صادق ودافئ، وأقام أعمامي ليلة مليئة بالأنس وأكواب الشربات، ومنحت إجازة سافرت فيها إلى بلدتنا لتقام لي الحفلة الكبرى في مندرتنا الحبيبة.

(١٠)

كنت أول المندهشين حينما رن جرس الهاتف في مكتب إدارة التحصيل، فإذا بالمهاتف يطلبني أنا على وجه التحديد. دهشتي كانت من مصدرين: كوني أوجد في هذه اللحظة بالذات مع أن المفروض أنني الآن في السوق لولا أن الفسبة احتاجت لإصلاح اضطرني للمكوث حتى يعود بها الميكانيكي.. وكوني أرد على الهاتف بنفسي مع أن المفروض أن رئيس المكتب الذي يوجد عليه الهاتف هو الذي يرد لولا أنه كان لحظتها يصلي العصر في ركن من الغرفة، فاضطررت إلى رفع السماعة لمعرفة مَن المهاتف، فإذا بصوته يقتحمني دفعة واحدة ليسري في كياني كله يرعدني:

- «أين أنت يا عكروت؟ أما كان عيشا وملحا؟!».

هتفت بفرحة طاغية:

- «حمادة! أنت الذي تخون العيش والملح. لماذا نقلت نفسك من مدرسة محرم بك الثانوية؟!!».

- «أمي فضلت أن أستمر في التعليم الفرنسي. كيف لم تسأل عني كل هذا الوقت الطويل؟!».

تجمد لساني من هول المفاجأة: فعلا كيف لم أسأل عن حمادة كل هذا الوقت الطويل؟ كيف سقط من ذاكرتي تماما؟ هل انبهاري بالمدينة الساحرة هو الذي أنسانيه؟ ولكن.. لماذا لم يظهر في محيط العائلة طوال هذا الوقت؟ وأين اختفي؟ ولماذا لم يسأل عني
هو الآخر؟!

- «من أين تتكلم يا حمادة؟».

- «من مكتب عمي عمرو في الرمل!».

- «أنا مشتاق لك بجنون يا حمادة. متى أراك؟ وكيف؟ وأين؟».

- «أنا الآن في مكتب عمي عمرو بشارع صفية زغلول.. تعال!».

- «لكني ذاهب من فوري إلى السوق للتحصيل. مشواري بعيد في حيّ بحري،كما أني تأخرت عن موعدي لعطل في الفسبة!.. اسمع. أعطني موعدا في أي مكان، أو تعالَ أنت لي يا أخي في بيت عنتر بك..في القصر..سيرشدك البواب إلى غرفتي..لا تأجيل لا اعتذار لا تلكيك. ماشي؟».

- «وحشتني والله يا عكروت. وحشتني جدًّا. حاضر يا بهاء. سأفوت عليك، متى تحب؟ خلاص.. فليكن. سأعطيك الغد كله وليس خسارة فيك، فاختر الوقت الذي تكون فيه متفرغا لي!».

- «غدًا الجمعة أليس كذلك؟ حلو.سأعتذر لعمي صلاح وأنتظرك في البيت من صبيحة ربنا».

- «إلى اللقاء».

- «شكرا يا حمادة».

وضعت السماعة وقلبي يرتعش لا أدري إن كان من الفرح أم من التوجس. وكان الميكانيكي قد ترك الفسبة دائرة على باب المكتب، وبينما أتجه إليها رمقني رئيس الخزنة بنظرة تخلط بين معنى التقدير ومعنى الاستراية كما توجست، إلا أن نظراته ما لبثت حتى أسفرت عن شعور واضح بالاحترام لي باعتباري على علاقة وثيقة بالعائلة.

(١١)

طرق السفرجي باب غرفة النوم، فاعتدلت قاعدا على السرير هاتفا: ادخل.

وضع صينية الفطور على منضدة مجاورة للسرير:

- «صباح الخير!».

مدَّ يده ليرفع المفرش. أشرت له أن يبقيه. رمقني بنظرة متسائلة. قلت له إن صديقا سيأتي بعد قليل ليفطر معي. شوح في أريحية:

- «أهلا به. واحد من أعمامك الحبايب؟!».

- «لا، إنه صديق شماشرجي».

حب الاستطلاع تحفز على وجه عم إدريس السفرجي، صارت ملامحه السوداء تلمع في قرطاس من ضوء الشمس الحمراء قادما من خصاص باب الشرفة، بدا عليه شعور بأنه في موقف حرج، ثم سألني بلهجة ودودة:

- «عدم المؤاخذة يا أستاذ. قلت إنه شماشرجي، وإذن فلابد أن أعرف من يكون. هذا واجبي لا تزعل منه!».

- «إنه.. حمادة الشماشرجي».

هتف كالمندهش غير المصدق:

- «حمادة بك ابن هاني بك؟!».

- «نعم هو».

تجمد وجه عم إدريس على نظرة طافحة بالفزع. بدت عليه الورطة، نكس رأسه في الأرض لبرهة خاطفة ثم رفع وجهه ملفوفا في ابتسامة مشوبة بالدهاء والطيبة معا:

- «أهلا به! يشرف طبعا. أشكرك لأنك قلت لي. كان يجب أن أعرف من الأول حتى لا أرتبك إذا فوجئت به أو إذا علم عنتر بك بحضوره من أحد غيري!».

- «هل لابد أن يعرف عنتر بك؟!».

كوَّر بوزه نافخا شدقيه مطلقا صيحة استهوال واستفظاع:

- «أووووو! إلاّ يعرف هذا.إنه إن لم يعرف تبوش الأرض تحت أقدامنا جميعا ويتطاير هذا القصر بمن فيه في الهواء الطلق. يظهر والعياذ بالله أنك لست تعرفه جيدا ولا تعرف طبع الشماشرجية!!».

أراح إليتيه على مسند الكرسي مع إيماءة من رأسه وابتسامة دمثة تستأذنني في أن أسمح له بذلك، تكاد نظرته النوبية الحبيبة تقول: من فضلك. ثم اتخذ هيئة من سيلقنني درسا أبويا لمصلحتي:

- «عنتر بك لا شغلة له في الحياة ولا مشغلة سوى أن يعرف ويعرف ويعرف إلى ما لا نهاية.جميع أشغاله يقوم بها موظفون في جميع التخصصات!.. الماكينات البشرية منضبطة كآلات المصانع تفعل كل شيء من تلقاء نفسها، وكل الشغل يتحول آخر الليل إلى قصاصات من الورق تحوي أرقاما تبلغه أولا بأول! سعادته طوال النهار والليل يردد عبارة واحدة: عايز أعرف، عايز أعرف، أحب أعرف إيه اللي حصل من طقطق لسلامُه عليكم!.. ومهما عرَّفوه كل شيء يظهر دائما أن هناك شيئا يريد أن يعرفه، ويا ويل من كان يعرف أي شيء عن أي شيء في أشغاله في قصره في مكاتبه ولم يقله لسبب من الأسباب! وقعة أمه سوداء. وتكون أسود لو عرف عنتر بك شيئا من أحد غير مَن كان يتوقع أن يقوله له! إن المسألة هنا ليست جهجهون يا أستاذ وإلا كان زمانها خربت!».

ثم اعتدل مقتربا مني لتقريب مساحة الود بيننا. وحملق في وجهي بعينيه اللوزيتين القويتين مكملا بصوت دافئ:

- «منذ كم يوم وهو على سُفرة الغداء طلب جهاز التليفون فجأة وهو مندمج في الأكل. طلب إدارة التفتيش والصيانة. قال له: الحقوا بسرعة يا نائمين على آذانكم، مياه الصرف ضربت في المخزن القبلي!.. والظاهر أن رئيس الإدارة عارضه بقوله إن كل شيء تمام أو شيئا من هذا القبيل، إذ إنه صرخ فيه بعنف: كذاب! اعمل ما قلته لك! ثم رزع

السماعة في وجهه واستأنف الأكل! بعد دقيقة واحدة رن التليفون، فإذا بإدارة المخازن نفسها تستغيث بأن مياه الصرف طفحت وكادت تتلف البضائع لولا أن الله ستر وتمكنوا من اعتقال المياه قرب العتبة بقليل!.. فمن أدراه يا أستاذ بأن مياه الصرف طفحت مع أنه لحظتها كان جالسا يتغدى في البيت؟ إن دماغه مربوط بكل شيء في معيته، يحسب الأحوال والأوضاع وتطوراتها مستقبلا!!».

أحببت عم إدريس وشعرت بأنه يحبني ويلفت نظري إلى ما قد أقع فيه من أخطاء تضر علاقتي بالشماشرجية. قلت له:

- «واضح يا عم إدريس أنك تعرف عنتر بك وتفهمه كأنك أبوه!».

شوح بأصابع طويلة محنية القامة من فرط خجلها من التشويح العفوي:

- «وهل تقول فيها؟ وعلى فكرة يا أستاذ بهاء، اسمح لي يعني.. ليس من الصواب أن أقول لك شيئا مما قلته لولا أنني أعشق شخصية والدك مساه الله بالخير وأعتبرك ابني. وضعي هنا منذ ولدت وتربيت في هذا القصر وتسلمت عمل أبي بعد رحيله يحتم عليّ أن أعرف مركزي كسفرجي لا يفهم إلا في شغله ولا شأن له بأي شيء آخر إلا شغله، وشغله فحسب. هكذا ربانا الشماشرجية الكبار من عصر الخديو إسماعيل: هنا الباشا باشا والبك بك والأفندي أفندي والخادم غير الفراش غير الطباخ غير السفرجي غير اللبيس غير الجنايني غير البواب غير السواق! كل واحد عارف مركزه وقاطع لسانه حتى لا يغلط بكلمة مزعجة! هذا عن القصر الشماشرجي بوجه عام. أما النظام والضبط والربط في المصانع والشركات والمكاتب فشف أنت ماذا يمكن أن يكون؟!».

- «قل لي من فضلك والنبي يا عم إدريس. وحياة والدك يا شيخ، صارحني ما دمت اعتبرتني ابنك.. حمادة بن هاني بك هل هو غير مرغوب فيه من أهل القصر؟ أرجوك نبهني!».

رفع كتفيه النحيلتين في تلقائية حكيمة:

- «ومن أدراني يا أستاذ بهاء؟ نقول: ثور، تقول: احلبوه؟! تسألني عن شيء ليس من حقي أصلا أن أعرفه أو أسأل عنه أو أتكلم فيه؟ وهل يليق بابني أن يشنكلني ليوقعني في الغلط؟!تظنني مجنونا لكي أقول لك شيئا كهذا؟!عن إذنك!».

وحمل الصينية ومشى..

- «سأبعث لك بفطور لاثنين!».

صحت فيه:

- «فطوري هذا يكفينا معا. لا داعي للتعب!».

توقف عند الباب وأرسل نظرته التي خُيل إليَّ أنها مقعية
فوق ركبتي:

- «ولا هذا يحق لك أن تحدده، ولا يحق لي أن أسمع كلامك فيه.إن القاعدة هنا أن كل ضيف له واجب على قده.إن حمادة بك الشماشرجي بلا قافية واثق بأنه آت ليفطر في قصر عمه عنتر بك الشماشرجي لا في قصرك أنت من غير مؤاخذة. فالواجب إذن أن نقدم له فطورا شماشرجيا كاملا».

أوشكت عندئذ أن أكرهه، إلا أنني فطنت في الحال إلى أن كراهيتي للحقيقة لن يغيرها أو حتى يحسِّن من شكلها.

السرير الذي كان منذ برهة يهدهدني شعرت به ينفضني، يطردني، يكاد يلقي بي على الأرض كأنما عن عمد قبل أن تستقر قدمي داخل الخُف المنزلي. أزحت الستارة المخملية عن النافذة الشرقية، فكأنني عريت النهار من ثيابه الخارجية الثقيلة. بعد حمّام دافئ خرجت إلى الشرفة فوجدت قرص الشمس متربعا في زجاج الترابيزة المصنوعة من جدائل البامبو، فبدا لي أن النهار قد خلع كل ثيابه ليستحم تحت خرير الضوء الدافئ، فظهرت ملامحه الفاتنة فوق الأشجار وعلى ممر الحصباء. كان النهار فرحان يغني ويشقشق في الخمائل المتقابلة المتقاربة، وفي أصوات المراكبية في سفح القصر على شاطئ ترعة المحمودية، وفي صوت محمد عبد الوهاب يصدح في راديو القصر بأغنية: محلاها عيشة الفلاح متطمّن قلبه ومرتاح. قامت الشمس عن الكرسي لكي أجلس، ثم طرحت فوقي ملاءة برتقالية اللون ملساء الخشونة. الساعة الجوفيال في معصمي تشير إلى التاسعة والنصف صباحا.

خطر لي أن مصدر ابتهاجي هو أنني أشهد الصباح هنا لأول مرة، إذ إنني اعتدت قضاء يوم الخميس عند عمي إسماعيل ويوم الجمعة عند عمي صلاح، حيث نقضي سهرة الخميس عند عمي عوض نستمع إلى حفلة أم كلثوم وأنصرف قرب الفجر مع عمي صلاح لأغادره صباح السبت إلى المدرسة مباشرة. شيء عجيب حقا أن يختلف طعم الأصبحة باختلاف المكان حتى في نطاق الحي الواحد، بل ربما في نطاق البيت الواحد. الأعجب من ذلك أن ابتهاجي بهذا الصباح الرومانسي الغنّاء في بطانة من الرياش الناعمة سرعان ما بدأ يبوخ شيئا فشيئا، إذ إن شعورا نكدا انسرب في عروقي ينبئني بأنني في وضع مؤقت، وبأنني لست منتميا إليه ولا أحب أن أكونه في قابل الأيام. الكآبة توشك أن تعتريني لأسباب بدت غامضة.

سيارة ماركة فيات ألف ومائة ذات سقف متحرك لونها أبيض سن فيل تتهادى زاحفة على ممر الحصباء. قمت واقفا أتملى من جمالها. توقفت. نزل منها شاب فارع القوام يغطي عينيه بنظارة خضراء غامقة بإطار ذهبي. كان في غاية الأناقة، يرتدي سترة من الجلد اللميع الأسود من المرجح أنه جلد غزال، تحته فانلة من الكشمير بنصف رقبة لونها سمني، على بنطلون لونه رمادي. رائحة عطره النفاذ طغت على روائح الفاكهة. أغلق باب السيارة ثم رفع رأسه نحو الشرفة ملوحا بذراعه فيما يتجه إلى الباب في رصانة البكوات الكبار. هل كبر إلى هذا الحد في هذا الوقت القصير؟! يبدو أنني كنت نسيت شكله القديم!

ارتمى في حضني بحرارة، عبَّطنا في بعضنا مثل عاشقين التقيا بعد اغتراب طويل. كدت أبكي من فرط حرارة اشتياقه لي وهو يربت ظهري بيديه الحانيتين. ثم إنه اقتادني بنفسه إلى الشرفة بحركة من يده تعني الائتناس بشقشقة العصافير في دفء الشمس. خلع المنظار والسترة الجلدية ورمى بهما في إهمال فوق السرير، وجلس على الفوتيْ الذي يعطي ظهره للقصر. جلست في مواجهته على الكرسي المقابل. إن هي إلا برهة ودخل عم إدريس يحمل صينية كبيرة ومن خلفه صبي يحمل صينية صغيرة خاصة بأطباق الحلوى والعصائر والفاكهة. تولى عم إدريس رفع المفرشين عن الصينيتين، ثم صافح حمادة بحرارة وسحب صبيه وانصرف.

عندئذ امتلأ حلقي بغصص كانت دموعا حبستها بقوة عن عيني.. ذلك أن كل شيء في الفطور قد اختلف: المفرش من الحرير الطبيعي، الصينية من الفضة وكذلك الملاعق والسكاكين والشوك، الأكواب من البللور، والأطباق مزخرفة بماء الذهب. كل شيء في الطعام كان من نوع أرقى، أضيفت إليها أطعمة بحرية نادرة أوصاني حمادة بالإكثار من أكلها، حتى الحلوى والعصائر كانت تفوح منها روائح منعشة، حتى الشاي كانت أكوابه داخل كسوة فضية منقوشة بزخارف ملونة. عبثا حاولت الهروب من المقارنة بين هذا الفطور وما يقدم لي كل يوم. هذا فطور السادة أما ذاك فهو فطور الخدم. لم تكن هذه المقارنة هي مصدر شعوري بالقهر المؤلم، إنما الأفظع منها هو أنني لا يجب أن أكون شحاذا يتطلع إلى تسول السيادة.

طردتنا حرارة الشمس إلى الغرفة. على الكنبة الاستديو جلست مفروطا من فرط الامتلاء الذي بدأت أشعر به إلى حد هو بغيض إلى نفسي. وعلى الكرسي المتاخم للترابيزة الدائرية ذات السطح الزجاجي السميك ارتمى حمادة، سحب علبة السجائر مع القداحة الذهبية الدنهل، ودفتر ورق بافره من منتجات مطابع محرم على بعد خطوات منا في شارع عثمان جلال، وراح يفرك بين راحتيه أصبعا تخينا ملفوفا بورق السوليفان. ارتعت من منظره:

- «إيه ده يا حمادة؟!».

- «حشيش».

- «حشيش؟!!».

- «من البريمو! لا يشربه إلا الوجهاء!».

- «كنت سألومك على شرب السجاير، فماذا أفعل وفي الأمر حشيش؟!».

- «ستشرب معي طبعا!».

- «أجننت يا حمادة؟ أشرب الحشيش؟! إذا كنت لا أشرب السجائر أصلا فكيف تريدني أن أشرب الحشيش؟!».

- «صدقني، إن الدنيا لن تخرب إذا أنت شربت حتى أم الحنة. لن تتعطل في الدراسة. لن تفسد! الحشيش متعة من متع الدنيا وإلا ما خلقه الله!.. الواحد منا إذا لم يتمتع بكل ما في الدنيا من متع خلقها الله من أجلنا يموت خسرانا!.. الدنيا ليست شهادات ولا مراكز ولا أموال طائلة فحسب!.. افرض أنك مثلا صرت في أعلى المراكز أو مليونيرا ذات يوم، فبماذا ينفعك المركز أو المال إذا داهمك الموت قبل أن تعيش؟!.. شُف يا صاحبي، مال الكنزي للنزهي كما

يقولون، وأنا من أشد المؤمنين بهذا المثل الشعبي الجميل!!».

- «عفوا يا فيلسوف الغبرة! إنك بهرتني أول ما شفتك في البلد لأني تخيلتك مشروع رجل أعمال ناجح مستقبلا، فإذا بك الآن تحدثني عن فلسفة الطيش والفساد!.. الشماشرجية كلهم ناس في منتهى الاستقامة والاحترام، ولهذا نجحوا في الحياة هذا النجاح الباهر!».

- «هذا ما تتخيله أنت، لأنك ترى على قدّ ما تعرف!».

- «وأعرف على قدِّ ما أرى.هذا طبيعي!».

- «الذي لم تعرفه ولم تره بعد.. اسمح لي.. أن كل صاحب مركز أو مال أنفق زبدة عمره في كفاح مرير من أجل تحقيق الجاه: مركزا أو مالًا!.. فلما يحققه بعد عمر طويل تجيء عليه لحظة - ولا بد أن تجيء - يشعر فيها بأنه لم يستمتع بعمره، فإن أراد الاستمتاع بأثر رجعي - أو على الأقل فيما تبقى له من عمر - يتضح له أن الصحة لم تعد قادرة على الاستمتاع لأن المتعة هي الأخرى حمل ثقيل يتطلب صحة وعافية!».

- «يا أخي لكل عمر لذته المناسبة و...».

- «هكذا يعزون أنفسهم بمثل هذا الكلام. خذ عندك مثلا عمي عنتر بك (ثم انتبه فجأة فخفض من صوته إلى حد الهمس الحميم الدافئ) هل تتصور أنه سعيد في كل هذه الأبهة؟ أو عمي الحاج مصطفى أو عمي عمرو بك أو أبي هاني بك؟! صدقني يا بهاء، إنهم جميعا تعساء يعيشون حياة لا طعم لها. لقد ورثوا عن أجدادهم عبادة المال، فأصبح من المستحيل على أي واحد من نسلهم أن يخرج من معبد الفلوس إلى شوارع الحياة المليانة بالمتع وعلى رأسها متعة الشقاء في كسب ما يكفي للإنفاق على الحياة.. الحياة.. الحياة بمعنى الكلمة. أنت لا شك تفهمني!.. أنا طالع لخالي وعائلة أمي: نكسب لنعيش جيدًا لا لندخر أموالًا تتجمد في أرصدتها دماؤنا حتى يجيء من بعدنا مَن يبددها ويتمتع بها حتى النخاع!».

ثم بلل الورقة البافرة بطرف لسانه وبرمها حول السيجارة بين أصبعيه بدربة وخفة يد، ثم أضافها إلى الملفوف وشرع يفرك الحشيش على سيجارة جديدة. ثم مدّ رقبته الطويلة نحوي كرأس حية الكوبرا المصرية لكنها على شيء من خفة الظل، أخذ يفح وفي عينيه بريق ذكي مخيف إلى حد الشيطنة:

- «سأقول لك نكتة! عمي الحاج مصطفى عمره الآن خمسة وثمانون عاما، والعين لا تعطيه أكثر من خمسين لأنه باسم الله ما شاء الله في صحة جيدة جدًّا!.. مع ذلك، منذ أسبوعين كان يعرض نفسه على أشهر أطباء القاهرة، دلته أمي عليه. كان مستعدا أن يدفع للطبيب كل ما عنده من أموال إذا جعله ينتصب وينجح مع أي امرأةٍ!.. السر الذي لا يعرفه أحد حتى الشماشرجية أن عمي الحاج مصطفى تزوج في السر ما يقرب من أربعين مرة بحثًا عن المرأة التي تعينه على النجاح ولو لليلة واحدة. كل زيجة كلفته أموالًا خيالية دفعها ثمنًا للطلاق الودي، وأنفق منها على مقويات وحقن وعقاقير ووصفات لا حصر لها!».

- «يا له من سر خطير!».

- «وما أكثر الأسرار يا بهابيهو! لو كنت أنت عاشرت أصحاب الأموال مثلي لكرهت المال واحتقرته.إنه يشكك الإنسان في عياله وأهله ويوهمه أن كل من يتقرب إليه طامع فيه، فيتحفظ ويصد ويقيم الحواجز والمتاريس حول نفسه! جدي عزت باشا أخفى عن عياله أموالًا وعقارات كثيرة جدًّا ظهرت بعد موته مصادفة، ومعظمها لم يظهر إلى اليوم، ولا أحد يعرف لماذا أخفاها عنهم طوال حياته مع أنه مات في فراشه وسط عياله!.. يا عم فضها سيرة!».

ثم أشعل سيجارة ملفوفة ونفث دخانها في استمتاع شديد:

- «نصيحة لك من أخ يحبك أن تجعل لمتع الحياة نصيبًا في وقتك. لا تهمل شبابك حتى يجف!».

- «يا حمادة يا حبيبي هذه مخدرات تؤدي إلى إدمان، والإدمان يؤدي إلى الجريمة.. سرقةً واختلاسًا لتغطية مصاريفه الباهظة! والنهاية المحققة دائمًا هي الضياع في سجن أو تشرد أو موت!.. لا تفتري على صحتك وشبابك يا حمادة!».

- «الحشيش لا يؤدي لإدمان كالخمر والأفيون، بدليل أنني أشربه على الدوام فإن غاب عني لا أتحرق عليه!.. خذ.. ولع!».

بيد مرتعشة نحيت يده جانبًا:

- «أعفني أرجوك!.. عاهدت أبي على الابتعاد عن المكيفات لأحافظ على سلامة عقلي!».

- «شكرًا.الله يسامحك.لكن يجب أن تعرف أن الحشيش من أنزه المكيفات.. لا يفقد عقله إلا ضعيف العقل أصلا!».

- «نفسي أفهم ما الذي يستفيده شارب الحشيش؟! ولماذا يدافع عنه واحد مثلك متعلم!».

- «تريد أن تعرف حقًّا؟».

- «وبفارغ الصبر!».

- «جرب وأنت تعرف بنفسك.مهما قلت لك لن أستطيع شرح ما يفعله الحشيش الطيب في رأسي الشقي!.. ولعلمك، أنا تعلمته من العائلة: أبي وعنتر بك والحاج مصطفى وعمرو بك وكبار العائلة في بلدتكم!».

جعلت أرقبه إذ يسحب الأنفاس بلذة ويرمقني بنظرة تحريض وإغراء:

- «آه لو جربت ولو سيجارة واحدة.واحدة فقط.. وابتعد عنه بعدها! سوف ينعش رأسك! يحرك خيالك! يبهجك.يجعلك تفكر بذهن صاف! ينسيك آلام الهموم فتفكر فيها على رواقة كما يقول الحاج مصطفى!».

- «هموم؟! هذا والله شيء في منتهى الغرابة.أنت يا حمادة.. عندك هموم ومشاكل تسبب لك آلاما؟!».

- «شف قلة أدب الزمن!».

- «عجايب! آخر ما كان يخطر ببالي أن يكون حمادة الشماشرجي عنده هموم!».

- «ومؤلمة من فضلك!».

ثم جعل يرمقني بعين واسعة صافية الضوء، إلا أن نظراتها محملة بأطياف من أسى شفيف أوحى لي بصور ومشاعر كثيرة غامضة، لكنها تحفزني بالإصرار على معرفة كنه هذه الهموم المؤلمة التي يمكن أن يعانيها شاب كحمادة هاني الشماشرجي يحوطه النعيم من جميع الجهات..

ولقد تعددت اللقاءات بيننا في نفس الغرفة في أصبحة كثيرة من أيام العطلات الرسمية يتكرر فيها نفس الحديث ربما بنفس العبارات، لكن بتجليات جديدة ومشاعر طازجة تعمق مشاعر سابقة، وتستجلي معلومات قيلت في لقاءات ماضية، وتضيء مواقف وتصرفات كانت من قبل غامضة وملتبسة.. تكاد أحاديثه عبر لقاءاتنا المتعددة تؤرخ لمراحل من حياتنا.

.. «هل تذكر الشاعر الجاهلي الذي أخذناه في حصص المحفوظات وله معلقة مشهورة اسمها

مكر مفر مقبل مدبر معا　　　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

«بالأمارة يسمونه بالمَلِك الضِّلِّيل!.. نعم نعم هو ذاك، تذكرته: امرؤ القيس!.. أنا مثله بالضبط يا بهاء.. ملك ولكن ضليل!.. تصور يا بهاء أنني - على الورق فحسب - أغنى واحد في مصر؟!.. مالك اندهشت هكذا؟ تظنني أخرف طبعا من جراير السُّطل، لكن لا، ليس للحشيش ذنب فيما أقول، إنما هي الحقيقة، نعم أنا أغنى من أبي ومن عنتر بك وعمرو بك والحاج مصطفى نفسه! وحتى لا يصيبك الشلل من الذهول لن أقول لك إن ثروتي توازي ثرواتهم جميعا مجتمعين.. ولكن أين هي هذه الثروة؟!..

«أجارك الله يا بهاء يا أخي من أمي وزوجة خالي أماليا.. جبارة متسلطة، تضن عليّ بالفلوس في حين لا مانع عندها من إنفاقها كلها على الجمعيات اليهودية وفقراء اليهود اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين والمصريين!.. هي عجوز مريضة بكل أمراض الدنيا، ومع ذلك لاتريد أن تموت، كل أهلها ماتوا في بلاد الغربة ولم يبق من سلسالها سواها.. وترفض الموت!.. يخدمها وحدها طاقم من الخدم يكلفنا مئات الجنيهات. تتحرك فوق عربة معوقين، واحد يدفع العربة، واحدة تختص بأكلها وشربها، واحدة تعنى بملابسها ونظافتها، واحدة تسهر على فراش نومها، ممرضة للصباح وأخرى للمساء، طبيب للقلب وآخر للصدر وثالث للمخ والأعصاب ورابع للعيون.. جميع أطرافها متيبسة.. لسانها يتكلم بالعافية.. الزمان الغبي قرر أن تكون هذه الحية الميتة هي الوصية عليّ إلى أن أبلغ سن الرشد!!..

«الدور والباقي على أمي!.. تهددني دائما بأنني حتى لو بلغت سن الرشد فلن تمكنني من ثروتي!

«ثروتي هذه ورثتها عن خالي، والست ماما تعتبر أنها صاحبة الثروة وعندها اعتقاد بأنني سوف أبددها في شغل المعيلة، فخير ضمان لها إذن أن تبقى في أمان الله في البنوك تدر دخلا يكفي لبكويتي!

«زوجة خالي هذه بصراحة لا أستطيع أن أكرهها أو أتمنى لها الموت!.. إنها هي التي ربتني في الواقع!.. كانت عقيمة.. وخالي أيضا كان عقيما ثبت عجزه عن الإنجاب من زيجات سابقات اضطر إلى تطليقهن وارتبط بهذه التي ربتني، قال ما دمتُ حرمتُ من الخلفة فلأعش بقية عمري مع إنسانة تريح قلبي وتكون مقطوعة من شجرة حتى أضمن ولاءها وعدم وجود أهل يطمعون في ثروتي!.. هو يرحمه الله كان يحبها جدا، لكن حبها له كان أقوى!.. عاشا حياتهما بالطول وبالعرض في جميع أنحاء العالم.

«خالي كان عبقريا في مشروعاته التجارية والصناعية، إضافة إلى ما ورثه عن أبيه سليمان باشا داوود الشهير بالقططي، لعلك تسمع عنه كأحد أهم رجال الاقتصاد في مصر!.. كان خالي يوسف على عتبة الخمسين من عمره، والأمل في الإنجاب لا يزال يلح عليه يكاد يعكر صفو حياته، فاصطحب زوجه وسافر إلى أمريكا ليعرض نفسه - للمرة الأخيرة - على أشهر الإخصائيين في أحدث مراكز الطب المتخصصة.. وبعد تحليلات دقيقة أكدوا له أن حيواناته المنوية تولد ميتة لأسباب عجزوا عن اكتشافها، فقال خالي لنفسه: ما بدهاش! صفى معظم شركاته ومصانع أبيه وحوَّل أثمانها إلى ودائع سائلة وسبائك ذهبية في عدد من البنوك، أبقى على بعض مكاتب الاستيراد والتصدير من أجل مصاريفه الشخصية، ثم.. تفرغ للحياة!

«كان معذب النفس من شيء واحد: أين ستذهب ثروته هذه إذا هو مات، وكلنا بالطبع سنموت؟.. كانت تعتريه نوبات من الشجاعة الجنونية فيتبرع بمبالغ ذات أرقام ضخمة لجمعيات خيرية تساعد إخواننا اليهود المضطهدين في العالم! جمعيات كثيرة ذات أسماء عجيبة لها مقرات في مصر وفلسطين وإنجلترا وأمريكا وسويسرا والسويد وبولندا!.. ماما - ربنا يعطيها الصحة - فرملته!..

«طول عمرها شديدة التأثير عليه!.. إنهما الوحيدان اللذان بقيا من خلفة جدي سليمان باشا القططي، وكانا - كما تحكي لي ماما - كنفس واحدة في جسدين لا يستغني أحدهما عن الآخر لحظة واحدة!.. قالت لخالي في لحظة صفاء:

- «في بطني جنين، جاءني الهاتف في المنام وقال لي: توقفي عن رياضة السباحة وحافظي على بطنك من أجل يوسف، واختفى.. فبعدما صحوت قلت إنني سأنجب ولدًا وأسميه يوسف على اسم أخي!».

«لحظتها أخذها خالي بالحضن وقبلها فوق بطنها يكاد يطير من الفرح وهو يصيح:

- «إنه وريثي، وهذا هو معنى كلام الهاتف في منامك يا أختي الحبيبة! خلاص يا راشيل، هذا وعد قطعته على نفسي: نذرًا عليَّ إن أنجبت ولدًا يا راشيل سأجعله وريثي الرسمي، فابنك هو ابني أيًّا كان أبوه الذي وضع بذرته، الخال والد على كل حال!».

«في قصر خالي في حي المنتزه ولدتني ماما تحت رعاية أكبر طبيب ولادة في مصر: الدكتور نجيب محفوظ!.. وعلى فكرة، قرأت مرة أن هناك أديبا يكتب الروايات اسمه نجيب محفوظ، وقد أسموه بهذا الاسم لأن الدكتور نجيب محفوظ هو الذي أشرف على ولادته. المهم أن خالي يوسف رآني صورة طبق الأصل منه لا أحمل ملمحا واحدا من عائلة أبي الشماشرجية المتختخين الغلاظ الملامح!.. فرح بي جدا جدا! أنجز وعده. أشرفت ماما على التوثيق القانوني. عينت زوجة خالي أماليا وصية عليّ. ماما ذكية جدا للعلم، خشيت أن تكرهني أماليا زوجة خالي رغم أن خالي كتب لها الكثير الكثير مما لا ينفد مهما أنفقت، لكن ماما أرادت أن تحسسها بأنها لا تزال - وسوف تظل - هي الكل في الكل في هذه المعية القططية.. إلا أن ذكاء ماما لم يكن ليوصلها إلى حد التصور بأن زوجة خالي قد تصبح ببساطة هي أمي الحقيقية.. وهذا ما قد حصل!..

«أصل الحكاية أن.. أن.. لا أدري ماذا أقول!.. الحقيقة أصلها مؤلمة!.. ولكن.. لست بقادر على حبسها في صدري الذي لا يتسع لها وهو ضيِّق من حاله، فماذا تراني أفعل؟ ليس من المعقول أن يمشي الواحد منا في سكك الحياة وهو شايل على قلبه صخرة من جبل السلسلة!.. الحمد لله أنني أنست إليك من أول مقابلة وشدني فيك مغناطيس قوي جعلني أستنيم إليك وأبوح بكل شيء، وما دمت أنت قد رأيتني عاريا فلا معنى لأن أخبئ عنك ما قد ينكشف غصبا عني ذات لحظة فتلومني وتتغير من جهتي.. وإني لسعيد حقا بمعرفتك وبقيام هذه الصداقة بيننا، أشهد أنك طيب القلب، فيك رجولة بمعنى الكلمة وجدعنة، تأكدت من أصلك وأنك محل ثقة! ولعلمك، أنا واثق بأنك مدرك أنني منبوذ من عائلتي حتى وإن بالغوا في مجاملتي سرًّا وعلانية.. وأثق أنا أيضا بأنك أنسب وأجمل مَن أفضفض معه دون أن يسيء فهمي.. دون أن يستنقصني مثلا أو يستصغرني أو حتى يحتقرني!.. وإذن فأنا الذي عشت عمري الماضي وحدانيا بمعنى الكلمة، شاعرا بالغربة رغم كثرة الخلان ودوام السهرات والحفلات، قد وجدت الآن تكملتي فيك، أخيرا وجدت مستودعا لأسراري وهمومي ونزواتي وبهجتي!..

«سأجيبك عما يلمع في عينيك من تساؤلات: ماما - كما لا بد أن تكون قد فطنت بذكائك اللماح - لا وقت عندها تعطيه لشئوني، اللهم إلا لحظات نادرة خاضعة للمصادفة نلتقي فيها لقاء العشاق بعد طول اشتياق!.. فيما عداها أنا منفي تقريبا من حياتها حتى وإن طال جلوسنا معا في شقتها!.. أتركها إلى زوجة خالي أماليا!.. ليس عندها صحة تحتملني وليس عندي صبر على احتمال توجساتها وأناتها التي لا تنتهي، كما أنها تؤلمني أشد مما يؤلمها الوجع!.. أصبحت أتعاطف مع أيتام الشوارع وأصاحبهم أحيانا! صدقني أنني لا أجد فرقا بيني وبينهم في كثير من الأحيان!.. لا فلوس ولا ملابس فاخرة ولا مدارس أجنبية ولا عراقة أصل ولا مركز ولا جاه ولا شيء من كل ذلك يداوي جرح من يشعر باليتم حتى وإن كان أبواه على قيد الحياة!.. كلانا - يتيم الشوارع وأنا - نتلطم في المتاهات والصياعات والشقاء المجاني ونعود آخر الليل وقد شبعنا تلطيشا وتهزيئا ومسخرة، ولكن دائما أبدا كان هناك محصول تكسبناه، ربما كلمة جديدة تعلمناها، أو عادة، أو متعة، أو تجربة.. لا بأس على كل حال! يا أخي عندي إحساس بأن الثروة الحقيقية التي ستبقى لي في الحياة هي ما تعلمته من الصياعة في الشوارع! لكن.. صياعة عن صياعة تفرق!!..

«تريد طبعا أن تعرف لماذا أشعر بأنني منبوذ من عائلتي الشماشرجية!.. آه يا بهاء، ماذا أقول؟ هه؟ إني في غاية الحيرة لا أعرف من أي باب أدخل!.. أصل السبب أمي!.. لا.. أصل السبب أبي!.. لكن.. لا أيضا.. أصل السبب جدي القططي وخالي يوسف!.. أصل السبب عائلة الشماشرجية!.. لا أعرف! أقصد أن دماغي يحتاج لتنظيم حركة المرور فيه، السيارات كسرت جميع الإشارات وتصادمت وتكومت وسدت جميع المنافذ!.. دعنا من أصل السبب الآن إلى أن تنتظم الحركة في دماغي!

«يا أخي، ماما هذه كلكيعة غموض!.. بصراحة هي أكبر منطقة ظلماء في حياتي!.. أحيانا تعاملني كأني عشقها الأوحد في الحياة لدرجة أنها أحيانا من عنفوان عاطفتها المشبوبة تقول في مثل تلك اللحظة المبهجة: لو لم تكن ابني لتزوجتك!.. وأحيانا أخرى لا تكاد تعرفني كأنني غريب من كوكب آخر!.. هي مثلا مثلا تحدثني عن ناس معينين باعتبارهم من ألدّ أعدائها، ولكن يتصادف أن أزورها في شقتها بشارع الإسكندراني - وهي الشقة التي اشتراها أبي باسمها ليتزوجها فيها - فأفاجأ بأن واحدا من ألدّ أعدائها أولئك موجود عندها يتسامران في ود وسبهللة وحب واضح من الطرفين، بل قد أجدهما في خلوة ينقبض قلبي منها، وبخاصة أنها في مثل هذه اللحظة تعاملني كأنني زائر من زوارها جاء في وقت غير مناسب!

«تريد الحقيقة؟.. كثيرا ما يدور في خواطري أن زواج أمي من أبي هو الذي أمرضها وأفسدها!.. الزواج كان شؤما عليهما معا في الواقع!.. سأريح دماغي وأجيء لك بالحكاية من جذرها: خالي يوسف من أم، وأمي من أم أخرى. أم خالي يوسف يهودية مصرية أبا عن جد، وأم أمي يهودية إيطالية. وأم خالي يوسف كانت قد عقمت بعد إنجابها له، ثم أصابها مرض خبيث أهلكها وبقي جدي سليمان باشا القططي وحيدا وهو في صحة جيدة، وكان أيامها قد ترك منصبه وزيرا للمالية وطلق السياسة وتفرغ للاقتصاد، خصوصا أنه - بالمناسبة - كان مشاركا في تأسيس بنك مصر وعضوا بمجلس إدارته، وكان صاحب بنك خاص، في مكتبه بذاك البنك عينوا له سكرتيرة خاصة، كانت حسناء إيطالية فاتنة في العشرينيات من عمرها وتجيد أكثر من لغة. كانت فاتنة في شغلها أيضا لدرجة أنها بعد بضعة أشهر من عملها خطفت جدي خطفا حتى إنه كان ينزعج بشدة إذا غابت عنه برهة واحدة..

«كرجل عملي لا يعرف الطرق اللولبية قال لها: تقبليني لو عرضت عليك الزواج؟ قالت له: أقبلك طبعا، في نفس اليوم تزوجها، في اليوم التالي كانا معا على ظهر باخرة تمخر بهما عباب الموج إلى مدينة نابلي لتقدمه لأسرتها ويقضيان شهر عسل طلياني. في طريق العودة على نفس الباخرة بعد ثلاثة أشهر في إيطاليا استغلها جدي في عقد صفقات واتفاقيات وعقودات. أخبرته جدتي الإيطالية وهما يشربان شاي العصر على سطح الكويرته بأنها حامل، فكاد يجن من الفرح، بعد تسعة أشهر بالضبط ولدت له أمي راشيل.

«قيل إن الشعننة ألهبت مشاعر أمها - جدتي - طوال شهر العسل فرقصت في جميع المحلات وأكلت وشربت وتبغددت كما لم يحدث في حياتها من قبل، ثم إنها تحولت بعد العودة إلى خادمة سرير لجدي حتى أعادت له شبابه.. قيل إنها أورثت ابنتها كل ما في الكون من نزق وشعننة فأصابها جنون المتعة تعيشها حتى النخاع ولتخرب الدنيا بعدها.. جنونها كان مصحوبا بروح مغامرة شيطانة، إذا وضعت دماغها في أمر لا يهدأ لها بال إلا إن تفتت في يديها كما تبغي! سمعت في حواديت العائلة أنها كانت طول عمرها فرسة جامحة لا أحد يستطيع السيطرة عليها إلا نفسها.. تفعل ما يعن لها في الحال دون تبصر أو نظر لأي عواقب، إلا أنها موهوبة في الخروج من المخاطر كما تخرج الشعرة من العجين!..

«لا تندهش من أنني أكلمك عنها هكذا كأنها واحدة ممن أعرفهن!.. حقيقة إنها بالنسبة لي تكاد تكون هكذا، إذ إن خيوط الأمومة متقطعة بيننا منذ أن ألقت بي في حجر زوجة خالي وانصرفت لحياتها لدرجة أنني أحيانا كنت أشعر بأنها فوجئت بأن لها ابنا اسمه حمادة يجلس قبالتها! كما أن العائلتين - عائلة أبي وعائلة أمي - كانتا تتخذان من سيرة أمي مادة شائقة للتسلية في السهرات الجامعة، حتى تصورَتْ لي أمي بطلا من أبطال الحواديت بشخصيتين متناقضتين: إنها على موائد الشماشرجية شيطان جميل يسرق الكحل من العين ويوقع أعتى الرجال في حبائله بكل سهولة، إنها نوع من الخطر مشخص في حكايات لا حصر لها عن مواقف ومغامرات وملاعيب وصفقات، لكأنها الجنيَّة النداهة تسحب الموعود إلى قدره المحتوم!.. أما في قعدات الداوودية أو القططية فإنها شقية عكروتة منحرفة المزاج، إلا أنها صاحبة قدر هائل من النوادر اللطيفة التي تنم عن ذكاء حاد وإرادة صلبة ومخ طاقق أحيانا!..

«لا تتعجب إن قلت إنني منذ بدأت أتعلم الكلام كنت أنا الآخر أحكي بدوري عن نوادر أمي، ولاحظت أن وقع ما أحكيه على العائلتين يرضيني ويشجعني بالإعجاب، فأصبحت أتلذذ بالحكي عن أمي وأتلذذ أكثر إذا علمت بأشياء جديدة تصلح لأن أحكيها!.. إلا أنني عندما أصبح عندي الكثير الكثير مما يزحم عقلي ويخنق صدري وأتحرق شوقا لأن أحكيه حتى أتخلص من ثقله، بدأ الكل ينصرف عني، بدأت أشعر بأني غير مرغوب فيّ من الشماشرجية، ومن أمي في كثير من الأحيان، ومن القصر الذي لم يعد يتسع إلا لتأوهات وتوجعات زوجة خالي!..

«أف!.. يا أخي بحق الله لماذا لا تجاملني وتشعل سيجارة؟ جرب أرجوك، عشان خاطري هذه فقط، أشعل، اسحب، طلّع النفس من منخريك، تما..م كده!!..

«جدي سليمان باشا القططي كان قد نجح في زراعة القصب في الصعيد الأعلى على مساحات شاسعة، فأقام النصف الثاني من مشروعه: أنشأ مصنعا للسكر في كوم إمبو، لم يقبل أن يشاركه فيه أحد إلا أعز أصدقائه. تصور يكون مَن أعز أصدقائه؟ إنه جدي عزت باشا الشماشرجي!.. هو كما يقولون عبقرية إدارية تعلمها من أقاربي اليهود المصريين أمثال جدي سليمان.. لهذا نجح في إدارة مصنع السكر، وتولى ابنه هاني بك - أبي - مهمة فتح أسواق عالمية لتصدير السكر، ونجح هو الآخر في ذلك حتى توسع المصنع وتضاعفت مزارع القصب!..

«ظل جدي سليمان معجبا بأبي إلى أن دهمه خبر زواجه من أمي! خبر نزل عليه كأن قلعة قايتباي وقعت فوقه!.. نقلوه إلى المستشفى في حالة خطرة!.. على فكرة، اعذرني إذا تاهت المحطات مني في هذه السفرية التي لا نعرف كيف بدأت ولا متى تنتهي!.. لقد نسيت أن أقول لك إن العلاقة بين جدتي الإيطالية وجدي سليمان كانت توترت في

السنين الأخيرة لأسباب غاية في العجب يا صديقي.. جدي وجدتي كلاهما يهودي الديانة، ولكن الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض! جدي سليمان مصري أصيل صرف، يمتد نسله إلى عصور الفراعنة.. من طائفة يسمونها بالقرّائين، وهي تختلف عن طائفة أخرى تسمي الربانيين، وهي الأخرى من أصول مصرية.. الطائفتان معا برغم المصرية المشتركة بينهما لكلٍ منهما أعياد وطقوس وعادات وتقاليد تختلف عن الأخرى!.. أما جدتي الإيطالية فمن يهود أوروبا، وهم كثيرون جدا في الإسكندرية ولهم مدارسهم الخاصة ومعابدهم وعلاقاتهم الخاصة، ولهم اسم معروف لكنني للأسف نسيته!..

«المشكلة أن جدتي متحمسة من ساسها لرأسها لإقامة وطن يهودي على أرض كنعان - أرض الميعاد - تجمع الشتات اليهودي من العالم كله في وطن واحد آمن، في حين أن جدي سليمان - شأن كل اليهود المصريين الأصلاء - ضد فكرة هذا الوطن من أساسه! إنه يعشق تراب مصر، حبيبته الأولى والأخيرة في الحياة.. فيها ولد أبا عن جد.. ومنها كون ثروة تقدر بالملايين، يعشق المصريين الأقباط والمسلمين على السواء ويعتبرهم من أنظف وأنقى المخلوقات على الأرض وإنه ليس يبغي بديلا عن هذا الوطن، الذي لا يوجد له بديل ولا حتى في الخيال!..

«ولهذا لا أستطيع أن أصف لك صدمته يوم اكتشف أن جدتي الإيطالية تقوم هي وابنتها - أمي - بنشاط مكثف لتشجيع فكرة الوطن اليهودي، أنفقت أموالا طائلة على الجمعيات السرية والفدائية العاملة في فلسطين، تدفع أموالا يشترون بها بيوت الفلسطينيين ويرحلونهم إلى البلاد العربية وبخاصة مصر، تدفع لهم ثمن الأسلحة والذخائر والإمدادات الغذائية. وابنتها - أمي - هي مندوبتها النشطة وهي الوسيط بينها وبين الزعامات الفدائية والحزبية والمحافل الماسونية، خاصة أنها بارعة في جمع التبرعات بأرقام ضخمة من رجال الأعمال اليهود الأثرياء أمثال هانو وشيكوريل ورزق وحسون والقطاوي والسكاكيني وشملا ومنشة وكوريل وتوريل وسموحة وسات وسالتيل ورولو وهيرلينج وسوارس وغيرهم. أصيب جدي سليمان بأول أزمة قلبية في حياته.. أظنها كانت جلطة في القلب أو ما يسمى بالذبحة الصدرية.. نقل على أثرها إلى المستشفى ومنها إلى فرنسا، فمكث هناك حتى شفي وبدأ يسترد عافيته. لكنه كان قد تخلص من جدتي. طلقها! منحها بيتا فخما في شارع منشة في محرم بك مع بضعة أسهم باسمها في بعض شركاته لتنفق من ريعها على نفسها وعلى ابنتها الشعنونة التي قيل إنه لم يجد فيها من شخصيته ظلا واحدا مع أن البنت دائما أبدا تجيء لأبيها.

«الواقع أنه كان ممرورا منها والسلام، ويعتبرها فرسة جامحة لا تنقاد إلا لصوت في دماغها! كان باختصار - كما تقولون في بلدتكم - رمى طوبتها!.. ولم يكن ليزعجه مطلقا أن تتزوج من ورائه بدون علمه كأنها تبلغه رسالة صفيقة بأنه لا وجود له في حياتها كأب حقيقي.. هو بعد الأزمة القلبية لم يعد يأكل من هذا الكلام، إنها في نظره بنت فاسدة قد استعوض ربه فيها، وكم تزوجت من ورائه مرات ومرات ولم يكن يهتم. كان يحسب حساب عارٍ واحد يمكن أن تسببه له: أن تتزوج واحدا من طائفة الربانيين المقفولين.. أما أن تكيد له هذا الكيد العظيم فتتزوّج من مسلم فإنها لا بد أن تكون باعت ديانتها تماما، يعني وصلت إلى أسفل درجات الانحلال، الكيد الأكبر أنها تتزوج ابن صديق عمره الصدوق لتصيب العلاقة بينهما بالعطب تضربها في مقتل.. وهذا ما قد حدث بالفعل يا صديقي مع الأسف!، ما إن أفاق جدي سليمان من كابوس غرفة الإنعاش حتى فوجئ بثورة خطيرة في دائرة الشماشرجية: يتهمون البنت - أمي - بالنصب والاحتيال على الولد - أبي - والإيقاع به في شباكها لتأخذه من عياله وتجعله يخالف تعاليم دينه، ويعلم الله ماذا ستفعل به في القريب العاجل!..

«باظت العلاقة بين جدي سليمان وجدي عزت باشا الشماشرجي ووصلت في زمن قياسي إلى ذروة من العداء الشرس، وكان جدي عزت باشا مهددا هو الآخر بالوقوع صريعا لولا متانة صحته، إلا أنه مع ذلك لم ينج تماما من وقع الصدمة، حيث أصابه شلل نصفي مات به بعد بضع سنوات، وما لبث جدي سليمان حتى لحق به بعد شهور قليلة إثر هبوط مفاجئ في الدورة الدموية، ولكن المصنع كان قد تدهور، وبارت مزارع القصب، ثم بيع المصنع بمزارعه للقطاوي باشا بثمن بخس!..

«تصور يا بهاء، كثيرا ما أسرح مع الخيال متصورا كيف وضع أبي هاني بك بذرتي في رحم أمي راشيل وسط كل هذه الغيوم المشئومة، هل كان أحدهما أو كلاهما قادرا على التلذذ حقا والشعور بالسعادة فعلا وهما يشعران بما أثاره فعلهما من خراب ودمار في العائلتين؟!.. ووالله يا صديقي لم أستطع تصور ذلك قطّ، حتى وإن لعبت الخمور والمخدرات لعبها في الروح والدماغ، فإن المؤكد عندي أن التوتر كان يبدأ بينهما بمجرد زوال أثر الخمر وانتهاء لحظة السعادة الخاطفة الزائفة لا محالة!

«أتتذكر ما قلته لك منذ ثلاثة أعوام وأنت جالس على نفس هذه الكنبة، وربما بنفس الضجعة هذه، وأنا جالس على

نفس الكرسي ألف السجائر المطعمة بالحشيش؟، يا لها من أيام، كنت ترفض مبدأ التدخين من أساسه، والآن أنت ما شاء الله حوت لاتشبع ولا يبدو عليك أي أثر للتدخين كأنك لابدٌ لي في حقل الذرة تصغي بانتباه لكل كلمة! فليكن، فأنا الآخر سعيد بأن وجدت من يهتم بالإصغاء لي، بصْرة، الولد يقش!.. فاكر؟ قلت لك إني الولد الذي قش ثروة خالي يوسف وأصبح أغنى واحد في مصر، أنت فاكر طبعا!.. وطبعا تراني أزاملك في السوق كل يوم لأتكسب من عرق جبيني كي أعيش كما أهوى!.. وقد اكتشفت أن هناك مؤامرة محكمة بين ماما وزوجة خالي هدفها أن أنسى تماما أنني صاحب ثروة من الأساس، حتى وإن كانت مع إيقاف التنفيذ، كلتاهما تريدان إرغام أبي على الإنفاق عليَّ من ماله كما ينفق الآباء على أبنائهم!.. وأنا قد زهقت من خساسة أبي ومن شخصيته المعقدة! إنه حين يكون على وفاق مع ماما - وما أندر ما يحدث ذلك - يغدق عليَّ بوفرة فأعيش ثريا حقيقيا لمدة أقصاها ثلاثة أربعة أسابيع، لأفاجأ بأن العلاقة بينهما تعكرت - وما أسهل ما تتعكر في لمح البصر - وقاربت حد العداء!.. الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه بوفاق تام ورضاء كامل مقابل تضحيات مالية باهظة من جانبه هو اتفاقهما على الانفصال رسميا إرضاءً لعائلته التي تكاد تعزله بسببها! وفي خلفية الاتفاق اتفاق سري على أن تظل العلاقة بينهما قائمة فيما يشبه الزواج العرفي السري من أجل خاطر عيون الولد - أنا - الذي بينهما!.. شف العهر يا جدع سواء منه أو منها، ها ها ها ها ها.. ي!!

«فعلا والله يا بهاء: الحياة - كما يقول يوسف وهبي - مسرحية مجنونة ألفها رجل ملتاث العقل!

«فاكر يا بهاء يوم التقينا مصادفة منذ حوالي أربع سنوات وأخذتك معي إلى سوق السمك ومنه إلى حوش الجعان؟ ما الذي تتذكره من ذلك اليوم؟.. نعم، شرحت لك يومها أن سوق السمك مصدر رزق كبير لي، فجميع تجاره وورشه وفابريقاته من اليهود المصريين، وفيهم زبدة زبائني الذين أبيع وأشتري معهم. أما حوش الجعان المتاخم له فإنه يعج باليهود الفقراء البؤساء إلى حد العري والبهدلة في التسول ونهب أي شيء وبيع أي شيء يخطر أو لا يخطر على البال! من عجب أنني مغرم بالتجول في حوش الجعان ولي فيه أصدقاء وغراميات مع فتيات يقلن للقمر قم لنقعد مطرحك، سنايير يا بني، وبالمجان تقريبا: قطعة حلوى، شريحة خبز، منديل! أما إن دفعت ولو قرش تعريفة فتستطيع أن تمتلك أكبر رأس في حوش الجعان!.. ها.. هأهأها!..

«أظن أنك فاكر أنني بمجرد دخولنا حوش الجعان جذبتك فجأة واستدرنا عائدين إلى سوق السمك، فاكر؟ أظنك لم تسأل نفسك يومها لماذا غيرتُ رأيي وعدتُ بك إلى سوق السمك بعد أن كنتُ عشمتك بجولة لذيذة طيبة؟!.. أصل الحكاية يا صديقي أنني ضربت بعيني على امتداد الحوش ففوجئت بأبي هاني بك بجلالة قدره يتأبط بنتا متسولة من بنات حوش الجعان وبيديها أكياس فيها مشتريات من محلات مرموقة في ميدان المنشية، ومن الواضح أنهما ذاهبان إلى بيتها! فتسمرت في مكاني من الرعب وعدم التصديق، فلما تأكدت أنه لم يرني سحبتُك في الحال ورجعنا إلى سوق السمك!.. بعد بضع خطوات لمحت ماما على الرصيف المقابل لميدان السوق تمشي وحولها بضعة صبيان من الذكور والإناث يحملون أكياسا فيها ملابس وأحذية.. راقبتُها من طرف خفي حتى رأيتها تدخل حوش الجعان.. أيقنت في الحال أنها اليوم على وفاق مع أبي.. أنها أثرت عليه وجرجرته للإنفاق على عيال حوش الجعان مقابل أن تمنحه ساعات صفو من المتعة والرضا! وبالفعل مررت على شقة ماما في شارع الإسكندراني في آخر الليل وفتشت في الحواري عن سيارة أبي فوجدتها رابضة في مكان غير ملحوظ.. وفي الصباح فاجأتهما لأقبض حقي ونصيبي من غنيمة الرضا، وكنت واثقا بأن أبي لم يعتق تلك المتسولة بأي حال من الأحوال، إذ إنه من النوع الذي لا بد أن يأخذ بحقه حلفا! ..

«و.. أنا متأكد بأن ماما هي المخلوق الوحيد الذي يفهم أبي على حقيقته وتعامله المعاملة اللائقة به تماما. في الحقيقة يا صديقي حاولت أن أتحيز لأحدهما فلم أجد عنده أو عندها ما أبني عليه تحيزي أو حتى تعاطفي، وإني لأشكر ربنا على أنه يصبرني على احتمال كراهيتي لهما معًا - بل وللعائلتين - إن كان يعجبك!.. لم أعد أشفق عليها من كراهية الشماشرجية لها كراهية مكينة لا يجرءون على التصريح بها لما يمكن أن يستفيدوه من ورائها من صفقات جهنمية تخلصها لحساب أحدهم.. ولم أعد أشفق عليه من إذلالها لكبريائه وهي واثقة بأنه عائد إليها بين كل زعلة وزعلة ، في النهاية لابد أن يذعن لإرادتها.. لتنفيذ مطالبها وإن بتعديلات بسيطة لأجل اليمين الذي كان قد حلفه على عدم التنفيذ!

«أظن أنني قلت لك ذات مرة إنني في زمن الطفولة البريئة كنت أحزن من أجل أبي إذ أرى ملامح القهر الشديد تحاول التنكر في مرح مفتعل!.. قلت ذلك لأمي فانتفضت كالنمرة الشرسة، اتسعت عيناها بشكل مخيف، قالت دون حياء كأنني - وأنا أيامها أرقب، فرحًا، تباشير بلوغي - لن أدرك معنى ما تقول، قالت:

- « اسكت أنت لا شأن لك، فأنا عجنته وخبزته كما يقول أهله الفلاحون الأجلاف!.. يجب أن تعرف أنه لا يكتشف رجولته إلا على يدي! أنا وحدي أعرف كيف أعطيه رجولته الضائعة، زوجته الفلاحة كانت باعترافه أكبر مقلب شربه في حياته، هي في نظره مجرد بقرة تتلقى بذرته وقتما يشاء لتحولها إلى عيال بغير حساب، إنه لم يستمتع بها مرة واحدة في حياته، إنه لا يعرف السعد إلا معي!.. يجب أن تفهم هذا!».

«لعل كأس الويسكي في يدها يومذاك وهي تعيد تكوينه بآخر ما تبقى في الزجاجة قد صور لها أنها تتحدث مع واحدة من صاحباتها لا مع ابنها أو من هو مفترض أنه ابنها!.. إلا أنني - بصراحة ياصديقي - احتقرتها!

«لماذا تندهش؟، أنا عمري ما احترمتها! هي التي قضت على أمومتها في نفسي، ولفتت نظري إلى المرأة فيها، إلى العاهرة الحريفة، سامحني يا رب!.. تلك هي محنتي يا بهاء، أقصد كانت محنتي ثم لم أعد أشعر بأنها محنة.. اعتدت الأمر: هي في نظري امرأة وأنا في نظرها رجل، المذهل حقا أن ما كنت أعجز عن الحصول عليه منها كابن أصبح من السهل الحصول على أضعافه منها كرجل!.. حينما أذهب للبحث عن المتعة بين فتيات حوش الجعان لا أجدها إلا إذا كانت الفتاة قريبة الشبه منها!

«قلت لك من أول يوم زرتك فيه في هذه الغرفة إن حياتي مأساة بمعنى الكلمة، فلا تنظر لي هذه النظرات كأنني مجنون يهذي!. اعتبرني أهذي، أنا نفسي لست أصدق ما أنا فيه كأنه خيال في خيال، إذا لم تكن حياتي هذه أسطورة فإنها أخت لها أو بنت عمها!

«ولكن دعنا الآن من أبي وأمي وسيرتهما المزعجة، يخرب بيت أبو اللي جابهم، أصاباني بلوثة، أربع سنوات ولا حديث لنا كلما التقينا سواهما؟ أنت المسئول على فكرة، فكلما انفردت بي جرجرتني لنفس السيرة بصنعة لطافة، واستمتاعك بالاستماع يشجعني على الاسترسال!

«آن الأوان الآن وأنت وأنا نتأهب لامتحان الشهادة التوجيهية أن أخلص لك كما يجب وأحدثك عن نفسك!.. يجب أن تعرف يا صديقي أن المكسب حلو فعلا!.. معنى كلامي يا بهاء أنك يجب أن تستخدم ذكاءك وثقافتك في شغل السوق، تبيع وتشتري!.. نعم إن البيع والشراء من دون رأسمال شيء جميل جدا يجب أن تتعلمه كما تعلمته أنا من يهود شارع سوق السمك!.. خذها مني كلمة سوف تؤكد لك الأيام صدقها: إن الزمن قلّاب، وخصوصا عند الشماشرجية، زمنهم يتقلب بسرعة كسرعة دوران الأرض، ولهذا لا يراه أحد، فخل بالك، لا تنخدع بهذا الكرم، فإنك ربما تصحو ذات يوم فلا تجده!.. اصح لنفسك يا صديقي، بقدر ما تذاكر لتنجح في الدراسة ذاكر شغل السوق لكي تنجح في الحياة.. وسأشرح لك كيف..

«أنت الآن في السوق تقوم بالتحصيل من عملاء عمي عنتر بك، انتهز الفرصة إذن وتعلم كيف تكون وسيطا بين التجار والبضائع المرغوبة. أنا مستعد لتدريبك، سوف أمشي معك في أثناء التحصيل لكي أريك على الطبيعة كيف تستطيع أن تخلق من الهواء فرصة للكسب!.. شف يا صديقي، هناك حاجة مهمة يجب أن تعمل حسابها: هل تظن أن الشماشرجية سيتركون لك هذه الاستراحة تسكنها إلى الأبد؟ تكون عدم المؤاخذة عبيطا! فكن ذكيا وكريما على نفسك قبل أن يطردوك منها لسبب من الأسباب، وما أكثرها عندهم!.. لماذا لا يكون لك مسكن خاص بك بعيدا عن الرقابة؟ صدقني إنك هنا محاط بألف عين ترقبك جيدا وألف يد تمسح أثرك كل يوم بمجرد خروجك!.. أجِّر لنفسك مسكنا من عرق جبينك. على كل حال سنفكر في كل هذا معا فلا تقلق!».

ذهبت في موعدي الأسبوعي المعتاد إلى عمي إسماعيل، مفعما كالعادة بالبهجة؛ ذلك أن عمي إسماعيل قد بات أقرب الخلق جميعا إلى قلبي وعقلي ونفسي، أذوب في هوى مناقشاته الفلسفية الأدبية العلمية السياسية التي تتمازج وتتداخل بعضها في بعض بشكل ساحر لا يجيده سوى عمي إسماعيل الواعي بفلسفة الأدب والعلم والسياسة والفولكلور.

كان قد أهداني رواية للكاتب الروسي الكبير جوجول بعنوان: «النفوس الميتة» من منشورات دار الشرق الروسية، المتخصصة في ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية، ومن مقرها في القاهرة تصدر مجلة شهرية اسمها «الشرق» يرأس تحريرها الدكتور محمد مندور، ويحررها كتاب وباحثون من جميع أنحاء العالم الشيوعي ولمكتبة الشرق فرع في الإسكندرية يزوره عمي إسماعيل بين حين وآخر لاقتناء الأدب الروسي الذي يفتنه. وحينما أعارني رواية «النفوس الميتة» أفاض في مدح جوجول وفي تقريظ الرواية باعتبارها من شوامخ الأدب الإنساني في العالم كله. فلما لاحظ أنني وضعتها على المكتب دون أن يظهر على وجهي ما كان يتوقعه من انبهار صاخب، بادرني بالسؤال عن رأيي فيها. شعرت في صوته بنبرة تهكمية كأنها تريد أن تقول لي في استنكار: إياك أن تقول إنها لم تعجبك فتكون مغفلا!

قلت لعمي إسماعيل إنني استمتعت حقا بقراءة هذه الرواية الفذة المؤلمة المثيرة للنشوة الفنية في آن، إلا أنها بدت لي غير معقولة واقعيا.

تبسم ضاحكا من قولي وبدا كأنه كان يتوقع أنني سأقول هذه العبارة على وجه التحديد: «غير معقولة واقعيا»، فدفع ذراعه ليسكتني مع رد عاجل:

- «هي غير معقولة في نظرك أنت فحسب! كل واحد من البشر يحكم على الأشياء وعلى ما يسمع ويرى ويقرأ حكما على قدر تجربته في الحياة ومدى ما اكتسبه عقله وإدراكه من رصيد معرفي!».

أصابتني عدوى التفلسف، قلت:

- «حد علمي أن الكاتب يتوخى الحقيقة دائما فيما يكتب، سواء كان شعرا أو قصصا أو مقالات!».

رفع حاجبيه، فكأن فروة رأسه قد انزاحت إلى الوراء ساحبة كل جبهته كالمقطورة:

- «الحقيقة كلمة فضفاضة! إن ما تقرؤه في الروايات وتراه في الأفلام السينمائية لا أحد يستطيع الجزم بأنه الحقيقة، بل إن ما يحدث في حياتك وحياتي وحياتنا جميعا مهما وصفناه بدقة وأمانة ورغبة حقيقية في البوح إلى أقصى الحدود لا نستطيع التأكد تماما من أنه الحقيقة، حتى وإن زعمنا بعين قوية أننا قلنا الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة!.. إنما هي الحقيقة من وجهة نظر صاحبها لحظة الإفضاء بها.. ولأن لحظة الإفضاء والبوح دائما مريحة وجميلة، فإن الذي أفضى وباح يبقى أسيرا لجمال تلك اللحظة لمجرد أنها اقتربت به من مناطق الأشواك التي يحجم البشر عن الخوض فيها!.. حين يقول الواحد منا للآخر: هذه هي حقيقة ما جرى، فإنه يقصد أن ما حكاه قد حدث بالفعل، أما الحقيقة فيما حدث أو خلف ما حدث فإن هذا موضوع آخر! إنها الحقيقة البسيطة السطحية الجزئية المواتية لقدرتنا على الإدراك واستشفاف ما وراء الأفعال والأقوال والأحداث من أسباب أدت إلى التعقيد والتركيب وسوء الفهم والخسران!.. أما الحقيقة الحقيقية فإنها مجاز! إنها طبقات من الضوء كلما قويت بصيرة الإنسان اخترقت طبقة تبدو هي بؤرة الحقيقة، ثم يتضح بكثير من التبصر أن منطقها يشوبه الفساد من بين يديه أو من خلفه.. وحتى لو قويت بصيرة الإنسان وكان بصره سديدا بأدوات من منجزات العلم والتكنولوجيا تمكنه من رؤية الأعماق البعيدة وكل ما هو غير مرئي في هذا الكون، فإن ذلك لن يكون وصولا إلى بؤرة الحقيقة!.. وكذلك حياة البشر، إن بدت كالأسطورة فذلك ليس يعني أنها غير حقيقية، إلا أنها في نفس الوقت لن تكون الحقيقة كاملة!.. نصيحتي لك أن تتعامل مع الناس والأدب بالمنطق الشعوري! إن الحياة - في الواقع المعيش أو في الواقع الفني في الأدب - تكون حياة حقيقية بقدر ما تضيفه إليك من مشاعر تشعرك بصدقها بما تحتويه من ألم وبهجة!».

تجليات عمي إسماعيل في تلك الليلة كانت كالمطر الغزير يروي عطشي إلى المعرفة، يوقظ في أعماقي ميولا فلسفية مثيرة مشرقة كإشراقة عمي إسماعيل حين يتفلسف. ليلتها قال لي:

- «عندي يقين مؤكد بأنك ستفلح لو التحقت بكلية الآداب قسم الفلسفة، لكن المشكلة في أبيك الذي يحلم طول عمره

بأن ينجب ولدا يدرس الحقوق ويصبح من رجال القانون والسياسة! على كل حال دعني أقنعه إذا تشبث برأيه. مهمتك الآن أن تنجح في التوجيهية بتفوق كما هي عادتك!».

ليلتذاك حسمت الأمر، حددت اتجاهي إلى كلية الآداب نحو قسم الفلسفة والاجتماع. وقبل أن أدلف إلى الفراش كتبت لأبي رسالة أبلغته فيها قراري بمباركة من عمي إسماعيل. وكنا على مشارف الامتحانات يوم تلقيت رسالة من أبي يتمنى لي فيها النجاح في أي سكة أختارها لمستقبلي الباسم بعون الله.

من مدرسة الليسيه التي يدرس فيها أبناء أثرياء اليهود سواء من المصريين - السفارديم - أو من الأوروبيين والروس والبولنديين - الأشكناز - حصل حمادة هاني الشماشرجي على شهادة التوجيهية في نفس العام الذي حصلتُ عليها فيه من مدرسة محرم بك الثانوية في العام الدراسي ألف وتسعمائة وتسعة وأربعين/ خمسين. التحق حمادة بكلية العلوم لأنه - فيما قال - يعشق علم طبقات الأرض، فيما التحقت أنا بكلية الآداب قسم فلسفة واجتماع. مرت شهور اختفى خلالها من حي سوق السمك المكتظ بالتجار اليهود المصريين والمتمصرين ولم يعد يظهر في محلات الشراء ومنافذ البيع المتمركزة في هذا الحي.. فلما تسقطت أخباره قال لي أحد أصدقائه المقربين منه جدا إنه ارتقى بنشاطه إلى مستوى المكاتب الفخمة العاملة في مجالات التصدير والاستيراد والتوكيلات الأجنبية، حيث يقوم بدور الوسيط - البالغ الفخامة والأناقة واللباقة - في عقد صفقات بمئات الألوف من الجنيهات يتقاضى عنها عمولات دسمة.

وتصادف أن كنت جالسا على رصيف محل من محلات زبائني في شارع العطارين في انتظار صاحب المحل الذي دخل يصلي العصر في ركن من محله، فإذا بسيارة فارهة تزحف أمامي يقودها أحد البكوات، ثم توقفت، ومال رأس البك نحوي بنظارته السوداء ونادى: بهاء! فإذا به حمادة الشماشرجي. هرعت إليه. نزل من السيارة وعانقني، اعتذر بأنه انشغل عني هذه الأيام، أعطاني لمحات سريعة تفيد بأنه اليوم يعيش حياة رجل الأعمال بمعنى الكلمة. ثم وعد بأنه سيتصل بي في أقرب فرصة ممكنة لأنه يريد أن ينتفع بي ويستفيد من «خبراتي». ثم ركب سيارته وانصرف.

إلا أن الكلمة «خبراتي». بقيت تطن في رأسي وتمطرني بوابل من السخرية. اعترتني نوبة من الضحك من خبراتي هذه الضئيلة التعيسة بالقياس إلى خبراته المدهشة التي تعلمت منها كيفية السباحة في بحار السوق، ولا أزال إلى يومذاك أطبِّش بحذاء الشطآن الضحلة. بعض كلماته المأثورة لي لا تزال حاضرة في أذني: إن السوق - أي سوق من أي نوع - بحر بلا قرار بلا شطآن، تلتقي فيه ما تأكله ويلتقيك من يأكلك! فاحذر كل الحذر يا بهاء من ذوي الأصوات الدافئة والملمس الناعم والود المبذول بغير حساب! كن على ثقة دائما بأنه لا صدق ولا صديق في الأسواق! لا ضمير للسوق! لا أمان لا إخلاص لا وفاء لا إنسانية! لا شيء من ذلك كله إلا إذا فرضته أنت بقوة شخصيتك بانتباهك الدائم بذكائك ببعد نظرك!

إلا أن ما تعلمتُه من خبرة حمادة وشطارته ما لبث حتى قارب الصفر بالقياس إلى ما تعلمته من الثنائي مصطفى عبد العزيز وتوني رزق. الأول مسلم كما هو واضح من اسمه ويمت بصلة قربى مجهولة إلى حمادة من جهة الأب، والثاني يهودي مولود في حوش النجار. منذ أن عرّفني حمادة بهما ذات يوم بعيد في لقاء طارئ وأنا أراهما في أماكن كثيرة من أحياء الإسكندرية. هما ليسا مجرد صديقين فحسب، إنهما في الواقع شخص واحد ولكن من صورتين متباينتين.. فمصطفي طويل القامة أسمر البشرة، إذا رأيته من بعيد خيل إليك أنه متلبك الملامح، أما إن شهدته عن كثب اكتشفت أنه وسيم متناسق التقاطيع، وأن السر في تلبك ملامحه هو خفة ظله التي لا تني تغير من ملامحه في تشكيلات انفعالية من فرط ميله إلى الفكاهة الحادة. أما توني فإنه مربوع القامة، أبيض البشرة مكتنز الملامح، معقوف مقدمة الأنف فيما يشبه منقار العصفور، إلا أنه فصيح العينين إلى حد خارق.

لم أر في حياتي اتحادا بين شخصيتين إلى هذا الحد. إن الخاطرة تلمع في عيني أحدهما فسرعان ما تصير فكرة في دماغ الآخر. مقترحات التنفيذ كما يراها أحدهما تتحول بفضل الآخر إلى خطة شديدة الإحكام لا تقود إلا إلى النجاح المحقق. الاتصال بينهما روحي بل سحري لدرجة أنهما - كما يؤكدان دائما في دهشة بالغة تنتدر بها في جلساتنا - كثيرا ما يتبادلان الحوار وهما مستغرقان في النوم على سريرين في غرفتين في منزلين تفصل بينهما شوارع وحَوَارٍ ومنعطفات وساحات وميادين. هما معا يشتغلان نفس الشغلة التي نتعيش منها: حمادة وأنا وطائفة كبيرة جدا من أمثالنا. إنها شغلة عجيبة يفرزها «السوق» من قديم الأزل: لا هي بالتاجر، ولا السمسار، ولا المتعهد، ولا الصانع، ولا الممول.. وإن كانت - هذه الشغلة - تقوم بكثير من مثل هذه المهمات.. لكن أولاد البلد من الشعب المصري أعطوا لصاحب هذه الشغلة اسما دقيقا شاملا جامعا ذا دلالة عميقة: ابن سوق، رأسماله خبرته لا أكثر ولا أقل، تفتيح مخه، شطارته في اقتناص الفرص، في التهام الوجبة وهي ساخنة.

تعرفت على الثنائي مصطفى عبد العزيز وتوني رزق من خلال حمادة. كنا نشرب زجاجة بيرة في بار جانبي عتيق جدا في حوش الحنبقي، فوجئنا بالنادل يأتي لنا بزجاجتين إضافيتين قال إنهما تحية من مصطفى وتوني. قبل أن

يتلقى حمادة تساؤلي المندهش من ربط مصطفى بتوني، انعوج نحو ركن في عمق البار رافعا ذراعه بالشكر في دماثة، مستعيرا دفء لهجة أولاد البلد برغم نطقه الإفرنجي الرقيق: «مرسيه توني! مرسيه درش!». عند انصرافنا مررنا عليهما، صافحناهما بحرارة، قدمني حمادة إليهما في تفخيم، وقدمهما لي باحترام كصديقين عزيزين. فلما خرجنا من البار قلت له: «ما شغلة كل من توني ومصطفى؟»، قال ببساطة: «مثلنا: أبناء سوق! شطار! كسيبة على كيفك!».

مصاب أنا منذ الطفولة بإدمان المكان، بخاصة تلك الأماكن التي تنعش مكامن ذكرياتي وعواطفي وآلامي. إنه إدمان لا يخضع لمنطق، فإن سألني سائل: لماذا تحب الجلوس في هذا المكان أو زيارته باستمرار، فقد أعجز عن إقناعك بأسباب منطقية مفهومة. من المؤكد أن كثرة ترددي على ذلك البار الخفي السحري فِي حوش الحنبقي لم يكن بسبب إدماني لمشروب البيرة وإلا فإنها متوافرة في أماكن كثيرة أجمل وأنظف، لا ولا انجذابا إلى الثنائي اللطيف توني رزق ومصطفى عبد العزيز رغم توافر الجاذبية فيهما، إنما كان حبا لحميمية القاعة وما يخيم عليها من هدوء ذي زخم إنساني باعث على الأنس بتآلف الفردية والانعزالية مع الجماعية الودودة في ظرف زمكاني واحد، فضلا عن أنها قاعة جوانية في أعماق دار عتيقة في جيب من شارع أكثر عتاقة وغرابة حتى في اسمه : حوش الحنبقي. مكان يقطع صلتك تماما بالضجيج، بل بالإسكندرية كلها، بل بالعصر الراهن برمته، إذ يمنحك وهما قويا بأنك جالس في خان من خانات القرون الوسطى ترشف بنت الكرم العتيقة حتى وإن كانت الجعة بنت الشعير.

يوما بعد يوم أصبحنا - الثنائي وأنا - نتبادل تحية المجاملة، ثم اختصرنا المسافة وأصبحنا نلتقي على ترابيزة واحدة. قامت صداقة. أدمنت حلاوة الثنائي ولطفه. بالحب والإعجاب تشربت شخصيتيهما حتى النخاع، صرت أفكر مثلهما، أقلدهما في الملابس المختصرة الثمينة. جرت على لساني مفرداتهما المتداولة بينهما، أضيف إلى رصيدي ما لديهما من خبرات ومواهب في فنون البيع والشراء والمساومة: تعلمت كيف أتعامل مع التجار باعتباري الأغنى، الغوث الذي أتاهم بسبوبة أكل العيش، المتعفف عن اللعب في الصغير، عن الكسب التافه الرخيص، المستغني عن البيع إلا لمن يستحق أن أهديه بضاعة ثمينة مربحة حتى وإن كانت بضاعة قد تخرب بيته. تعلمت ترديد الأرقام الكبيرة ببساطة عند الحديث. تعلمت كيف أبني الثقة في أمانتي، كيف أتأنق في ملبسي كأني ذاهب للقاء علية القوم في أبهى زينتي.

جرت العادة أن المندوبين والقومسيونجية يذهبون إلى محلات التجزئة لعرض بضائع بعينها، يبذلون جهودا كبيرة في الترويج لها وتحسينها في أنظار من سيشترونها. أما أنا فإنني قومسيونجي بلا بضائع محددة تحت يديه أو حتى في دائرة إلمامه. مندوب أنا يمثل نفسه فحسب، يزور التاجر في محله، لا لكي يبيعه سلعة بعينها، بل ليعرف منه على وجه التحديد ما هي السلعة الناقصة عنده. بالطبع لا يتم هذا بشكل مباشر وإلا فسدت الطبخة من أساسها، إنما بصنعة لطافة، في مسامرة مع فنجان قهوة وسيجارتين - (صرت على اقتناع بضرورة التدخين كجزء رئيس في الشخصية البياعة وكأداة ناجعة في تسييل الحديث وتدفيقه بغير عوائق) - في حديث لا تدخل فيه مفردة من قاموس البيع والشراء: كلمة في حدوتة، حدوتة في كلمة، بسرعة ولماحية أعرف عن يقين ما هي السلعة التي يبحث عنها هذا التاجر مستعدا لأن يدفع أي ثمن مقابل الحصول عليها.

في الدقائق المتبقية من اللقاء أصطنع أني قد تذكرت شيئا خارج دائرة اختصاصي.. ذلك أن ابن السوق الحدق يدخل على أصحاب المحلات بوصفه تاجرا موسرا يبحث عن سلعة بعينها يعرف مقدما أنها شَحَّت وبعد دراسة أولية تمهيدية لما هو متوافر أو غير متوافر في سوق هذه المنطقة أو تلك.. وبما أن التاجر صاحب المحل قد استقبل زائرا تاجرا مثله، فمن اللياقة أن يدعوه على الأقل لأن يتفضل بالجلوس، وما دام هذا قد تفضل بالجلوس فقد بدأ الحوار، حيث يتعين على ابن السوق الحدق أن يلف التاجر ويستميله ويسيطر عليه في لمح بالبصر تحسبا لزحام حركة البيع في المحل، يعني لا بد أن ينتهي اللقاء بنجاح كامل في مهمته عبر دقائق معدودة، بحصيلة لابد موفورة من العبارات اللبقة والمعلومات المثيرة تلقي أضواء كاشفة على شخصه هو، وتوهم صاحب المحل بأن هذا الذي يزوره الآن شخص على درجة كبيرة من الأهمية يجب إعطاؤه واجب الترحيب لعله ينفع.. إن لم يكن فورا ففي قابل الأيام. ابن السوق الحدق غير محتاج لأكثر من بضع دقائق يعرف خلالها ما يعانيه هذا المحل أو ذاك من نقص في سلعة بعينها أو أكثر.. يكفي أن يسأل أحد الزبائن عن سلعة ويتلقي ردًّا من صاحب المحل.. عندئذ أصطنع أنني تذكرت شيئا مهما، أضع فنجان القهوة شاكرا، أقول له:

- «أنت ابن حلال والله!».

يطرطق أذنيه منتبها في شغف، فأطرق الحديد وهو ساخن:

- «أظن أن صديقا لي من أصحاب المخازن كان يدخر كمية من هذه السلعة. أدعو الله ألا يكون قد تصرف فيها!».

يتشعلق التاجر بي كأني بوليس النجدة. يبادر بطرح المغريات، ملوحا بعمولة كبيرة مع ما أشاء من خدمات. بثقة ورصانة أعده بأني سأهتم بالأمر بصرف النظر عن أي شيء. بحكم الثقة المبنية على مهل قد يعرض التاجر أن يدفع عربونا ليجعل الكلام رسميا. أجيد لعبة التمنع وإظهار الشهامة ولكن بصنعة غاية في الإتقان. برفق ورقة وإباء أزيح اليد الممدودة بالعربون، أؤكد بنبرات صوت واثقة ونظرات عين قوية أنني سأدفع من جيبي والحساب يجمع، عندئذ يزداد التاجر إصرارا على دفع العربون لإرغامي على أخذ الموضوع بجدية. باستياء معبر عن الاضطرار آخذ النقود في بساطة، وبدون أدنى حفاوة أحشرها بإهمال مصطنع في جيب السروال و.. سلام.. سلام.

بالمران والتجربة الدءوبة المحبة للشغل أصبح دماغي يهتم تلقائيا بتسقط أخبار السلع بمختلف أنواعها وألوانها ومستويات جودتها والأرخص منها والأغلى، ومصادر توفيرها، والمخازن المتوارية في الحواري البعيدة في الضواحي والعشوائيات المتاخمة لدى كبار وصغار التجار. أصبحت أعلم عن خبرة أن بعض أصناف بعض سلع قد تروج في بلدة دون أخرى، بل في حي من الأحياء دون آخر في نفس المدينة.. يعني لا بد أن أجد في جولتين ثلاثة على الأكثر كمية أو أكثر من السلعة المطلوبة لتاجر بعينه في مكان آخر، هنا أو هاهنا.. البيع عندي قد يكون بيعا وشراءً في نفس الآن، في المشوار الواحد يا حبذا لو كان مزدوجا. أنت - مثلا مثلا - عندك من هذا الصنف أو ذاك كميات غير مسحوبة، إذ إن زبائنك من أهل الحي أو أهل البلدة يفضلون عليه صنفا آخر حتى وإن كان أقل جودة وأعلى سعرا.. في الحال تحضرني معلومة تذكرني بأنني رأيت عند فلان الفلاني كمية من هذا الصنف الذي يفضله أهل هذا الحي أو هذه البلدة. بنفس صنعة اللطافة أخطف انتباه التاجر بكوني تذكرت واحدا يدخر كمية ويطلب فيها ثمنا قدره كذا، وحتى لو لم تسعفني الذاكرة بمكان تتوافر فيه أي كمية من هذا الصنف فإنني أمضى في منظومتي العملية وأنا على ثقة تامة بأن بحار السوق العريضة الغويطة سوف تعطيني من السمك أشكالا وألوانا طالما أنني أصبحت أجيد فنون الصيد والغطس إلى أعماق سحيقة.

كثيرا ما تتم الصفقة بعملية تبادل بين السلع والأصناف: آخذ من التاجر الصنف الخامل بتراب الفلوس ومن فوق البيعة شكر وامتنان لكوني خلصته من شيء يعادل في نظره جثة قتيل، وفي نفس الوقت أفسحت عنده مكانا لسلعة رائجة، وفي المقابل أعطيه الصنف الرائج عنده بأسعار مُريشة. أتوجه بالصنف الخامل هذا إلى من يحتاجه في حي آخر، أبيعه له بأسعار مجزية لي، وأتقاضى فوق ذلك عمولة منه باعتباري وفرت له شيئا كان نادرا.

اكتسبت في السوق العام، وبخاصة في حي سوق السمك، شهرة ذائعة بأنني مورد بضائع شاطر يأتيك بأم الحنة ولبن العصفور إن أردتهما. وقد تنوعت المجالات التي لعبت فيها واستوعبت كثيرًا من خبراتها بسهولة: مجال المنسوجات من ملابس داخلية قطنية إلى فوط وبشاكير وملاءات ومناديل إلى قمصان وجلاليب وأثواب أقمشة خام وبخاصة الشعبية منها مثل الكستور والبوبلين والكتان والعبك والدبلان والزفير ومقاطع من قماش حريمي يدعي الحاج عباس.. إلخ.. ومجال الحدايد التي تباع في محلات البويات التي أحصّل منها كمبيالات مصانع بويات عنتر بك، من المسامير الحدادي إلى المسامير البورمة والخشابي إلى الأقفال والرزات والشناكل والمفصلات والكوالين والأكر ومقابض الأبواب والأدراج.. إلخ.. ومجال البقالة والمواد الغذائية مستعينا بخبرات وبضائع عمي صلاح الراوي، من صفائح السمن وبراميل الزيت إلى الجبنة بجميع أنواعها وأقماع البسطرمة ومعلبات اللانشون والبولوبيف والسردين والسلمون والعصائر.. إلخ.

كان عمي صلاح يرمقني بانبهار مصفقا كفا على كف في حسرة وأسى من أنني لا أسمع كلامه وألتحق بمخزنه لأصبح أهم واحد في عمله ويصبح المال مالي، سيما وأنه مستعد للإنفاق على تعليمي وشراء بيت لي وتزويجي ممن أحب في قابل الأيام، إلا أنني - ربما لشيء جوهري في تركيبتي النفسية - كنت مدفوعا برغبة عارمة نحو تجميع خبرات في كل المجالات على قدر ما أستطيع من التنوع والتوسع كأنني كنت على وعي دفين في أعماقي بأنني سوف أحتاج لمثل هذه الخبرات في مستقبلي المرموق في مجال الكتابة وعالم الأدب الذي يفتنني.

دفتر توفيري أصبح يمدني بآمال عريضة في الإنفاق على دراسة جامعية وثيرة، وتأجير مسكن محترم في حي راق، وبناء مكتبة منزلية غنية كمكتبة عمي إسماعيل. صحيح أن رقم الرصيد في الدفتر كان ما إن يرتفع حتى يهبط بسحب اضطراري لظرف من الظروف العجفاء، إلا أن وجود رصيد خاص بي، أيا كان قدره، شيء يبعث على الاطمئنان، كما أنه يعطيني لذة عميقة كلما أعدت إلى أبي حوالته البريدية نظرًا لعدم احتياجي لها. ثم ضوعفت لذتي حينما بدأت أرسل له حوالات بريدية بمبالغ لابأس بها، وكان آخر ما أتوقعه أن يردها إليّ رافضا صرفها بخطاب يعنفني فيه وينبه عليّ بأن أدخر لنفسي كل مليم أكسبه من عرق جبيني، وبخاصة أن الزمن الذي يحتاجون فيه إلى

معاونتي لم يأت بعد.

السوق كالبحر قلاّب وليس يؤمن جانبه. كلمة ألقاها مصطفى عبد العزيز في أذني فاستقرت في خواطري اليومية لا تني تتجدد. وفعلا.. بين عشية وضحاها بدأت سلع كثيرة تختفي نهائيا من جميع الأسواق، أصبح البحث عنها محض سراب يهلك المرء نفسه فيه بالمجان. شمل الكساد كل مجالات خبراتي. أصبحت أضطر كثيرا إلى السحب من دفتر التوفير لأن مرتبي لم يعد يغطي نفقات الحياة التي اعتدتها في زمن الوفرة والرواج، حيث أصبحت مدخنا شرها وصاحب مزاج مائي وناري معا، أما الهبات المالية التي كان أعمامي يمدونني بها من حين لآخر فكنت قد أجبرتهم على وقفها بعد إذ كبرت وصرت كسِّيبا.

أما الآن فها أنذا أضطر إلى سحب آخر رصيد لي في دفتر التوفير مع شعور بالفجيعة، إذ إنني كنت على علم بما يعتور البلاد من اضطرابات في جميع السبل: المجتمع الطلابي يمور بثورة عارمة ضد الإنجليز والقصر والأحزاب والأساتذة، تصادم وتناحر بين طلبة الإخوان المسلمين وطلبة الوفد والطلبة الماركسيين والاشتراكيين والليبراليين تمتلئ به مجلات الحائط التي تحولت إلى بيانات سياسية حادة، بعضها لا يزال يطالب بالثأر لشهداء كوبري عباس الذي فتحه إسماعيل صدقي ليغرق زملاءهم طلبة جامعة القاهرة حتى يمنع زحف مظاهراتهم الحاشدة من الوصول إلى قصر عابدين، وبعضها الآخر يفجر قضية الأسلحة الفاسدة التي وزعت على جنود مصر ليحاربوا بها إسرائيل في حرب ثمانية وأربعين، فارتدت عليهم لتقتلهم هم بدلا من أن تقتل العدو، والبعض الثالث يندد بمقتل الشهيد حسن البنا.. إلخ.. إلخ.. ناهيك عن أعمال عنف وتخريب بدأت تنتشر في القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم الأخرى في الدلتا والصعيد.. كل ذلك إضافة إلى الآثار السلبية لقرار إلغاء الامتيازات التي تفاقمت وانعكست على جميع السلع في جميع الأسواق، حيث أغلقت مصانع وألغيت توكيلات ونفدت احتياطيات كانت مدخرة في المخازن؛فبعض القرارات الجريئة كقرار إلغاء الامتيازات الأجنبية قد تتأخر نتائجه السلبية لسبب أو لآخر، لكنها حتما ستظهر، وها هي ذي قد ظهرت.. كل ذلك أدي إلى ندرة الفلوس.

على أنه رغم ندرة الفلوس في يدي آنذاك لم أحرم نفسي من التدخين ولا من التردد على بار حوش الحنبقي، ولكن في حدود ضيقة جدا. لدهشتي كنت ألاحظ أن الثنائي مصطفى عبد العزيز وتوني رزق لم يتأثر حالهما أدنى تأثير.. استمرا في الإنفاق عن سعة، والبحبحة في العزومة على الأصدقاء، والتدخين بشراهة.. إلا أنني بأخلاقيات الفلاح القراري كنت أعمل بمبدأ: لله في خلقه شئون، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويبسط الرزق الوفير لمن يشاء، سبحانه بيده ملك السماوات والأرض، وليس لمثلي أو لغيري من البشر أن يراجع مشيئته، بله أن يعترض عليها والعياذ بالله.

(١٥)

فيما كنت مارًّا من أمام دكانه، ناداني أحد كبار التجار ممن يعرفون أن المتعهد الكبير صلاح الراوي هو عمي لزم. استضافني على كوب من عصير القصب جلست له بجوار الآلة الحاسبة لصق البنك من خارجه. فجأة ودون تمهيد قال لي:

- «نريد أمواس حلاقة ماركة ناست، المرسوم عليها تمساح.. أتعشم أن يكون تحت عينيك أحد يختزن كمية منها.. سواء كان عمك صلاح أو غيره من معارفه أو معارفك.. سأعطيك عمولة كبيرة.. وتكبر العمولة كلما كبرت الكمية!».

- «أمواس ناست؟!».

- «آخذ منك أي كمية.. بالسعر الذي يرضيك!».

- «ضروري أن تكون ماركة ناست؟!».

- «حتما! أي ماركة أخرى عندنا منها تلال متلتلة صدأت من طول الركود».

- «لكن.. أمواس ناست؟!.. أظنها كثيرة متوافرة!».

- «منذ متى اشتريت آخر علبة لنفسك؟».

- «منذ أكثر من أربعة أشهر! ذقني خفيفة، والموس الواحد يكفيني شهرًا!».

- «منذ عدة أشهر شَحّت.. الآن انعدمت!».

- «لماذا؟! أغلقت المصانع؟!».

- «ربما!».

وقدم لي علبة سجائره، ثم قرَّب شعلة القداحة من فمي:

- «اليهود الله ي- .. يسامحهم! أصابتهم حمي الهجرة إلى دولة إسرائيل!.. نجح اليهود الخواجات ولاد الكلب في مسعاهم. نفذوا ما كانوا يريدون. هربوا أموالهم شيئا فشيئا وأخيرا صفّوا شركاتهم ومصانعهم وفابريقاتهم ومخازنهم وفي الآخر اختفوا! بقي منهم الرءوس الجهنمية التي كانت قابضة على مصادر السلع ومنافذ الأسواق!.. بقوا ليقتنعوا من يقدرون عليهم من اليهود المصريين بالهجرة إلى أرض الميعاد. شف الفجور يا جدع! أرض القدس الشريف أصبح اسمها أرض الميعاد. أولاد الهرمة نجحوا!. تصور يابو شماشرجي، كان يشتغل عندي أربعة عمال من يهود حوش الجعان.. لم يكن الواحد منهم يتصور نفسه خارج مصر حتى وهو جثة ميتة!.. الأبالسة أقنعوهم بالسفر، أغروهم بالمال وبفرص العمل.. يروحوا في ستين كسحة تأخذهم وتأخذ الذين خلفوهم. لكن جميع توكيلات السلع المستوردة كانت في أيديهم، وجميع السلع الحيوية الجيدة كانت من مصانعهم».

بعد أن أخذت الفضفضة حدودها وقامت الألفة بيني وبين هذا الرجل المسمى بالبوريني، وعدته عن صدق نية بأنني سأبحث له عن الأمواس الناست من تحت طقاطيق الأرض، وعشمي في الله كبير في أن أجدها بإذنه تعالى، ثم انصرفت لاستكمال جولتي التحصيلية. وكنت قد شعرت بأنني - من باب الطرافة - قد عثرت على شيء محدد أنشغل بالبحث عنه في السوق، حبذا لو في أطرافه العشوائية البعيدة.

في الثالثة مساءً أنهيت جولتي في مبنى الإدارة بحي غيط الصعيدي، ومن الإدارة إلى حي الحدرة القبلية حيث مررت على زميل لي يسكن فيها، أخذت منه كشكول المحاضرات لأراجع كشكولي عليه فيما فاتني من محاضرات اضطررت إلى الزوغان منها برغمي. ومن الحدرة القبلية مرقت بالفسبة إلى طريق الكورنيش، حيث صهللت الفسبة طائرة بي إلى بار حوش الحنبقي لأدرك اللحظة التي باتت حميمة: لحظة الأصيل في بار حوش الحنبقي مع قدح الجعة، أو بالأحرى مع أقداح من مشروب منعش وفريد وإنساني اسمه مصطفى عبد العزيز. حقيقة الأمر أنه هو الذي كان ينعشني بل يسكرني لا الجعة.

فيما رحت أرقب طبقة الرغوة السميكة وهي تهبط في الكوب المستطيل مضمخة زجاجه بضباب شهي، فوجئت بكل من توني رزق ومصطفى عبد العزيز قد أتيا وجلسا في تكتم شديد. فزعت وارتجّ الكوب في يدي، ولولا ضحكات

توني لأقنعتني الجدية المسبوكة على ملامح مصطفى أنهما كانا يرتديان طاقية الإخفاء.

- «في صحتك!».

هذا صوت توني. ها هو ذا يقرع كوبه في كوب مصطفى ثم يعلق يده في الفضاء في انتظار أن أرفع كوبي ليقارعه.

- «في صحتك يا توني! في صحتك يا درش!».

مصطفى بفوضويته الخادعة وروحه المرحة العبثية العدمية وضحكته المجلجلة المبطوشة الإيقاع كأن حنكه الواسع يدلقها مرة واحدة، برم أصابعه الطويلة في الهواء المتاخم لرأسه، فتساقط رماد السيجارة في قلب كوبه فلم يحفل به، بل رشفه في الجرعة وابتدرني:

- «أين كنت؟».

- «تحت الأنظار يا درش!».

- «تؤ تؤ تؤ!.. أقصد أين كنت الآن؟ سرحت مدة طويلة! إيه اللي شاغلك يا ترى؟!».

- «الآن الآن».

- «بالتحديد لو سمحت».

- «وبكل صراحة».

- «بقدر ما تستطيع».

- «الأمواس الناست!».

حط عليهما الذهول لبرهة طويلة، تبادلا خلالها نظرات طفولية شقية نزقة تسفسف جنونا.. ثم انفجرا في ضحكة ارتجت لها الأكواب والزجاجات.

جرع توني جرعة قصيرة ومسح شدقيه:

- «ماذا تقصد بالضبط؟! هه؟!».

أردف مصطفى:

- «قل كل ما في نفسك!».

لمحت في نظراتهما خلف مظهر المزاح لمسة ظل من التوجس أو لعله الحرج، فسرته على أنهما ربما يكونان قد تصورا أنني أريد أن أهزأ بهما. صحت فيهما بجدية غاضبة:

- «ما الأمر؟! أقول إنني الآن مشغول بأمر الأمواس الناست.. ما الغريب المدهش في هذا؟ أنا فعلا أبحث عن مكان فيه أمواس ناست!».

جرع توني نفسا أطول في لذة:

- «بسيطة جدا.. ولا يهمك!».

صادر عليه مصطفى:

- «لك حق تنشغل!.. إنها فعلا مشكلة معقدة! كل الناس اليوم تبحث عن الموس الناست. لو كان رغيف الخبز شحيحا ما انشغل الناس انشغالهم على سعادة الباشا الموس الناست! الحاج موس.. موس ناست!.. آه يا بلد لها العجب! صدق من قال: بلد تولد البغلة!».

غمز توني بعينه الخضراء الذكية:

- «بهاء أخ عزيز يا مصطفى، ومن واجبنا أن نقف معه في
هذه المحنة».

- «محنة؟!».

وضحكت. فاستدرك مصطفى:

- «وماله.. إحنا تحت أمره!».

- «أنا جاد في كلامي».

- «كم علبة تلزمك؟».

- «بجد يا توني؟!».

ازورّ توني محملقا في السقف دلالة على الضجر مني. راح مصطفى يملأ الأكواب مرددا بلهجة رسمية كأنه في السوق الآن:

- «قل له كم علبة تريد.. هو لا يمزح!».

- «إن كان الأمر كذلك فإنني أطلب الكمية التي عندكما كلها.. عندي تصريف لها».

استدرك توني كأنه يفتح قوسا لجملة غير اعتراضية ذات دلالة مهمة:

- «.. إنها كمية قليلة تسوقناها بطلوع الروح من المخازن قبل تصفيتها».

- «كم عندكم بالضبط يا توني؟».

- «كرتونة كبيرة، فيها مائة قاروصة، كل قاروصة فيها مائة علبة صغيرة، كل علبة فيها خمسة أمواس. وللعلم فإنه ناست أبو ورقة بيضاء، وهو أغلى من أبو ورقة حمراء!».

- «على كم تبيع؟».

- «لك أنت بسعر السوق الأصلي. تستطيع أنت أن تضيف عليه من عشرين إلى خمسين في المائة، وستجد من يشتري دون فصال».

- «وهو كذلك! أحب أن أعاين البضاعة».

تبادلا نظرة متململة بشيء من القلق عكس على وجهيهما لون الحرج يوشك أن يصير ضجرا من الصفقة كلها. من عينيه الضيقتين سرَّب مصطفى لتوني نظرة تحمل معنى الاستخفاف بما يعني أنه ليس ثمة من مشكلة، ومن بين أسنانه المفلوجة من الفكين غمغم:

- «وماله! من حقه أن يعاين البضاعة».

احمرَّ وجه توني وهو يرمقني بنظرة أخوية مع هزة من رأسه:

- «أمرك يا بو زمل، تعاين على كيف كيفك! ويارب تطلع البيعة من نصيبك، أنت أولى بها من الغريب!».

جرع ثمالة الكوب ناظرا في ساعته. أومأ له مصطفى:

- «اخطف رجلك إلى المخزن وفرِّجه. بهاء أصبح أخًا لنا وصديقا ومصلحتنا من مصلحته! قم يا بهاء اركب وراءه على الموتوسيكل!».

- «المشوار بعيد؟».

- «في حوش الجعان.. فركة كعب يعني!».

هكذا قال مصطفى ثم أكمل:

- «أنا في انتظاركما».

اندفع بنا الموتوسيكل في زئير جنوني هادر. بعد تخريمات لولبية من شارع إلى حارة إلى عطفة إلى ما يبدو أنه فضاء وما هو بفضاء ذلك أن حوش الجعان فيه مساحة كبيرة خالية من المباني مفتوحة على السماء، وهي مساحة محاطة بهديم متكلس وبقايا جدران عتيقة من الطوب الأحمر الصدئ، وجزء من الهديم طريق عشوائي مفتوح على حمام شعبي يبدو جزؤه الخلفي كخفاش واقف على الأرض فاردا جناحيه، فإذا اقتربتَ منه خلل المدق من فوق الهديم

فوجئتَ بشارع عريض في السفح يفصل بين الحمَّام والهديم، وقد احتجز الحمام لنفسه خلفية عريضة امتلأت بالرماد الملتهب المتخلف عن احتراق الحطب في أفران تسخين الماء، وتربعت في جوف الرماد عشرات من قدور الفول المدمس الفخارية السوداء كقطيع من
طائر البطريق.

اللون الرمادي غالب على لون ضوء النهار وطاغ على كل شيء. بين خطوة وأخرى تفاجأ بكراكيب مرصوصة على الأرض أو على طاولات أو مركونة إلى الحوائط أوَ في عتبة دكان عتيق لايقل عمره عن ثلاثمائة عام تشهد بمرورها طبقات فوق طبقات من الهباب والبقع والشحوم والدخان الأسود، كل ذلك معجون في الرطوبة. دكاكين كثيرة أشبه بالأكواخ، وأخرى أشبه بالممرات أو منور بين منزلين تم تقفيله.

ها هنا يتمركز تجار الخردة. معروضاتهم أشياء لا تخطر على البال، منها ما يمكن أن تتكهن أصله ومنها ما لا تستطيع رده إلى أصول: أبواب سيارات أكلها الصدأ، صفائح، براميل، صواميل، مسامير، صنابير قديمة، أكر، مطارق، جنازير، عواميد حديدية، نحاسيات متآكلة، كابلات متهرئة، أجزاء من مواتير تالفة، من دراجات.

البيوت عتيقة وارمة مشرخة متداعية جربانة شائهة الشكل، مداخلها مخيفة يفح منها الظلام الرطب، ومعظم شبابيكها منزوعة الدرف أو مدعومة بألواح من الأبلكاش أو الورق المقوى، ومع ذلك فللبيوت تراسينات تتدلى منها حبال الغسيل منشور عليها خرق وبطاطين وحصائر بالية وأكلمة مصنوعة من قصاصات أقمشة قديمة. أعتاب البيوت مشغولة هي الأخرى بمعروضات غريبة لا يتصور المرء مطلقًا أن يكون لها سوق، لكنك ما تلبث حتى تعتريك الدهشة من أن لهذه الخردة من يطلبها ويجيء من أماكن بعيدة إلى سوق الخردة في حوش الجعان ليبحث عنها، وقد يدفع فيها مبالغ كبيرة.

كل دكان كل فرش على الأرض يتلكأ أمامه عدد من الناس يقلبون في الأشياء بتركيز شديد، بل يتقرفص الواحد منهم على الأرض ليعيد التقليب والفحص، ثم يسأل عن ملحقات لهذا الشيء أو عن بقيته أو عن شيء من طرازه، ثم يبدأ في المساومة والمفاصلة والمناورة بين رواح ومجيء أمام الشيء أكثر من مرة وإيهام البائع بأن هذا الشيء أو ذاك لا أهمية له بالمرة.. ولكن على من؟ إن أي بائع هنا - حتى وإن كان طفلا - يعرف بالتدريب أو بتوريث الخبرة أن من يحوم حول شيء لا بد أن يكون في احتياج له، فمتي بدأ الفصال والمساومة على السعر فمعنى ذلك أنه جاء يبحث عن هذا الشيء على وجه التحديد، حتى وإن كان مجيئه محض مصادفة. إن البائع هذا الحافي المتسربل بخرق صدئة كالحة كمعروضاته على يقين من أن هذا الرجل لديه سيارة ثمنها الشيء الفلاني قد أصابها الكساح ولن تقوم إلا بأن يزودها بهذه القطعة التافهة من الخردة.. وإذن فهذه القطعة - أو تلك - تعادل في نظر البائع ثمن السيارة، ومن هنا فإنه واثق تمام الثقة بأن المساوم سوف يعود صاغرًا ليأخذها بالثمن الذي طلبه البائع. رجل آخر لديه جرامفون، أو راديو، أو دراجة، أو موتوسيكل، أو معصرة، أو كراكة، أو أي شيء من هذا القبيل، يفتقد شيئًا أو أكثر من هذه الخردة.

كان من الواضح أن توني على علاقة طيبة جدًّا بكل فرد في حوش الجعان بأكمله، وله الدلال حتى على رواده الغرباء. كان - على سبيل المداعبة أحيانًا - يتعمد اختراق أشياء مفروشة على الأرض ولكن بحرفنة تبعثرها ولا تدمرها، فلا يتلقى أكثر من صيحة غاضبة بعمق ما فيها من ودٍ وحميمية: «أصلك خول وابن لبوة!».، فيرد توني: «تشكر يا أخي!»، يعني أنه قد رد عليه نفس الشتمة بصياعة. وبعد برهة يلسع أحدهم على قفاه ولكن بحركة من يرجو: «طريق من فضلك»، فيصيح الملسوع: «وحياة أمك لأفسيك!». كل ذلك وتوني لا يني يضحك باستمتاع وبمرح حقيقي، ثم يعقب:

- «أولاد وسخة! هؤلاء المعفنون يكسبون ذهبًا! أقل جربوع فيهم مليونير وأنت لا تقبل شراءه بثلاثة مليمات!»..

ثم أشار بذراعه المتختخة المليئة بالشعر إلى بناية قريبة على قطاعات طولية صارمة:

- «مصنع الكرتون هذا كان ملكنا حتى وقت قريب جدًّا، ربما
أول البارحة».

- «والآن؟».

- «الآن؟ يملكه ابن خالة أمي ومجموعة من أقاربه.. هنيئًا لهم! نهر من الفلوس لا يجف!».

ثم أطلق زفرة حارة وأضاف:

- «أبي!.. المجنون ابن المجنونة!.. طلعت في دماغه فجأة أن يهاجر إلى أرض الميعاد! أولاد الشرموطة تجار السياسة - (وسحب شخرة إسكندرانية ممطوطة على إيقاع حرارة السخرية المريرة) - أقنعوا الرجل المجنون المخرف!.. يا أبي نحن مصريون أبًا عن جد من قديم الأزل كما كنت تقول لنا بلسانك، نحن المصريون الذين دخلوا في الدين اليهودي ولم يستنصروا ولم يسْلموا.. لم يفرطوا لا في عقيدتهم ولا في مصريتهم، فكيف تجيء اليوم وتقول أرض الميعاد! - (وسحب شخرة أعمق من السابقة) - ميعاد إيه يا آبا الحاج؟ هو ربنا بيدي مواعيد؟!.. لكن ماذا تقول للخيبة إذا جاءت بالويبة؟..

«الرجل صمم على بيع المصنع لكي يرغمني أنا وإخوتي البنات وأمي أن نهاجر معه!.. أمي عملت بالعند وصممت على البقاء في بلاد أهلها المدفونين على مرمى حجر من بيتها، فلمن تتركهم؟! وكيف تحتاس ببناتها في بلاد الناس في دولة بزرميط لا أحد فيها يستحي من الآخر أو من أي شيء؟! ولماذا تهاجر أصلا وهي آمنة هنا وسط أهلها من المسلمين والأقباط واليهود؟!.. إنما الصهاينة الملاعين أكلوا دماغ الرجل فباع المصنع في شربة مياه، ولولا أن المشتري من طرف أمي لأخذ المبلغ كله وقال يا فكيك!.. أخذ أقل من ربع المبلغ. ما تبقى صرت أقلب به عيشي في السوق لأطعم أمي وإخوتي البنات!.. المؤلم أن الرجل الخرفان نفدت فلوسه في بلاد الغربة وبات يعمل نفرا باليومية زهورات ولا تسمح له السلطة بالعودة إلى مصر، والظاهر أنها كانت تراقب جواباته وجواباتنا عليه فلم يعد يرد علينا ولم نعد نعرف له عنوانا!.. يستأهل.. ديك أمه!»..

توقفنا عند قبو عتيق، على واجهته بقايا حريق قديم، بعض أصداغه متهدمة. كان الظلام يفح من داخل القبو، في حين لا تزال شمس العصاري تلمع داخل زجاج الشبابيك العالية والواطئة. راح توني يضغط على بوق الموتوسيكل بتنغيم مقصود يبدو أنه سيم متفق عليه. انفتح باب عتيق في صدر العتبة الظلماء، أطلق الباب صريرًا حادًّا مفزعا، أطل وجه رجل مُسنّ منكوش الشعر كثيف اللحية. غمز له توني بلهجة مخصوصة:

- «طلع كرتونة الأمواس بره عشان البيه يطمئن على البضاعة!».

أومأ الرجل برأسه ثم اختفى. وقال توني: «انزل».. ثم أوقف المحرك وثبَّت الموتوسيكل في الأرض وقال: خش، وتقدمني.. فإذا بنا في حوش غير مسقوف يطل عليه أكثر من باب. كان الرجل الكثيف اللحية قد سحب كرتونة كبيرة تكاد تكون في حجم تابوت. رفع ألسنة الغطاء الورقي بأطرافها الأربعة، ومن منتصف الرصات شد قاروصة كقالب الزبد، فتحها بحرفنة وشد منها علبة صغيرة، بظفر إبهامه فتح العلبة وسحب منها موسًا، فك عنه غلافيه الخارجي ثم الداخلي وعرضه أمامي ناصعًا يلمع كالمرآة، يقول بالفم الملآن أنا من معدن ثمين. توني أخذ الموس ومال فوق الأرض فالتقط ورقة من ورق شكائر الأسمنت، فردها، أمسك بها من طرفها بطرفي الإبهام والسبابة، ومرر الموس في قلبها بسحبة خاطفة شطرت الورقة، ثم حدجني بنظرة تكاد تنطق: إيه رأيك؟ ثم أعاد الموس للرجل الذي راح يعيده إلى لفته ثم إلى مرقده في العلبة ثم يعيد العلبة إلى القاروصة ثم يعيد القاروصة إلى الكرتونة ويطوي أطراف الغطاء ويسحب من جيبه بكرة الورق اللاصق العريضة ناظرا إليَّ نظرة ذات معنى: أبرشم؟.. قلت: برشم. وسحبت توني إلى الخارج: «كده تمام. أنا اشتريت!».

في طريق العودة قال توني:

- «عملت حسابك وعرفت كم ستدفع في الكرتونة؟».

هدر صوت الموتوسيكل في صدري. ابتلعت ريقي:

- «طبعًا! ولكن.. أنت تعرف أنني لست أحتكم على هذا المبلغ حتى أدفعه لك الآن!..».

قاطعني:

- «هذا شرط لخروج البضاعة من مكانها: الدفع الفوري! عدم المؤاخذة يابو زمل، هذه بضاعة والناس جواعى! سلعة منعدمة من البلد!.. على فكرة يابو زمل.. من مصلحتنا أن نمزمز في بيعها بالقاروصة، لكننا أحببنا أن تأكل عيشا من ورائنا! إننا نقدم إليك خدمة لا تطولها من أحد، فأقل ما فيها نأخذ حقنا في الحال على داير مليم! لم يعد فينا دماغ لوجع الدماغ!».

كنت مقتنعًا بكلامه تمام الاقتناع. وعندما استأنفنا جلستنا في بار حوش الحنبقي قلت لمصطفى إنني اطمأننت إلى مستوى البضاعة وإنني خلاص اشتريت، ثم استأذنتهما في الانصراف لمدة نصف ساعة على الأكثر يكون بعدها دفع وتخليص.

في دقائق معدودة أوصلتني الفسبة إلى ذلك التاجر الذي طلب مني هذه الصفقة. استقبلني بحفاوة، عرضت عليه موسا أعطانيه توني أثناء الطريق على سبيل العينة والهدية. قال التاجر في غبطة:

- «كم عندك من كمية؟»..

- «ليس عندي أنا، بل عند ولد يهودي أعرفه.. ابن سوق شاطر! لديه مخزن يخبئ فيه ألوانا من البضائع لوقت زنقة!»..

- «كم عنده هذا اليهودي الجميل؟»..

- «صندوق بحاله، فيه مائة قاروصة، في القاروصة مائة علبة!».

- «كم يطلب في هذا الصندوق؟».

أمسكت الورقة والقلم وحسبت المبلغ على السعر الرسمي المعروف قبل الندرة، ثم أضفت عليه نسبة قدرها عشرون في المائة، ثم قدمت له المجموع في ورقة منفصلة. فتمهل قليلا وهو ينظر في المبلغ ثم هز رأسه موافقا:

- «على خيرة الله!».

- «إذن فصاحب البضاعة سيجيئك بنفسه ليسلمها لك ويأخذ حسابه فورًا!».

- «الليلة؟»..

- «الآن.. بعد أقل من ساعة».

- «أنا فاتح إلى منتصف الليل».

- «على فكرة، مسئوليتي الآن انتهت!».

- «خدمة لن أنساها لك!».

في بار حوش الحنبقي أبلغت مصطفى وتوني بما دار، وأعطيت لتوني عنوان التاجر على أن يقوم من فوره ليربط الكرتونة وراء ظهره على الموتوسيكل ويذهب بها فيسلمها ويقبض ثمنها المتفق عليه كاملا، وأن يخصم نسبة العشرين في المائة التي قمت بإضافتها كحق لي يسلمني إياه فور عودته. وهذا ما قد حدث بالفعل في أقل من ساعة كما توقعت، وإذ فوجئت بأن حفنة من الجنيهات قد دخلت جيبي في لعبة لطيفة استغرقت أقل من نصف يوم،كدت من فرط النشوة أصاب بالجنون! إنه مبلغ يكاد يوازي مرتبي في نصف عام، وإذن فلا بد أن توني ومصطفى يكسبان مكاسب طائلة.

في عزّ الشعور بالنشوة يوخزني خاطر ممض ومزعج ويشاغبني في أوقات كثيرة، يذكرني دائمًا بأنني لا يجب أن أطمئن اطمئنانا كاملا للثنائي الجهنمي اللطيف معًا - توني رزق ومصطفى عبد العزيز - رغم مظاهر الود والجدعنة!

في جولات كثيرة على مدى أيام طويلة يسألني في اليوم الواحد عشرات من البقالين والصيادلة وأصحاب البازارات عن أحد من معارفي لديه أسبرين ماركة أسبيول. هي إذن أزمة أسبيول! في السوق كالعادة أنواع كثيرة من الأسبرين المعالج للصداع والرشح والإنفلونزا، إلا أن جماهير عريضة جدًّا من الشعب المصري لم تكن تثق إلا في هذه الماركة بالذات: أسبيول. وحين تثق الجماهير في سلعة من السلع على مختلف ألوانها وأنواعها ومدى أهميتها فمن المستحيل تقريبًا إقناعها بسلعة بديلة مماثلة حتى وإن كانت هذه هي الأفضل.

ابن السوق الشاطر - الذي يعترف به مصطفى وتوني - لا يغلق الباب في وجه المطلوبات منه مهما كانت مستحيلة، حتى وإن كان على يقين بأن السلعة لا وجود لها من الأساس في دائرة معارفه. إنه لمن الكياسة والمرونة أن يعترف أمام عملائه بصعوبة الطلب، ليس ليقطع الأمل في إمدادهم به، بل ليضاعف من حجم العمولة أو المكافأة إذا هو نجح في جلبه بشكل أو بآخر، بمصادفة أو بأخرى. الأوفق دائمًا أن يقول: «إن شاء الله! خليها على الله! ربنا يسهل!»، ذلك أن عموم الناس في الشعب المصري يعشقون مثل هذه العبارات إلى حد أن بعضهم يكاد يدفع لك مكافأة لمجرد ترديدك لمثل هذه العبارات الجالبة للفأل الحسن!

ما ليس موجودًا في الأسواق لا يوجد تلقائيًّا عند عمي صلاح الراوي، ولهذا لم أسأله، بل قررت ألا أسأل أحدًا تجنبًا لوجع الدماغ. ولكنني في بار حوش الحنبقي ساعة الأصيل طرأت الفكرة الشقية على رأسي: لماذا لا أجرب لأعرف حدود الثنائي توني رزق ومصطفى عبد العزيز؟. سألت على سبيل التحدي في شكل عفوي:

- «ألا أجد عندكما خبرا عن الأسبرين الأسبيول؟»..

الابتسامة المراوغة انحشرت قليلا بين أسنان مصطفى المفلوجة، لكنها انتقلت إلى شفتي توني متحررة ومصبوغة بدم الخدين الأسيلين. قال مصطفى وهو يعتقل ابتسامته في المساحة الفارغة بين أسنانه:

- «إذا لم يكن موجودًا أوجدناه بعون الله من أجل خاطرك!»..

وقد صدق. اتضح أن عندهما كميات لا تنفد من هذا الأسبرين ماركة أسبيول. ومثلما فعلت في بيعة الأمواس كررت الفعل في عدة صفقات من الأسبرين: أعطي لتوني عنوان التاجر فيذهب إليه بالبضاعة ويقبض منه، ثم يحاسبني على النسبة التي اعتدت أن أضيفها على السعر عند الاتفاق. إلا أن توجسي وعدم اطمئناني سلباني التركيز على البيع بهدوء وروية وإغراء، ولهذا انحصرت صفقاتي في نطاق محدود لا يستحق أن يوصف بأنه صفقة، في نطاق العشر والعشرين قاروصة، ومن ثم فالعمولة كانت هي الأخرى محدودة وضارة في نفس الوقت لأن تعددها يوهم بضخامة المكسب بشكل يحرض على الصرف على ساعة الحظ - التي نزعم بأنها لا تعوض - لدرجة أن الواحد يدفع آخر الليل قيمة العمولة كلها والبقشيش من جيبه ويرجع آخر الليل إلى فراشه مثخنا بجراح الجهد والخسران.

فقدت حماستي ونسيت أمر الأسبرين أياما توازنت فيها مصروفاتي على القدر المعقول. وذات أصيل وأنا أنقنق في شرب زجاجة البيرة على مهل لتكفيني طوال القعدة، لاحظت أن مصطفى يرمقني بنظرة ثاقبة استمرت محلقة في عينيه لبرهة طويلة. المدهش حقًّا أن نفس النظرة انتقلت إلى عيني توني فبدوا لي كأنهما شخص واحد متصل الأحاسيس والحواس وبين الدماغين معابر سالكة. مال مصطفى بدماغه نحوي فدق مسمارًا من نظرته في عيني:

- «اسمع يا بهاء. تشتغل معنا؟»..

تراجعت بظهري إلى مسند الكرسي ربما لكي أقوى على تلقي السؤال الذي هوى فوق رأسي كالمطرقة. مدَّ لي علبته البلمونت العشرين المبططة. رفعت يدي معتذرًا:

- «لسه راميها!».

- «ارم هذه أيضًا!».

سحبت أنفاسًا متلاحقة كأنني أسحب عقلي من تحت اللحاف ليسعفني بعلاج صائب لهذا العرض المداهم. جاءني صوت مصطفى متغنيا كأنه ينحت لي تمثالاً فنيا:

- «أنت طالب علم في كلية الفلسفة.. شكلك حلو ومحترم جدًّا.. يملأ العين ويكسب الثقة. يعني واضح أنك ابن ناس! عندك لباقة ما شاء الله لبلب في الكلام!.. إني محتاج لك. اكتشفت الآن. اسمح لي.. أنك عندي في أهمية البضاعة

التي أبيعها! بك تزداد قيمة البضاعة في نظر من يشتريها، إذ يطمئن إلى أن أولاد الناس هؤلاء لا يغشون لا يكذبون لا يخادعون! أنت لُقطة بالنسبة لي! بضاعة ثمينة لا تباع ولا تُشترى، لكن وجودها يبيع كل ما عندي من بضائع بكل سهولة!».

فزعت بمعنى الكلمة. تلبك ذهني تمامًا. لم أفهم إذا ما كان يهزأ بي بكوني بضاعة أم يمتدحني بكوني قيمة بهذا الحجم! استدرك في الحال:

- «لا تكن مقفولا ولا تفهمني غلط!..».

وأكمل توني بقية العبارة:

- «.. ولا تكن خفيفًا وتتسرع في الرد!».

التفت مصطفى إليه معلقا:

- «هو الخسران إن فعل!».

ثم ارتد بنظرته إليّ:

- «كم يعطيك اليهود الطلاينة من ماهية شهرية في مصانع البويات؟».

عندئذ غافلني الارتعاد وظهر بوضوح على كياني كله لدرجة أني حاولت الإمساك بالكأس فتدلدق في يدي، فتركته مرغما في مكانه. ولكي أعطي لنفسي مهلة لاستيعاب هذه العبارة التي قالها مصطفى، رميت السيجارة وأشعلت واحدة أخرى تستهلك جزءًا من عصبيتي:

- «ما هذا الذي قلته الآن يا درش؟! مالي أنا واليهود الطلاينة؟! هل سكرت وخطرفت؟!».

ضحكته الصاعقة فاضت بالأريحية والبساطة والسماحة. ذراعه الطويلة السرحة تتراقص أمام عيني كعصا المايسترو:

- «من الذي سكر فينا وخطرف؟! ألست تشتغل محصلًا لمصانع عنتر بك الشماشرجي؟!»..

- «بلى، ولكنك قلت اليهود الطلاينة!».

- «ما داهية إلا أن تكون لا تعرف!».

- «أعرف ماذا يا رجل؟!»..

- «أن رأسمال جميع الشماشرجية يهودي! مصانع عنتر بك هذه ليس يملك فيها سوى نسبة خمسة وثلاثين في المائة! أقولها لك بكل دقة موثوق بها!.. ونظرًا لخبرته بالبويات فقد عينوه عضو مجلس إدارة منتدب لإدارة السوق ومراقبة خطوط الإنتاج لتلبية احتياجات السوق الملحة، وله نظير ذلك مرتب كبير وعمولة مجزية! بقية الأسهم في شركات البويات وشركات الصباغة تخص آل موصيري وآل كورييل، وهما من أصحاب البنوك الخاصة. وكورييل عائلة تملك المحاريث والهندسة وشركات أخرى كثيرة.. كذلك الأمر بالنسبة لشركات هاني بك الشماشرجي وإخوته وعياله؛ عشرون أو ثلاثون في المائة من الأسهم والباقي يملكه أفراد من عائلات سالتيل ورولو وهيرلينج!».

طفحت ذاكرتي صورًا كثيرة شخصت أمامي مما كنت أراه وألاحظه من دون أن أتوقف أمامه. شاهدت في مكتب عنتر بك وأروقة المصانع وعنابرها وإدارتها شخصيات كثيرة من أصحاب هذه الأسماء التي ذكرها مصطفى. أتذكرهم الآن إذ يتحدثون مع أي مسئول في المصانع أو الإدارات أو حتى مع عنترٍ بك نفسه، حديثا كان في غالب الأحيان يأخذ صيغة الأمر والنهي، أو نبرة الاستهجان والاستنكار، بل والتوبيخ أحيانًا، مما يشي بأنهم بالفعل أصحاب العمل. وكان ظهورهم في المصانع والإدارات كثيفا وشبه منتظم، واللغة الإيطالية مسموعة طوال النهار في المحادثات والمهاتفات وقراءة خطابات ومذكرات وفواتير. كنت لغفلتي أظنهم نوعًا من الخبراء الأجانب المعتزين بأنفسهم، سيما وأن الاحتلال الإنجليزي عوَّد الشعب المصري على أن كل أجنبي يعرف الرطانة من حقه أن يحتد علينا بأنفة الأسياد الذين لا يحق لنا الرد عليهم!

أصابع مصطفى تمتد متسللة تحت ذقني لترفع رأسي الذي كان منكسا في استغراقة تامة:

- «إذن فأنت صدمت! ولكن لماذا الصدمة؟ كل المصانع والشركات في مصر لا تخلو من المال أو العقل اليهودي! بنك

مصر نفسه ساهموا في تأسيسه وشاركوا في مجلس إدارته، فما المزعج في هذا؟ أنا أشرح لك: اليهود المصريون أهلا بهم وسهلا لأن أموالهم تبقى في مصر ينتفع بها المصريون، أما اليهود الطلاينة والروس والبلغار والمجريون فإنهم خبراء في الابتزاز وخبراء في التهريب عند اللزوم! في لمح البصر يفاجأ المصريون بأن الأموال التي جُمعت منهم قد هربت ومن ورائها القراصنة!».

شوح توني في ضجر:

- «فضنا من سيرتهم ربنا يخليك! نفسي تغُمُّ عليّ حين تجيء سيرتهم!.. أنت سألت بهاء كم يقبض كل شهر من عنتر بك، وأنا أحب أن أسمع رده!».

بنبرة احتجاج خشنة بعض الشيء:

- «أقبض ما أقبض يا توني! أهو تحقيق؟».

نزلت على صفحة وجهه ستارة حمراء داكنة رست على ضفتي حنكه الباسم. قال في شعور حقيقي بالحرج:

- «عندك حق! الرزق سر! معلهش! أنا طلعت حمارًا في هذا السؤال!»..

قهقه مصطفى بحنو:

- «شف يا بهاء، سأعطيك في اليوم الواحد جنيها كاملًا، يعني مائة قرش!».

- «يعني ثلاثين جنيها كل شهر؟!»..

- «مبلغ كبير طبعًا!».

- «طبعًا! ولكن ما العمل الذي سأقوم به كي أستحق عليه مثل هذا المبلغ؟!»..

- «لا شيء».

- «لا شيء؟! ما معنى هذا يا درش؟!»..

- «مجرد أن تكون معي فحسب! تمشي معي في السوق مرتديا بدلة أنيقة برباط عنق حديث وياقة قميص بيضاء ناصعة منشّاة.. يعني تكون آخر أبهة!.. سأكون أنا صَبِيَّك وأنت البك المندوب، ترطن بالإنجليزي، وليس لك أي دعوى بالباقي! أنا الذي يبيع ويقبض»..

- «الحكاية شكلها نصباية!».

- «احترم نفسك!»..

- «لا تؤاخذني فـ ..»..

- «أنت أصلك غشيم! إن السوق يموت في حب الفشخرة والأبهة والمنظرة! إنه قعر المجتمع؛ لا يثق فيك إذا كنت الأقل في أي شيء!.. مهما كانت شطارتك لن تكسب ربع ما تكسبه وأنت في كامل الأبهة والمنظرة ليهتز منك الزبون! سيشتري منك الصفقة التي يراها مناسبة لما تركته فيه مظهريتك من رهبة واحترام.. فهمت يا أفلحون؟!».

- «فهمت يا إسكندرون!».

- «على كل حال، ما المانع أن تجرب يومًا أو يومين لتحكم بنفسك على نوعية العمل؟!».

- «جئت بالفائدة يا درش! سأجرب يومًا!».

- «أشوفك هنا غدًا في الحادية عشرة صباحًا. نصطبح ونتوكل على الله»..

- «إن شاء الله».

وعندما أويت إلى الفراش نفيت هذا الموضوع من ذهني تمامًا.

فيما كنت أتناول فطوري لاحظت أن مصطفى عبد العزيز راكب فوق نافوخي مُدليًا ساقيه. حاولت أن أصد إلحاحه دون جدوى. لبست بدلة كاملة، تعطرت بالمرة، سويت شعري جيدًا، لمعت الحذاء، صرت على اقتناع بأن الطريقة الوحيدة للتخلص من إلحاح شبح مصطفى هي النزول فورًا والذهاب إليه.

في العاشرة والنصف صباحًا كنت في بار حوش الحنبقي فرأيت مصطفى يمضغ لقيمات من كسرة محشوة بالفول المدمس، فأصر - رأسه وألف سيف - أن أشاركه ولو بقضمة واحدة أبتلعها. ما أدهشني أن القضمة كانت أشهى في فمي من كل الفطور الذي تناولته قبل قليل. شربنا زجاجتين اثنتين ثم حبسنا بفنجانين من القهوة الثقيلة. فوجئت بأنه يحمل حقيبة جلدية من حقائب السفر المتوسطة الحجم شديدة الفخامة بأقفال مذهبة، ويبدو أنها من ماركة عالمية مشهورة. ركنت الفسبة وراء باب البار في عهدة الجرسون. ركبنا الباص إلى محطة الرمل، ومنها ركبنا الترام ذا الطابقين. نزلنا في محطة سموحة. قال مصطفى وهو يتقدمني إلى صعود سلم المحطة:

- «حي سموحة عليه الدور اليوم، فأنا في كل يوم أفوت في حي من الأحياء الإفرنجية!».

مشينا في الشارع كسائحين رائقين. كان من الواضح أن مصطفى يبحث في لافتات المحلات في العينات الإعلانية المعروضة في الد□تارين الزجاجية. اجتزنا القشرة الإفرنجية المتاخمة للكورنيش، صرنا في العمق البلدي للحي. عند صيدلية كبيرة فارغة من الزبائن توقفنا، قرأنا اللافتة: صيدلية الشفاء - جرجس حنا وأولاده. هو إذن قبطي، هكذا غمغم مصطفى وهو يدعوني للدخول.

- «نهارك سعيد يا دكتور!».

- «نهارك سعيد مبارك، أهلا وسهلا!».

هكذا رد الصيدلي العجوز ومد يده لاستقبال يد مصطفى التي امتدت للمصافحة. وضع مصطفى يده اليسري على كتفي:

- «جئت لك بمندوب الشركة شخصيًّا: بهاء بك الشماشرجي».

بهزة من رأسه ونظرة ودودة من عينيه احتفي الصيدلي جرجس بالاسم الشماشرجي ثم صافحني بحرارة. رفع شريحة من سطح البنك ودعانا للدخول. أجلسنا على كرسيين مجاورين لمنصة الآلة الحاسبة. أرسل صبيه الصغير ليأتي بكوبين من عصير القصب، وانصرف يلبي احتياج زبون قادم لتوه. بنظرة جانبية ذات معنى رمقني بها مصطفى اقتديت به، انجعصت واضعًا ساقًا على ساق، أشعلت سيجارة، جرعت كوب العصير في تؤدة. انتبهت جيدًا وبكامل تركيزي إلى حديث مصطفى للصيدلي العجوز:

- «نحن شركة مصرية جديدة لتسويق الأدوية ولسنا منتجين لها، نريد أن نكسب أرضا في السوق للمنتجات التي نستوردها من كبريات المصانع العالمية. طموحنا كبير في أن نسد جميع احتياجاتكم من جميع الأدوية بطلبية واحدة وفاتورة واحدة، أليس كذلك يا بهاء بك؟».

أومأت برأسي في رصانة:

- «طبعًا، وعشمنا أكبر في أن نكسب ثقة السادة الصيادلة».

تبسم الصيدلي وهو مطبق الشفتين ملوحا بذراعه القصيرة المبطرخة بحركة من يقول: الشرط نور، مع أنه قال:

- «عندكم أسبيول أصلي؟».

انشرح وجه مصطفى، تراجع بذقنه مقدما للصيدلي سيجارة ممهورة ببسمة عريضة دافئة:

- «جئت بالفائدة، هذه مهمتنا. بهاء بك نزل معي خصيصا ليدرس حالة السوق ويعرف الناقص والزائد..».

قاطعه الصيدلي مكررًا:

- «عندكم أسبيول؟ أجبني قبل أي كلام»..

- «إن شاء الله عندنا، ولكن على سبيل الهدية!».

- «ماذا تقصد بالهدية؟!».

تطوعت أنا بالشرح:

- «يعني لو حضرتك أخذت منا طلبية كبيرة نعطيك فوقها كم قاروصة أسبيول بسعره العادي دون إضافة».

بوادر مناورة ذكية تبرق في عيني الصيدلي:

- «والل- .. هِ.. حاليًّا.. يلزمني أشياء غير دوائية أتعشم أن تكون عندكم!».

قاطعته بلهجة واثقة:

- «كل ما ستطلبه سيكون عندنا بإذن الله!»..

- «إذن فأنا حاليًّا يلزمني فُرَش ومعجون أسنان، قطن طبي، شامبوهات وأدوات تجميل وأمواس حلاقة وأشياء من هذا النوع!..»..

- «اكتب طلبية يا مصطفى أفندي!».

مصطفى وضع الحقيبة على ركبتيه ورفع غطاءها بقدر يسمح بمرور يده. سحب دفتر طلبيات مزود بأفرخ الكربون، رفع غلافه. مطبوع على الرأس الأيمن للصفحة اسم «شركة الإسكندرية لتسويق المواد الغذائية والدوائية - شركة مساهمة مصرية»، تحته عنوان المقر وأرقام هواتف. وكان مصطفى قد تلكأ قليلا في إقفال الحقيبة متعمدًا لفت نظر الصيدلي إلى ما تحتويه مع الإيحاء بأنه ليس يريده أن يرى، على أن عين الصيدلي العجوز اخترقت الفراغ تحت غطاء الحقيبة ولمحت أغلفة ماركة الأسبيول، فبقيت عينه معلقة على غطاء الحقيبة بعد إغلاقه، ثم إذا به يصنع من أصابع يده مسدسًا وهميًّا يشهره في وجه مصطفى هاتفا بلهجة مسرحية لطيفة:

- «طلع الأسبيول اللي معاك!»..

قلت:

- «لا تقلق يا دكتور.. هذه الكمية سيكون لك نصيب فيها».

- «كم قاروصة لي؟».

- «حسب قيمة الطلبية التي ستطلبها.. إذا كانت الفاتورة كبيرة نعطيك أكثر!»..

واستدرك مصطفى:

- «ما معنا الآن مجرد عينات لربط الكلام، ويمكن أن تطلب في هذه الطلبية ما تشاء من الأسبرين ويأتيك ضمن البضاعة المطلوبة».

بعد سرحة قصيرة واضعًا يده تحت ذقنه اعتدل الصيدلي:

- «تريدون أن آخذ منكم طلبية محترمة؟!».

- «طبعًا!».

- «أعطوني هذه الكمية من الأسبيول، صيدليتي أكبر صيدلية في الحي، وزبائني كثار وكلهم من الناس المحترمين، وأنا أكره أن أقول لهم: مافيش. شركتكم لا بد أن تضحي لتصنع الزبائن، وأنا طلبياتي دائمًا كبيرة وكثيرة».

- «إذن اعرض علينا عينة منها: ما طلباتك؟».

هكذا قال مصطفى وهو يضع سن القلم على الورق، فرفع الصيدلي أصبعه مشترطا:

- «قبل أن أطلب أي طلب، هذا شرطي: تعطيني هذه الكمية التي معك، أعطيك طلبية كبيرة!».

وضع مصطفى القلم بحركة يائسة:

- «الرأي لسيادة المندوب، أنا العبد المأمور!».

اجتهدت في رسم الورطة. رمقني الصيدلي بنظرة باسمة:

- «أنا زبون أعجبك، إن كسبتني لن تخسرني!»..

- «طبعًا يا دكتور، أنت نار على علم!».

ثم أطرقت مفكرا لبرهة:

- «وهو كذلك يا دكتور، دعنا نرى الطلبية».

قال الصيدلي:

- «أرني قاروصة».

- «عندك قاروصة عينات مفتوحة يا مصطفى أفندي؟»..

- «عندي».

ورفع غطاء الحقيبة وسحب القاروصة المفتوحة وسلمها للصيدلي الذي راح يتمعن في ألوان الطباعة والخط، ثم تناول كيسًا صغيرًا تأمله جيدًا ثم رفع لسانه اللاصق وهزه فظهر القرصان مطبوع عليهما - بالنقش الغائر - كلمة: أسبيول. أعاد لصق الكيس وأعاده إلى القاروصة ووضعها أمامه على المكتب:

- «كم قاروصة معك؟»..

- «خمسون».

- «بهذه؟».

- «لا! هذه عينة مفتوحة نشتغل بها لأن المفتوح دائمًا لا يباع. هاتها لو سمحت!».

فأعطاها له:

- «سآخذ منكم طلبية قيمتها تقارب ثلاثمائة جنيه، وسأطلب خمسين علبة أخرى!».

- «نحن تحت أمرك. تفضل.».

راح الصيدلي العجوز يملي على مصطفى أصنافا من أدوية ومساحيق ليس عندي أدنى فكرة عن أي منها، إلا أن مصطفى الجهنمي العجيب كان يبدو على علم بكل شيء، بدليل أنه كان أحيانًا يتوقف عن الكتابة ملوحًا بالقلم بين أصبعيه قائلا إن هذا الصنف ناقص. في النهاية أفرغنا الحقيبة إلا من القاروصة المفتوحة، وقبضنا ثمن الكمية وفوقه بقشيش لمصطفى، ثم انصرفنا إلى محطة الترام العائد إلى محطة الرمل. من محطة الرمل ركبنا التاكسي إلى حوش الحنبقي.. كل ذلك دون أن نتبادل كلمة واحدة، ذلك أنني كنت غارقًا في ذهول شتت خواطري لدرجة أنني لم أنتبه إلى أننا صرنا في حوش الحنبقي، بل وجلسنا في البار، إلا والجرسون يضع أمامنا طبقي الفول النابت والترمس وقد راح مصطفى عبد العزيز يصب الزجاجة في الكوبين.. عندها أفقت، استجبت لقرع الكأس في تراخ، وجرعت بلذة، وأفقت مرة أخرى على مصطفى يقلب في رزمة الفلوس وينتقي منها جنيهين:

- «اتفقنا على أن أعطيك جنيها في اليوم، ولكن نظرًا لأني فرحت بك وبلباقتك وذكائك سأعطيك جنيهين كاملين. أمسك!».

ثم جرع الكوب كله ومسح شفتيه:

- «هذا هو كل عملنا. أظن أنه سهل ولذيذ كما رأيت بنفسك!»..

- «فعلا يا درش، مشوار واحد لزبون واحد آخر حلاوة !..
يا بلاش!».

- «لكن خل بالك، اليوم وفقنا الله مع أول زبون.. غدًا أو بعد غد من يدري؟ ربما نلف على زبائن الحي بأكمله فلا نجد زبونا واحدًا يتجاوب مع مزاجنا ويخلصنا من الشيلة كلها!.. يوميتك ماشية على كل حال سواء بعنا أو لم نبع!»..

- «قل لي يا درش، هل لديكم توكيلات عن كل هذه الأصناف المدونة في طلبية الصيدلي جرجس حنا؟»..

هذه القنبلة التي انفجرت لا يمكن أن تكون ضحكة إلا إذا انطلقت من حلق مصطفى عبد العزيز. ضحكة هي الجنون

بعينه، إيقاعها طوب ودبش يرجم وجهي:

- «توكيلات؟! تتغابى أم أن شكلك هكذا؟!»..

- «يعني لديكم مخازن فيها كل هذه البضائع؟!»..

- «وهل تتصور يا ذكي أننا سنرسل هذه الطلبية للصيدلي بالفعل؟!»..

- «فلماذا بذلنا كل هذا الجهد لكي نأخذها؟!»..

- «لزوم إتقان الدور يا بني آدم، كان هدفي الأوحد أن نبيعه هذه الكمية من الأسبيول المنعدم في السوق!..».

- «فما الداعي إذن لكل هذه اللفة؟!».

- «لأننا لو دخلنا عليه لنبيع له الأسبيول المنعدم أصلا من السوق فإنه لا بد أن يتشكك فينا وفي الأسبيول! أقل ما فيها سيعطينا الطرشاء وقد يطردنا من المحل باعتبارنا غشاشين نصابين.. وإذن فلابد للعملية من تأليف وتمثيل وإخراج، يعني كما فعلنا اليوم بالضبط!».

- «يعني كنا نقوم بتمثيلية؟!».

- «أقنعناه بأننا نريد أن نبيع أشياء أخرى غير الأسبيول، ولكي نغريه بأن يشتري طلبية كبيرة نهديه باكو أو اثنين من الأسبيول الناقص في السوق!.. وهكذا أوهمناه بأنه ضحك علينا وأخذ الكمية كلها ليصبح هو الوحيد بين الصيادلة في صيدليته أسبيول ينشط به البيع!».

- «كيف يكون ضحك علينا وهو قد وقع على طلبية بمثل هذا المبلغ الكبير؟!».

فرقعة ضحكاته الجنونية أبعدت الكوب عن حنكه، ثم اضطر إلى وضعه على الترابيزة ريثما ينتهي من الضحك:

- «يا راجل يا طيب، الصيدلي جرجس حنا ضرس وابن سوق ألعبان، لقد أملانا طلبية تعجيزية بأصناف ليست موجودة في الأسواق!.. الأشياء التي يعرف أنها متوافرة لا يزيد ثمنها في الطلبية عن عشرين ثلاثين جنيها بالكثير!».

- «عجايب! ولكنك كنت جادًّا جدًّا في كتابة الطلبية وكنت تلفت نظره إلى أن هذا الصنف أو ذاك ناقص أو توقف إنتاجه!».

- «لزوم سَبْك الدور، أنا كنت أنتقي الأصناف التي أعرف أنه يعرف أن وجودها مستحيل، وأوافق على الأصناف التي أعرف أنه يعرف أن من الممكن تهريبها وتوفيرها بشكل أو بآخر!».

- «أنت إذن عقلية جبارة يا درش تعرف كل شيء عن أي شيء!».

- «أنا مولود في السوق، أهلي كلهم أولاد سوق قراريين!.. لم أترك في الأسواق شيئًا يباع ويُشتري إلا واشتغلت فيه صبيًّا ثم بياعا ثم متعهدًا. معظم طفولتي كنت صبيا في أجزاخانة ابن عم لي في حي القباري، طفشت منها ومنه لأشتغل في سوق السمك، وهو وحده جامعة بكليات، اشتغلت مع بتوع الخيش.. بتوع الخردة في حوش الجعان.. سرحت بخردوات.. باللب والفول السوداني في السينمات.. بجردل المرطبات في القطارات.. اشتغلت في تجميع الزبالة وفرزها وبيعها لمزارع الخنازير وبائعي الروبابيكيا والخردة.. سرحت في الشوارع بفنطاس الجاز، بعربة بطاطا، بفول حراتي وحرنكش.. بعت الهواء ورمال الشطآن للمصطافين.. بعت الحشيش والأفيون من تحت ذقن الحكومة في سجن الحضرة.. طول عمري لا رأسمال لي سوى الكلام الحلو وتفتيح المخ. وهبني الله موهبة إقناع صاحب أي بضاعة بأن يعطيني بضاعته ويمهلني حتى أصرفها.. شيئًا فشيئًا أصبحت متخصصًا في بيع البضائع الراكدة أخترع لها زبونا.. أخترع سوقا تروج فيه.. كذلك أصبحت متخصصًا في بيع كل ما هو غير موجود في السوق، أبحث عن غير المتوافر لأوفره، بالطيبة بالغصيبة سأوفره.. سأخترعه بتفتيح المخ بالفتاكة بالفهلوة.. صباح الفل!».

ورفع رأسه منتظرا أن أقارعه، ففعلت وأنا مغمور بشخصيته الفذة الطريفة المثيرة. شربت جرعات طويلة النفس في محاولة للخروج من أسره. سرعان ما تبينت أن الشرب يعمق حضوره، إذ يصيبه بالوهج ويصيبني بالافتتان. إلا أن خواطر مقلقة كانت تدهمني في عمق الشعور بالنشوة، تنذرني بسوء العاقبة إن بقيت واقعًا في أسر مصطفى عبد العزيز. إنه يمكن أن ينسيني ليس دروسي وكليتي فحسب، بل ينسيني أهلي، معنى ذلك أنني صرت في مهب الريح،

وهي لا ضمان ولا ضامن لها على الإطلاق.

غادرته يومذاك على نية قاطعة بألاّ أريه وجهي مرة ثانية. إلا أنني - كالعادة - في صباح اليوم التالي فوجئت بأنني شغوف بالذهاب إليه. وفي مساء ذلك اليوم تكررت النية القاطعة بقطع العلاقة، ثم تكررت في اليوم السابع فالعاشر فالخمسين، كل صباح أراني مساقا إليه في نفس الموعد إلى أن قاربت الإجازة الصيفية على الانتهاء. العجيب أنني مع استمرار نيتي في القطيعة فوجئت بأنني أناقشه في أمر تعديل موعد لقائنا مع بدء الدراسة بحيث أرافقه بعد الظهر لمدة ساعتين أنصرف بعدهما إلى التحصيل، وهو أمر سهل وسريع وبلا جهد في كلام، فإذا به من المرونة والروح العملية بحيث وافق على أن يلتقيني بعد الظهر على أن يقوم بمشوار الصباح وحده لأن السوق يعشق البكور، يقول المثل: «يا مبدَّر يا حرامي السوق!»، يعني أن قطفة الصبح هي الخير والبركة.

إن العمل مع مصطفى كان ممتعا حقا. كان مدرسة في كيفية لَيّ ذراع الحياة واغتصابها بالقوة، والتآمر على الحظ لتفريغ سمومه والنجاح في تحسينه. الحياة في صحبة مصطفى كانت تبدو غاية في السهولة والسلاسة شرط أن يتعلم الإنسان لغة الأسواق، مفردات الأشياء، اختراق السكك إلى أمعاء المسئولين بجميع مستوياتهم بجميع الأشكال المبتكرة. إن قانون الحياة العملية في نظر مصطفى يلغي كل القوانين أو يهمشها؛ فأن تصبح مليونيرا في ساعات معدودة أمرٌ لا تعترف به كل القوانين، إنما يعترف به قانون الواقع العملي، ففيه ليس شرطا أن تكون مسنودًا برأس مال تجاري، أو بجاه من أي نوع، أو بشخصيات ذات حيثيات ونفوذ، أو بشهادات جامعية عليا.. شرطه الوحيد أن تكون فاهما لمنطق الحياة العملية، خبيرا بدروبها، بجخانيقها..

رغم انبهاري بقانون مصطفى عبد العزيز العملي فإن أشياء كثيرة كانت تنغص بالي من جهته وتوءمه اليهودي توني رزق. أهم هذه المنغصات التي كانت تفسد عليّ متعتي بالجنيهين الكاملين اللذين أقبضهما كل يوم من مصطفى مقابل أن أرافقه في مشوار لا يستغرق أكثر من ساعتين أشبه بفسحة للترويح عن النفس، تلك هي: من أين يحصل مصطفى عبد العزيز وتوني رزق على هذه السلع النادرة وبكل هذه الكميات اليومية؟!.. لعلني تذرعت بالرغبة في استجلاء هذا الغموض لأبرر لنفسي استمراري في العمل مع مصطفى. ثم إن النعمة حلوة ما في ذلك شك. شيء بديع حقًّا أن يصبح في مقدورك شراء عدد من القمصان الفاخرة والبدل الكاملة الأنيقة والأحذية المتلألئة في تارين شارع فؤاد! الأجمل والأبدع من كل ذلك - كما قال لي مصطفى ذات يوم - أن تضع يدك في جيبك فتجد ما تقبضه، ما تسد به احتياجا طرأ عليك في الحال. في أسابيع قليلة أصبحت أكاد أباري حمادة الشماشرجي في الأناقة واقتناء الأشياء الثمينة، وأتنقل بالفسبة كيفما أهوى ما دمت أزودها بوقود من جيبي بعد نفاد الكوبونات التي تزودني بها الإدارة كل أسبوع لكي أموّن بها من محطات البنزين.

كانت غرز الحشيش التي عرَّفني عليها حمادة الشماشرجي كثيرا ما تهفُّ عليّ مهفهفة في خياشيمي بعطر الحشيش الزكي الحميم، فسرعان ما أشد الرحال إليها في الحال حتى وإن كانت في ضاحية بعيدة عن المدينة. كان بارعا في اكتشاف الغرز وفي أرقى الأحياء، بل في أماكن ليس من المتوقع على الإطلاق أن توجد بها غرزة. غرز الأحياء الراقية غير ممتعة لأن وجودها تحت الضوء يوتر القعدة ويطير «الكيف» من الأدمغة أولا بأول، سيما وأن كل من يشتبه في أنك تحشش يحملق فيك بفضول ولزوجة ويكاد يطالبك بحجرين على سبيل الرشوة مقابل سكوته عن هذا الخرق للقانون. لذلك لم يكن حمادة يحشش في مثل هذه الغرز إلا للضرورة القصوى، وفيما عدا ذلك لا مانع لديه أن يسافر إلى كنج مريوط إذا سمع أن فيها غرزة آمنة!

كان عندي تحصيل في منطقة متاخمة لسوق السمك، فهفت نفسي إلى غرزة من غرز حمادة المفضلة في حوش النجار، ولم يكن لي في هذا الحوش زبائن، بل لم أكن أستظرفه. إنه شارع مليء بالغبار ليل نهار، يكاد يكون مركزًا لورش صناعة الخيش، أو بمعنى أصح إعادة تصنيع الخيش القديم بتقطيع شرائح متينة من أجولة بالية ثم لحمها في بعضها بحرفية صبورة دءوبة، وتحويلها إلى زكائب وأجولة وشكائر تكاد تكون جديدة أو في كفاءة الجديدة. بائعو الروبابيكيا - وما أكثرهم في حوش النجار - يجمعون الهرابيد والمخلفات من تجار مينا البصل باعتبارها هلاهيل، ليستبدلوها بأكواب ودوارق من الزجاج الرخيص يستعملها العمال. تقوم ورش حوش النجار بتفكيك عقد الفتل الدائبة وترقيع مكانها بفتل أو بشرائح من نفس العادم أكثر متانة. هذه الورش تلبي احتياجات صغار التجار المتخصصين في توريد البصل إلى كبار التجار ليصدروه إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط، أما كبار المصدرين فيتعاملون مع مصانع ذات إمكانات واسعة تبدأ بتصنيع الفتلة نفسها.

الغرزة كانت ساحرة، عبارة عن كهف ضيق مظلم لا يغري بالدخول فيه على الإطلاق، لكنك ما إن تدخله حتى تراك منجذبا كأن مغناطيسا يجذبك بقوة لتمشي وسط الظلام في سكة لولبية لا تتسع إلا لجسدين على الأكثر، كلما أوغلْتَ فيه أتاك الضوء من مصادر غير ملحوظة، وأتاك معه وشيش وهسيس وكركرة وهواء معبق بنكهة رائحة المعسل الزكية مخلوط بعطر الحشيش المكثف. تقترب منك بوابة ذات عتبة غائصة في الأرض. قيل إن هذه البوابة كانت بوابة تكية كبيرة من تكايا العصر المملوكي تضم خانقاه للصوفية ومعهدا لدراسة القرآن الكريم ومساكن لطلابه الغرباء، لكن الزمن القُلَّب الوضيع جار على المباني كلها؛ إذ احتلها ناس بلا شهادة ميلاد أتوا من الصعيد ومن كل بقاع المملكة المصرية وحولوها إلى عشش في قلب هديم يتشكل منها مشهد فولكلوري إنساني ووحشي معا. لم يبق من الأبنية القديمة سوى هذه البوابة والفناء الذي تفضي إليه، حيث احتله أحدهم وحوَّله إلى غرزة ينسطل فيها المرء بغير حشيش. يكفي أن يستشعر زخم عرق الصوفية الذين مارسوا في هذا المكان سبحاتهم ورحلات جهادهم إلى السماء لأجيال كثيرة مشبوبة العاطفة ملتهبة الخيال، حيث الكون معنى سامق الشموخ والشعر سلم صاعد إليه. الباحة عريضة مسقوفة بنفس سقفها القديم المزخرف بالرقش الإسلامي، وتحتفظ الجدران بشبابيكها المستطيلة ذات القضبان الحديدية الواقفة متجاورة والدرف الخشبية العتيقة. المقاعد هنا مصاطب طينية وحمير خشبية وجرادل مقلوبة وباستلات. كل معايب حوش النجار وغباره المثير للكآبة تختفي تماما. يشعر الجالس هنا أنه لا علاقة له على الإطلاق بكل ما يدور في الإسكندرية برمتها.

شممت رائحة حمادة قبل أن أدلف من البوابة، فاعتراني حماس مفاجئ. كان حمادة جالسا قرب النصبة على مصطبة لصق حائط داخلي في ركن متاخم للنصبة في حالة تحشيش مكثف، الجوزة رائحة جائية بينه وبين رفيق له على نفس المصطبة. الرفيق هذا رجل ضخم الجثة أشقر الوجه مستديره بكتفين ممتلئتين باللحم، يرتدي عفريتة زرقاء - أوفرأول - تلك التي يرتديها عمال الورش والمصانع، وكان وجهه كأصابع يديه ملطشا بالأحبار. شكله يشي بأنه يوناني متمصر، ويشي أيضا بأنه مطبعجي. كان حمادة ممسكا برقاع من الورق مختلفة الطول والعرض والمساحة وقد راح يمعن فيها النظر واحدة بعد أخرى والولد الغرزجي مقعيٌّ أمامه ممسكا بالجوزة التي استقرت بوصتها بين شفتي حمادة.

اقتربت كالمتلصص عن عمد لأصنع لحمادة مفاجأة غير متوقعة، فإذا بمفاجأة مروعة تدهمني في الحال وتصيبني بذهول جمدني في وقفتي وقد هربت الدماء كلها من عروقي: لقد كانت هذه الرقاع من الورق بين يدي حمادة نماذج من أغلفة الأسبرين ماركة أسبيول، من شرائح التغليف للأقراص إلى غلاف العلبة التي تُعبأ فيها الأكياس الصغيرة إلى العلبة نفسها مفرودة مقصوصة على فُورْمَة تحدد شكل العلبة بعد طيّها وتدبيس أركانها. يبدو أن ظلي قد زحف بينهما وظلل الورق، إذ رفعا رأسيهما نحوي بنظرة تتأهب للزجر..

- «يا أخي اضرب كلاكس!».

هكذا قال لابس العفريتة في قليل من الود، لكن حمادة هبّ واقفا يصافحني بحرارة ويسحبني من يدي في مودة ذات مذاق عائلي ليجلسني بجواره على نفس المصطبة، ثم طوى الوريقات وقدمها للرجل:

- «تمام يا أسطى ينّي!.. اطبع!.. يلا اتكل على الله!».

ثم استدرك:

- «ولّع لك حجرين ورا بعض قبل ما تمشي!».

الولد الغرزجي قلب له الحجرين في لمح البصر وهما واقفان. حيّانا الأسطى ينّي بذراعه ومضى كقطار الدلتا ينفث سحبا من الدخان الأزرق، أما الصبي فقد حمل طاقم الحجارة الفارغة ومضى داخل قبو الغرزة المتخفي وراء النصبة ليغيّر ماء الجوزة ويأتي بحجارة جديدة.

- «عندك تحصيل هنا اليوم؟».

- «لا والله يا حمادة، جئت قاصدا الغرزة متوقعا أن أراك أو أستدل على طريقك. وحشتني!».

- «القلوب عند بعضها!».

وجعل يقتطع التعميرات في حجم الحمصة ويرصها فوق علبة سجائره، في حين سرحتُ مع نفسي أسائلها وأنا من الدهشة في تلبك ذهني: ترى ما علاقة حمادة بهذه المطبوعات؟!

الأنفاس عبأت دماغي بسُحب من الخواطر كالدخان الكثيف يشوشر على البصر والبصيرة معا. كنت على وشك أن أريح دماغي وأسأل حمادة مباشرة وبصنعة لطافة، لولا أن اقتحم صوتنا صوت هدير الموتوسيكل ماركة هارلي. عندئذ هز حمادة رأسه في استياء:

- «ديك أم توني، الوحيد الذي يدخل بالموتوسيكل إلى هنا، همجي مزعج، لكن صاحب المطرح يحبه مع ذلك!».

ثم نظر في ساعته.. إن هي إلا برهة حتى ظهر توني رزق فاشخا حنكه على اتساعه، هاتفا بصوته الجهوري العريض لكأنه يتكلم من حلق ملآن بالطعام:

- «ربنا جمّع الحبايب، أحلى عصرية!».

- «أهلا توني».

هكذا هتفنا معا، صافحناه جالسين ولكن بحرارة ومودة. شيء من الارتباك ظهر على حمادة:

- «أظنكما تعرفان بعضكما بعضا؟».

لكزه توني بعشم وهو يجلس مطرح الأسطى يني:

- «نسيت أنك عرفتنا على بعضنا؟!».

ثم استولى على بوصة الجوزة وجذبها نحو فمه دونما استئذان واستطرد:

- «أحلى معرفة! بصراحة.. تشكر عليها، الأستاذ بهاء شخصية، جدع وابن بلد زي حالاتنا!».

وجعل يطقطق بسحبات خاطفة متقطعة هدفها تسليك الحجر واستنفار النار كي تذيب التعميرة في نَفَس الدخان، على حين ينظر في ساعة يده بحركة مسرحية يستلفت بها نظر حمادة:

- «ميعاد النشرة أزف. ما الأخبار؟».

قال حمادة:

- «حالا، ساعة بالكثير، يعني تشرب لك حجرين يكون الأسطى يني طبع الكمية كلها».

قاومت حتى لا يظهر الارتياع على وجهي من تأثير هذه الغمزة التي أرسلها توني بخديه وعينيه إلى حمادة. كانت غمزة بليغة موجزة، واضح أنه يقول له بها: «مهلا مهلا لا تصرِّح هكذا أمام الأغراب!».. صرت واثقا بأن توني

أدرك أنني لاحظت غمزته وفهمتها، فأراد أن يعالج الأمر فكان كمن جاء يكحل العين الرمداء فأعماها، إذ قال بكلاحة بحر أوسطية مالحة:

- «الفرح اقترب ولم ترسل الدعوات. لعلك تكون أوصيت الأسطى يني بأن يكتب الأسماء بماء الذهب على ورق فخم».

- «اطمئن من هذه الناحية!».

ثم شفَّت ملامحه عن مدى سخريته من هذه المحاولة الفاشلة للتعمية التي وقع فيها توني، فاستدرك ضاحكا:

- «بهاء يا توني من أقرب الناس إليّ، وأنا لا أخبئ عنه أي شيء».

أومأ توني برأسه في أريحية:

- «ولا أنا.. ولا مصطفى ابن عمك!».

هتفت كالمصعوق:

- «مصطفى من؟!».

قال حمادة:

- «مصطفى عبد العزيز، ألم تعرف إلى الآن أنه ابن عمي؟.. أيوه ابن عم أبي!.. شماشرجي من الفرع الفقير!.. لا يا ربي.. تذكرت: جده ابن عم جدي عزت بك الشماشرجي».

- «أنعم وأكرم! إنه بالفعل شماشرجي بمعنى الكلمة!.. الآن عرفت لماذا أحببت مصطفى؛ لأنه شماشرجي!».

- «هو على فكرة يحبك يا بهاء، ألا تعرف؟ يقول فيك شعرا، يقول إن وجهك حلو عليه، يتفاءل بك!.. هو أحسن واحد في مصر يتفاءل ويتشاءم!».

هكذا قال توني وهو يقف، ثم أكمل:

- «أنا في الفابريقة في انتظار المطبوعات. باي باي!».

لم أقتنع بأنه انصرف إلا حين سمعت هدير محرك الموتوسيكل يبتعد ثم يختفي.

استغرق حمادة في التفكير برهة ثم رفع رأسه:

- «سأعرض عليك أن تعمل معي في أوقات فراغك. أنت أولى من الغريب!».

- «أنا تحت أمرك طبعا».

- «لقد اشتريت مطبعة.. اشتريتها بتراب الفلوس من رجل يهودي هاجر إلى أرض الميعاد!.. أحيانا تورطك الظروف في صفقة لست مستعدا لها لكنها من نصيبك، ولهذا تنحل جميع العقبات.. وهذا ما حدث لي مع هذه المطبعة. وعموما هي حكاية طويلة معقدة سوف أحكيها لك فيما بعد».

- «المهم!..».

- «المطبعة لقطة، حديثة الماكينات، فيها إمكانات كبيرة لطبع كتب ومجلات ملونة، لكنني الآن أشغلها في الأفيشات والبوسترات والبنفلتات وكراسات الدعاية ونشرات الأدوية وأغلفتها، وأحيانا كراريس المدارس.. ويمكن مستقبلا أن نطبع فيها كتبا مدرسية، ويمكن أن تكون نهر فلوس لو أديرت بحرفنة!.. ما رأيك أن تكون ذراعي اليمنى فيها؟ تتولى أنت إدارتها وأتفرغ أنا للتسويق وجلب التعاقدات مع المصانع والشركات ومكاتب المحامين والمحاسبين وكل من يستخدم مطبوعات في شغله!.. أنت أصلح من يدير العمل في المطبعة، وأنا أصلح من يجلب الشغل مستعينا باسم العائلة الذي لا شك - على الأقل - سيفتح لي أبواب الدخول إلى المسئول، والباقي على الله وعلى لباقتي!».

- «بكل سرور يا حمادة، لكني أخشى أن يؤثر هذا العمل على نسبة حضوري في الكلية!».

- «إشمعنى أنت؟! ولماذا لم يؤثر على نسبة حضوري مع أن كليتي علمية عملية تحتاج إلى القرب من المعامل؟.. تستطيع مثلي اختيار المحاضرات المهمة!.. تستطيع تدبير أمر نسبة الحضور بسهولة!.. تستطيع تنظيم وقتك، تأخذ

كمبيالات تحصيل لثلاثة أيام.. على فكرة، المطبعة فيها مكتب فخم منعزل في الدور الثاني تستطيع أن تذاكر فيه ليل نهار. طاوعني، هذه فرصة لتجمع فيها خبرة سوف تفيدك مستقبلا».

- «هي فعلا تجربة مثيرة بالنسبة لي ومهمة، على كل حال.. أجرب!».

- «مؤقتا سأعطيك ثلاثين قرشا كل يوم».

- «هذا آخر ما أفكر فيه.. إنما أريد أن أطلعك على شيء..».

- «علاقتنا مبنية في أساسها على الصراحة!».

- «أنا أرافق مصطفى عبد العزيز في جولاته اليومية في السوق لنبيع أسبرين الأسبيول، وباسم الله ما شاء الله بياع شاطر، يبيع كميات كبيرة!».

- «كم جنيها يعطيك في الجولة؟».

- «جنيهين».

- «حلوين!.. هو كريم معك، لكن.. ربنا يزيد ويبارك.. يكسب في البيعة الواحدة ما يكسبه دكان صغير في سنة كاملة!. المهم.. هل عندك مشكلة مع مصطفى مثلا؟».

- «لا!.. إننا مع بعض آخر حلاوة، إنما أقصد: هل تمانع أنت في عملي مع مصطفى؟».

- «شُفْ.. أنا سأعطيك المفاتيح لتذهب وقتما تذهب.. المهم أن تذهب!.. لابد أن يكون واحد من طرفي يأخذ حِسّ العمل ويضبط عملية الصادر والوارد والداخل والخارج ويوزع المهمات ويشرف على حركة الطبع وهكذا.. قم بنا لأريك على الطبيعة وبالمرة أسلمك المطبعة!..اعتبر نفسك موظفا عندي من هذه اللحظة، وهذا بالطبع شرف لي!.. إني محتاج لك فعلا فعلا، ومن حسن حظي أنك ظهرت في الوقت المناسب يا عكروت!».

وقرصني في خدي قرصة أب يداعب طفله الرضيع، فلم أتشكك في صدقه في هذه العبارة الأخيرة. لملم نفسه، وكعادته نظر حواليه بحثا عن شيء يكون قد نسيه، يتحسس جيوبه، يمشي متأبطا ذراعي كالبرنس من دون أن يدفع حسابا أو حتى يستأذن. اجتزنا السرداب الكهفي اللولبي إلى أن صرنا في قلب حوش النجار. بعد خطوات قليلة انعطفنا يمينا في حارة أثرية ساكنة وأرضها غير مرصوفة ومبانيها على الجانبين جدران خلفية لبيوت أو مبان عتيقة بلا طلاء يحتلها عدد من شوادر الأخشاب ومحلات الحدايد المتخصصة في بيع المناشير والفارات والقواديم والشواكيش والزرديات والمسامير والكوالين والأقفال والأكر. بعض المباني على اليمين مهجورة تماما، لعلها كانت أسبلة أو أضرحة أو أكواخ حراس ونواطير. الهباب الأسود منتشر على واجهاتها مما يشي بأن حريقا مروعا اشتعل ها هنا ذات يوم بعيد فاكتسح الحياة برمتها، أو لعلها كانت محلات لصناعات يدوية تستخدم الفحم والكير كالحدادين والنحاسين. إنما المشي في هذه الحارة شيء ممتع جدا وأنت شارب حجرين، كأنك تزور مدينة فنيت عن آخرها من القرون الوسطي وهي مع ذلك مسكونة بأرواح لطيفة جذابة تؤنس وحشة السكون.

شيئا فشيئا بدأ شيء كالسراب يلمع على مبعدة قليلة، فإذا بنا - بهذه التخريمة التي لم تخطر لي على بال - قد أشرفنا على شارع عمومي كبير ينفتح على جميع الاتجاهات. تخطينا المتراسين المثبتين على فتحة هذه الحارة فصرنا على رصيف الشارع، حودنا يمينا، تجاوزنا عمارة فثانية فثالثة، أما الرابعة فهي المطبعة.. عرفتها من شكلها ومن سيارة حمادة الواقفة في رحبتها: بناية مستقلة من طابقين على مساحة تقدر بحوالي ثلاثمائة متر على الأقل. بابها أقرب إلى أن يكون باب بيت، سميك ثقيل، ثبتت في وسطه لافتة نحاسية محفور عليها كتابة باللغة الإنجليزية وتحتها ترجمة لها بالعربية: مطبعة الترقي. الباب مفتوح على ردهة مربعة مفروشة بمقاعد جلدية وثيرة. على يسار الداخل غرفة مكتب صغيرة، وفي المواجهة باب بدرفتين سائبتين تستجيبان للدفع من الجهتين، يفتح على المطابع الموزعة على عنابر متجاورة. بجوار هذا الباب ممر ضيق يؤدي إلى سلم يصعد إلى الطابق الثاني.. يخرب بيتك يا حمادة، كيف تريدني أن أصدق أنك يمكن أن تمتلك مثل هذا الصرح الكبير الخطير وأنت بعد - في عالم رجال الأعمال - لم تخرج
من البيضة؟!..

- «في هذه الاستراحة ينتظر العملاء، وفي هذه الحجرة يجلس مراقب التشغيل وهو نفسه مراقب البوابة».

استقبلنا رجل في حوالي الخمسين من عمره، في ملامحه - كما في لسانه - لكنة أعجمية لطيفة جذابة، وفي عينيه

صياغة مصرية حريفة. ربت حمادة كتفه بود:

- «استيفان ألبرتو، من أهم المكاسب التي اشتريت بها المطبعة! مصري طلياني معجون بماء العفاريت المصرية!.. وعلى فكرة، عليك أن تصاحب استيفان لتتعلم منه خبرات ومعلومات وتجارب عدد شعر رأسك. انتبه لكل شيء يقوله أو يفعله لتتعلم!».

وصلتني الغمزة التي اتكأ عليها في نطقه العبارة الأخيرة؛ إذ فهمت منها أن خبرة استيفان المتودك يمكن أن تضحك علينا وتضللنا ليستفيد من موقعه في المطبعة بشكل أو بآخر. وضع حمادة يده على كتفي:

- «الأستاذ بهاء الراوي عينتُه مديرا للمطبعة من الآن. عشمي طبعا أن تكون معه سمنا على عسل. سيكون بديلا عني في كل شيء!».

لم أنتبه لرد استيفان، ثمة ما خطف انتباهي: على ترابيزة في الركن رزم من وريقات مطبوع عليها تجارب من التي تقدم للعميل كي يوقع عليها أمرا بالطبع، لماركات لسلع شهيرة جدا في الأسواق الشعبية: أمواس الناست، الأسبرو، الأسبيول، كولونيا خمس خمسات، شربة الملح، شربة الشيكولاتة، وماركات أخرى كثيرة. مضيت وراء حمادة كالمنوم مغناطيسيا. صعدنا السلم. الطابق الثاني مفتوح على الأرضي بشرفات من الاتجاهات الأربع ذات درابزينات من حديد مقوس تحت طاقية من الخشب الناعم السميك بحيث يمكنك الارتكان عليها بمرفقيك لتشاهد كل ما يحدث في الطابق الأرضي من أي
جهة تشاء.

- «اشتريت هذه المطبعة حقا يا حمادة؟!».

- «ولا شريك لي فيها».

- «لكنها تساوي مبلغا باهظا!».

-«قريبا ستعرف قصتها».

ثم حودنا إلى اليسار في نهاية الشرفة المستطيلة ذات الدرابزين. في المنعطف غرفة صالون، وفي المواجهة غرفة مكتب. دخلناها. غرفة شديدة الفخامة. فوق المكتب لافتة نحاسية هرمية الشكل مكتوب عليها: مهندس يوسف سليمان رئيس مجلس إدارة مصر!

خلع حمادة سترته وعلقها على مشجب وراء كرسي المقعد، ثم أشار لي أن أجلس إلى المكتب، فلما لاحظ أنني لا أزال أحملق في اللافتة النحاسية بدهشة ابتسم:

- «تعرف طبعا أن المهندس يوسف سليمان هو خالي».

- «طبعا، يوسف سليمان القططي باشا».

ثم اتجه إلى دولاب ذي درف زجاجية، بحث عن مفتاحه في سلسلة مفاتيحه. فتحه، تقرفص، سحب من قاعه نسخة من جريدة بحجم (التابلويد) أعطاها لي:

- «هذه مصر التي كان خالي يوسف رئيسا لها!».

العلم المصري الأخضر ذو الهلال وثلاثة نجوم، محطوط فوقه بالحبر الأسود الثقيل كلمة «مصر» بالخط الثلث، جريدة مصرية اجتماعية اقتصادية سياسية، تصدر مرة كل أسبوع، شركة مساهمة مصرية. ثم انسحبت الجريدة من بين يديَّ قبل أن تلتهم نظراتي العجلى بقية بياناتها وعناوينها. قال وهو يعيدها إلى قاع الدولاب ويغلقه بالمفتاح:

- «ليس وقته الآن.. كل شيء بأوان، وعلى كل حال هذه نسخة من آخر عدد، وهذه المجلدات هي نسخ من الأعداد التي صدرت. توقفت عن الصدور بموت خالي يوسف بك القططي قبل أن تجيء أنت إلى الإسكندرية ببضع سنوات. سوف نتكلم في هذا الموضوع ذات لحظة إن كان يهمك، أما الآن فهذا مفتاح هذا المكتب.. عليك أن تغلقه قبل أن تمشي ولا تسمح لأيٍّ كان بالتقليب في أي شيء هنا. وهذا مفتاح الباب الكبير ، ربما يكون المراقب غير موجود فتفتح أنت وتتجه إلى العنابر مباشرة وتعرف ماذا يدور فيها من عمل أو تكاسل ومرقعة!».

لحق بنا الصبي بفنجانين من القهوة، وضع أحدهما أمام حمادة على الطاولة الزجاجية والآخر أمامي على المكتب ثم انصرف. شعرت بأن قامتي غطست في بئر الأبهة الوثير ذي الرائحة الأرستقراطية المنبعثة من جلد المقاعد وخشب

الأدراج ونكهة الورق الجديد وأصداء عطور منعشة ترسبت في هذه الغرفة ودخلت في نسيج كل محتوياتها وباتت تستقطب أي هواء يدخل هنا فتحتويه وتضخ فيه أنفاسها العطرة، فعلى هذا الكرسي كان يجلس يوسف بك سليمان القططي ولفيف من وجوه الأثرياء.

نقرات خفيفة على الباب. نظر لي حمادة باسما:

- «أعطه الإذن بالدخول. عَوِّدْهُمْ من الآن!».

هتفت في اتجاه الباب بلهجة مسرحية:

- «ادخل».

دخل الأسطى يني مبتسما كالدهل، كالدب الأليف، وكأنه قد تواطأ مع المسرحية. اتجه نحوي مباشرة مادًا يده ليصافحني. قمت وصافحته وبقيت واقفا، فرمقني حمادة بنظرة احتجاج:

- «اقعد، لا داعي للوقوف أصلا!».

فجلست في الحال بسرعة. قال حمادة:

- «أسطى يني.. الأستاذ بهاء الراوي مدير المطبعة. عشمي أن تساعده بقدر ما تستطيع، يعني نسمع كلامه. لا تنفذ أي مطبوعة إلا إذا أعطاك أمر طبع بإمضائه.. و.. أي شيء تريده من المخزن تطلبه منه باستمارة مخزن.. ربنا يخليك!».

ثم أشار بيده إيذانا للأسطى يني بالانصراف، فهز الأسطى يني رأسه بالتحية وانصرف. حقا إن السيادة موهبة، كما أن الإدارة فن، وكلاهما تدخل فيه ظروف النشأة والتربية. أشعل حمادة سيجارة ورمى بالعلبة أمامي، ثم لاحقني بشعلة القداحة: ولع. رفع الفنجان وأجهز عليه في رشفة واحدة ثم وضعه ورفع كوب الماء فجرعه كله. راحت سيجارته بين أصبعيه الطويلين تتراقص أمامي صاعدة هابطة متمايلة متماوجة:

- «العمل هنا سيعجبك. في ظرف يومين ثلاثة أكون دربتك على كل شيء يختص بالعمل حتى أطمئن إلى أنك تستطيع أن تتصرف كما لو كنت أنا الذي يفعل بالضبط، إني واثق بنجاحك، إني فرحان بك إلى حد الجنون، كنت منشالا لي في البخت بمعنى الكلمة!».

رن جرس الهاتف بجواري. قال حمادة: رُدّ. رفعت السماعة. ضحكت برغمي وأنا أحاول استدعاء لهجة المدير: ألو. إنه الأسطى يني، فالهاتف إذن داخلي. نعم يا أسطى يني؟.. الميكانيكي وصل؟. قام حمادة، أمسك السماعة: نازل لك حالا يا أسطى يني. وضع السماعة.

- «دقيقة واحدة وأعود. سأشرح للميكانيكي ما في عربتي من عطل وأتركه لإصلاحه. بجوارك راديو افتح واستمع».

هرول خارجا، تاركا علبة سجائره أمامي. فتحت الراديو الفيليبس. صوت المطرب عباس البليدي يصرح بموال حميم من تلحين أحمد صدقي، إنه برنامج عوف الأصيل! «يا.. عوف.. ولا تولف على أهل الخيانة لوف». كعادتي كلما استمعت إلى هذا الموال في افتتاحية البرنامج، ارتجت مشاعري واستضاءت بصيرتي الوجدانية. درج المكتب السفلي على اليمين كان مسحوبا، تطل منه أوراق ملونة. بدافع الفضول سحبت ورقة، فإذا هي في حجم الجيب وإذا بها منشور:

«أخي اليهودي في مصر من أي مذهب وأي طائفة.. ما الذي يبقيكم اليوم في مصر بعد سحب الامتيازات الأجنبية ومعاملتكم كأجانب والتضييق عليكم في الأرزاق؟ ما الذي يجبركم على قبول الظلم والمذلة وقد تحقق وعد الله بقيام وطنكم على أرض الميعاد؟ إن وطنكم اليوم في حاجة إليكم، إلى عبقرياتكم، إلى أموالكم، فلا تخيبوا رجاء الله في شعبه المختار. بادروا بالرحيل بكرامتكم قبل طردكم ذات لحظة قادمة. من يريد منكم أي مساعدة للرحيل من أي نوع فليتصل بجمعية أورشليم في مقرها في عمارة إريكو بحي سموحة. إن الله ينتظركم في أرض الميعاد ليمنحكم البركة والسيادة على الأرض من النيل إلى الفرات»..

انتابتني رعشة عنيفة، فتراقصت الورقة بين أصابعي كأن عاصفة تجتاحها. أعدتها إلى الدرج وتركته كما هو، ثم عدت فدفعته بقدمي إلى الداخل حتى غاب في مرقده. نازعتني رغبة محمومة في فتح الدرج الذي فوقه. دونما تفكير امتدت يدي وسحبته برفق، فإذا به ملآن بمنشورات بنفس الحجم على ورق ملون. رفعت ورقة:

«أخي اليهودي المضطهد في جميع أنحاء الأرض بسبب حب الله لك وتفضيلك على العالمين.. إذا كنت جديرًا حقا بأن تنسب إلى شعب الله المختار، فلا تترك أبناء عقيدتك المطهرة يفتك بهم العرب الأجلاف في أرض الميعاد. إنهم يقتلون إخوتكم بوحشية، فلا تبخلوا على دينكم بالمال أو بالدم. إن إخوانكم في أرض الميعاد في حاجة ماسة إلى أسلحة وذخائر يدافعون بها عن أرضهم.. عرضهم.. أطفالهم، إنهم يضرعون إليكم أن تمدوهم بالأسلحة والذخائر أو بالمال أو بالرجال. إن باب التطوع مفتوح للشباب لينضم إلى كتائب الفدائيين. للاستعلام اتصلوا برقم هذا التليفون..».

طويت الورقة وحشرتها في جيبي، ودفعت الدرج ثم سحبت التحتي وأخذت منه ورقة طويتها مع الأخرى ودفعته بدوره، أشعلت سيجارة، أعطيت أذني لبرنامج عوف الأصيل. كان القاضي - في البرنامج - قد استمع إلى ادعاء الرجل الكاذب الخسيس ذي الوجه العكر وأوشك على الاقتناع بأن عوف الأصيل قد سلب من هذا الرجل العُقد الذهبي.. وقبل أن يصدر حكمه على عوف يدخل عليهم البدوي الذي باع العقد لعوف، كان يولول مذعورًا: «قالوا راح يقاضينا قلت يا ويلي راح يقاضينا»! ويشرح للقاضي كيف أن البدو حين يسافرون لبيع مصوغات ذهبية في أي سوق يخفون الذهب الأصلي في مأمن ويضعون في الأمتعة الظاهرة بدلًا منها نسخا طبق الأصل من الذهب الفالصو، حتى إذا ما داهمهم قطاع الطرق وفتشوا الأمتعة اكتفوا بسلب الذهب الفالصو مقابل تركهم للقافلة تمضي إلى حال سبيلها، وقد اكتشف البدوي في طريق العودة أنه قد باع الذهب الفالصو لعوف الأصيل باعتباره ذهبا حقيقيا، فنقح عليه ضميره وقرر العودة في الحال لتصحيح الخطأ، فقالوا له إن عوف الأصيل ذهب إلى القاضي فظن أنه جاء يشكوه، فحضر إلى بيت القاضي ليقول الحقيقة..

شعرت بمدى الخطر الذي يمكن أن أكون مقبلا عليه إن لم أكن قد وقعت فيه بالفعل! أصابتني كتمة، حتى وحمادة يوصلني بسيارته إلى محرم.. بك لم أفتح فمي طوال الطريق بكلمة واحدة. كنت في غاية الاضطراب. حين أنزلني حمادة قرب باب القصر نبهني قائلا:

- «ضع المفاتيح في سلسلتك حتى لا تضيع!».

تحسست جيوبي وأنا في فرحة غامرة:

- «تصور أنني نسيت المفاتيح في المطبعة!».

- «آااه!.. لا يهم، ليست مشكلة!».

حين وضعت رأسي على الوسادة، وقبل أن أغوص تمامًا في بحر النوم، كانت صيغة القرار شاخصة في مخيلتي في عبارة واحدة: قطع العلاقة فورًا!

كأن في داخلي ماكينة انضبطت على موعدي مع مصطفى عبد العزيز في الضحى.. حتى وإن حضرت في الكلية محاضرة صباحية فإن الفسبة الخفيفة الطائرة تنسرب بي بين الحواري بعيدا عن إشارات الشوارع العمومية الآهلة، ولربما أنجزت مشوار مصطفى وعدت إلى الكلية ومكثت فيها إلى موعد التحصيل، ثم أفوت على المطبعة، لأثبت حضوري، برو عتب، لأوهم حمادة بأنني سوف أتفرغ له قريبا جدا بعد أن أكون قد دُربت على فهم طبيعة العمل في المطبعة وكيف أستطيع أن أتحمل مسئوليته ليكون لوجود المفاتيح معنى في يدي. أسبوع مرَّ على هذا الكلام الذي اقتنع به حمادة واعتبره دليل صدق على رغبتي الحقيقية في التعاون معه، وبناء عليه فكلما التقاني أطلعني على جزء من حركة العمل ومراحله وشروطه الفنية، ثم نكمل الشرح بالتفصيل في قعدتنا في غرزة السرداب نستعصر كل شيء في اصطباحة العصاري نتكلم عن أنواع الطباعة والفرق بينها في الجودة في السرعة في التكاليف.. إلخ إلخ.

في ذاك الضحى تأخرت عن موعدي مع مصطفى بحوالي نصف ساعة. توقعت ألاّ أجده، لكنني وجدته. استقبلني ببشاشة ضاحكة، لم ينتظر مجيء الجرسون، دلق كوب الماء على الأرض وأفرغ فيه نصف زجاجة البيرة، ثم رفع كوبه وقارعني هاتفا:

- «اليوم نحن أفندية، إجازة من السوق!».

- «آسف على التأخير! على فكرة، المطبعة شغالة لكم».

ارتجت ملامحه للمحة خاطفة:

- «عرفت المطبعة؟!».

- «المفترض أنني الآن مديرها!».

مصمص بشفتيه في استعجاب:

- «مجنون هذا الولد حمادة، لكنه ولد عترة! ذكي جدا.. واضح أنه يحبك ويثق فيك!».

- «أنا أيضا أبادله نفس المشاعر».

- «كسبنا صلاة النبي!».

- «ليس من صفاتك الكسل، فلماذا اليوم؟!».

- «مافيش بضاعة!».

- «اختفت من عندك أيضا؟!».

- «ستأتي بعون الله بكرة أو بعد بكرة».

ثم استدرك:

- «المهم أن يسعفنا صديقك المجنون حمادة بالمطبوعات لنبدأ التعبئة والتغليف»!

المؤكد أنه رأى الدهشة تبظُّ من عيني؛ فلقد رأيت في عينيه ترجمة لدهشتي في نظرات سهتانة تكاد تنطق قائلة إنه ليس يهمه كوني أصبحت أعرف ما كان خافيا من أسرار. هربًا من نظرتي الجاحظة أشعل سيجارة وصاح في اتجاه الداخل:

- «عَبَّرونا يا خلق!».

ظهر الجرسون مهرولا بزجاجتي البيرة وأطباق المزة على صينية أفرغها على الترابيزة ووقف مبتسما في ملق:

- «أنت فوق دماغنا يا درش بيه! والمرسي أبو ال- ..».

شخرة مقطومة:

- «إنت حتصاحبني؟! خد، مع السلامة!».

الجرسون أخذ السيجارة وأرقدها خلف شحمة أذنه وانصرف بعد أداء تحية شبه عسكرية.

قال مصطفى وهو يفرغ في الكوبين بالتناوب:

- «شف يا بهاء يا صاحبي، أنت الآن لست غريبا، صرت واحدا من العائلة، فإن كان حمادة ابن عمي قد أطلعك على شيء من أسرار شغله فالواجب أن تكون على قدر الثقة! أسرار أكل العيش مقدسة خَلِّ بالك.. الأمين عليها هو الذي يكسب دائما ويرتفع سعره في الحياة. أنصحك.. لمصلحتك لا لمصلحة حمادة ابن عمي!.. هو صحيح خفيف - بل مجنون - في نظر من لا يعرفه.. من لا يفهمه.. إنما هو لعلمك عبقري جهنمي!.. ما معنى عبقري وجهنمي؟! يعني من يخالطه بالحب والإخلاص يسعد ويلعب بالفلوس لعبا، ومن يخونه يكون كأنه انتحر!.. هذا هو باختصار!».

وجدتني أسأله بقليل من الاستخفاف:

- «حمادة يشتغل معكم؟.. أقصد أنت وتوني؟!».

انفجرت ضحكته الجنونية حتى أزعجت الجلوس من حولنا، لكنهم ضحكوا من ضحكته:

- «يا حبيبي نحن الذين نشتغل معه! هو صاحب الشغل من طقطق لسلامُه عليكم!.. أنا وتوني كيديه ورجليه.. كتر خيره! فاتح بيوتنا!».

- «بجد يا مصطفى؟!».

- «تراني أضحك عليك مثلا؟!».

- «كيف؟!».

- «مصيرك تعرف، لا تتعجل!.. المتأني يعرف كل شيء!».

كانت هذه هي خطتي بالفعل: ألا أتعجل في استكشاف ما يغمض عليَّ من أسرار، إنما الظروف هي التي تعجلت! ففي مساء ذاك اليوم نفسه كان التحصيل سهلا لوجود الزبائن كلهم في مربع واحد من حي العطارين، وكانت فلوسهم جاهزة. في نصف ساعة أنجزت ما ورائي، فبكرت في الذهاب إلى المطبعة، فإذا بي أجد إشكالا لطيفا ينتظرني: لقد أمرهم حمادة بأن تذهب المطبوعات إلى مخزن توني رزق في ظرف ساعة زمن وإلا سيخصم من أجورهم ما قيمته أجر ساعة كاملة عن كل دقيقة تأخير! وها هو ذا الأسطى يني قد انتهى من تربيط الرزم، ولكن السائق المتعامل مع المطبعة لم يجئ اليوم. في الحال بعثت الصبي إلى الشارع فأتى بعربة كارو، حمَّلناها بالمطبوعات معبأة في صناديق كرتونية مربطة بالدوبارة. ركبت الفسبة ومشيت أمام العربة إلى مخزن توني في الحوش العتيق: حوش الجعان.

كان الثنائي مصطفى عبد العزيز وتوني جالسين على كرسيين أجربين أمام المخزن في مدخل الحارة كأنهما جزء من الهديم الفارض وجوده الكثيف على الحارة. تحت الكرسيين زجاجات البيرة في جردل ملآن بالثلج. الشرب شغال من الزجاجة رأسا، ومصطفى منهمك في لف سجائر الحشيش.

زحفت بالفسبة في غثاثة وسماجة حتى دخلت بها بين الكرسيين ولكن بحذر وحرفنة، صارت رأسي بين رأسيهما. نظرت إلى مصطفى فرشق السيجارة الملفوفة بين شفتي:

- «ولع. رزقك في رجليك!».

سحبت النفَس ونفخته في وجه توني الذي كان قد تناول زجاجة من الجردل وفتحها ليقدمها لي، فأزاح الدخان بيده المتخثخة وقد نضحت ابتسامته بالتفاؤل:

- «يا ترى مفشوخ كده ليه؟!».

نزلت عن الفسبة، ركنتها بجوار الحائط وجرعت نصف الزجاجة في نفَس واحد:

- «جاءكم الفرج!».

هتف مصطفى:

- «المطبوعات وصلت. نهارنا فل!».

رمقه توني بنظرة تحتية أثقلتها غمزة ذات معنى، فسرتها بأنه لا يزال يطلب من مصطفى أن يتحفظ في كلامه أمامي.

وهذا ما فهمه مصطفى، فشوح بذراعه السرحة، وبلهجة ابن البلد الهليهلي الذكي اللماح:

- «ما خلاص بقى! المعلم صاحب الشغل آمنه!».

دخلت العربة. قفز العربجي مقبلا نحونا:

- «مين اللي حيعتَّق؟».

- «حضرتك طبعا!».

هكذا صاح فيه توني بلطف ومرح، ثم أضاف بغمزة ذات لمسة أنثوية مقصودة للهزء والمقلتة:

- «كله بحسابه!».

لوح بذراعه وهو يدخل باب القبو:

- «تعال ورائي».

ولكز مصطفى بأطراف أصابعه:

- «تعال نوسع له مكانا في المخزن الجواني!».

قام مصطفى ودخل وراءه. فك العربجي حباله وزحزح صندوقا إلى أن برز منه جزء كبير عن سطح العربة. هبط على قرافيصه وحمل الصندوق على كتفه ومضى محني القامة، ثم انحنى أكثر ليمرق من فتحة باب القبو. ساندته من الخلف، دخلت وراءه. إنه حوش كبير جدًّا، نصفه مسقوف بالخشب، في وسطه طلمبة مياه جوفية يعلوها صدأ الرطوبة، بقايا نافورة على شكل تمثال من النحاس لفينوس إلهة الجمال عند الإغريق. الجزء المسقوف أشبه بالبواكي المطلة على الحوش، كل باكْية تؤدي إلى حجرة وربما حجرات. كانت ظلال الثنائي توني رزق ومصطفى عبد العزيز قد اختفت في عطفة بعيدة في نهاية قوس البواكي ظلماء. مضى العربجي مقتفيا أثرهما في هذه العطفة.

دفعني الفضول إلى اقتحام إحدى البواكي. التقاني سلم حجري ذو أربع درجات، صعدتها، دخلت بابًا، فوجئت بغرفة كبيرة لعلها كانت مقر الإدارة في هذا المبني الذي يشي بأنه كان خانًا أو فندقا من فنادق العصر العثماني. وقفت على الباب حذرا حتى لا يشعر بي أحد. الغرفة ملآنة بآلات غريبة الشكل، يديرها ثلاث نساء فاتنات يرتدين قمصانا منزلية خفيفة تحيط أجسادهن السكندرية المتختخة بعيون واسعة كفتحات أبراج الحمام، تشع منهن جاذبية تعيسة محبطة. الواضح أنهن يعملن بنظام المقطوعية؛ إذ إنهن مستغرقات فيما يعملن إلى حد انقطاع الصلة بكل ما حولهن. كل واحدة منهن منكفئة على آلة، سرعان ما تبينت أن هذه الآلات مكابس تدار بالكهرباء، بجوار كل مكبس حلة ملآنة بعجينة بيضاء شاهقة، من حين لآخر تمد المرأة ذراعها بجاروف إلى الحلة تقتبس منها كرة من العجين تدلقها في حلة الكبس الشبيهة بالنفير، والمكبس بنفيره يقف على ثلاثة حوامل مربوطة من الداخل بدائرة حديدية مثنية تصنع تجويفا تستقر فيه حلة مفلطحة، تمامًا كأنه زير المياه في قريتنا، ومثله للمكبس صنبور في أسفله تتساقط منه أقراص الأسبرين إلى الحلة المفلطحة.

في آخر القاعة طاولة بطول الجدار سطحها من القصدير اللامع ومكسوة من الأسفل بالخشب يخفي ما تحتها، وإن كان من الواضح أن تحتها لهبًا خافتًا يبعث السخونة في سطحها. ها هي ذي امرأة رابعة تَقْعَى أمام أحد المكابس وتدلق ما في حلته المفلطحة إلى حلة معها ثم تتجه إلى الآخر فالآخر ، ثم تعود وتدلق حلتها فوق سطح الطاولة اللامع، ثم تروح بحذر تفرد كومة الأقراص وتقلبها كما يفعل صاحب المقلاة مع اللب والفول السوداني. هذه إذن عملية تجفيف للأقراص قبل تعبئتها في مظاريف أو شرائط!

مشيت على أطراف أصابعي كاتمًا أنفاسي. اقتادني الممر الضيق إلى غرفة صغيرة، بابها موارب. مددت عنقي في الوربة. مجموعة من الصبيان والصبايا، حوالي عشرة، يتربعون على الأرض في صفين متقابلين حيث تمتد أمامهم ثلاث صوان نحاسية كبيرة تكومت فوقها أقراص الأسبرين الجاف، وتلال من الأكياس الورقية الصغيرة في حجم الأصبع الخنصر. بدربة واضحة يضعون الأقراص في هذه المظاريف ويلصقون ألسنتها المطويَّة. سحبت رأسي بهدوء ومضيت.

صادفني سلم جانبي، هبطت درجاته في حذر دونما صوت. البسطة الأخيرة انعطفت بي إلى ممر واسع مضاء بأعمدة النيون الشاحبة. على الجانبين تلال من الكراتين تبرز منها محتوياتها، أعداد هائلة من أمواس حلاقة من ماركات رخيصة جدًّا تباع العلبة الخمسة أمواس منها بقرش تعريفة في القطاعي، وأحيانًا يمنحها البائع هدية فوق البيعة فلا

يتقبلها المشتري إلا على مضض لأنها تكاد تكون من الصفيح الرديء تترك الذقون مثخنة بالجراح واللهب. ها هي ذي تلال من مطبوعات أغلفة الأمواس الناست: التمساح، من غلاف الموس الواحد إلى غلاف العلبة الصغيرة فالكبيرة فالبواكي والقواريص. وإذن فقد صار من الواضح الآن أن عمالًا في قاعة من هذه القاعات السحرية يقومون بفك الأمواس الرخيصة التي لا سعر لها وإعادة تغليفها بمطبوعات التمساح بعملية متقنة لتباع في الأسواق باسم الماركة الشهيرة وبسعر الندرة. يا لكم من أبالسة جبابرة!

غمرني شعور بالغثيان ثم الدوار. قفلت عائدًا من حيث أتيت. عندما نزلت آخر درجة على عتبة الباكْية في الحوش كان مصطفى عبد العزيز يمشي متبخترا فيما راح توني يحاسب العربجي. صاح مصطفى حين رآني:

- «تبحث عن عفشة المياه؟ تعالَ هنا وراء المخزن. على طول مطرح ما دخلنا تراها على يمينك».

شكرته في سري لأنه أعفاني من البحث عن مبرر لصعودي هذا الدرج. هرولت إلى حيث أشار. عندما خرجت أزرر البنطلون كان الحوش خاليا. خرجت إليهما:

- «طيب يا جماعة، المطبعة وحدها! أراكما على خير».

حملق مصطفى في عينيَّ بنظرة ثاقبة تحمل معنى جديدًا بتعبير عبقري من هاتين العينين البليغتين فَشَرْ عيون محمود المليجي، نظرة أشعرتني كأنه يريد تجديد العهد بيننا بعد هذه اللحظة التي أدرك هو بحدسه أنها يمكن أن تكون فاصلة، شفع النظرة بسؤال مباشر:

- «أنتظرك غدًا في موعدنا؟».

فوجئت، قلت هاتفا:

- «طبعًا طبعًا!».

انقض بأسنانه على غطاء زجاجة فنزعه، ففارت البيرة فقدمها لي سائبة على نفسها:

- «روَّق لزوم السكة!».

وفيما كنت أجرع باستمتاع الظمآن في الصهد عاجلني بسيجارة ملفوفة ومشتعلة:

- «عفَّر وانت راكب!»..

- «فل الفل!»..

انطلقت بالفسبة مسرعًا أحاول اللحاق بدماغي الطائر أمامي في الأفق المزدحم بالفخاخ والمخاطر المفزعة. كنت على ثقة هذه المرة بأنني لن أعود لمرافقة مصطفى بعد إذ تبينت عن يقين حقيقة الغش التجاري الذي يمارسه بهذا الشكل الإجرامي الخطير. لعنت نفسي على هذا الانحدار الذي انجرفت إليه مع أنني لم أكن مضطرًّا إليه على الإطلاق!

لكن يبدو أن هاجسا خفيا كان لا يزال يوسوس لي بأن الحقيقة لم تتضح كلها بعد، في حين أنني غير قادر على مصادرة فضولي الغريب الذي يوشك أن يودي بي إلى داهية. لا بد أن الفضول هو الذي بات يحركني من وراء دماغي، بدليل أني أفقت في ضحى اليوم التالي فوجدتني جالسًا مع مصطفى عبد العزيز في بار حوش الحنبقي الحميم. رفعت القدح إلى فمي وجرعت فازددت انتباها. قلت له بشيء من اللطف:

- «تغشون الناس عيني عينك يا مفتريين؟!»..

ضحكته المرحة برغم خشونتها قرعت رأسي قبل أن يقارعني بكأسه:

- «أنا لا أغش ولا أهبب! أنا مجرد بياع!».

- «إنه توني إذن!»..

- «توني ولد جدع! أحسن من ينفذ لك المشروعات الصعبة بكل سهولة. ولد ابن هرمة! ملقط! يهودي من ناحية، مصري من ناحية أخرى؛ يعني حِدِق ومفتح وفهلوي وفوريجي، كأي مصري ابن بلد، كأي أبي حميدو من فتوات بحري يجري في عروقه سبرتو أحمر بدل الدم! المصيبة أنه يجعلك تحبه؛ لأنه عملي، دوغري، مَقْشَط، لا يعرف

المستحيل! إن طلبت منه مستحيلا تتلقى نفس الرد: بعون الله نعملوه!».

- «سرحت بي ولم تقل من هو صاحب ال- ..»..

- «إن كنت غبيا عدم المؤاخذة فنبهني! أنت إذن كالأطرش في الزفة! تكون في قلب المعجنة ولا تعرف من هو العجان!».

- «تقصد حمادة؟».

- «حمادة الشماشرجي هو صاحب الشغل.. له ثلث المكسب بعد خصم جميع التكاليف. توني هو المنفذ، له الثلث. حمادة هو صاحب العدة، اشتراها مكهنة من شركة أدوية أجنبية أوقفت خط إنتاجها المصري وقررت الهجرة، ثم قام بترميمها وتجديدها.. وتوني هو صاحب المكان! إنه خان قديم ورثته أم توني الوحيدة المتبقية من نسل جدها القديم، وهو مسجل تبع مصلحة الآثار، لكنه متروك لسكنى شاغليه من ورثته، لهم حق الإقامة فيه مدى الحياة شرط ألا يبيعوه أو يهدموه! في الحساب أصبحت العدة مقابل المكان، فخرجتا من الحساب لا لهما ولا عليهما. يبقى الثلث الأخير للمكسب: يوزع على عيالنا ونسواننا الذين يقوم عليهم العمل في فابريقة توني: لي أختان وعيالهما خمسة كبار معهما، ولتوني ثلاث أخوات بنات، واحدة منهن أرملة ومعها ولدان يتيمان، والثانية ضاق زوجها فطلقها وهاجر إلى إسرائيل تاركًا لها ولدًا وبنتًا، والثالثة عانس رغم أنها أجمل إخوتها وأخفهن ظلا وروحا!

«أما أنا البياع فرأسمالي شطارتي! كل ما في الأمر أنني مميز بعض الشيء عن أي غريب.. أشيل البضاعة من الفابريقة بسعر خاص بي وحدي، وأبيع بالسعر الذي يعجبني.. فإن زاد البيع عن عشرة بواكي في اليوم - وأنا بالطبع أبيع بالخمسين وبالسبعين وبالمائة كما ترى - يكون لي فوق مكسبي عمولة قدرها خمسة في المائة! مش خسارة فيّ طبعًا، فالعبد لله بتوفيقه وكرمه يوزع وحده كل الإنتاج! عشمي أن أجعل منك منافسا لي! أنت لو شغَّلت عقلك وذكاءك تصبح أحسن بياع في الإسكندرية في ظرف سنة واحدة!».

- «كده كده!».

وانطلقت مني زفرة. ساءلت نفسي: كل هذا يخرج من حمادة؟!. يبدو أن مصطفى قد سمعني، إذ رفع قدحه صائحًا:

- «ظننتك تعرف!»..

- «والله ما أعرف إلا منك الآن».

- «ألف بركة!».

- «ولكن هذا شيء خطير يا مصطفى.. يضر بصحة الناس، ويسلبهم أموالهم فوق البيعة. هذا إجرام!».

- «لا خطير ولا إجرام ولا حاجة! لا تهوّل كخطيب المسجد يقيم مندبة حارة من الزعيق والجعير على حصل فاضي!»..

هدوؤه الشديد أثار حنقي:

- «ما هذا الأسبرين الذي يبتلعه الناس الغلابة؟!»..

- «لا تنزعج هكذا؛ هو ليس تركيبة طبية يمكن أن تصيب وأن تخيب!»..

- «فماذا يكون بحق الشيطان يا درش؟».

- «عجينة من النشا والليمون لا أزيد ولا أقل!».

- «وهل هذا يرضي ربنا؟!»..

- «أعتقد!»..

وجرع نصف القدح تاركا رغاوي البيرة تبرقش شاربه الشبيه بدودة القزّ والمحفف بعناية:

- «إن الله ليس يغضب من أمثالنا! ملائكته هم الذين سيحاسبوننا في النهاية، والحساب سيكون على النية لأن الرب رب قلوب! نحن نيتنا حسنة.. نريد تخفيف الوجع عن الناس وقضاء طلباتهم!».

أصابتني عدوي ضحكته، إذ انطلقت مني ضحكة صاعقة قطعت استرساله، فرماني بنظرة احتجاج طفولية. بحركة

عصبية منفصلة أمسك بزجاجة البيرة من عنقها مسكة من يزمع تحطيمها فوق دماغي. جفلت مرتاعًا كأن ذبابة حطت على رموش عيني ثم قفزت طائرة بعد أن لدغتني، فلما ارتدّ إليَّ طرفي كان مصطفى - من نفس المسكة - يصب البيرة في قدحي أنا وبحرفنة تمنع اندلاع الفوران. صار قدحي المستطيل تعلوه عمامة كبيرة سميكة من الرغوة الكثيفة ومصطفى لا يني يغذيها بخيط رفيع جدًّا يحتنقها ليجعل لها قبة مقلوظة. يالصبره وطول باله! العجيب أنه فعل نفس الفعل في قدحه كأنه يمارس لعبة لذيذة.. يا للروقان يا درش يابْن السوق يا أبا العجائب! بوجه ضاحك تتوازن ملامحه بين الرصانة والخربشة رفع قدحه:

- «في صحة الفلفسة!»..

إنها إحالة لطيفة إلى كوني طالبا بقسم الفلسفة والاجتماع في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. قارعته، جاريته على نفس القافية:

- «في صحة الفلسفة والاجتماع!»..

أشعل سيجارة بتركيز عميق انعقد له ما بين حاجبيه، فبدا وجهه القمري الوسيم دقيق التقاطيع أكثر تعبيرًا وشفافية من وجوه نجوم السينما في مثل هذه اللقطات. نفث الدخان، لمع في عينيه
برق خاطف:

- «تصدق يا بهاء أن هذا الأسبرين الذي يصنعه توني من عجينة النشا بعصير الليمون يشفي الناس فعلا؟! طلاق تلاته رغم أني مطلق إنني أقول الصدق!.. الكميات التي نرمي بها في الصيدليات تنفد في ساعات قليلة! البارحة جرى ورائي أحد زبائني بالمشوار يناديني وأنا أتجاهله ظنا مني أنه يريد أن يلبسني بلوي، فلما لحقني أخذني بالحضن وكاد يقبل يدي لكي أبعث له بكرتونة كاملة أو أكثر! والله العظيم دفع لي ثمنها مقدما، فأرسلتها له على عنوانه ودفع فوق أجرة النقل بقشيشنا لسائق التروسيكل! الدواء كله وهم يا بهاء، صدقني! مجرد سبب يقوي إرادة الإنسان على الشفاء!».

كنت قد بدأت أشعر بالخدر اللذيذ المبهج، إلا أنه كان مشوبا بمشاعر من السأم وظلال غامضة من الكدر. من جديد سمعت صوتي يردد في فجيعة: كل هذا يطلع منك يا حمادة؟! والله ما أطيبني!

رفع حاجبيه ليعمق الحملقة في عيني:

- «كنت تظنه مجرد ولد ذكي؟».

- «في الحقيقة: نعم!»..

- «لك العذر طبعًا؛ الولد ساحر! يقنعك بأي صورة يريد أن يضع نفسه فيها؛ إنه مصيبة مسيَّحة!.. في طفولته كان يزحف عاريا فوق ترابيزة القمار في بيت أمه والمقامرون يزيحونه بأيديهم وسواعدهم حتى لا يبعثر أكوام الفلوس ويفركش الورق!.. بال على حجورهم جميعًا، تقاذفوه كالكرة.. فتح عينيه على عتاولة البورمجية في بيت أمه يدبرون خطط المشروعات ومؤامرات الكسب والنجاح والمكايد السياسية.. عرف الفصاحة واللباقة من أول ما نطق يردد كلام الكبار.. بين المقامرين سياسيون وتجار وأصحاب مصانع ووكلاء ووزراء سابقون وحاليون ورؤساء أحزاب!.. عائلة أمه كانت صديقة لعائلة كوربيل أصحاب شركة المحاريث والهندسة، ولهم ابن يشتغل في السياسة زعيما للرفاق، وهو من أعز أصدقاء راشيل القططي أم حمادة الشماشرجي.. كل هؤلاء شاركوا في تربية حمادة من لحظة مولده!

«تخيل يا رجل الفلسفة أن راشيل أم حمادة قيدته في شهادة ميلاده الأولى باعتباره ابن أخيها يوسف بك الذي كان محروما من الإنجاب باسم يوسف يوسف القططي! الديانة: بالطبع.. يهودي!.. بعدها بشهور استطاعت أن تعيد قيده من جديد باسم أبيه الأصلي هاني بك الشماشرجي الذي أصر على تسميته بأحمد لتكون ديانته الإسلامية لا تحتمل التشكيك.. ودللوه بحمادة!.. يعني هو الوحيد في البر المصري كله - وربما في العالم تِمًا - يحمل شخصيتين باسمين مختلفين في كل البيانات في سجلات الحكومة، لكل منهما بطاقة شخصية خاصة بحيث يستطيع أن يرث خاله وأباه معًا بشرع القانون.. هذا المدعوق الذي يخربه الموظفون ويحفرون فيه ثقوبًا ينفذون منها إلى التجارة بجرائمهم حتى أصبح القانون كبوابة جحا تدخل منها إلى خروج يقودك إلى دخول يجرك إلى خروج مفتوح على دخول، والشاطر الحبرتقي من يعرف كيف يدخل إلى خروج نهائي!.. شفت الفلسفة؟!»..

- «خلنا في طفولة حمادة.. أرجوك يا مصطفى!»..

- «بالمفتشر هو الطفل المعجزة الذي تحكي عنه حواديت زمان!.. أثناء ما كان في حضانة الليسيه كانت أمه تقرصه وتنبه عليه بعدم الكلام الكثير لأنه يعيد على الأطفال والمربين كل ما سمعه من حديث على ترابيزة القمار مما قاله عمو فلان وعمو ترتان، يعني سيجيء لهم بمصيبة كما قالت الميس لأمه! فلما أصبح تلميذا كان نابغة؛ ينجح بتفوق من دون أن تراه ذات لحظة ممسكا بكتاب!.. الولد موهوب موهبة شيطان أو مارد من الجن!..

«تصور يا رجل الفلسفة أن هذا الولد المفعوص الذي لا يزال تلميذًا في الجامعة هو الآن فرخة بكشك عند أكابر الجمعيات اليهودية الثرية ثراءً فاحشا بما تتلقاه من تبرعات خيالية تستثمرها في البنوك الأجنبية وتنفق منها بالهبل على أغراض كثيرة: معاونة اليهود المأزومين، رعاية المسنين، علاج المرضى، إيواء الباحثين عن مسكن، إيجاد موارد رزق وأعمال للمتعطلين والمتبطلين والعاجزين.. ومنها جمعيات تقوم بتجميع وتحصيل وتوصيل الدعم بجميع أنواعه ليهود فلسطين، ومنها ما يختص بأمر الهجرة بالإلحاح على اليهود المصريين وإغرائهم بكل وسيلة على الهجرة إلى أرض الميعاد في فلسطين لكي ينصروا إخوتهم من أبناء الرب المجاهدين.. ومنها ما يلعب في السياسة على جميع الحبال بالإقناع أو بالشراء لكسب أنصار من المصريين المتنورين يؤمنون بأحقية اليهود في وطن يأويهم من الشتات!.. ومنها عصابات تثير القلاقل لزعزعة المجتمع المصري وإلهائه في المصائب إلى أن يتم طرد الفلسطينيين بأجمعهم من فلسطين أو إبادتهم!..

«حمادة ابن عمي هذا الذي كنت تستصغره، على علاقة قوية بكل هذه الجمعيات منذ كان طفلا! أموال طائلة تحت يديه، ولكن تحت إشرافات وتوجيهات من بعيد لبعيد!..»..

وأشعل سيجارة ثم شرب ثمالة الكوب:

- «أنا أصلي اشتغلت طول عمري مع اليهود على جميع مللهم وطوائفهم ومستوياتهم.. أفهمهم حق الفهم.. تداخلت معهم وعرفت قرارهم، وكلهم مكاسب على فكرة؛ من يعمل معهم ويأمنون جانبه ينغنغونه في النعيم.. ولكنني براوي لا أطيق أن يرأسني أحد كائنا من كان! مخي كده! جبلتي كده! أكون معك سمنًا على عسل، أعطيك نور عيني، لكنني أقلب عليك في لمح البصر إذا تقنصلت عليّ أو كلمتني بطريقة لا تعجبني!».

أدهشني حقًّا هذا العكروت، الثعلب الأليف، الخفيف الظل. إنه لداهية، رغم تعليمه المتوسط فإن وعيه - وعي ابن السوق - يناطح وعي المثقفين مع أنه لا يقرأ سوى الجرائد خطفا وانتقاءً.

فطنت فجأة إلى سؤال سرعان ما أفرجت عنه:

- «لكن قل لي يا درش.. هذه الجمعيات التي تأخذ حمادة على حجرها، هل تعرف أنه يغش الأسبرين و..».

قاطعني مكملا بنبرة متحدية:

- «وأمواس الحلاقة وزهرة الغسيل ماركة كولمان اليونانية والشاي البروك بوند وشربة الشيكولاتة وشربة ملح الصودا ماركة الديك و.. و..».

- «يا خبر أسود! كل هذه السلع؟!».

- «وما خفي كان أعظم!»..

- «مثل ماذا؟»..

- «السماد الكيمياوي.. يملح الأرض ويعدمها العافية!»..

- «بذمتك ودينك؟ هذه واسعة على حمادة!».

- «طالما وراءه توني فكل شيء تنفيذه سهل!»..

- «والجمعيات إياها تعرف هذا؟».

- «ليس يعنيها أن تعرف، لكن يهمها أن يكون عميلها متودكًا على مثل هذه المغامرات في مجالات العمل والحياة عمومًا، حتى إذا جاءت الفرصة وطلبوا منه القيام بمغامرة أو مقامرة كبيرة جريئة ينفذها في الحال بقلب جامد!».

ثم وقف مصفقا للجرسون:

- «سرقنا الوقت! نتكل على الله حالًا. تعالَ خذ حسابك يا خلبوص المزيكة!»..

في انتظارنا للجرسون بدأنا ننتبه إلى هذا اللغط الذي ارتفع في البار منذ لحظات وها هو ذا قد تزايد، بل إن الزبائن كلهم قد غادروا الترابيزات وتجمعوا حول الراديو الكبير المثبت على رف خلف رخامة البارمان. خطوت إليهم:

- «إيه يا جماعة؟».

رد أكثر من صوت:

- «الوزارة استقالت!».

- «استقالت أم أقيلت؟».

هكذا تساءل مصطفى وهو يقترب من الجمع. قال البارمان العجوز:

- «لا فرق يا مصطفى بيه.. المهم أنها مشت!»..

- «تاني؟!».

- «بل ثالث ورابع!».

- «البلد لم يعد يعيش لها وزارات!».

- «البلد رخصت!».

- «البلد فكَّتْ!».

- «الملك فاروق مش فاضي لها يا عم! كفاية عليه ناريمان!».

- «يلاّ يا أستاذ نشوف أكل عيشنا اللي أهم من فاروق وناريمان!»..

خلصت ذراعي من قبضته:

- «لكن إيه تفسيرك لتغيير الوزارات المتلاحق؟».

- «مثله مثل الحرائق التي أكلت القاهرة وحوادث العنف والتخريب في الإسكندرية والسويس وبورسعيد والإسماعيلية والمحلة الكبرى وكفر الدوار. البلد في حالة مش طبيعية، وأنا شايف إن مصر اتجننت!».

- «مصر اتجننت؟!».

- «جنون رسمي كما يقال!».

- «كلها؟!»..

- «تِمًا!».

- «ربنا يستر يا درش!».

- «ما أظنش إنه حيستر!».

- «ليه بس يا درش، فال الله ولا فالك!».

- «ربنا مع العقل يا رجل الفلسفة! ربنا لا ينصر إلا أصحاب العقول! ربنا عرفوه بالعقل كما يقول الناس! وأنا مندهش والله يا بتاع الفلسفة، كيف عرفوا الله بالعقل ثم تركوه وراحوا سكة الجنون؟!».

- «صدقت والله يا درش! والدليل على ذلك هذا الذي ستفعله الآن.. أليس هذا من الجنون؟!».

- «جئت بالفائدة! تعال ننعم بالجنون!».

وفي ذلك النهار كانت الزبائن تتعامل معنا بأذهان شاردة وعقول شبه ضاربة، فطاح فيهم مصطفى، أخذهم جميعًا على حجره، فهو المجنون الأعظم، وشبع فيهم بيعا لدرجة أنه أصر بقوة جبارة على أن نعود إلى القبو لنملأ الحقيبة حوالي خمس مرات، وانتهينا من كل ذلك وعدنا مجبورين لنشرب القهوة في تريانون محطة الرمل حيث كانت الشمس على صفحة البحر في الأفق البعيد تفاحة داكنة الحمرة.

كان القصر ساهرًا على غير العادة حتى وقت متأخر من الليل. حجرة الصالون الكبيرة ذات الباب المفتوح على الشرفة، المفتوحة بدورها على الحديقة، كانت تتلألأ بأضواء أسبطة من النجف كعراجين البلح تسكب نورًا برتقاليّ اللون مبهرًا تنطرح شريحة منه عريضة على أرض الحديقة تتسلق الأفرع واصلة إلى شرفة حجرتي. من السهل على من يقف في شرفتي أن يرى معظم الجالسين في صالون القصر وأن يرى جزءًا كبيرًا من الحركة في ردهة القصر بحيث يستطيع بفطنته أن يستكمل الجزء الخفي من الحركة سواء في المطابخ أو في
دهاليز القصر.

مثل هذه الاجتماعات العائلية لا تحدث إلا نادرًا، ولكنني لاحظت من وقفتي في شرفتي أن الاجتماع أكثر من عائلي. هناك وجوه أراها لأول مرة.. هناك حمادة، وهو لم يظهر قبل ذلك في مثل هذه الاجتماعات مطلقا. ثمة سيدة في ريعان الصبا تجلس بجواره متهالكة عليه بجنبها كما لو كانت زوجته أو حبيبته أو خطيبته المدللة، عارية الصدر والظهر والذراعين والساقين الموضوعة إحداهما فوق الأخرى كفتحة المقص، لعلها إحدى نجمات هوليود الشهيرات!

اكتفيت بهذه النظرة السريعة وجلست أستروح نسمات الشرفة. المناقشة في الصالون كانت تعلو بعض الشيء أحيانًا ثم يبدو أنهم يستدركون فيخفضون أصواتهم. الحدة في الأصوات تشي بأن شيئًا خطيرا أو عائليا يشغلهم. انتقلت إلى السرير، أضأت المصباح المكسو بدائرة من الدانتيلا البيضاء الشفافة، وبدأت أقرأ في كتاب عن ديكارت. ما كدت أندمج في القراءة حتى رن جرس الباب، قفزت إلى الشرفة أضأت مصباحها، كان حمادة واقفًا تحت الشرفة يشير لي أن أفتح الباب. نزلت وفتحت. أضواء الصالون أطفئت وأخذت السيارات تنصرف من أمام القصر تباعا.

قال حمادة وهو يخلع سترته ويرمي بها على السرير:

- «من أطرف ما حصل الأسبوع الماضي أن أمي تصالحت مع أبي! التقته في سهرة في ناد سري لا يعرف طريقه إلا أعضاؤه وأصدقاؤهم، زاملَته في اللعب ضد فريق أجنبي، تنازل لها عن المكسب كهدية منه! قالت له: وأنا في المقابل سأعطيك هدية أكبر. ثم همست في أذنه بنصيحة أذهلته!».

- «ما هي هذه النصيحة يا ترى؟».

- «أن يسارع الشماشرجية بتهريب أموالهم إلى الخارج بأي شكل من الأشكال، وأن يضغطوا نشاطهم إلى أقل حجم ممكن!».

- «ولماذا كل هذا؟!»..

- «عندها معلومات بأن ثورة شيوعية ستقوم في مصر قريبًا جدًّا! هي عرفت من أصدقائها الذين يسهرون في بيتها، وهم تشكيلة عجيبة من صقور متنمرة!».

- «وبالطبع فإن هذه الثورة سيقوم بها الجيش الذي ليس على وفاق مع الملك!»..

- «طبعًا! ومَن غير الجيش يستطيع القيام بثورة ضد الملك والاحتلال البريطاني؟!».

- «ولكن زملاءنا الطلبة من الإخوان المسلمين يسربون شائعات بأن قياداتهم متحدة مع الجيش وأيديهم طائلة في جميع أسلحته، ومعظم الثوار من القيادات العسكرية أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، فكيف تكون الثورة المنتظرة شيوعية؟!».

- «لا تصدق هذه الشائعات. إن أمي ليس من السهل إقناعها بشيء، وعمرها ما صدقت خبرًا إلا وكان صحيحًا مائة في المائة.. ولهذا صدقها أبي وأتى بها لتقنع العائلة بأن تتصرف قبل فوات الأوان!».

- «وصدقوها؟».

- «إنهم جميعًا يثقون في معلوماتها بغير حدود».

- «سيأخذون بكلامها فعلا؟».

- «غصبًا عنهم سيأخذون!».

- «ولماذا غصبا عنهم؟!»..

- «شركاؤهم اليهود بدءوا يتخارجون واحدًا بعد الآخر من الشركات!.. الليلة قرر الباقون تصفية أعمالهم، ثم إن أموالهم الحقيقية لم تعد في مصر منذ شهور طويلة مضت!»..

العجيب أنه لم يمض على ذلك الاجتماع في تلك الليلة سوى بضعة أيام - ولعلها أسابيع - وقام الانقلاب العسكري، أعلن المذياع بيان الثورة بصوت أنور السادات، وغادر الملك البلاد على ظهر المحروسة في ظرف أربع وعشرين ساعة متنازلا عن العرش لطفله الوليد أحمد فؤاد الثاني مع مجلس وصاية من الضباط الأحرار.. ثم تسارع إيقاع الأحداث، فأعلن المذياع قيام الجمهورية برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة. وإذن فمدام راشيل بنت سليمان باشا داوود الشهير بالقطظي والزوجة السابقة لهاني بك الشماشرجي وأم حمادة الشماشرجي تعتبر أكثر من عرافة سياسية ساحرة، تقرأ الفنجان السياسي للبلاد على ترابيزة القمار في بيتها الذي يصيب رواده بالخدر اللذيذ، فيشعر كل زائر له أنه في بيته في عشه لا يستحي من أن يجلس فيه عاريًّا تماما. حقا، إن امرأة بهذه القوة، على قدر من هذا التشعب الأخطبوطي، لا يملك رجل كهاني بك الشماشرجي إلا أن يكون خاتما في أصبعها تلبسه بمزاجها وتخلعه وقتما تريد.

الانقلاب العسكري تبعه انقلاب مماثل في القصر الذي أعيش تحت هيمنته، بل في الحياة بأكملها! حدثت ارتباكات في الشركات والمصانع والمحلات التجارية الكبرى بوجه عام. بات القصر كخلية النحل، في حالة دائمة من المقابلات والاجتماعات غير عادية، جماعية وثنائية، عائلية وأجنبية. كثرت السفريات إلى الخارج بصورة مدوية. عنتر بك والحاج مصطفى وهاني بك وعمرو بك سافروا لأيام طويلة، ثم عادوا ليسافروا مرات عديدة متوالية، أحيانا مجتمعين وأخرى منفردين. ظواهر جديدة بدأت تطرأ على شركات ومصانع ومكاتب إدارات الشماشرجية: لافتات تعلق على الأبواب تعلن أسفهم عن توفير أعداد كبيرة من عمال الظهورات.. موظفون كبار سوومو‌ا على تسوية معاشاتهم في أوقات مبكرة.. وحدات كثيرة من المصانع تم تعطيلها.. انكمش العمل إلى حدود ضيقةٍ جدًّا.. حتى ظهر حال الشماشرجية على هذا النحو الذي يتندر به الحاج مصطفى في سخرية عتيقة ذات تراث ألعباني عريق في رسم المسكنة وادعاء العوز:

- «كما خلقتني يارب ترزقني! الناس كانت مغشوشة فينا، تظننا عائلة فورد الأمريكانية والعياذ بالله! الآن يتعجبون من حالة التقشف التي طرأت علينا! حقًّا، من لا يعرف يقول عدسا! يا ناس يا مقفولين يا غجر، اعلموا بأننا كنا أمناء على بتاع الناس حتى سلمناه لأصحابه.. الجو تغير في البلد فخفنا أن نخسر مصارين الخلق الذين ائتمنونا عليها، خفنا أن يفتضح أمرنا على آخر الزمن ونحن ناس شبعانون لا نطمع في بتاع الناس لو متنا من الجوع، مع أنكم جميعًا تعرفون أن الواحد من الشماشرجية إذا جاع يشم ظهر يده فيشبع من مخزون ما في عروق اليد من دسم قديم.. هكذا علمنا أهالينا القدامى وكانوا في الشبع والكرم نارًا على علم. الحمد لله على كل حال، فإن الورد مهما ذبل تبقى رائحته فيه، فهذه القصور والسرايات التي نسكنها ورثناها عن أجدادنا، وهي كل ما بقي لنا من ثروة تسترنا!».

الحاج مصطفى الشماشرجي، ذلك الأريب المتصوف، كان دائم الترديد لمثل هذا الكلام لكل من يلتقيه كأنها بلاغات مشفرة يرسلها إلى أطراف عديدة مجهولة ومعلومة، لكل طرف منها بلاغ خاص وإن ضمَّنه بلاغًا آخر لطرف آخر قد يكون ممثلا في الحيطان التي لها آذان تندس في لحوم البشر لتلتقط دبيب مشاعرهم. بهذه البلاغات ضرب كثيرًا من العصافير بحجر واحد؛ امتثل مئات العمال للأمر الواقع وتبطلوا دونما تعويض عن إصابات أو مكافأة نهاية خدمة أو حتى كلمة تطييب خاطر، مع العلم بأن العشرات من بين هاتيك المئات كانوا من شماشرجية البلد الذين لا حول لهم ولا طول! كذلك رضي كبار الموظفين والإداريين بمرتب شهر واحد على سبيل الترضية وفي السر والكتمان، إذ إن بعض صغار الموظفين لم يحصلوا على شيء وبعض كبارهم حصلوا على نصف شهر، كما أن إعلان التفليسة بالنسبة لكل شركات الشماشرجية تم بسلاسة وبترتيبات قانونية نفذت على عدة مراحل مترابطة تؤدي إلى الإفلاس وطرح العِدد والآلات والمقرات للبيع في المزاد العلني وفاءً لما تبقى للبنوك من ديون كانت أقدارها مدروسة بخبرة جهنمية بحيث تفي بها هذه الممتلكات العينية وتزيد قليلا.

أصبح موقفي غاية في الحرج والدقة. داخلني شعور قارص بأنني عمالة زائدة، راح يوسوس لي بأن عنتر بك ربما يكون محرجا من توفيري ضمن من وفرهم، سيما ولم يعد هناك عمل أقوم به بعد أن صُفيت كل الأعمال. قررت الانسحاب بكرامتي لأزيل عنه الحرج، سيَّما وأنني أصبحت متودكا على شغل السوق أستطيع أن أقلب فيه عيشي بكل

سهولة. بالفعل طلبت مقابلة عنتر بك لكي أستأذن منه في الانسحاب حيث، لم يعد لي عمل لديه.. ويا للعجب، جاءتني موافقة عنتر بك بأن أقابله غدًا في العاشرة صباحًا في مكتبه. مكتبه؟! إنني أشتغل عنده طوال السنوات الماضية ولا أعرف له مكتبا خارج مقر المصنع الذي تحفظ عليه البنك بجميع عِدده وآلاته وبقايا مواد خام وحفنة من كمبيالات وفواتير يماطل أصحابها في السداد لأسباب مختلفة.

مدير القصر الذي أبلغني بالخبر أعطاني وصفًا دقيقًا للطريق الذي أسلكه إلى مكتب عنتر بك، فركبت الباص إلى محطة الرمل ثم اتجهت منها إلى شارع صفية زغلول، العمارة الخامسة على الناصية تحتها محل نجف وثريات كهربائية بأربعة أبواب على الشارعين. مكتب عنتر بك هو البلكونة التي فوق هذا المحل مباشرة، ومدخل العمارة من شارع صفية زغلول. المكتب شقة واسعة جدًا مكونة من خمس غرف واسعة وصالة كبيرة وعدة ممرات ودورتي مياه، مفروشة كلها بالسجاد فوق خشب الباركيه، الجدران منقوشة بألوان الزيت من مشتقات اللون الأزرق بجميع درجاته مع كرانيش ورسومات، صالونات وأنتريهات ومكاتب ومناضد وطقاطيق عليها تحف وتماثيل ومصابيح، بوابٌ فساعٍ فموظف محترم أدخلني إلى السكرتيرة مدام نيفين، غرفة شديدة الأناقة بمفروشات ثمينة.

مدام نيفين سيدة لا يزيد عمرها عن الثلاثين عاما، طويلة القامة ممشوقة القد، شقراء الشعر على بشرة وجه خمري اللون، ذات لمسة خلاسية، لجمالها ظل من المهابة يمنعك من الحملقة فيها درءًا لشبهة الاشتهاء. إمعانًا في احترامي خرجَتْ عن المكتب لتقابلني في منتصف الطريق مصافِحة بحرارة:

- «تفضل أستاذ بهاء، حالا تدخل إليه».

ثم ارتدت إلى مكتبها وضغطت على زر الجرس:

- «تُفضلها سادة أم مضبوطة؟».

- «شكرًا يا أفندم. إن كان ولابد فعلى الريحة!».

وكان الساعي قد اقترب وسمعني، فهز رأسه بالتحية ثم انصرف. يبدو أن مدام نيفين لاحظت انبهاري بالمكتب، طرحت فوقي ابتسامتها العريضة كالملاءة:

- «أول مرة تجيء إلى هذا المكتب طبعا!»..

- «أهو جديد؟»..

- «عمره من عمر عنتر بك!»..

- «كان مكتب عزت باشا الكبير؟»..

- «تمام! حضرتك تعرفه؟».

- «أبي صديق قديم للعائلة».

- «بصره! بابا هو الآخر صديق للعائلة».

- «حضرتك سكرتيرة عنتر بك من زمن؟».

- «من عشرين سنة، منذ كنت في سنة أولى ثانوي».

- «هذه أول مرة أعرف أن لعنتر بك مكتبًا غير مكتب المصنع!».

- «هذا مكتبه طول عمره، يأتي إليه كل يوم في الصبح والمساء».

- «لديه أشغال هنا؟».

- «طبعًا! لعنتر بك أشغال خاصة كثيرة، كيف لم تعرف؟!».

- «أنا لست حِشَرِيًّا!».

- «عنتر بك لا يزال تاجر أقطان!».

انطلق صوت صرير من جهاز على يمينها، لوت جذعها الرشيق وضغطت على زر:

- «مع حضرتك»..

انطلق صوت عنتر بك من الجهاز:

- «بهاء يدخل».

رشفت آخر جرعة في فنجان القهوة ووقفت. تقدمتني مدام نيفين. مضينا في ممر طويل مفروش بالسجاد ومحاط بتحف كثيرة مبهرة. طرقَتْ باب آخر غرفة في نهاية الممر، ثم دفعَتْ الباب وأشارت لي: تفضل. دخلت، متاهة من المبهرات، كل شيء هاهنا تحفة ثمينة لا تقدر بمال: أكرة الباب، الدواليب، المقاعد، السجاجيد، اللوحات المعلقة، الأباجورات المتعددة في الأركان، الشبابيك، الستائر، الأقلام، المراوح، الدفايات، علب الشيكولاتة المتناثرة على طاولات زجاجية. من رهبة المكان خيل إليّ أن عنتر بك الذي أعرفه ليس هو ذلك السلطان الذي يملأ كرسي المكتب ويفيض ليملأ الغرفة كلها. من الرهبة شلت يدي عن المصافحة، فتسمرتُ واقفًا أمام المكتب أحدق في طرفي شاربه الواقفين على تخوم الخدين! لولا نظرات عينيه الأليفتين ما صدقت أنه هو. أشار بيده التخينة:

- «اقعد يا بهاء».

جلست على الفوتِيْ الجلدي الوثير.

- «هل تعرف لماذا طلبتك؟».

- «لأني طلبت مقابلة سعادتك!»..

- «أنت طلبت مقابلتي؟!»..

- «نعم!»..

- «ممن؟».

- «من مدير القصر!».

- «لم يبلغني المسطول! يظهر أنني فاجأته بأن يبلغك بأنني أطلبك.. على كل حال، استمع لي جيدًا».

- «أمر سعادتك!»..

- «أنت لا شأن لك بما حدث. أنت واحد من أسرتي، تشتغل ما تشتغلش أنت باق معي.. مرتبك ماش كما هو!»..

- «لكني.. لا تؤاخذني.. أخجل من قبض مرتب بدون عمل!».

نقر بسبابته على سطح المكتب في حسم:

- «الحال لن يبقى هكذا طويلا.. ستتعدل الأحوال بعد قليل.. وإلى أن يحدث ما نخطط له الآن أنت باق معي هنا في هذا المكتب مع مدام نيفين. من حين لآخر ستكلفك بعمل بسيط، المهم أن تجيء كل يوم من الخامسة مساء فتبقى معها إلى العاشرة».

- «أمر سعادتك!».

- «عندك اليوم إجازة. تجيء من غد بإذن الله».

- «أمر سعادتك!».

- «انصراف!».

خرجت من عنده إلى بيت عمي إسماعيل. حكيت له ما دار بالتفصيل وطلبت رأيه. أمهلني قليلا ثم هاتف عمي عوض الذي طلب منه أن يعطيني السماعة، فانصبّ صوته الغاضب في أذني:

- «أنت تعرف أني رافض لوجودك في حضن الشماشرجية من الأساس!.. ترضى أن تتسول؟! هات نفسك وتعال فورًا لتعيش معي معززًا مكرمًا!»..

ثم إن عمي عوض هاتف عمي صلاح، فهاتفني بدوره عند عمي إسماعيل:

- «وما الذي يزنقك على تقاضي أجر بدون عمل كالصدقة؟! ألا تستحي؟! أنت تعرف أنني في أشد الاحتياج إليك، وأظن أنه آن الأوان لأن تعاون أولاد عمك في حمل المسئولية!.. ولا كلمة! أنا في انتظارك».

في قرارة نفسي كنت لا أزال مفتونا بالشماشرجية، وفي المقابل كنت على يقين بأن إقامتي في منزل عمي عوض أو مع أي عم آخر ستكون سجنا بمعنى الكلمة بعد أن استمرأت حلاوة الانفراد بمسكن مريح مما جميعه، فكان أن زعمت لأعمامي بأن أبي غير مرحب برحيلي عن الشماشرجية ويعتبر ذلك خسة ونذالة، خصوصا بعد أن كلمني عنتر بك بنفسه وأعرب عن احتياجه لي. وفعلا، سرعان ما ظهر هذا الاحتياج، فبعد أيام قليلة من قيام علاقة سلسة ناعمة وراقية مع مدام نيفين، علمتني خلالها كيف أن رجل الأعمال الناجح هو عبارة عن سكرتارية ناجحة. استدعاني عنتر بك ونبه عليّ أن أنام الليلة مبكرًا لأننا سنسافر غدًا صباحًا إلى بلدتنا في مأمورية مهمة خاصة بالعمل.

أسبوعا كاملا أمضيناه في البلدة، حيث قام عنتر بك ببيع أرضه الزراعية في زمام بلدتنا لأولاده بعقود صورية وقَّع عليها شهود من أهل البلدة من جيرانهم في الأرض، واطمأن على مدى الأسبوع إلى أن الناس في بلدتنا وما جاورها من بلدان وعزب قد علموا جميعًا أن أرض عنتر بك لم تعد ملكه وحده، بل اشتراها منه أولاده وأصبح مثلهم لا يملك أكثر من مائتي فدان. ثم عدنا إلى الإسكندرية في سيارة عنتر بك الـ «فورد»، هو مضطجع على الكنبة الخلفية وحده وأنا بجوار السائق، وكان أجمل ما في الأمر أن السائق كان يهرول بمجرد وقوف السيارة ليفتح الباب لعنتر بك ثم يفتح الباب لي أنا أيضًا، فأنزل غارقا في الخجل والارتباك والحرج، وبخاصة حين يومئ لي باحترام قائلا: تفضل يا بهاء بك!

على مكتب مدام نيفين استلفت نظري وجود رصة من بطاقات دعوة فخيمة، واضح أنها دعوة لفرح. فخامتها جذبتني فجعلتُ أتفرج على المغلف المربوط بشريط حريري. قالت مدام نيفين:

- «لك دعوة في هذه الدعوات».

ثم جعلَتْ تقلب في الدعوات بأصابعها النحيلة المصبوغة الأظافر بطلاء أحمر قان. قدمت لي واحدة، فوجئت باسمي مطبوعا على المغلف بالآلة الكاتبة. قلت في غبطة:

- «يا ترى من هو العريس البك الذي عبَّرني ودعاني».

عوجت نيفين رأسها بابتسامة جانبية ذات مغزى.. قالت فيما يقرب من الغنج اللطيف:

- «عمرو بك سيجدد شبابه!».

- «عمرو بك الشماشرجي؟!».

- «عقبال أملتك يا بهاء!».

- «لكنه جد لأحفاد كثيرين! إنه فوق الستين من عمره، حتى وإن كان شكله يخدع بأنه في الأربعين!».

- «وهل هذا يمنع؟!».

- «لا ولكن.. أقصد إنه..».

- «مخجل مثلا؟!».

- «يعني! الناس لن تتركه في حاله!».

- «فإذا كانت العروس صبية في العشرين من عمرها؟».

- «بنت بنوت؟!».

- «طبعا! وجميلة الجميلات. من بورسعيد».

- «هنيئًا له! ربنا يتمم بخير! و.. أولاده وافقوا؟».

- «وسيحضرون الفرح طبعًا!».

- «وزوجته أم العيال.. بنت عمه؟».

- «كان الله في عونها! كبرت وتعبت! هل رأيتها؟ صارت عجوزة كركوبة قعيدة لا تتحرك».

أيًّا ما كان الأمر فإنني فرحت بالدعوة لمجرد أن عمرو بك يدعوني لحضور زفافه مع أنني لم أره إلا مرات معدودة ولم يقم بيننا أي ود من أي نوع، بل لعلني لم أستلطفه ولم يأبه لي.

خلال الأيام القليلة المتبقية على موعد الزفاف ذاع صيت العروس في محيط العائلة باحتفالية كبيرة كأنها قطر الندى بنت خمارويه. وكان شماشرجية بلدتنا يتوافدون على الإسكندرية كل يوم حتى امتلأت القصور والفيلات بالجلاليب والعباءات والطرابيش والطواقي والعمم. المفاجأة الكبرى أنني ذات يوم صحوت من النوم في الضحى بمداعبة من يد أمي، ففزعت وانتفضت قاعدًا لأراها بلحمها ودمها ومن ورائها أبي جالسا على الكنبة. قرأت في عينيهما مشاعر الاطمئنان على راحتي إلى حد الغبطة. لعلهما كانا يتصوران أنني أسكن في عشة فوق السطح فإذا بهما يَرَيَاني أبيت في قصر بمعنى الكلمة.

ذاع خبر مجيئهما بسرعة البرق. بعد دقائق جاء أعمامي الثلاثة واحدًا بعد الآخر وكل واحد منهم يظن أنه أول من علم بالخبر وأنه الوحيد الذي يحق له أن يأخذهما إلى بيته. كانت أمي على وشك أن تفض الاشتباك بإبداء الرغبة في أن يبقيا معي إلى أن يشبعا مني في هذه الفرصة، لولا أن أبي قد نهرها بلطف ومودة مذكرًا إياها بأن من له بيت هنا عيب عليه أن يتنطع في بيوت الناس.. وهكذا قرر أن يبيت ليلة عند كل واحد من أعمامي بدءًا بكبيرهم عوض

وانتهاءً بأصغرهم صلاح. سرعان ما انتقلنا جميعًا إلى بيت عمي عوض في حي البياصة حيث تركتهم هناك وعدت قرب منتصف الليل. في ضحى اليوم التالي ذهبت إليهم في بيت عمي إسماعيل فمكثت معهم إلى المساء حيث ارتدينا ملابس جديدة. عمي عوض معه سيارته الـ «تاونس» العتيقة، وعمي صلاح معه سيارته ال «ستروين» الجديدة، وعمي إسماعيل معه سيارته الفيات الصغيرة المسماة بالقردة، وهي بالفعل اسم على مسمى. أخذني إلى جواره وقادنا إلى مسرح الهامبرا حيث يقام الفرح، فإذا بكتل من اللحم البشري تتصادم تتدافع كأننا في يوم الحشر.

امتلأت القاعة عن آخرها بمئات المدعوين من بورسعيد وحدها، فما بالك بالشماشرجية ومعارفهم؟! اضطر المئات إلى الوقوف منحشرين في الطرقات والبنوارات وليس ثمة من موضع لقدم. ينبعث من خشبة المسرح ضجيج يزلزل الأرض يرج المبنى بصوت الطبول والدفوف والصاجات والوتريات، ثلاث راقصات فارعات سيطرن على الجمهور، أفقدنه الوعي بما يتدفق منهن من أنوثة شائقة، يشعللهن صوت المطرب الشهير عبد العزيز محمود يصدح بأغنية «يا نجف بنور يا سيد العرسان». انحشرنا في كتل الزحام المتراكمة في الممرات والأركان. أخذنا نحملق في خشبة المسرح البعيدة. كان العروسان جالسين على كرسيين عاليين فوق الخشبة في مواجهة الفرقة الموسيقية والراقصات. عبثًا حاولنا رؤية وجه العروس جيدًا. أخيرًا تعبنا من الوقفة المؤلمة. أشفق عمي عوض على أمي وأبي؛ فما كاد يقترح بأن ننصرف حتى وافقناه في الحال. غادرنا المسرح قبل منتصف الليل بقليل.

ونحن نوصل أبي وأمي - بعد يومين - إلى محطة سيدي جابر كما طلب أبي ليركب منها عائدًا بأمي إلى البلد، انفرد بي أبي على المقعد الخلفي لسيارة عمي عوض، قال:

- «أعجبتني الحياة التي تعيشها! أمك برد قلبها بعدما اطمأنت على نومتك وأكلتك وشربتك ومذاكرتك، فالحمد لله!.. إنما أنا أحب أن أقول لك بيني وبينك: لا تغرنك هذه الرفاهية فتنسى نفسك تظنها أبدية، والواقع أنها كلما استرخيت لها تأكل فيك حتى تستعبدك، ترغمك على بيع كل عزيز لديك في سبيل أن تستمر في نعيمها!.. هذه هي طريقة الشماشرجية في تربية من يعملون عندهم بحيث يتحول الواحد منهم إلى شماشرجي أكثر من الشماشرجية في الولاء لهم وحفظ أسرارهم!.. ما أنت فيه الآن فترة إعداد وتربية بعد نجاحك في الاختبار واقتناعهم بأنك قابل لأن تصبح شماشرجيا، يعني تمتلئ أحلامك بالفيلا والسيارة والأبهة!.. إن كنت تنوي يا بن الناس أن تكون شماشرجيا بقية حياتك ومهما علوت في ظلهم، تظل في أنظارهم مجرد خادم.. فعليك أن تستمرئ هذا النعيم وتلك الرفاهية التي أغرقوك فيها.. أما إن كنت طموحًا لأن تكون شيئًا مهمًّا ومحترما في العهد الجديد الذي ألغيت فيه الألقاب وانكسرت شوكة الأثرياء فعليك أن تعوِّد نفسك على خشونة الحياة وقسوة أن تكون مسئولًا عن نفسك من طقطق لسلامُه عليكم!..

«أقول لك كلمة ضعها حلقًا في أذنيك: كل نعيم يأتيك من أحد غيرك من فوقك، فهو زائل لا محالة ذات لحظة لسبب من الأسباب! لا يبقى للإنسان من نعيم إلا ما كان من صنع يديه هو. ما حكّ جلدك مثل ظفرك، هكذا قال الأقدمون.. ولن تجد من يهرش لك مطرح ما تستحلي الهرش، هكذا قال المثل الشعبي!..

«معنى كلامي يا بن الناس أن تتذكر دائمًا ما سبق أن قلته لك: لا تأخذ من الشماشرجية إلا ما تستحقه بالضبط مقابل جهدك في عمل محدد. على كل حال أنت أدرى بمصلحتك. لم تعد صغيرًا، إنما أنا أخلص ضميري بنصحك والباقي على الله وعليك».

أذن عمي عوض كانت معنا طوال الطريق، فبين كل جملة وأخرى من كلام أبي يهز رأسه بإعجاب وتأييد، أو يميل ناحية أمي الجالسة بجواره ويهتف: قلتُ له هذا الكلام بنصه يوم كذا.. حصل يا بهاء؟ فأهز رأسي موافقًا.

في طريق عودتنا جلست إلى جوار عمي عوض. قطعنا نصف الطريق صامتين، حيث كانت وفود من الدمع تترقرق في عينيه كعادته دائمًا عند توديعه لأي أحد، فما بالك إذا كان هذا الأحد هو أبي؟.. عمي عوض مدمن لتدخين سجائر البستاني المبططة ذات النكهة الإفريقية الحريفة واللذعة الحراقة. كان كالشماشرجية يطفئ السيجارة بعد منتصفها بعدة أنفاس خاطفة. المطفأة المثبتة لصق عجلة القيادة امتلأت بأنصاف السجائر المبططة، وهو مع ذلك لا يقبل رمى السيجارة في الشارع أو حتى نفض رمادها. أشرت إلى التي راح يحاول حشرها بين الأعقاب ضاغطا عليها لتنطفئ:

- «إسراف هذا يا عمي، أم أنك تخفف عن صدرك؟!».

مال نحوي بنظرة كابية كأنه ينفض رماد عينيه:

- «لا إسراف ولا تخفيف!».

- «فماذا يكون إذن؟».

- «زكاة!.. زكاة التدخين».

- «نعم يا عمي، زكاة التدخين؟!».

- «هناك أعداد كبيرة من صبيان الشوارع المعدمين يلمون السبارس يشقون في جمعها شقاءً حقيقيا.. يصعبون عليّ! إنهم يبيعونها لمن يعالجها بالتحميص ويعيد لفها وتدخينها. منظرهم يقطع قلبي! أتذكرهم كلما ولعت سيجارة! مع كل نفس يزغدني قلبي قائلا: يا أخي سيب لهم شوية أنفاس تستحق التعب! حاجة مضحكة طبعا في نظرك، لكن والمرسي أبو العباس إذا سهوت وسحبت أنفاسا تجور على حق السبارسجية، أعوض المسحوب في السيجارة التالية فأطفئها قبل منتصفها!».

ضحكنا معًا بعمق ومرح، لكن كلمة «السبارسجية» راحت تطن في أذني طوال بقية الطريق على وزن كلمة الشماشرجية، فشعرت بدبيب خاطر مؤلم إذ رأيت على ضوئه أنني أشبه هؤلاء السبارسجية في كوني أقتات على فضلات الشماشرجية. وجعني قلبي، امتلأت خياشيمي برائحة احتراق غريبة نفاذة حدست أن تكون رائحة دمي المحترق لتوه.

منذ ذلك اليوم عافت نفسي طعام الشماشرجية فلم أعد أستسيغ شيئًا من هذه النعمة التي بدت لي مسمومة. بدأت أترك صينية الطعام مغطاة بالمفرش وأمشي من دون أن أرفع عنها الغطاء. رحت أستكشف عبقرية الفول المدمس والطعمية المحبشة بالتوابل والباذنجان المحدَّق، وبصارة أم شفيع زوج عمي عوض، وكشري الشيخة صباح زوج عمي إسماعيل، وكمّونية كرشة الست مهدية زوجة عمي صلاح، وساندوتشات الكبدة والمخ من عربات واقفة على النواصي، والرغيف العجين نرصعه بالسجق أو باللحم المفروم عند الفران وننتظر خروجه برائحته الشهية الزاعقة كالفضيحة. كذلك بدأت أستلذ النوم على أرائك خشبية صلبة متوسدًا أي شلتة أي مسند حتى وإن كان المسند الخشبي للأريكة، كما بدأت أكتشف أن الوقت الذي أقضيه في غسل ملابسي بيدي على الحوض يحرضني على تشغيل ذهني في قراءات وأقوال وسلوكيات أعيد فحصها. وقد صادقني الجنايني وأصبح على مقربة مني في أوقات بعينها متوقعًا أن أناديه ليجهز على الطعام الذي أرسله القصر إليّ.

الشماشرجية الذين نجحوا في تهريب أموالهم إلى بنوك عالمية بعيدة لم يتمكنوا بالطبع من تهريب طاقاتهم العملية التي اشتهروا بها، ومن المستحيل على أمثالهم أن يعيش بغير مشروعات ناجحة. في نفس الحال هم مطالبون بتبرير مظاهر العز والأبهة التي جبلوا عليها ولم يتخلوا عنها وإن كانوا قد خففوا من المظهرية بقدر ما استطاعوا.. ثم إن لهم في السوق أرضية راسخة بأعداد هائلة من العملاء والزبائن يجب الاحتفاظ بها وتجديد العلاقة معها على أي نحو من الأنحاء. وهذا ما تفتقت عنه العبقرية الإدارية المسماة برشيد بك السيسي عبر مباحثات واجتماعات في مكتب عنتر بك تستمر أحيانا إلى قرب أذان الفجر، حيث تكون مدام نيفين قد انصرفت في العاشرة مساءً لأبقى أنا طوال ساعات الليل أدخل عليهم بملفات وأخرج بمذكرات أرفقها بملفات، وأرد على تليفونات وأطلب أرقام ناس في بيوتهم أو في مكاتبهم لأوصلهم بغرفة الاجتماع. كنت ما أكاد أصل إلى كرسي المكتب حتى يفزعني صوت الجرس أو صوت الدكتافون.

كل هذه المشقة بقدر ما أضجرتني في حينها أسعدتني يوم افتتاح المشروع باعتباري قد أسهمت - بشكل أو بآخر - في التخطيط له وتنفيذه. لم تمض شهور قليلة إلا وقد أصبح على أرض الواقع كيان جديد اسمه: «الشماشرجية إخوان للغزل والنسج والصباغة»، وهي شركة مساهمة مصرية يغلب عليها الطابع العائلي. كل فرد شماشرجي من فرع الإسكندرية أو من البلدة، حتى حمادة وأمه، شارك بعدة أسهم. اختير للمصنع مبنى جراج قديم تم ترميمه وتعديله، واختير للإدارة ثلاث شقق مفتوحة بعضها على بعض في عمارة سكنية حديثة في شارع بورسعيد بشاطئ الشاطبي. تكون مجلس إدارة منتخب من جميع المساهمين الذين بلغ عددهم حوالي خمسمائة مساهم ينتمون أو ينتسبون إلى عائلة الشماشرجية.. وكان إجماع مجلس الإدارة قد استقر على رشيد بك السيسي رئيسا للمجلس، إلا أن رشيد بك السيسي تنازل عن الرياسة لنائبه عمرو بك الشماشرجي وفضل أن يكون عضو مجلس الإدارة المنتدب لإدارة الشركة، وهذا ما لقي ارتياحا عظيما لدى الجميع.

رشيد بك السيسي طراز فريد من الإداريين الأصلاء أصحاب الكفاءة العالية.. بل الاستثنائية، فهو المدير ونائب المدير ورئيس شئون الأفراد ورئيس أقسام التشغيل والتوريد والخزانة على الرغم من وجود رئيس فعلي لكل قسم من هذه الأقسام يؤدي عمله في إطار استقلاليته، أي دون أدنى شعور بأن هناك من يتدخل في شغله أو يفرض عليه سلوكا معينا أو قرارا بعينه.. ذلك أن رشيد بك السيسي، الساحر بمعنى الكلمة، كانت قوته الحقيقية كامنة في إلمامه بكل كبيرة وصغيرة في حركة كل ترس من تروس العمل. فإذا كانت قوة شمشون الجبار في شعر رأسه، إذا تحسسه بيديه صار في الحال قويا كإعصار يقتلع الأشجار والجدران من أساسها، فإن قوة رشيد بك السيسي في اتساع ذاكرته، وهي ليست في حاجة لأن يتحسسها بيديه، يكفي أن تجحظ عينه لبرهة وجيزة لكي يعرف - وبشكل شبه مؤكد - أن مخزون المادة الخام من الصنف الفلاني ستنتهي يوم كذا، أو أن الخطاب الفلاني جاءنا يوم كذا شهر كذا وكان ينص على كيت وكيت.. يرفع سماعة الهاتف يطلب رئيس هذا القسم أو ذاك: «شرفنا شوية يا فلان أفندي».. في قعدة أخوية يأخذ ويعطي معه حول الموضوع الفلاني أو المشكلة الفلانية، يضيء له ذهنه، يوحي إليه بأن التصرف الأمثل هو كذا وكيت، يزرع في ذهنه فكرة الحل ثم يحصدها موحيا إليه بأنها من بنات أفكاره هو وليست مملاة عليه.

لا غرابة أن يكون نارا على علم في مدينة الإسكندرية كلها! يكفيه شهرة أنه - وهو البك رسميا ببراءة موثقة من القصر الملكي - لم يكن يعيش حياة البكوات لا مظهريا ولا داخليا، والآن بعد زوال الألقاب والملكية يذهب إلى مكتبه يوميا في الثامنة صباحا كأي موظف، ينزل ببدلته الثمينة إلى عنابر لا تنجو فيها الملابس من تبقيع وتزييت وتوسيخ.. كل هذا لا يعبأ به، بل لا يتورع عن دب يده الرقيقة في برميل اللون المسحوق يكبش ويتحسس النعومة من الخشونة.

رشيد بك السيسي هو زوج كبرى بنات هاني بك الشماشرجي، ولكن حماه يخشى بأسه ويعرف أنه بالقياس إليه تلميذ بليد. على كثرة ما تتعرض ثيابه للغبار والبويات والبهدلة أحيانا، فإن من يراه يظنه الباشا الكبير؛ إذ يبدو من أول وهلة أنه الكل في الكل في أي مكان يحل به. شخصيته قوية جدا، حاسمة صارمة، مرنة مع ذلك مرونة الحرير، صافي الذهن حاضر البديهة جاهز الجواب، يستطيع مناقشة عدة أطراف في آن واحد بكل تركيز وحيوية ودقة معلومات. أعقد الأمور في نظر غيره تنحل عنده في ثوان، أصعب المواقف المتصلبة تنصهر بكلمة منه بعبقرية ملهمة أو بتصرف حكيم مدهش. لطيف غاية اللطف، هادئ الطبع بشوش الوجه، رقيق أنيق في ملبسه في حديثه في مشيته السريعة في آرائه في تعليقاته العابرة بحيث يعجز أشرس مخلوق في الدنيا عن إيجاد سبب يهاجمه به.

يقال إنه من أندر الندماء ذوي الثقافة الموسوعية والموهبة في الحضور وخفة الظل الرصينة العميقة. إذا كان جميع الشماشرجية وغيرهم قد اشتروا ألقاب الباشوية والبكوية بهدايا باهظة التكاليف، فإن رشيد بك السيسي قد منح لقب البكوية هدية خالصة لوجه الحب من الملك فاروق. قيل إن أصل الحكاية أن أصدقاء الملك السكندريين اعتادوا التوجه إلى القصر الملكي في رأس التين أو المنتزه للترحيب بجلالته فور قدومه إلى الإسكندرية، وذات يوم اصطحبوا رشيد السيسي كشخصية دمثة لطيفة يتوقعون أن تعجب جلالته، فأعجبته بالفعل بل أسرته.. أصبح من أهم ندماء الملك طوال مدة إقامته في الثغر على مدى عدة أعوام، بل كان الملك يطلب حضوره حيثما حل في أي سهرة أو عزومة خاصة.

وكان رشيد بك قد تخرج في جامعة السوربون دارسا للحقوق، وحصل على دبلومة في إدارة الأعمال، وفور تخرجه اختطفه سليمان باشا القططي مديرا لشئونه القانونية ثم مديرا لمكتبه ثم وكيلا لأعماله. وبعد رحيل القططي قيّد نفسه في نقابة المحامين وافتتح مكتبا مشتركا مع زميل في شارع فؤاد.. وكانت المراسيل السرية بينه وبين عروسه المرتقبة قد أفادت بالإيجاب، فاصطحب وفدا وذهب يخطبها من أبيها هاني بك الشماشرجي، فكاد هاني بك يجن من الفرح، وأعلن بوضوح على ملأ من الحضور أن شرطه الوحيد لكي يوافق على هذه الزيجة أن يتكرم الأستاذ رشيد ويقبل العمل معه مديرا لأعماله كما كان عند القططي وبأي مرتب يحدده. تردد الأستاذ رشيد وطلب مهلة للتفكير، لكن هاني بك ساق عليه جميع أصدقائه حتى أذعن لشرطه بدافع من الحب الكبير الذي يربط قلبه بعروسه.

رئيس مجلس إدارة شركة الشماشرجية إخوان للغزل والنسج الرفيع والصباغة هو عمرو بك الشماشرجي كبير المساهمين. ويوم أن تنازل له رشيد بك عن هذا المنصب، كان الاجتماع في مكتب عنتر بك بشارع صفية زغلول. وكان عنتر بك قد استوقفني ليكلفني بعمل عاجل، لكنه اندمج في الحوار ونسيني، فبقيت واقفا على يمينه أنتظر. لحظتها كان رشيد بك يتحدث والجميع في إنصات وترقب، إلى أن قال:

- «وإذ أشكركم على حسن ثقتكم فيّ، أرجو أن تتقبلوا اعتذاري عن أحد المنصبين. أنا تهمني الإدارة، وسأكتفي بأن أكون العضو المنتدب للإدارة، وبالتالي تذهب رئاسة المجلس إلى نائبي
عمرو بك!».

نزل عليهم صمت حيادي لم يُظهر عليهم ما إذا كانوا موافقين أم معترضين، فمسحهم رشيد بك بنظرة استطلاعية سريعة، ويبدو أنه اعتبر صمتهم موافقة، فهبط بنظرته اللبقة المرحة على عمرو بك الذي انتفخت أوداجه كالديك الشركسي وبدا عليه الزهو، فرماه رشيد بك بهذا التعقيب الباسم:

- «تلك هديتي للعريس! لعله يطيل رقبتنا في.. في.. في مهمة الرياسة طبعا!».

ولم يشارك في انفجار القهقهة التي فرقعت على ترابيزة الاجتماعات، بل ظل على نفس الابتسامة بنفس النظرة الوادعة يرمق بها الجميع. عمرو بك هو الآخر لم يشارك في الضحك وإن رفّت على شفتيه ابتسامة تقطر حرجا وارتباكا. كانت قامته مدكوكة باللحم دكا.. دكا، منفوخ البدن كالبرميل، أحمر الوجه كأنه يصطبح كل يوم بشرب جالون من الدم القاني. شخصيته تبدو لي دائما ملتبسة وطريفة، إذ يبد وكأنه يفهم جيدا في الأمور كافة بلا استثناء، فإن نكشته وتعمقت معه في الحديث قليلا فوجئت بأن البحر المتلألئ الأمواج ما هو إلا بركة يكاد قاعها يظهر من شفافية الماء.

بمجرد احتكاكي به في الشهور الفائتة أدركت أنه لا يتعامل إلا مع النتائج النهائية للأشياء، تتردد على لسانه بضع مفردات معدودة معروفة للجميع ينطقها دائما على عجل وفي سأم أحيانا كما لو كان على موعد مهم بعد ثوان قليلة، مع أنه لا يغادر مكتبه إلا إلى البيت.. تكثر على لسانه مفردات من قبيل: الخلاصة، قصر الكلام، عايز تقول إيه يعني؟ خلص.. إلخ. يشاع عنه في محيط الأسرة أنه يعشق النوم بعمق في قاعات السينما، ما إن تنطفئ الأضواء حتى يلبي عزومة الملائكة على أكلة الأرز باللبن، فلا يوقظه إلا ضجيج المقاعد ووقوف الجمهور للانصراف.

في أثناء الاجتماعات التحضيرية المكثفة في مكتب صفية زغلول كنت ألاحظ أنه يعاملني بشيء من الاستعلاء الرذيل، لدرجة أنه ذات مرة ناداني قائلا: يا ولد! فالتفتُّ إليه بنظرة ملؤها الاحتجاج والغضب، وكنت على وشك أن أنفجر فيه برد خشن، لولا أنني رأيت عنتر بك يسلقه بنظرة تفيض باللوم والحرج، تلاقت مع نظرة استياء واضح في عيني رشيد بك السيسي.. ويبدو أن عنتر بك شعر بوجع الإهانة في نفسي، فاستدعى كل ما في صدره من لطف ورقة ثم ابتسم في
دماثة قائلا:

- «يا عمرو بك هذا ليس ولدًا! إنه طالب جامعي في كلية الآداب، والرجل كتر خيره سهران معنا ووراءه مذاكرة، ثم إنك تعرف أن احترامه من احترامي!».

- «لا تكبر المسألة».

- «بالعكس أنا أعالجها!».

- « يعني إيه؟!».

- «متأسف يا سيدي!».

قالها مشوحا بذراعه وبلهجة ساخرة عمقت شعور الإهانة في قلبي الموجوع، فهززت رأسي مغمغما من دون أن أعنى بالنظر إليه.فالتفت عنتر بك إلى رشيد بك وأشار بذراعه نحوي:

- «أظنك تعرف أباه!».

رمقني بابتسامة دمثة:

- «طبعا! قاسم أفندي الراوي الله يمسيه بالخير كان يحبني ويتوقع لي النجاح. كان صديقا لأبي، وكثيرا ما زارنا في بيتنا القديم في شارع الرصافة. كيف هو الآن يا أخ بهاء؟».

- «بخير والحمد لله!»

قال عنتر بك بلهجة تحمل من الرجاء قدر ما تشي به من أمر:

- «أظن أنه بعد هذا السهر معنا من حقه أن يكون له وظيفة محترمة عندك!».

- «موجودة! أنا محتاج له في مكتبي».

هتف عنتر بك بحماسة:

- «أحسنت! مسعود أفندي مدير مكتبك سيفرح به جدا».

- «الآن حددت ماذا يكون عمله في مكتبي. سيكون مسئولا عن الصادر والوارد».

- «هو على كل حال شاب لبق ومثقف!».

- «يعني كعمه إسماعيل؟».

صحت في زهو خجول:

- «لا! أين أنا من عمي إسماعيل؟!».

- «اطمئن يا بهاء، الليلة سأوقع قرار تعيينك».

- «متشكر! هذا شرف لي!».

ونظر لي عنتر بك بملامح مشرقة وهز رأسه بما يعني أن أنصرف. رفعت يدي بالتحية وانصرفت إلى مكتب مدام نيفين، وجدت سائق عنتر بك في الغرفة، طمأنته إلى أنهم يتأهبون للانصراف، فهرول خارجا يجهز السيارة لتوصيلنا إلى القصر العنتري على شاطئ ترعة المحمودية بين الرصافة وغيط الصعيدي.

أضيف لي مكتب صغير لصق مكتب مسعود أفندي الملاصق بدوره لمكتب رشيد بك السيسي. مهمتي التي اختارني لها كانت بالفعل أنسب عمل يمكن أن أؤديه في هذه الشركة: أقوم بتلخيص الخطابات والمستندات التي يبعث بها مكتب العضو المنتدب إلى الجهات المعنية كافة، وكذلك الواردة منها إلى المكتب، وأسجل الصادر والوارد في دفترين مستقلين في خانات مسطرة للرقم المسلسل ولتاريخ الصدور أو الورود وللملاحظات التي أسجل فيها تلخيصا دقيقا لمحتوى الخطاب أو المستند فيما لا يزيد عن عبارة أو عبارتين أو ثلاث على الأكثر، وبمفردات محددة لا تقبل اللبس كما أوصاني رشيد بك.

كان ذلك يتم فور خروجي من الكلية مباشرة، وهي - من محاسن الصدف - على مرمى حجر من العمارة التي توجد بها الإدارة. وخلال الفترة المسائية من كل يوم أقوم بعرض الدفترين على رشيد بك، فيتفحص التفاصيل مركزا على خانة التلخيص، وقد يهتف بمدير مكتبه: «مسعود أفندي.. هات الوارد رقم كذا من الجهة الفلانية»، أو «هات صورة الصادر رقم كذا بتاريخ كذا إلى الجهة الفلانية»، فإذ تجيء له هذه أو تلك يعيد مراجعتها ومضاهاتها بأوراق عنده، ثم يأخذ منها شيئا يدونه في مفكرة جيب أنيقة ثم يردها إلى مسعود أفندي ويدس المفكرة في جيبه.. وقد يكتفي بمراجعة الدفترين ويومئ لي بنظرة تقدير باسمة فأنصرف.

أسعدني من أول يوم أنه أبدى إعجابه بتلخيصاتي التي - بتعبيره - توجز لب الموضوع في بلاغة. أسعدني أكثر أن رأيت على يسار مكتبه مكتبة صغيرة ارتصت على رفوفها كتب فرنسية وإنجليزية من الواضح أنها سلاسل شعبية ذات شكل موحد، تهجيت بعض العناوين الفرنسية البارزة وفهمت بالفهلوة أنها روايات لأندريه جيد وبلزاك وإميل زولا وفيكتور هوجو وإسكندر ديماس، ومن الإنجليزية روايات لديكنز وتوماس هاردي ولورنس داريل، إلى جانب أعمال باللغة العربية لطه حسين والمازني والعقاد، والشوقيات، ودواوين لعلي محمود طه وإبراهيم ناجي، وبجوار المكتبة قطعة موبيليا منها راديو وجرامفون بأسطوانات. ذات مساء سألني:

- «تقرأ في الأدب كثيرا كعمك إسماعيل؟».

قلت في فرح وحماسة:

- «نعم، وأحاول كتابة الشعر أحيانا!».

- «طبعا! أبوك شاعر من قبلك. قرأت لأحد من هؤلاء؟»..

وأشار إلى المكتبة. قلت:

- «ما ترجم منها في مكتبة عمي إسماعيل. عنده سلسلة تشبه السلاسل الفرنسية يحررها الدكتور طه حسين».

- «مطبوعات الكاتب المصري، تصدرها مجلة الكاتب المصري. إن أصحابها من أعز أصدقائي.. عائلة هراري.. كان لهم نشاط ثقافي مهم جدا، لكنه للأسف توقف!».

- «سلسلة عظيمة فعلا، سوف أقتنيها بأي شكل!».

- «سأهديها لك كاملة ومجلدة إذا أسعدتني بنجاحك هذا العام. في أي قسم أنت؟».

- «فلسفة واجتماع».

- «موفق بإذن الله!».

- «شكرا يا أفندم، ألف شكر!».

كان ذلك اللقاء شهادة ميلاد أب جديد لي، أبوته صادقة عميقة لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها، إلى حد أنني أصبحت أرجو التفوق خصيصا لكي أسعده. ويوم هرعت إليه لأبلغه خبر نجاحي فوجئت بأنه كلف من أتى له بالخبر من كونترول الكلية نفسه، وكان قد جهز سلسلة مطبوعات الكاتب المصري مجلدة بالجلد الأسود ومكتوب على كعوبها اسمي واسم المؤلف وعنوان الكتاب بماء الذهب. بمجرد دخولي وقف فاتحا ذراعيه، فرأيتني أرتمي في حضنه ودموع الفرح تنهمر من عيني، وهو يربت كتفي بيد حانية، وباليد الأخرى يربت على رصة الكتب بنفس الحنان.

- «هديتي لك كما وعدتك».

وضعت يدي على أثمن وأحب هدية تلقيتها في حياتي. ولكن، حانت مني التفاتة أصابتني بالكدر، ارتدَّت إلى نظرتي حاملة وجها هضيما لئيما تتلوى ملامحه في اشمئناط وتأفف، ذلك هو عمرو بك الجالس على الفوتيْ لصق المكتب. يبدو أن رشيد بك لاحظ ما جرى، فمال وهو يجلس ناحية عمرو بك:

- «باركت لبهاء على النجاح أم لا؟».

فنظر لي عمرو بك واغتصب ابتسامة شاحبة:

- «مبروك! إن شاء الله ستجيء بالذئب من ذيله!».

طفرت الدموع من عيني ساخنة هذه المرة مندفعة يتطاير رذاذها.. انسخط وجه رشيد بك، صار صغيرا كفرخ الحمام ينتفض ساقطا على الأرض إثر محاولة فاشلة للطيران، سقط وجهه على صدره وطفحت ملامحه بالغضب المربدّ:

- «وما المانع يا أخي؟ من أدراك بالمصائر؟! ولا يسخر قوم من قوم عسي أن...».

ولم يكمل البقية مكتفيا بأن صوت الله سيكمل البقية في وعي عمرو بك، ثم استدرك:

- «هذا شاب مجتهد، ذكي وموهوب، فبدلا من أن تشجعه بكلمة طيبة، تكسر نفسه بعبارة ماسخة كهذه التي قلتها؟ ألا تدرك أنك أغضبتني شخصيا؟!».

- «آسف! كان يجب أن أفطن إلى أنك تتبناه!».

- «حضرتك يا عمرو بك لم تعد تفطن لشيء. يظهر أن العروس أذهلتك عن نفسك! الله أعلم بما فعلته بك حتى صرت عدوانيا هكذا!».

- «تقول فيها؟! فعلا والله يا رشيد بك، أذهلتني عن نفسي بنت الذينَ! دوختني! لم أكن أعرف أن الزواج من مراهقات صغيرات فيه كل هذه ال-. ال-.. المتع العظيمة! لكن يا خسارة، أين كان هذا القمر أيام كنا في عنفوان لا نعرف كيف نصرفه؟!».

كان يتكلم بلهجة سوقية لا ينقصها إلا تطليع لسانه وتلعيب حواجبه.. الحرج العميق على وجه رشيد بك وفي عينيه حتى إنه نكس رأسه وراح يسرب النظرات القلقة لي وله، نظرات فيها رثاء تكاد تنطق صائحة في عمرو: أمسك لسانك عن هذا اللغو المؤلم. الحق أن منظر عمرو بك كان مؤلما حقا.. كان من الواضح أنه ممتلئ بلواعج كثيرة لا يجد من يفك له صدره عنها. هنالك فيما يبدو أشياء مؤلمة في تجربة زواجه تلك، لعلها خلافات حادة بسبب التفاوت الطبقي أو الفرق الهائل في السن.

أومأ رشيد بك برأسه:

- «تفضل أنت يا بهاء».

شكرته وانصرفت. بعد خروج عمرو بك من مكتبه طلبني رشيد بك فهرولت إليه:

- «تحت أمر سعادتك».

- «اقعد يا بهاء».

- «العفو يا أفندم!».

- «اقعد يا بهاء».

جلستُ على حافة الكرسي لصق المكتب. مال نحوي برأسه في أبوة حانية:

- «لا تزعل من عمرو بك! إنه.. ولا بد أنك سمعت.. مشهور في العائلة بأنه مدب! أصله كان ضابط شرطة في شبابه، هذا هو سر خشونته! كان يتعامل مع الصياع والمجرمين والمتسولين ومهربي المخدرات فأفسدوا لسانه وشوهوا نفسيته! وبما أنك ذكي وموهوب فلا بد أن تكون فطنت إلى أنه معكوك في هذه العَملة المهببة التي عملها: زواجه من طفلة! نعم طفلة! أشك في أنها تعرف من أمور النساء شيئًا!.. إنها تحتاج إلى طفل يلعب معها لا إلى عجوز ضخم الجثة إن وقع فوقها فطسها!.. طول عمره يركب دماغه. طول عمره يتطاول على الناس ويجلب لنا

وجع الدماغ. أبوه الله يرحمه رفع عليه المسدس ذات يوم من شدة ضيقه منه، فاعذره أرجوك، لا تكرهه، إنه لا يستحق الكراهية! مثله تقاومه بمزيد من الحب!.. الحب أقوى سلاح تنزع به سم من يستعلي عليك معتبرًا نفسه من طبقة أعلى منك!.. إنه غرور الذين ورثوا ثروة لم يتعبوا في تكوينها!.. لا غني إلا الله، والغنى الحقيقي هو غني النفس لا الجيب!.. ولا تنسَ أنك من أسرة محترمة شريفة. سلم لي على أبيك في أول خطاب تكتبه إليه.. إن احتجت لأي شيء كلمني أنا.. اتكل على الله».

- «شكرًا يا أفندم! أنا فخور بمعرفة سعادتك!».

حيَّاني ملوحا بيده في لطف ودماثة طابت منهما نفسي الجريحة وتبخرت آلامي المكبوتة.

(٢٤)

كنت جالسا إلى مكتبي منهمكا في تسجيل الصادر والوارد حينما دخل مارد جميل متأنق تسبقه رائحة عطر مثيرة للخيال وللشجن:

- «بونسوار!».

ثم جلس بجواري على الكرسي الخيزران..

- «بونسوار ورحمة الله وبركاته!».

هكذا رد عليه مسعود أفندي بتلقائية ثم استدرك:

- «أهلا حمادة بك!».

قلت وأنا منهمك في التدوين:

- «أخبارك إيه يا حمادة؟».

جرجر الكرسي نحوي حتى لامس كتفه كتفي ثم همهم بصوت خفيض:

- «لم تعد تسأل عني، حتى لم تبارك لي على النجاح هذا العام!».

- «مشغول لشوشتي والله يا حمادة!».

- «أنا لا أزال مُصرا على أن تمسك لي المطبعة. لا أجد أحدا محل ثقة غيرك. إنهم يستغلونني أولاد الكلب. يطبعون من ورائي حاجات كثيرة لحسابهم، وأنا أكتشف ذلك من أوراق تطير من برميل الزبالة مطبوع عليها تجارب لكروت ودعاوى أفراح وإعلانات لم يتفق أصحابها معي!».

- «للأسف يا حمادة أنا مزنوق زنقة العدس! حتى مصطفى عبد العزيز وتوني رزق انقطعت صلتي بهما مع أني مشتاق لقعدتهما!».

- «وقعدتي، ألا تشتاق إليها؟».

-«لا أستطيع وصف اشتياقي!».

- «إذن فتعال.. تعالَ الآن!».

- «وهذا الذي في يدي؟!.. ورشيد بك؟».

رفع رأسه في اتجاه مسعود أفندي:

- «يا ترى عمرو بك وصل؟».

نظر مسعود أفندي في ساعة يده:

- «على وصول».

لاحظت أن حمادة متكتف، ثم انتبهت إلى أنه يتأبط جريدة الأخبار مطوية، وكان من الواضح أنها مطوية على شيء يخشى هو أن ينفلت ويقع فراح يضغط عليه. أخيرا أراح نفسه ووضع الجريدة على مكتبي، فارتفع طرف الجريدة واعتدل، ظهر مظروف حكومي أصفر منتفخ بأوراق سميكة. وضع فوقه علبة سجائره الدنهل وفوقها القداحة الذهبية الدنهل أيضا. وبعد هنيهة رفع العلبة وفتحها، قدم لي سيجارة ولمسعود أفندي مثلها، أشعل لنا، ثم لنفسه في التذاذ المدمن القراري الذي يشد عدة أنفاس متلاحقة ليشعر بكثافة النكهة في منخريه. فجأة لكزني بود:

- «ألم تفكر بعد في الوظيفة التي يمكن أن يحققها لك ليسانس الفلسفة والاجتماع؟».

قلت بتلقائية:

- «وظائف كثيرة يمكن أن أختار منها».

قال مسعود أفندي:

- «مدرس فلسفة مثلا في المدارس الثانوية».

شوح حمادة في استخفاف:

- «يا راجل مدرس إيه وهباب إيه؟ وجع قلب لا يأتي بمصاريفه!».

قال مسعود أفندي:

- «ممكن أخصائي اجتماعي في أي مؤسسة».

شوح حمادة في قرف هذه المرة:

- «ما أسخم من ستي إلا سيدي»!

قلت كأنني أقرر مصيري في هذه اللحظة:

- «لا هذا ولا ذاك، أنا الآن أتعلم الكتابة لكي أشتغل بالصحافة».

تألق الوهج في عيني حمادة وهتف في غبطة:

- «آاااه! فاتتني هذه!.. فعلا يا بهاء أنت يمكن أن تصبح كاتبا صحفيا!».

وإذا بعمرو بك يقترب منا كأن جدارا يزحف نحونا والأرض في زلزال. صافح حمادة هاتفا في صبيانية لا تليق برجل في الستين من عمره على الأقل:

- «من هو الذي يصبح كاتبا صحفيا؟».

وقفنا برغمنا على مضض. قال مسعود أفندي بابتسامة طيبة:

- «الأستاذ بهاء يعني لما يتخرج من كلية الآداب».

- «تقصد لما يشوف ودنه من ورا!».

كدت أتهاوى قاعدا من عنف اللطمة. قال حمادة وهو يرمقني بنظرة اعتذار:

- «ليه بس يا عمي؟!..».

- «عمَى الدبب! تعال سلم على رشيد بك».

وشده من إبطه. رفع حمادة المظروف الأصفر وسلمه لي في يدي:

- «أمانة عندك حتى أخرج من مكتب رشيد بك.. من الأمانة ألا تفتحه!».

فتحت الدرج في سأم ودسست فيه المظروف ثم أغلقته، وكانت نظرات عمرو بك تلاحق المظروف بشقاوة صبيانية إلى حد النزق، إذ لكز حمادة في جنبه مهمهما بنعومة عاهرة: «هو؟..»، أومأ حمادة برأسه أن نعم،فهمس: «فيه؟..» ومرة أخرى أومأ حمادة برأسه أن نعم، وكل ملامحه تشي بأنه يتلذذ بهذه اللهفة البادية على عمرو بك. أوشك عمرو بك أن يرتد متجها إلى درج المكتب ليفتحه ويأخذ هذا المظروف لولا أن شده حمادة:

- «اعقل يا عمي، مش وقته!».

وسحبه إلى مكتب رشيد بك.

انشغلت بأمر المظروف فاضطربت يدي، فتركت القلم وطرقعت أصابعي. لحظتئذ مرّ الساعي حاملا صينية عليها ثلاثة فناجين من القهوة متجها بها إلى مكتب رشيد بك. رجوته أن يوافيني بفنجان على الريحة. قال مسعود أفندي:

- «خلّص على مهلك، القعدة ستطول عند رشيد بك!».

وكانت لهجته شبه غاضبة. سألته:

- «لماذا ستطول؟ ولماذا أنت زعلان؟!».

- «سيصدعان دماغ الرجل على حاصل فاضي! عمرو بك عَشم حمادة بأنه سيعطيه مطبوعات الشركة بعقد ثابت، ورشيد بك مرتبط بعقد مع مطابع أنظف وأحدث وأرقى، ومستحيل أن يعطي لحمادة أي مطبوعة من مطبوعات الشركة لأنه لا يثق في حمادة ولا في...».

ثم سكت معتمدا على أنني فهمت من يكون ذلك الثاني الذي لا يثق فيه.

جاءتني القهوة وأنا على وشك أن أنتهي من مهمتي، وفجأة خرج حمادة وحده بوجه مكفهر مربد. حاذاني وهمس في أذني:

- «أقفل الدرج بالمفتاح واحتفظ بالمظروف أمانة عندك لحد بكرة. أنا الآن ذاهب إلى مهمة وأخاف أن أنساه».

وقبل أن أفتح فمي بالاعتراض كان هو قد طوى الردهة في خطوتين واختفى في لمح البصر، فاغتظت من هذه الورطة السخيفة. بإلهام من الله أخذت المظروف ودفنته بين أوراق في حقيبة يدي المخبأة تحت المكتب، وتركت الدرج نصف مفتوح. لكأنني كنت أتوقع ما سيجري: خرج عمرو بك من مكتب رشيد بك كالمذعور الملهوف:

- «حمادة! أين حمادة؟ أين حمادة؟».

قال مسعود أفندي:

- «خرج. قال إنه ذاهب إلى مهمة».

صاح عمرو بك في ارتياع:

- «والمظروف؟ أين المظروف؟».

وهجم على الدرج:

- «هات المظروف».

وفتح الدرج وأخذ يقلب فيه. قلت له:

- «أخذه حمادة».

- «أما إنه ابن كلب صحيح! سأربيه على هذه العَمْلَة!».

ثم عاد ونظر في وجهي متشككا، فتركت ما في يدي وفتحت الأدراج الأربعة وخلعتها من مجاريها واحدا وراء الآخر ورصصتها أمامه على سطح المكتب:

- «اتفضل سعادتك فتش».

بقبضته التخينة الملظلظة دفع الدرج في حقد عنيف فارتجت الأدراج وتصادمت، ثم اتجه إلى مكتبه فغاب فيه. بقيت مسمرا في جلستي. طيَّب مسعود أفندي خاطري بهزة من رأسه وهمس:

- «خير ما عملت! روَّق دمك وخش للرجل بالبريد».

أعدت الأدراج إلى مجاريها. حملت البريد ودخلت به إلى رشيد بك.

رقد المظروف الأصفر في حافظة أوراقي الجلدية التي اعتدت أن أتأبطها سواء أيام الدراسة أو أيام الإجازة وذلك لاحتياجي الدائم إلى ورق وأقلام وكتب. وفيما كنت أفتش في الحافظة عن ورقة معينة بعد مرور يوم بليلة، وقع المظروف على الأرض فانفتح لسانه وبرزت منه أطراف الصور. كنت أظن أن المظروف يحوي نقودًا كثيرة تستحق هذا الاهتمام وأن تكون أمانة في يد أحد، فإذا هي مجموعة من الصور. سحبتها، ويالهوْل ما رأيت: تصوير فوتوغرافي بالألوان للعملية الجنسية بكاملها في أوضاع تلهب الغريزة وتشعل الخيال الجنسي. ارتعش بدني ولهثت أنفاسي، تصبب عرقي، انشرخت مشاعري بين الشعور باللذة والشعور بالخطيئة واستهوال ما أرى واستغراب ما أفعل وخطورة ما أحمل في حافظة أوراقي.

حياة الكبت في قريتي جعلتني غير مصدق أن هناك من يقدرون على ممارسة هذا الفعل السري السحري الخطير تحت أنظار عدسات التصوير بمن يحملونها! فإن كان هذا قد حدث بالفعل كما هو مبين بجلاء وبتفصيل دقيق في الصور، فإنهم لا شك ناس بليدو المشاعر لا حياء عندهم بالمرة. إنها حقًّا صور صادمة، بدت لي بعد المشاهدة غير إنسانية. مع ذلك - وياللعجب - لمست في نفسي خاطرًا يتمنى لو أن حمادة نسى هذه الصور معي لفترة طويلة.

عندما توجهت إلى مقر الشركة عصر ذلك اليوم لاحظت أنني أحوم حول الكورنيش، أختلس النظر إلى أجساد النساء والفتيات العاريات على الشاطئ، فيخيل إليّ أنهن اللائي في الصور: نفس الأجساد نفس الأفخاذ الأثداء الرقاب الشعر المعقوص، بل نفس النظرات الشبقة النشوانة. رأيتني أغرق في البلل والبلبلة، بين شريعة الله وشريعة الحياة.. أوشك أن أفقد صوابي، بل لعلني قد فقدته بالفعل، فالأجساد الحية على الشاطئ اتحدت بالصور التي رسخت في ذاكرتي فأصابني اضطراب عظيم. حوَّدت على مقهى لطيف مطل على الكورنيش، انزويت في ركن قصي؛ كنت مفعما بالحنين إلى الكتابة، كتابة شيء ما، أي شيء، ففي صدري تمور مشاعر كثيرة متضاربة عن الحب والحياة والحرمان. جاءني فنجان القهوة فانتعشت خياشيمي بنكهة البن البرازيلي الغامق اللون والرائحة. أشعلت سيجارة هوليود، فتحت الحافظة لأسحب الكراسة التي ترافقني ليل نهار تحسبا لمثل هذا الغرض في مثل هذه اللحظة، فوجئت بعدم وجود المظروف! ارتجَّت أعصابي. قبل تمام الارتياع تذكرت أنني أخفيته في مكان خفي في غرفتي.

هبَّت نسائم عليلة طرية. تصفحت الصفحات المكتوبة من الكراسة بحثًا عن صفحة بيضاء، فأطلت صورة راقدة بين الصفحات كأنها مكيدة طلعت لي في البخت: امرأة فاتنة راكعة على ساقيها عارية تمامًا وقد استقرت عجيزتها بضفتيها المتكورتين فوق كعبي قدميها، تطبق بفمها ويدها على قضيب رجل يقف أمامها عاريًا وقد أطربته النشوة فرفع رأسه نحو السماء كأنه يغني موالًا أو لعله يبتهل. عجبت كيف انسربت هذه الصورة من المظروف واختبأت بين صفحات الكراس!.. عندما قررت حبسها في الحافظة والنظر فيما أود أن أكتبه، فوجئت أن فسحة الوقت قد انتهت في تأمل الصورة الحاملة لوضع لم يكن يدور بخلدي على الإطلاق أنه من الفعل الجنسي، فلممت نفسي وانصرفت إلى مقر الشركة.

المفاجأة الصادمة أن عمرو بك كان في انتظاري منذ وقت مبكر. ما كدت أدخل إلى مكتبي حتى همس لي مسعود أفندي بلهجة ذات معنى أن عمرو بك سأل عني بمعدل مرتين كل دقيقة من لحظة ما وصل. دخلت إليه في الحال متوقعًا إعصارًا من الشتائم الغاضبة، لكنني فوجئت بصبي عجوز يلتقي صبيا من زملائه المخربشين سبق له أن ضحك عليه أو أخفى عنه غنيمة سرقاها معا. ما كاد عمرو بك يراني داخلا عليه متأبطا حافظتي حتى هب واقفا في غبطة حيث تهدلت ملامحه من فرط السرور والفرح، خرج عن حرم المكتب وهرول نحوي رافعا حاجبيه جاحظ العينين على هيئة من يقول: ضبطتك يا حرامي، لكنه زأر كطفل حوارجي مخربش:

- «طلّع المظروف يا سهتان يا ميه من تحت تبن!».

- «ما...».

- «لا تمأمأ، أنا كلمت حمادة في التليفون وحلف بالله أن المظروف معك!».

- «ما لم أعرفه أنه نقل المظروف من الدرج إلى حقيبتي من ورائي أثناء عرضي للبريد على رشيد بك!».

- «ما علينا، اقعد».

ودفعني بيده في ود. جلست على الفوتيْ الجلدي الوثير، وجلس هو قبالتي:

- «طلع المظروف».

- «للأسف نسيته في البيت!».

- «قم هاته وتعال!».

- «يا عمرو بك، لا تؤاخذني، هل تعرف ماذا في هذا المظروف؟!».

- «هه؟.. طبعا! لا!.. إنما أتوقع أن يكون.. أن يكون.. يا أخي وأنت إيش حشرك؟!.. فيه ما فيه، أقول هاته يعني هاته!».

- «ولكنه أمانة معي، وصاحبه لم يبلِّغني بأن أعطيه لحضرتك. هاته على التليفون لأسأله، فإن وافق أجيء لك به في الحال، آسف يا عمرو بك، فأنتم تشغِّلون في شركتكم شخصا يؤتمن، ولو أنا أعطيتك المظروف فإنك لا يجب أن تثق فيّ بعد الآن!».

- «يا فضيلة الشيخ الواعظ، يا فيلسوف الغبرة، هذا المظروف أنا طلبته من حمادة وهو جاء به لي!».

- «اسمح لي، أنا لا أظن أنك يمكن أن تطلب شيئًا كهذا؛ فأنت رجل محترم وابن ناس مُرَبَّى على الغالي وليس لك في هذه المسخرة!».

- «حيلك حيلك! مسخرة ماذا ومحترم ماذا؟!».

- «يا عمرو بك، المظروف فيه صور فاضحة!».

- «إيه؟!.. أ.. أنت كذاب!».

- «سأريك العينة».

فتحت الحافظة وسحبت الصورة:

- «هذه صورة وقعت من المظروف واكتشفتها الآن مختبئة في كراستي.. شفها وتمعن!».

تلقفها بلهفة الجائع يلقَى إليه بفخذ مشوي. تراجع بظهره معتدلًا، راح يحملق في الصورة جاحظ العينين يمسح لعابه بيده الملظلظة من حين لآخر. كانت يده ترتعش فيرتكن على المسند. صبي مراهق يرى اللحم الأنثوي لأول مرة في حياته. الابتسامة الشاحبة ترف على شفتيه، تصير ضحكةً جزلة مكتومة، يعض على نواجذه. استغرقت أنا في تأمله أعمق مما استغرقت في الصورة؛ إذ إنه كان شيئا مذهلًا لي: هذا العجوز المتين البنيان كالفيل المعلوف، الجد لما يزيد على عشرة أحفاد من بناته وصبيانه، يكاد الآن يمارس العادة السرية غير حاسس بوجودي، وإذن فمن الممكن أن يوجد من يقدر على ممارسة العملية الجنسية على ملأ من المصورين.. وربما متفرجين!

أخيرًا فطن إلى وجودي فراح يلملم وقاره المنهار، يعتدل أكثر من مرة على أكثر من وضع، يتجهم، يلوي شفتيه اشمئزازا وسخرية، يعيد حبك القناع البكوي على ملامحه:

- «أنت واثق بأن كل الصور في المظروف هكذا؟».

- «وأفظع من هذه!».

زام بعمق، بدا في غاية الحيرة والارتباك:

- «م م م.. هو ولد خلبوص على كل حال، يظهر أنه تصور أنني.. بما أنني عريس.. هاهاها.. ربما أكون محتاجا لمثل هذه الصور لكي تنشطني جنسيا!.. هئ!.. هكذا يفكر؟ تفكيره طبعا على قده!».

وأراد أن يكمل قناع الوقار فأعاد لي الصورة:

- «على كل حال انسَ الموضوع!».

- «هذا عين الصواب على رأي أبي».

- «يستحسن أن ترده إليه وهو حرٌّ فيه بعيدًا عنا. رده إليه».

- «شكرًا!».

وعدت إلى مكتبي رائق البال، فانكببت على البريد حتى أجهزت عليه قبل وصول رشيد بك إلى مكتبه.

أصابني إعياء شديد أفقدني القدرة على التركيز لعدة أيام، وقد نبهني مسعود أفندي إلى أنه كثيرًا ما يكلمني فأسرح منه غير منتبه لما قال، كما أن رشيد بك السيسي لاحظ اضطراب خطي وعدم وضوح بعض الكلمات. من جانب آخر كان عمرو بك يرمقني بنظرات قلقة كأن علاقة سرية قامت بيننا، كأن موضوعات كثيرة كبيرة مهمة معلقة بيننا تنتظر مني أنا أن أحسمها. كانت نظراته تكاد تسألني ضارعة: لماذا لم ترد المظروف إلى حمادة؟! فلما استلقيت على ظهري ذات ليلة بعد نوبة مكثفة بالإرهاق العصبي والبدني، شعرت بدبيب الرشد يسري في عروقي صاعدًا إلى رأسي. توهج ذهني قليلا، بدأت أفطن إلى خطورة ما فعلته بي الصور. لقد سجنتني داخل نفسي، صيرتني عبدًا لها بمعنى الكلمة. أصبحت أشعر كأنني أحمل في داخلي فعلا فاضحا أحاول إخفاءه وهو لا يني يكبر ويتسع حتى خيل إليّ أن شخصيتي التي كنت أعرفها جيدًا قد اختفت فيه وبات المحيطون بي لا يرون مني سواه.

كانت هذه الخواطر الواعية تنقر ذهني ومشاعري بمناقير موجعة مثل كتاكيت تخترق قشرة البيضة، وسرعان ما امتلأ وجداني بالكتاكيت الهائصة في نزق صاخب، ثم سرعان ما صارت فراخا من الأفكار الرشيدة الحكيمة انعصرت كلها في قرار حاسم: لا بد من التخلص فورًا من هذه الصور اللعينة. ولما كان المرء لا حق له في أن يحرق ما ليس يملكه، بله أن يكون أمانة لديه، فالصواب رد الأمانة إلى صاحبها.

في الصباح تفرغت للاتصال بحمادة. صديقي سيد البنهاوي البقال في شارع عرفان القريب من الرصافة فوجئ بي أدخل عليه في باكورة الصباح، فوسع لي طريقا داخل الدكان إلى مكتب صغير في ركن بجوار الباب، وكانت كنكة الشاي فوق السبرتاية داخل فاترينة الجبنة والحلاوة تبعث نكهة الشاي الحريفة المنعشة. طلبت مفتاح قفل التليفون الموضوع فوق دفتر الشكك. تَلْفَنْتُ لحمادة في جميع الأرقام التي يمكن أن يوجد فيها، كل رقم يرد عليَّ يحيلني إلى الرقم الآخر الذي يحيلني بدوره إلى الرقم الأول حتى يئست. شربت الشاي أكثر من مرة، دخنت نصف علبة سجائر هوليود. أعدت دورة الاتصالات مرة أخرى دون جدوى. انتصف النهار تقريبًا وأنا أعاود الاتصال للمرة الأخيرة، فإذا بالأسطى يني يرد من المطبعة قائلا إن حمادة قد اتصل به منذ قليل وأنه قد أبلغه أنني اتصلت به أكثر من مرة للأهمية، فقال للأسطى يني: إذا اتصل بك بهاء مرة أخرى فقل له إنني متوجه الآن إلى بيت ماما لأقضي معها خميسا وجمعة.

في الجزء المتاخم لشارع بوالنيو من شارع الإسكندراني، تقف العمارة التي تسكن فيها مدام راشيل القططي على ناصية عطفة تؤدي إلى حي البياصة. شقة مدام راشيل أجمل وأهم شقة في العمارة إذ تحتل الطابق الأول كله. تكاد تكون فيلاّ قائمة بذاتها ذات مدخل خاص بها يفتح على العطفة الجانبية، وأمامه برحاية دائرية تسمح للسيارة بأن تكمل دائرة اللفة لتستدير عائدة في حركة واحدة. المدخل أشبه ببهو كبير مليء بالعمدان الرخامية ترتفع أرضه عن أرض الشارعٍ بعدة درجاتٍ من سلم رخامي. البهو مبلط برخام ذي لون وردي. في عمق دائرة البهو يظهر باب الشقة رصينا راسخًا ثقيلا، منقوشًا بزخارف وتعشيقات من نحاس وأصداف.

جعلت أدور حول الشقة وأتفحصها كأنني سأشتريها. قيل إن هذه الشقة كانت مسكنا لصاحب هذه العمارة اليهودي اللبناني الأصل «أنطون مِرْزا» تاجر الخيش في مينا البصل الذي أثرى ثراءً فاحشًا فأقام قصرا على الطراز الروماني على كورنيش شاطئ كامب شيزار.. ولكي يوافق على بيع هذه الشقة لهاني بك الشماشرجي ليدخل فيها على زوجه راشيل، اضطر هاني بك لشراء العمارة كلها، إلا أنه دفع ثمنا بخسا لأن الخواجة أنطون كانَ في عنقه دين أدبي لمدام راشيل التي صنعت فيه جميلا يجب أن يرده بأحسن منه: ثمن العمارة كلها تساويه الفيلاّ وحدها. في شهر العسل ترتفع درجة حرارة الاستمتاع فترتفع معها بالضرورة درجة حرارة التضحيات إلى حد التهور أحيانا، ربما لإثبات حقيقة ما غير مشكوك في صحتها غالبًا! هكذا كتب هاني بك الشماشرجي هذه العمارة كلها باسم زوجه الحبيبة راشيل بنت سليمان القططي أحد أكبر أثرياء اليهود المصريين المؤثرين في حركة الاقتصاد المصري في أواسط هذا القرن العشرين.

فرضت راشيل هيمنتها على الطوابق الأربع للعمارة، أغلقت باب السطح، حولت السطح إلى «روف جاردن» خاص بها وبضيوفها، فتحت عليه سلما من منور العمارة حيث فتحت عليه ال□يلاّ وأحالته إلى حوض للأزهار وأفرع اللبلاب والصبار، فأصبحت حيطان المنور كلها مكسوة بسجاجيد من القطيفة الخضراء النضرة المورقة.. وكثيرًا ما كنت أسمع عمرو بك يتغزل في وصف هذا المنور الذي يغريه بنوم عميق لا يوجد إلا في الجنة!

حزمت أمري وصعدت الدرج الرخامي بالغ النظافة واللمعان كأنه مغسول لتوه بالليفة والصابون. صرت في البهو

الواسع. صار لخطوتي وقع رزين متوازن الإيقاع. خيل إليَّ أنني أسمع همهمة غامضة خلف زجاج الشراعة الدائرية الصغيرة في أعلى الباب قبل اقترابي منه، وها هي ذي تسكت فور أن ضغطت على زر الجرس. بعد برهة وجيزة ضغطت الزر مرة أخرى، فلما جاوبني استمرار صوت الرنين المزعج قررت أن تكون الضغطة الثالثة هي الأخيرة أنصرف عقبها مباشرة. فوجئت بالباب ينفتح دونما أي صوتٍ. من خلل فرجة ضيقة ظهر حمادة عاريًّا تمامًا إلا من فوطة ملفوفة حول خصره، قد انحنى ينظر في حنايا البهو بحثًا عن الطارق السمج الذي جاء في وقت يبدو أنه غير مناسب. كدت أتوارى من فرط الشعور بالحرج، لكنه
لمحني. هتف:

- «هو أنت؟ تعال.. جئت في وقتك. ادخل».

مددت يدي لأفتح الحافظة قائلا:

- «جئت لكي أ...».

قاطعني آمرا في ضجر:

- «ادخل».

كان قد وسع فرجة الباب، فانزلقت إلى الداخل. أغلق الباب، سحبني إلى الصالون متجاوزا الأنتريه، وبين هذا وذاك مساحات كبيرة مفروشة بقطع متفاوتة الطول والعرض من سجاد ثمين، أما السفرة بملحقاتها فتحتل شريحة عريضة متاخمة للصالون، إلا أنها داخلة في كسرة جانبية كمنعطف يوحي بامتداد داخلي غير مرئي. تتنوع طرز الأثاث والمفروشات والمعلقات ما بين الكلاسيكية والحداثة، توجد لوحات زيتية بإمضاء محمود سعيد وسيف وانلي ودافنشي وفان جوخ تبدو أصلية غير مقلدة، إلا أن لوحة العشاء الأخير لدافنشي هي التي أقنعتني أن معظم هذه اللوحات - الأجنبية منها على الأقل - مقلدة بإتقان معجز، وذلك أنني كنت قد قرأت معلومة تقول إن هذه اللوحة الأصلية من مقتنيات متحف اللوفر بباريس.

أشار لي حمادة على كرسي فجلست، وعلى حافة الكرسي المقابل جلس هو غير عابئ بعورته التي انحسر عنها طرف الفوطة فبدت كأرنب بري واقع في شرك. كانت رائحة الأنثى تتصاعد منه تنفذ في خياشيمي إلى النخاع، فأيقنت أنه انتزع لتوه من داخل امرأة. شعرت بقليل من الاشمئزاز وكثير من الغضب من نفسي. اعتراني قلق وارتباك، حسمتهما
بأن وقفت:

- «آسف يا حمادة، جئتك في وقت غير مناسب، سأترك لك المظروف وأنصرف».

هجمت يده على يدي، قبضت عليها حتى لا تفتح الحافظة هامسا بغمزة من عينيه:

- «أنت مجنون؟ لا تترك شيئًا. إنني محتاج لك في أمر ضروري. كنت سأتصل بك قبل مجيئك بدقائق. انسَ المظروف الآن أرجوك وانتظرني».

اختفى في المنعطف غير المرئي الذي توقعت أن تكون فيه دورة المياه والمطبخ وحجرات داخلية. نكست رأسي من فرط الشعور بالحرج والربكة، لكن الأناقة المفرطة في الأثاث والستائر والسجاجيد واللوحات والبراويز الذهبية والتماثيل الصغيرة والتحف الخزفية الكبيرة بأحجام مختلفة، كل ذلك أثار فضولي، جذبني للفرجة باعتباري في متحف غني بالمعروضات. على الحائط المواجه لي صور لوجوه كثيرة في براويز كبيرة: سليمان باشا القططي، ابنه يوسف بك سليمان، صورة لهنري كورييل ممهورة بتوقيعه تحت إهداء منه إلى صديقة الطفولة وزميلة الدراسة مدام راشيل سليمان، ووجوه أخرى يخيل إليَّ أني رأيتها من قبل في الصحف.

عمود من الضوء انشق فجأة من الجانب الأيمن، التفتُّ نحوه تلقائيًّا، فإذا بباب قد انفتح عن حجرة مطلة على الشارع انفتحت شبابيكها لتوها. تمخض عمود الضوء عن غادة ضئيلة اللحم كغزال تبارك الخلاق فيما صنع من جسد صارم التقاطيع كأنه منحوت بإزميل على مهل وبمزاج فني رائق وبهيج، جسد وردي يشع عطرا وجاذبية. كانت منكوشة الشعر في شكل يورث الجنون بما فيه من إثارة وفتنة. كانت مفكوكة تبحث بذراعيها خلف ظهرها عن طرف حزام بُرنُس الحمام، غير آبهة بانحسار طرفي البُرنُس عن بطنها الضامر وساقيها الشبيهتين بقرطاسين من ضوء مرمري. أخيرًا يئسَتْ من الإمساك بطرفي الحزام، فهرولت في نزق نحو ممر جانبي توقعتُ أن يكون متصلا بالمنعطف الذي اختفي فيه حمادة منذ برهة، فصار البُرنُس يتطاير من ورائها كبدلة الراقصة. دقات قلبي المتسارعة

جففت ريقي. إن ملامحها نفس ملامح حمادة، هيكلها صورة طبق الأصل من هيكله، كما أنها في فراعة قامته، إلا أن طولها الفارع غير ملحوظ لكثرة المحطات البارزة في جسدها.

ظهر حمادة مقبلا من الممر الذي دخلته الغادة، قد ارتدى القميص والبنطلون وأخذ يمشط شعره بعناية:

- «آخر ما كنت أتوقعه أن تزورني في بيت أمي».

- «طلبتَ مني ذلك بنفسك».

- «مع ذلك لم أتوقع أن تشرفنا بالمجيء».

- «كنت أتعشم أن تكون السيدة الوالدة موجودة لكي أشرف بالتعرف عليها».

- «ومن قال إنها ليست موجودة؟!».

- «يا لحسن الحظ!».

- «هي أيضًا تحب أن تتعرف عليك. كلمتُها عنك كثيرًا جدًّا».

ثم عوج رأسه نحو الممر صائحًا:

- «شرفينا يا مامي!».

قعد قبالتي واضعًا ساقًا على ساق:

- «القلوب عند بعضها فعلا، يا أخي أهل زمان هؤلاء لم يقولوا كلاما فارغا مثلنا قَطّ!».

أقبل الغزال، لبست بنطلونا ضيقا أسود اللون يبرم الفخذين والساقين ويفلق العجيزة النافرة بحدة ونعومة معا، مع بلوزة حرير صفراء حابكة على الخصر النحيل، تطل من فتحتها العليا جبهة الثديين المتحررين من السوتيان على شكل طبقين مقلوبين يفصل بينهما خط تماس دقيق يشع ضوءًا ورديا. شعر الرأس الأسود الفاحم ملموم إلى الخلف بحزام من الساتان البنبي حصرت جدائله السخية خلف كتفيها العريضتين، فكأنها تطرح على كتفيها شالًا من القطيفة السوداء. يا مغيث يا رب! انحنت أمامي لتضع صينية على المنضدة البللورية عليها كأس ملآن بالكوكا كولا المثلجة. نفس وجه حمادة بحذافيره مضافا إليه نعومة وسحر وجاذبية الأنثى. مظهرها لا يوحي بالأمومة مطلقا، أبدا لا يمكن أن تكون قد حملت وولدت وأرضعت! مظهر يوحي بحدة الطبع مع الرغبة الجارفة - مع ذلك - في المرح والعبّ من متع الحياة بغير حدود ولا تحفظات. كاد أنفي يلامس شعرها، أسكرتني نكهة عطر شهي جعلتني أكتشف نعمة حاسة الشم لأول مرة في حياتي. لم أستطع إغماض عيني عن الثديين المندلقين من فتحة البلوزة.

- «شكرًا يا هانم، ألف شكر!».

- «أهلا بك».

مدت يدها لتصافحني. وقفت مادًّا يدي في ارتباك. احتوت يدي يدها النحيلة الدافئة كفردة حمام سخنة. لمحت في شفتيها ابتسامة غامضة. نفس الابتسامة بنصها ظهرت على شفتي حمادة.

- «تفضل الكولا يا أستاذ بهاء».

جلست على المقعد المتقاطع مع مقعدي واضعة ساقا على ساق.

- «سيجارة يا حمادة».

سحب علبته الدنهل من جيب القميص، قدمها لها مفتوحة، ثم لي، ثم أشعل لثلاثتنا بالقداحة الذهبية. من أول نفس استطعمت الحشيش، سيما وحمادة مدرب على تفريغ السيجارة من تبغها واستبعاد خشونته وخلط الباقي بالحشيش ثم يشحن به السيجارة، وهو يفضل هذه الطريقة على طريقتيْ اللف والمسمرة، حيث إذا كانت السيجارة الملفوفة مكشوفة فإن فتلة الحشيش المبرومة المبيتة داخل السيجارة تفضح عند الاحتراق؛ إذ تبقى جمرتها واقفة متصلبة، فمن يشم نكهة الحشيش ويرى سيجارتك عادية تنفض رمادها فقد ينسى، أما إن رأى قلب السيجارة المحترق عودًا صلبا فإن شبهة الحشيش تصير ثابتة ثبوت التهمة.

أنعشتني الأنفاس. قلت لحمادة:

- «يا ترى لماذا كنت تريد أن تتصل بي قبل أن أجيء؟».

- «مامي غير مصدقة أن رشيد بك السيسي يرفض إعطائي عقدا بمطبوعات الشركة مع أنني ومامي من أصحاب الأسهم فيها، والشركة تدفع مبالغ كبيرة لمطابع الأغراب، وأنا أولى منها بهذه المبالغ وأقدم مطبوعات على مستوى.. ومامي تكذبني، فقل لها إنني لست أكذب وأن كل شيء على يدك».

شعرت كأن حية رقطاء تلتف حول رقبتي في مداعبة مرعبة انتفض منها قلبي. رأيت مسعود أفندي شاخصا أمامي، ذلك القبطي الأمين الوفي المتفاني في الأمانة والوفاء لرشيد بك السيسي بروح راهب عريق، يرفع ساعده شاهرًا أصبعه السبابة أمام فمه المغلق وظل الصليب الأخضر على رسغه يشارك أصبعه في تحذيري من فتح فمي بأي كلام يخص الشغل من قريب أو بعيد. إنه تربية رشيد بك في حسن الإدارة، ولهذا فإن استجابتي لمحاذيره تزيدني قربا من رشيد بك وحباله. اجتهدت أن أكون طبيعيا وصادقا:

- «آسف يا حمادة، أنا لا علم لي بهذا الموضوع.. عمري ما سمعت عنه في الشركة».

نظر لأمه نظرة غامضة:

- «يعني يكون عمي عمرو بك لم يقدم الطلب رسميًّا؟!».

- «أي طلب؟».

- «المناقصة التي تقدمت بها إلى الشركة».

- «ومن أدراني؟!».

- «من أدراك كيف؟ أنت المسئول عن دفتر الصادر والوارد !».

- « الخاص ببريد مكتب العضو المنتدب وحده، أما المراسلات العملية الخاصة بالحركة فهناك مراسلات لشئون المشتريات والمبيعات والتصميمات والإعلان والتحصيلات والقضايا القانونية، لكل ذلك إدارات مستقلة ذات قنوات مفتوحة على رشيد بك لا شأن لي بها».

- «ومسعود أفندي؟».

- «تستطيع أن تسأله. أنت تعرف أنه قليل الكلام معي».

- «ومع جميع البشر. عضمة زرقاء حويطة!».

رفعت راشيل هانم ذراعها المياس مشوحة:

- «ما علينا، فضك من هذا الموضوع. أنت شرفتنا!».

- «العفو العفو.. أنا الذي تشرفت!».

النظرة الكسولة تتكئ على كرسي الخدين المرفوعين فوق غمازتين. يا إلهي، كيف أصدق أن هذه الصبية الفتية المعجبانية يمكن أن تكون أما لحمادة؟ إنها بالكاد تصلح أن تكون أخته الكبيرة. هزت رأسها فوقعت الابتسامة واختبأت في صدرها وهي تنعوج بجذعها قليلا لتواجه حمادة:

- «أنت الغلطان يا حمادة، ما كان يصح أن تورط عمك عمرو بك في مسألة شخصية تخصك. إن رشيد بك أيضا عنده حق إذا رفض!».

ثم اعتدلت لتواجهني فإذا بصدرها قد ابتسم:

- «دائمًا يخلق لي المشاكل مع أبيه وأعمامه. عمه عمرو بك زعلان مني بسببه. انقطع عن زيارتنا. يتصور أنني سألومه على شأن حمادة ومطبعته، لكني سأصالحه، عندي له خبر بمليون جنيه. اسمح لي.. لن أقوله لك أو لغيرك لأنه سر، مصلحة، رزق!».

- «على فكرة يا مامي، عمي عمرو بك يعامل بهاء في منتهى القسوة والخشونة!.. على فكرة يا بهاء، إنه هكذا على الدوام، أقصد هذه هي شخصيته فلا تزعل منه؛ قلبه أبيض كالبفتة!».

هكذا قال حمادة، فرفعت أمه ذراعها نحوي مسلطة عينيها الواسعتين:

- «فرصة، سأجعل عمرو بك يحبك ويقضي عمره كله يحلف بحياتك!.. سأ...».

دهمنا صوت جرس التليفون يرن بإلحاح الترنك بصوت مزعج. توقفت مدام راشيل عن الكلام، وقفت:

- «عن إذنك أرد على التليفون».

هرولت إلى الحجرة التي سبق أن خرجت منها عارية. سمعنا صوت رفع السماعة داخل الحجرة. بعد حوالي خمس دقائق جاءنا صوتها مناديا: «حمادة». وقف حمادة: «عن إذنك». دخل الحجرة. يبدو أنه تلقى إشارة من أمه إذ إنه ارتد عائدًا ثم أغلق الباب من الداخل بالأكرة. شغلني أمر هذا العالم الغريب الذي لم أكن أتصور مطلقا أنه موجود في الحياة.

سقطت نظراتي على السطح الزجاجي للمنضدة، استلفت نظري تلّ من المجلات الأجنبية مرصوصة على رف تحتي، قرأت اسم المجلة الإنجليزية: «بلاي بوي»، على الغلاف منظر يدير الرأس: امرأة عارية تقف منجعصة بجذعها إلى الوراء مبرزة نصفها السفلى للقطة مكبرة، شعر عانتها كغابة سوداء يبين من تحت ظلالها طريق مشقوق بين كثبان رملية ناعمة. ارتعشت يدي وهي تسحب المجلة المثيرة بألوانها الزاهية على ورق مصقول. شرعت أتصفحها، لكن دبابيس المنتصف شطرتها إلى نصفين فانطرحت أمامي صفحة الوسط كورقة واحدة. جرى الدم في رأسي يكاد من فرط غليانه يطشطش في أذني: امرأة، لعلها هي نفسها، بالحجم الطبيعي، مقعية في وضع يستجير من الشبق وبين ساقيها حنك مفتوح كحنك الحية الرقطاء.. إنه لشيء مهول يخرق العقل. إن الصور التي تركها حمادة معي يتضاءل شأنها أمام صور هذه المجلة التي تضيف إلى الصور كتابات تشرح وتحلل مميزات كل وضع، كل منطقة إثارة في جسد كل من المرأة والرجل.

طويت المجلة باضطراب لأعيدها إلى زميلاتها، لكنني فوجئت.. نعم فوجئت بيدي تفتح حافظتي وتخفي المجلة بداخلها في سرعة كأي لص محترف. بعد أن أغلقت الحافظة قرصني خاطر من اللصوصية قرصة موجعة. خفت ألاّ يسعفني الوقت في إعادة فتح الحافظة وإرجاع المجلة إلى مكانها، ثم ما لبثت حتى فرحت بوجودها معي، بل أحسست بضرورة أن أقرأها بإمعان لأعرف وأفهم حقيقة هذا العالم السحري المحرم علينا معرفته أو حتى النظر إليه بعين الاعتبار.. فما دام الغرب المتقدم عنده صحافة خاصة بالجنس وحده باعتباره العصب الأساس في حياة الإنسان ومصدر بهجته والبحر الذي يغسل الأكدار ويفك العقد النفسية، فمن المؤكد إذن أن الغرب يفهم في الجنس أكثر وأعمق مما نفهم، بل لعله يملك الفهم الحقيقي لهذا العالم الذي تتوهج فيه الطبيعة بأجلى معانيها في لحظة الخلق العبقرية. ولربما يكون ما نمارسه نحن العرب شيئًا آخر لا علاقة له بالجنس مطلقا، مع ملاحظة أنه لكي يكون هناك مجلة أسبوعية كهذه وبهذه التكلفة ومنتظمة في الصدور طوال هذه الحقب الزمنية من عمر المجلة المدون على صدرها، فإن ذلك يعني أن الكلام في الجنس لا ينفد.. ولابد أن هناك مجلات أخرى كثيرة تجد ما تكتبه وتصوره وتنشره على الملأ دون أن يطلع عليهم من يطالب بقطع رقابهم في ميدان عام! الأهم من ذلك أن صدور مجلات كهذه بانتظام يعني أن هناك جماهير عريضة تنتظرها وتشتريها لتقرأها بشغف. قلبي راح يدق بعنف لا أدري أمن الخوف يدق أم من الغبطة بالاكتشاف؟.. أشعلت سيجارة من علبة حمادة لأداري بها اضطرابي.

أخيرًا ظهرت مدام راشيل، مرتدية فوق البلوزة سترة رمادية اللون بياقة دائرية من الفراء الأسود. من ورائها ظهر حمادة وقد ارتدى هو الآخر سترة صيفية من الكتان في لون الزيت الحار، كان ممسكا بمظروف مغلق بالصمغ الثقيل ذي شكل مستطيل أزرق اللون، ليس عليه ثمة من كتابة، قدمه حمادة لي في رقة ودماثة:

- «مامي تطلب منك خدمة بسيطة.. أنت تعرف طبعًا أن ظهورها أو ظهوري في بيت واحد من كبار الشماشرجية يثير الأقاويل والشائعات بينهم.. ويترتب عليه وجع دماغ لا لزوم له الآن!.. باختصار: مامي ترجوك أن تتكرم بتوصيل هذه الرسالة إلى عمي عمرو بك يدًا بيد.. وبشرط..».

قاطعته مدام راشيل مستدركة وهي تذوب رقة:

- «من فضلك يعني، من أجل خاطري إذا كان لي عندك خاطر!».

أكمل حمادة:

- «.. أن توصلها له في بيته، بعيدًا عن مكتبه».

أحاول السباحة لأطفو على سطح الحيرة المغرقة:

- «لا أفهم معنى هذا الشرط بصراحة!».

- «سأقول لك السبب فيما بعد. موافق؟».

سقطت في قاع الحيرة. يبدو أن الحرج أضفى على شكلي مسحة مضحكة. ضحكة مدام راشيل رنت في أذني صافية مرحرحة خافتة الرنين.. يدها تمتد تحيط بذقني تداعبه:

- «شكلك جميل في الخوف والحرج!».

- «لا خوف ولا حرج، كل ما في الأمر أنني لم أذهب إلى عمرو بك في بيته قَطّ!».

قال حمادة:

- «يا أخي اذهب ولو مرة واحدة ولا تكسف مامي في أول طلب تطلبه منك!».

اقتربت هي مني حتى لامس صدرها وجهي متقمصة شخصية الأم، فإذا هي أم بكامل حرارة الأمومة!.. أحاطتني بذراعها وربتت ظهري:

- «خلاص يا حمادة، لا تضغط عليه، دعه وراحته، أنا لن أزعل منه، أنا أحببته مثلك!».

على سبيل الامتنان والاعتذار:

- «يا ست راشيل هانم، عمرو بك لن يكون بيني وبينه عمار أبدًا، فكيف أذهب إليه في...».

قاطعتني بتلويحة من ذراعها ونظرة من عينها فيها وعود مشرقة خيالية:

- «سيحبك وستصبح عنده فرخة بكشك بمجرد ما تسلمه الرسالة. صدقني يا بهاء، إنها خدمة له، خبر عن صفقة سيربح منها عدة ملايين. شف أنت ماذا يكون ثمن البشرى؟.. وإذا تعرَّض لك بأي شيء قل لي وشف كيف أسويه على الجنبين! تعرف عنوانه طبعًا؟».

- «أعرفه».

- «ستوصلها؟».

- «سأوصلها. أي خدمات!».

- «ربنا يخليك، هات بوسة بقى».

وبادرت هي بالانحناء فوق وجهي وتقبيلي على الخدين، فأيقنت أنني قبل هاتين القبلتين لم أكن أعرف معنى المرأة الأنثى على الإطلاق، وها أنذا أستشعر أول مذاق لها في حياتي. عن طيب خاطر أخذت المظروف الأزرق، شرعت أفتح الحافظة فتشنجت يدي لبرهة، ثم تداركت فاكتفيت بفتحة على مقاس المظروف سربته منها إلى الداخل وأقفلتها حتى لا تظهر المجلة التي اختلستها. حين خرجنا إلى الشارع قالت:

- «أنا عزمت حمادة على العشاء في محطة الرمل.. تحب أن
تأتي معنا؟».

- «بالهناء والشفاء. مع السلامة».

صافحتهما وقفلت عائدا إلى غرفتي الملحقة بقصر عنتر بك الشماشرجي. أغلقت الباب خلفي، استلقيت على الكنبة الإستديو، اندمجت في تصفح المجلة بشغف. استطعت أن أقرأ الكثير من التعليقات على الأوضاع المختلفة، وبعض تحقيقات بالفعل مهمة ومفيدة لطرفي العلاقة الجنسية. العجيب أنني ما لبثت حتى سئمت، رفضت الانصياع وراء هذا الذي لا طائل من ورائه بل إنه سيقودني لا محالة إلى الخسران.

طويت المجلة، أعدتها إلى الحافظة، قرَّ قراري - عن اقتناع تام - أن أهديها مع مظروف الصور إلى عمرو بك لعلني بهذه المجاملة - التي أثق تماما بأنها سوف تسعده - أنزع سموم عدوانه فلا يسبب لي المنغصات. هكذا يمكن أن أزوره في بيته بمبررين قويين لاختيار البيت بدلًا من المكتب.

ولكن، ثمة خاطر شرير جعل يراودني عن أمانتي قال لي: يا ولد افتح رسالة مدام راشيل واقرأ ما فيها قبل أن تحمل مسئوليتها. كاد الخاطر ينتصر على صلابتي. بأصابع مرعوشة أمسكت المظروف الأزرق، وزنته، لا يزيد عن وزن

الورقة والمظروف. خيل إليّ أن المظروف يقول لأصابعي في تحذير رقيق بصوت مدام راشيل: احذر أن تفتحني فتعجز عن إعادتي كما كنت وإلا تكون قد ورطت نفسك في موقف خسيس سبحان المنجي من عواقبه. رميت بالمظروف الأزرق داخل الحافظة، حزمت أمري على توصيله. دخلت الحمّام، غيرت ملابسي، نزلت إلى محطة الأتوبيس في ميدان الرصافة لأركب الباص رقم أربعة ليوصلني إلى شارع بورسعيد بحي الشاطبي.

في العاشرة من صبيحة يوم الجمعة لبست أفخم ما عندي من ملابس صيفية تجمع بين البساطة والقيمة المحترمة. ركبت إلى محطة الرمل، منها ركبت ترام الرمل، نزلت في محطة إستانلي. مشيت في الشارع الموازي لقضبان الترام. في هذه الشريحة وما وراءها يتمركز الجيل الحديث من الشماشرجية الذين استعلى آباؤهم على حي محرم بك الذي ازدحم بالدهماء وبالضجيج وتدني مستوى الحياة، اشتروا أرضا هاهنا وابتنوا يلات وعمائر، تركوا قصر الرصافة لعنتر بك وأولاده، والقصر العتيق في حي غيط الصعيدي للحاج مصطفى وحده، إذ إن أولاده رحلوا إلى هذا الحي الإفرنجي النظيف الهادئ ليكونوا في رحاب أولاد عمومتهم وتبقى العزوة ممتدة على مساحات شاسعة. في هذا الشارع يلا هاني بك، و يلات عمرو بك وطلبة بك وشوكت ورفقي ورءوف، وكلهم كانوا على وش البكوية لولا قيام الثورة وإلغاء الألقاب. على الناصية الثالثة من المحطة عمارة كبيرة يشغلها أولاد الحاج مصطفى، كل منهم يستقل بطابق كامل، حتى الإناث.. لكل اثنتين منهن طابق على شقتين مغلقتين لطوارئ الزمن.

على الجانب الآخر للمحطة، وفي الشارع الموازي للشارع المطل مباشرة أربع يلات بحدائق كالعرائس يشغلها أولاد عنتر بك، ومنهم المهندس والمحامي والمستشار والطبيب والمذيع في إذاعة القاهرة، وللمقيمين منهم في أمريكا وإنجلترا وفرنسا طوابق مغلقة تنتظر قدومهم من حين لآخر.

يلا عمرو بك مكونة من أربعة طوابق يرجع الفضل في بنائها لأبيه الباشا، وفي الطابق الأرضي زوجة ابن عمه الفلاح وأم عياله. في الطوابق الثلاثة العليا يقيم أولاده المتزوجون، كلهم أسماؤهم مركبة: علي فهمي وكيل مكتب بريد الإبراهيمية، مصطفى كامل وكيل النائب العام في حي باكوس.. سعد زغلول معاون الإدارة في بلدة رشيد، لكل منهم عدة أفدنة في بلدتنا ورثوها عن جدهم الباشا، ولأمهم عدة أفدنة ورثتها عن أبيها البك الذي عاش ومات فلاحا في القرية.

ولأن عمرو بك مقامر متلاف باع كل نصيبه في الأرض ليشتري بثمنها لقب البكوية متخيلا أن مجرد حمله للقب سيفتح له جميع آفاق الكسب بغير مجهود كما فعل أجداده الأوائل أيام كانت الدنيا سائبة.. لذلك حرص أولاده على التقسيم منتهزين فرصة الخوف من الإصلاح الزراعي وما تبعه من تحديد للملكيات. فوجئ عمرو بك أنه بات في الفاشوش، إلا أن أولاده وأخواله في البلد سترًا لعورتهم ساعدوه بسخاء حتى وقف على قدميه، وجعلوا من رشيد بك السيسي وصيا سريا عليه حتى لا يلعب بذيله ويخربها.. فلما فاجأهم برغبته في الزواج كان وجه الاعتراض الوحيد هو أنه يريد أن يبني فوق الـ يلا طابقا خامسا يستقل فيه بعروسه. قاوموه بعنف وغلظة، قالت أمهم: «فليتزوج بعيدًا عني. هنيئًا للعروس بقنطار اللحم!». وإذ فوجئوا بأنه قد اشترى شقة فخمة في عمارة حديثة في شارع البحر وكتبها باسم العروسة مهرًا لها كي توافق على قبوله زوجا، ارتابوا في أمره وانشغلوا في البحث والتنقيب عن مصدر المبلغ المالي الكبير الذي دفعه في الشقة وفي الإنفاق على حفل الزفاف ولكن دون جدوى، إلا أنه أقنعهم - لأنهم في الواقع يريدون الاقتناع - بأن أم العروس قد ساعدته في السر، أما تكاليف الزفاف فإنها «نقوط»، مساهمات من رشيد بك وعنتر بك وهاني بك والحاج مصطفى.

تخطيت شريط الترام، وصلت إلى العمارة التي يسكن عمرو بك في شقة تحتل الطابق الخامس منها، شبابيكها تطل على البحر مباشرة. ركبت المصعد إلى الطابق الخامس.. بيد مرتعشة ضغطت زر الجرس. صدح صوت الكروان داخل الشقة كالزغرودة المجلجلة. في أعقابه سمعت زحف خطوات ناعمة، وصوتا أنثويا كسلان:

- «مين؟».

- «أنا بهاء الراوي».

انفتح الباب في الحال عن هيفاء مصوغة من قشدة مخلوطة بعصير الفراولة، ملفوفة في قميص نوم شفاف قرمزي اللون:

- «أهو أنت إذن! بهاء الراوي؟ ادخل يا بهاء».

دخلت وجلا. قالت وهي تغلق الباب:

- «أهلا بك! تفضل. عمرو بك دائمًا يجيء بسيرتك حتى تخيلت أنني أعرفك!»..

كانت تتقدمني في البهو الكبير المحتشد بأشكال وألوان من مقاعد زاعقة الفخامة بألوان شبابية زاهية. مشيت خلفها

وجلا مضطربا اضطرابًا أشاعته في أوصالي - برغمي - حركة عجيزتها المتكورة في ارتفاع طفيف، فكأن الكرة الأرضية انشرخت إلى نصفين يتبادلان الصعود والهبوط بإيقاع مبهج كأنها تؤدي رقصة دربت عليها. في الركن الأخير للصالون توقفت، واجهتني مشيرة بيدها إلى المقعد الملوكي الوثير:

- «اقعد يا سي بهاء، يا مية من تحت تبن!».

رفعت رأسي مذعورًا مضطربا. خيل إليَّ أنها رأتني بظهرها إذ أتابع حركة عجيزتها الهابطة أسفل قناة الظهر كبندول الساعة الحائطية. أخذت أنظر إليها ضارعًا بأن تسامحني إن كنت أسأت السلوك رغما عني. احتوتني نظرة عينيها العريضتين، السوداوين، الحوشيتين. من فرط ما تشعانه من ثراء في المعاني والدلالات كدت أغرق فيهما كأهبل غشيم يجهل السباحة في بحار مثل هذه العيون المفنجلة الغويطة. شعرت بزخات من العرق تتدفق على قناة ظهري وعنقي ووجهي. تهاويت جالسا.

- «ما هو مشروبك المفضل؟»..

- «كتر ألف خيرك! أنا آسف على هذه الزيارة المفاجئة على غير موعد، لكنني جئت لعمرو بك في أمر مهم خاص بالشغل. ليت حضرتك تبلغينه أنني هنا».

- «عمرو بك بايت في اليونان من ليلة أمس، واليوم كلمني في الترنك من الفندق وقال إنه سيضطر للبقاء هناك ثلاثة أيام وربما أربعة. أعطاني الإذن بالسفر إلى أمي في بورسعيد إلى أن يفوت
عليَّ ليأخذني».

- «لعله خير إن شاء الله».

- «خير طبعًا، ولكن.. إياك إياك أن يعرف أحد غيرك أنه سافر إلى اليونان! رشيد بك يعرف أنه في بورسعيد لتخليص شحنة بضائع
في الميناء».

- «إن كان من حقي أن أعرف للاطمئنان فهل...».

- «ابن الحاج مصطفى طبيب كبير في اليونان! كان بينهما مراسلات منذ شهرين، وأخيرًا بعث لعمرو بك برقية يقول فيها تعال فورًا لأني حجزت لك عند أشهر الأطباء المختصين».

- «سلامة عمرو بك! فيه مشاكل صحية؟».

- «يعني! مجرد فحوصات وتحاليل. إنما هو أوصاني بكتمان الأمر عن كل الناس، فأرجوك لا يفلت لسانك أمام أحد!».

- «اطمئني يا هانم! يا ترى هل أستطيع أن أقدم لحضرتك أي خدمة؟».

- «شكرًا! أنا صرفت الخدم ليلة أمس، ولو أنت تأخرت خمس دقائق ما وجدت أحدا في الشقة. رتبت حوائجي في الحقيبة. كنت ألبس هدومي لحظة وصولك. عن إذنك لحظة واحدة».

استدارت تتبختر. يا أرض احفظي ما عليك. اللعنة على الحظ الأعمى يلقى بيمامة كهذه في يد حلوف كقنطار اللحم كما وصفته أم عياله. ها هي ذي تعود حاملة على راحة يدها كوبا من عصير البرتقال فوق طبق فضي. تعلق بصري بها في اضطراب أربكني، قررت أن أجاملها برشفتين من الكوب ثم أنصرف في الحال حتى لا أعطلها عن السفر، وحتى لا يكون وجودي مثيرًا للشبهات في غيبة عمرو بك، وبخاصة أنني لست محتاجا للمزيد من عدوانه.

- «تفضل يا بهاء».

وضعت الكوب أمامي على المنضدة الرخامية ثم استوت جالسة على كرسي ملاصق لي. صهد عطرها المنعش يهب على وجهي. رفعت الكوب بيد مرتعشة، أرسلت فمي إليه مختطفا رشفة رطبت حلقي. البحر يشرق في ناظري، فاردا في عينيها شراعين يتراقصان فوق أمواج عالية هائجة مضطربة على زفيف رياح قادمة من الأفق البعيد، فإذا بي أراني على رصيف العينين قاعدا منكمشا أرتجف من هبوب الريح بين كثبان خضراء تحت سماوات زرقاء في لون الفيروز الناضج، لون عينيها، لون الخيال المحلق.

في عينيها مؤامرة لطيفة مكشوفة كمؤامرات الأطفال الساذجة. شيء من الجرأة يعطله ظل من التردد. الجرأة

والتردد يتبادلان الموقع في البحيرتين الصافيتين. أخيرًا اندفعت بابتسامة حذرة واجفة:

- «بهاء، هل يمكنك أن... أن...»..

انسدلت الرموش على الرموش كأنها تبحث عن بقية العبارة. شجعتها مرتجفا:

- «أن ماذا؟ قولي.. مُريني بأي خدمة».

- «أن تريني الصور التي معك؟»..

هبطت الأرض بمقعدي إلى قاع سحيق، فيما ارتفعت بمقعدها حتى تخيلت أنها ستنقلب فوقي بمقعدها. تشبثت بمسندي المقعد.

- «اشرب البرتقال».

يا لذكائها! أدركت أن ريقي نشف من خضة المفاجأة الصادمة. أمسكت الكوب بيديَّ الاثنتين، جرعته كله دفعة واحدة، أعدته إلى مكانه شاكرًا ممتنا. رمقتني بابتسامة ملؤها الود والعشم كأننا أصدقاء منذ الطفولة:

- «من هي أغلى واحدة عندك؟»..

- «أمي طبعًا!»..

- «وحياة غلاوة مامتك.. أرني هذه الصور!».

- «أي صور تقصدين حضرتك؟!»..

سلطت عينيها على عينيّ بنظرة نفاذة كزورق بمحرك كهربي طائر فوق زبد الموج. قالت نظرتها في حسم قاطع: إنني أفهمك جيدًا، ثم قالت هي في اندفاعة أشد حسما:

- «الصور العريانة إياها!».

ظل ابتسامتها العريضة ينطبع على ثغري بانفراجة في شفتي
وفي قلبي:

- «بحق من جمعنا على غير موعد، قولي لي كيف عرفت أن معي صورا عريانة؟!».

بهزة رأس ملولة أكثر إيحاءً بالود:

- «لا شأن لك الآن كيف عرفت، المهم أنني بالرضاء أو بالقوة لابد أن أرى هذه الصور! الحظ السعيد أتى بك لحد عندي على غير توقع! لن أتركك تخرج من هنا إلا إذا فرجتني على هذه الصور وإلا.. سأكون خسيسة وأصوّت وأتهمك بأنك هاجمتني في شقتي!».

أسقط في يدي. أخذت أحملق في وجهها لعلني أقدر على فرز الجد من الهزل في موقفها، استشعرت على ملامحها تصميما جنونيا وإصرارًا يصعب الوقوف أمامه. نكست رأسي في محاولة يائسة للتفكير في مخرج من هذه الورطة المفجعة. بأصابع رخصة لها ملمس الورد رفعت ذقني لتنظر في وجهي متحدية:

- «هاتها بالتي هي أحسن.. طاوعني!».

- «يا مدام لولية هانم، هذه مف- ...».

- «لا مدام ولا هانم! قل لي يا لولية وهات الصور».

- «ولكن.. إنها صور فاضحة!».

- «لهذا بالذات أريد أن أراها! أريد أن أصدق أن شيئا كهذا يمكن تصويره بالكاميرا وطبعه على ورق!».

- «بصراحة.. هي صور تخص أحد زملائي في الكلية نسيها معي، وأعدتها إليه!»..

- «الكذب واضح في عينيك!»..

- «أعدك أن أستعيرها منه و...».

- «تظنني عبيطة؟ أنا دراستي فرنسية، أقرأ الأدب الفرنسي بالفرنسية».

- «أعرف.. وأعرف أنك ستتخرجين إن شاء الله من كلية الآداب قسم الأدب الفرنسي».

- «وإذن، فأنا واثقة بأنك شرفتنا اليوم لتعطي هذه الصور لعمرو بك!»..

لكأن رأسي قد طار من بين كتفيّ، مع ذلك خيل إليّ أنه الجزء الوحيد الباقي حيا في جسدي بعد إذ تجمد الدم في عروقي فجلست متيبسا ورأسي يتقافز فوق المرئيات.

رأيتها قد انكمشت قليلا كالقطة تتأهب لقفزة عالية، وفي لمح بالبصر طار نصفها الأعلى فوق رأسي، انقضت يدها على حافظتي الجلدية الملقاة على رخامة المنضدة، نطت بجسدها كله إلى مسافة بعيدة، جرّت السَّحاب، دبت يدها في جوف الحافظة، قبضت على كل ما فيها من أوراق، أمسكت بمظروف الصور، لكن غلاف مجلة البلاي بوي استوقفها فانتفض جسدها. عادت إلى كرسيها بجواري، حشرت المظروف تحت فخذها، سلطت عينيها على غلاف المجلة وقد غاضت الدماء تحت بشرة وجهها الوردي الذي لا يني يختلج وكل عضلة فيه تشهق من الأعماق. ضغطت بأسنانها العليا على شفتها السفلى بقوة، صارت تبلع ريقها وهي تنقل البصر بين كل أعضاء الجسد المقعي المفتوح الساقين في صفحة المنتصف. أنفها يقشعر كلما طلعت عليها صورة جديدة. بأعصاب مفكوكة تمامًا جعلت تتصفح، تشهق تكتم صرختها. الارتياع يتزايد على وجهها وفي أنفاسها المضطربة من هذه الأحجام الضخمة للأعضاء المتعاشقة والوجوه المنتشية الناقلة لعدوى الانتشاء. صارت ترتعش، تضحك بصوت محموم ضحكات جزلة تنتهي بصرخات نزقة.

لا أذكر متى ولا كيف انتقلت من مقعدي لأسند فخذي الأيمن على مسند مقعدها كي أشاركها الفرجة والأنفاس اللاهثة، لكنني أذكر أن كتفي الأيمن صار ملتصقا بثديها مستشعرا لذة وحرارة العجين الخمران. خدي مسنود فوق جدائل شعرها الناعم الأسود بعطره العبقري. اختلطت الأنفاس بالأنفاس، نادت الشفاه الظمآنة على الشفاه الصادية من جفاف الحرمان، تلاقت في التحام لا يعرف الوجل، انزاح العقل واختفى في غيهب مجهول، صرنا في قبضة قوية عاتية لا تستطيع قوة في الأرض أن تفكها. لا أدري كيف ولا متى حملتُها بين ذراعي كحزمة من الخس حتى وصلت بها إلى السرير ذي الطابع الملوكي في غرفة النوم، إنما دريت كل الدراية أنها كانت لا تزال بكرا، وأنني أول من اخترق غشاء بكارتها. بعد عدة ساعات أفقنا على هطول الماء من دُش الحمام، ثم صرنا واقفين أمام مرآة التسريحة نستكشف آثار الموقعة على جسدينا المثخنين بالجراح. لممت ثيابي من أماكن متفرقة لا أدري كيف بعثرت فيها.

كانت شمس الأصيل قد انصهرت على صفحة الموج الأزرق في الأفق البعيد عبر النافذة المطلة على كورنيش إستانلي، وكانت تعرجات الشاطئ وانبعاجاته قد جعلت العمائر والـ□يلات تبدو داخلة في قلب البحر، إذ يلتف الموج حواليها فيعكس في أعماقه مدينة كاملة تتلألأ، ترقص نشوانة يلتف حول خصرها حزام من زبد الموج كلاسةٍ من الحرير الشفاف.

سحبتني من الشباك وأغلقته. نزلت وراءها متأبطا حافظتي ممسكا بيدي اليمنى حقيبة سفرها. كانت ترتدي سترة من فراء الثعالب أجمل وأثمن - فيما يبدو - من فراء مدام راشيل التي انطفأ بريقها في مخيلتي. كأميرة شرقية لعلها شهرزاد ألف ليلة وليلة مشت في تأود فطري، حودت إلى الجاراج تحت العمارة. فتحتْ حقيبة سيارتها الـ «جاجوار» السوداء، وضعتُ الحقيبة في الحقيبة وأغلقتُها، ثم حاذيت باب عجلة القيادة رافعًا ذراعي بالتحية:

- «بالسلامة إن شاء الله وصولًا وعودة!».

هزت رأسها في اتجاه اليمين بلهجة آمرة:

- «اركب. سأوصلك إلى أي مكان تشاء!».

ركبت بجوارها. كلانا لم يفتح فمه طوال الطريق إلى ميدان الرصافة حيث أنزلتني عند موقف دوران الباص بعيدًا عن القصر بمسافة. لوحت لي بذراعها، رمتني بابتسامة، انطلقت في طريقها إلى بورسعيد.

مشيت في ميدان الرصافة منتشيا بقدر عظيم من البهجة.. الآن فحسب أشعر بمعنى الحياة لأول مرة في حياتي، أشعر بجمال الإسكندرية المرمرية أم التراب الزعفران. عطر لولية سكن في خياشيمي: أهذا ميدان الرصافة حقًّا أم أنه ساحة من الرخام في مدينة مسحورة؟ هل ما حدث كان حلما ورديا أم واقعًا ماثلا؟ هل في الحياة مثل هذا الجمال؟ فعلا.. إن الحياة قبل هذا الحدث لم تكن حياة على الإطلاق! للشماشرجية وأمثالهم العذر في أن يفعلوا كل الموبقات ليبقوا أبد الدهر أسيادًا يملكون الثروة والسلطة ورغد العيش! حقا هذا هو الرغد الذي قرأت عنه كثيرًا من دون أن أعرف ما معنى أن يعيش الإنسان في رغد من العيش. حقا إن لحظات البهجة والنشوة عمرها قصير! ترى ما السبيل إلى إطالة عمرها؟

صوت في أعماقي يدوي: بإمكانك أن تكافح حتى تنجح في بناء مستقبل سعيد مع غادة كهذه، لكن صوتا كئيبا دهمني: هل هذه العصفورة القطقوطة الساحرة خائنة أم أنك الخائن؟!.. ركلت الأرض بقدمي في نزق واشمئناط، غمرني جنون عاصف لكنه ممسوك بخيط واهن من عقل يمنطق ما حدث على هواه: لا هي ولا أنت بخائنين، إنما قد ألقي بكما معًا في قلب البحر فحملتكما الأمواج العالية رمت بكما على شاطئ خلاب أعادكما إلى عهد آدم وحواء مجردين من الذاكرة كأنكما تتعرفان على الحياة لأول مرة على سطح الكوكب الأرضي البديع.

ما إن اقتربت من القصر حتى وجدتني غير راغب في الدخول إلى غرفتي أو أي غرفة! أريد أن أبقى هكذا في الهواء الطلق أطول وقت ممكن، أريد أن أجلس على مقهى، أدخل سينما، أتمشى على كورنيش محطة الرمل، آكل الهريسة من محل هناك ذي رائحة شهية فاضحة وصاحبه صديقي، أشرب الكابوتشينو مثل العظماء على مقهى التريانون لعلني أشرف برؤية توفيق الحكيم ونجيب محفوظ. أريد أن أطير في سماء الإسكندرية من بحري إلى باكوس، أن أرشف من رحيق الإسكندرية اليونانية الرومانية المصرية الصعيدية المغربية في عصير هذه الخلطة الإنسانية التاريخية الحضارية النيِّرة.. فقبل هذه اللحظة لم أكن أشعر بجمال الإسكندرية!

هممت بالاستدارة مرتدا إلى ميدان الرصافة، لكنني لاحظت شبه تجمع أمام غرفتي يبين من خلل فروع الأشجار والكسوة الخضراء للسور. شيء إلهي قال لي ادخل شُف ما الأمر. ما إن دلفت إلى ممر الحصباء حتى صاح صائحهم:

- «ابن حلال، جئت في وقتك!».

هوى قلبي بين قدميَّ. من هول ارتياعي خيل إليَّ أنني أركله متخبطا في خطواتي الوجلة المتوجسة. عنتر بك والحاج مصطفى والأستاذ وائل الزناري حفيد عنتر بك وأفندي آخر لا أعرف من هو، لكنني رجحت أن يكون من أحفاد الحاج مصطفى لشدة التشابه بينهما في الدم والملامح. كدت أقع من طولي خشية أن يكون خبر انتهاكي لحرمة بيت عمرو بك قد وصل إليهم. صافحتهم جميعا بيد ميتة وقلب متيبس. قال عنتر بك بابتسامة بدت لي جهنمية:

- «أنا في الواقع محرج منه يا جماعة! لا أعرف كيف أشرح له الموضوع! قل له أنت يا حاج مصطفى».

بَس! جاءك الموت يا تارك الصلاة! راح دماغي التعيس يجهز دفوعات سرعان ما بدت لي خائبة سمجة غارقة في البهتان. صرت من ضعف موقفي على وشك الانفجار في البكاء. زممت شفتيَّ ناظرا إليهم بنظرات مستغيثة.

ضحك الحاج مصطفى ضحكة قصيرة لكنها طيبة، نزلت على قلبي دافئة مطمئنة. في دماثة، في قليل من الحرج:

- «أستاذ بهاء!».

حلو! أستاذ بهاء مرة واحدة؟ إذن ففي الأمر شيء غير سارٍّ على الإطلاق بالنسبة لي!

- «نعم يا حاج مصطفى.. ما الأمر بالضبط؟!».

- «أنت طبعا تعرف الأستاذ وائل الزناري؟».

- «طبعا! حفيد عنتر بك. وهل يخفى القمر؟».

- «عقبال نجاحك إن شاء الله، الأستاذ وائل قيّد نفسه في نقابة المحامين، يعني أصبح محاميا عقبال أملتك!».

- «ألف مبروك يا وائل بك!».

- «شكرًا يا حبيبي! عقبالك!».

استطرد الحاج مصطفى:

- «فتحنا له مكتبا فخما في شارع صفية زغلول، لكنه طرأت على باله فكرة وجيهة في الواقع: أن يفتح لمكتبه فرعا في محرم بك، ووقع اختياره على هذه البناية التي تسكنها أنت الآن، وهي في أصلها كانت مكتبا لجده الكبير كما تعلم!».

- «يا آبا الحاج مصطفى، هل يؤخذ رأيي فيما لا أملك؟! أنا مجرد ضيف يدين لكم بالفضل والكرم الزائد عن الحد!».

- «شكرًا شكرًا، أنت أخ عزيز علينا جميعًا!».

هكذا قال وائل الزناري وهو يربت ظهري في ود وتحنان حقيقي. قال عنتر بك معقبا:

- «وعلى فكرة، إن قلت إنك لا تحب أن تتركها سنبحث له عن مكان آخر، فما أكثر الأمكنة! كل ما في الأمر أن وائلًا يريد أن يأتنس بأنفاس العائلة ويستفيد من تاريخها وعلاقاتها هنا. كل أهالي محرم بك سيوكلونه في قضاياهم بإذن الله!».

- «يا أفندم أنا في منتهى السعادة للأستاذ وائل والامتنان لكم! سأخليها فورا!».

قال الحاج مصطفى:

- «إياك تظن أننا سنتركك بغير مسكن! لا طبعا.. سندبر لك مسكنا محترما يليق بك إن شاء الله!»..

ردوا جميعًا كالكورس:

- «طبعا طبعا، أمال!».

- «اسمحوا لي أن أدخل لألملم حاجاتي!».

صاح عنتر بك:

- «أجننت؟! هذا سابق لأوانه. لن تمشي من هنا إلا بإذني، وعندها أكون دبرت لك أحسن منها!».

- «ربنا ما يحرمنيش منك!».

صافحوني بحرارة، اتجه موكبهم إلى الشرفة المفتوحة على الحديقة. صعدت إلى غرفتي والأرض تدور بي.. ها هي ذي نبوءة أبي تتحقق بحذافيرها!.. كان يجب أن أعمل حسابا لهذا الموقف منذ وقت مبكر. استعرضت في ذهني شقق عمي عوض وعمي إسماعيل وعمي صلاح: دخلتها غرفة غرفة، قست مساحاتها، استحضرت حياتهم فيها، اقتنعت تمام الاقتناع بمصادرة التفكير في بيوت أعمامي. قررت أن أكلف كل من أعرفه بالبحث عن غرفة بمنافعها أو حجرة ضمن شقة مع أسرة أو حتى لوكاندة رخيصة تؤجر الغرف بالشهر. من فرط الإرهاق النفسي استلقيت على الفراش، فما لبثت حتى غرقت في نوم عميق.

في الكلية جُسْتُ بين زملائي الريفيين بحثا عن مطرح شاغر عندهم. اصطحبني أحدهم إلى الشقة التي يسكنها مع زميل في كلية العلوم وهي مكونة من ثلاث حجرات. الشقة في حي البياصة، حي العوالم والآلاتية، مغرق في الشعبية إلى حد أن الضجيج الهائل الفظيع للشارع المزدحم بالسيارات وعربات الباعة والورش كان كأنه في داخل الشقة، لا يهدأ دقيقة واحدة من نهار أو ليل، ناهيك عن رائحة العطن والعفونة المنبعثة من الحارة كلها وتتجمع كثافتها داخل الشقة. جدرانها سقط عنها الطلاء من شدة الرطوبة المزمنة فيما يشبه الخرائط الشجية الغامضة. دورة مياهها عبارة عن ماسورة صرف صحي ضاربة. عجبت كيف يستطيع طالب أن يعيش في جحر كهذا ساعة واحدة، بله أن يقرأ أو ينام. نفرت منها ومن ساكنيها ومن الحارة نفورا شديدا، ومع ذلك شربت الشاي معهما وانصرفت شاكرًا لهما روحهما الطيبة السمحة.

تخذت طريقي من البياصة إلى الشاطبي. لم يكن مسعود أفندي قد وصل بعد. طرقت باب عمرو بك، دفعته داخلا. هشّ وبشّ في استقبالي، مد يده لي وهو جالس، صافحته وحمدت الله على شفائه من الإنفلونزا، سلمته الرسالة قائلا له إن حمادة وأمه قابلاني مصادفة في شارع بوالينو. نظر لي في كثير من الابتهاج الممزوج بشيء أشبه بالعبط، حيث غاص ذقنه في لغد مترهل انطبعت عليه سلسلة من الذقون هابطة إلى صدره. استمهلني حتى فتح المظروف وقرأ

الرسالة بسرعة، ثم طواها وأشعل النار فيها بالقداحة، وظل ممسكا بطرفها إلى أن صارت هشيما فألقاها في سلة المهملات. فاجأني بأعنف مفاجأة:

- «تعرف عنوان بيتي؟».

تجمدت أوصالي، انخرست، نكست وجهي في الأرض تمنيت لو انشقت وابتلعتني. صاح مكررا:

- «تعرف عنوان بيتي؟».

صوتي المتحشرج خرج من حلقي بصعوبةٍ تتناثر منه فتافيت الصدإ:

- «بيت حضرتك.. أعتقد أن عنوانه...».

- «تعرفه أم لا تعرفه؟ قل نعم أو لا!».

هكذا شخط، لكن انبساط ملامحه طمأنني. تماسكت:

- «تذكرته! أظن أنه في إستانلي على الكورنيش!».

- «تمام، وباب العمارة من الشارع الجانبي».

- «ولكن ما الأمر؟».

- «ليتك تفوت عليّ في المنزل في أقرب وقت».

حلقي صار كالعصا الحديد:

- «خيرا يا عمرو بك؟!».

- «أريدك في مصلحة».

- «تحت أمرك يا عمرو بك. يوم الجمعة مثلا؟».

- «لا بأس بيوم الجمعة، بعد الظهر طبعا!».

شكله كان مرحا، ملامحه توحي بالأمان، لكنني مع ذلك ركبني وسواس بات يقوى ليلة بعد ليلة إلى أن جاء يوم الجمعة، فإذا بي من شدة الرعب قد صرت خرقة بالية، فلم أقو على الذهاب إليه.

يوم السبت اعتذرت له بأنني نسيت الموعد غصبا عني. تقبل العذر بأريحية، قال إنه سيكون في انتظاري يوم الجمعة القادم. في السبت التالي زعمت أن عمي إسماعيل أخذني في مشوار عائلي مهم. وفي السبت الذي تلاه زعمت أنني سافرت في رحلة مع بعض الزملاء. العجيب أنه لم يزعل، بل نظر في عيني نظرة ذات معنى مصحوبة بابتسامة، وقال في ود وبنبرة إغراء كأنه يعرض عليّ الطلب لأول مرة:

- «ليتك تفوت عليّ في المنزل في أقرب وقت».

- «خلاص يا عمرو بك، سأجيء لحضرتك».

- «شرف؟!».

- «شرف!».

وكنت ناويا هذه المرة عن صدق بعد إذ اطمأن قلبي بعض الشيء إلى أنه يريدني بالفعل لمصلحة ما. كان لا بد أن أذهب إليه، على الأقل لأعرف نوع هذه المصلحة التي يغازلني بها.

قرب صلاة العصر توجهت إلى بيت عمرو بك وأنا أضرب أخماسا في أسداس بالتعبير الأثير لدى مسعود أفندي. اللهفة على معرفة السبب في الدعوة تبث الحماسة في خطوي نحو مصعد العمارة: أي مصلحة هذه يا ترى تلك التي يمكن أن تجيء من وراء عمرو بك العدواني، الشهير بالغباء في العائلة كلها؟!

انفتح باب الشقة عن جسد عمرو بك، قنطار اللحم، واقفا يسد الباب تماما. ما إن رآني حتى ظهر الرضاء على ملامحه وابتسم هاتفا كأننا أصدقاء من عمر واحد:

- «أهلا.. ا.. ا.. نْ بهاء الراوي!».

وسع لي فدخلت. أغلق الباب وتقدمني إلى الصالون في آخر الردهة الكبيرة الواسعة، لكنه انحرف قليلا إلى ممر جانبي لم أكن لاحظته في زيارتي السابقة، في نهايته كانت ترابيزة السفرة حافلة بأطايب الطعام وقد جلس إليها رجلان يتأهبان للأكل.. إنهما الحاج مصطفى وعنتر بك. استقبلاني بحفاوة شارك فيها عمرو بك:

- «تعالَ، جئت في وقتك».

- «حماتك تحبك!».

- «خُش على السفرة».

قام السفرجي بسحب الكرسي وتهيئته لجلوسي، غرف لي غرفة من كل صنف على المائدة في طبق عريض، ثم سألني:

- «ما المشروب الذي تحب؟».

قال عمرو كأنه يشجعني بكسر الحواجز بيننا:

- «هنا كل حاجة: كونياك، ويسكي، نبيذ قبرصي، شمبانيا، بيبسي، إسباتس! اطلب ما تشاء دون كسوف أنت في بيتك ونحن إخوتك!».

تذرعت بالأدب:

- «أشرب إسباتس».

سحب السفرجي زجاجة إسباتس مثلجة، فتحها، دلقها في كوب زجاجي مربع، وضعه في متناول يدي.

عندما اقتادني الخادم إلى الحوض لأغسل يدي فوجئت بأن شقة سحرية خلفية تتفرع من شقة عمرو بك، رجحت أنهما شقتان مفتوحتان بعضهما على بعض، فيهما عدة دورات للمياه وعدة صالونات وأكثر من غرفة للنوم. وقف الخادم بالفوطة إلى أن غسلت يدي وفمي فسلمني الفوطة، جففت يديَّ وأرجعتها إليه فقال: تفضلِ معي. تبعته إلى السفرة، عبرناها إلى الشقة السحرية الخلفية، ثم إلى قاعة شرقية تطل على خط ترام الرمل، شِلت وبُفّات وحمير خشبية منجَّدة، كل ذلك فوق سجاجيد من الحرير ذات ألوان زاهية مبهرة. تربعنا جميعا على الشلت العريضة، جذبني عطر الحاج مصطفى، تربعت بجواره. سألني وهو يقلب السكر في الأكواب:

- «كم قطعة؟».

- «العفو يا حاج مصطفى! دعني أ...».

- «كم قطعة؟».

- «ثلاثة أنصاف قوالب».

جعل يقلب ثم أزاح الكوب أمامي على الطبلية. وقف عنتر بك، أشار إلى عمرو بك أن يتبعه، خرجا معا إلى الشرفة المطلة على الترام، ارتفقا سور الشرفة واندمجا في حديث هامس. فتح الحاج مصطفى علبته الفضية ليأخذ منها سيجارة، انعطف رأسه الكبير نحوي بابتسامة لم تفلح في إزاحة صدغيه المتكورين فبدت كتعويرة تشوه وجهه:

- «تشرب الحشيش يا بهاء؟».

قالها بود شديد العذوبة كأنني أحد أصدقائه المقربين، وإذ رأيته قد رفع الحاجز بينه وبيني، وجدتني أرد عليه في بساطة لا تخلو من الدهشة:

- «أحيانا يا حاج مصطفى، إن وُجد!».

- «وأين تجده يا ترى؟.. هل تشتريه؟».

- «إطلاقا.. ولا أعرف شكله! كل ما في الأمر أن حمادة سقاني عدة سجاير ملفوفة!».

زام في امتعاض:

- «حمادة؟ ولد فاسد! يشتريه بفلوس كبيرة طبعا!».

- «إنه مليونير يا حاج مصطفى، يقال إنه أغني واحد في الإسكندرية وربما في البر المصري كله!».

انفجر الحاج مصطفى في ضحكة جعجاعة عريضة مفركشة الإيقاع لا يستطيع حنكه الواسع أن يلمها، وأفزعت كلا من عنتر بك وعمرو بك وجعلتهما يتلفتان نحونا مبتسميْن مأخوذيْن من الدهشة. صوت الحاج مصطفى تسلل من تحت فتافيت الضحكة ليقول:

- «وهل صدقته يا راجل يا طيب؟!».

ثم مال نحوي هامسا في جدية بلهجة خطيرة:

- «دخلت عليك شائعة أنه ورث ثروة خاله يوسف القططي؟ إنها حكاية ملفقة!.. يوسف القططي مات في حادثة لأنه خسر كل أمواله والعياذ بالله في البورصة!.. المسكين سكر حتى فقد وعيه!.. هو في الأصل كان مخلولًا! ربنا يكفيك ويكفينا شر اليأس من الدنيا! تصور يا أخ بهاء أن ربنا أعطاه الثروة من وسع، ولحكمة يعلمها سبحانه حرمه خلفة الولد! صرف نصف ثروته على الدكاترة في لندن وباريس ونيويورك وروما، ولكن الله لم يكتب له الخلفة. تأكد أن حيواناته المنوية تولد ميتة من حالها. كثرة الأدوية نحلت جسمه ومخه أيضا، فصار كل يوم والثاني يطير من عقله برج، وبالبرج الأخير سافر يتفسح في بيروت، فاستلمته عصابة دولية من حريفة القمار جردوه من ثيابه وفكوا فرامل السيارة الملاكي التي كان يستأجرها، والبقف ركبها عمياني وساق بأقصى سرعة الضيق واليأس، قفزت السيارة من فوق قمة الجبل وطارت في الهواء لتنزل به في سابع أرض! اتعجن عضمه في عضم السيارة بعيدا عنك ربنا ما يوريك!».

جعل يلف السيجارة بمزاج بعد أن فكها وفرك عليها خرز الحشيش، بلل طرف الورقة البافرة بطرف لسانه العريض كالحزام ثم اقتطع به نتفا من الطرف المبلل، أخذ يتفتف فيما يبرم السيجارة بين أصابعه ثم يضعها ويمسك بغيرها، ثم علقها في الهواء مائلا نحوي ليشعرني أنه سيختصني بسر خطير:

- «عيب سلالة القططي باشا قلة الأصل والمشي النجس!».

صار كلامه أقرب إلى الهمهمة بصوت خافت، لكنه حاد قاطع:

- «ناس من صحابنا كانوا على علاقة عمل دائمة مع الهالك يوسف القططي أكدوا لنا أنه كان يعشق أخته راشيل وهي تعشقه! بنت الفرطوس حينما ادعت أن حمادة ابن هاني بك ما كانت تعرف أن هاني بك ابن أخي توقف عن الإنجاب قبل أن يعرفها، ومع ذلك نجحت بنت الكلب في ابتزازنا!.. ابننا مع الأسف يضعف أمامها! طبعا، ساحرة كالجنية النداهة متى تسلطت على أحد سلبته عقله! يكفيك شرها! لكن.. نرجع ونقول إنها شاطرة وتجيء من ورائها مكاسب لمن يفهمها ويعرف كيف يقوم هو بتشغيلها قبل أن يجد نفسه بقدرة قادر شغالا عندها!».

فرك الحشيش فوق التبغ بغزارة:

- «حكاية المليونير هذه والثروة المحطوطة في بنوك سويسرا حكاية شغل يد، غزلتها راشيل كبدلة تلبسها في السوق كبدلة الرقص، وهي أحرف من يرقص وقت اللزوم!.. السوق يحب النصب والفشخرة الكذابة لمن يتقنها!.. بهذه البدلة جمعت راشيل حولها كبار الأغنياء العتاولة، تتعيش من ترابيزة القمار التي تنصبها في بيتها كل ليلة. إنها لا تقع إلا واقفة مع أن حياتها كلها قمار في قمار، حتى الزواج والطلاق لعبة تعرف كيف تفنطها وتكسب الدور!.. ابنها طالع لها صورة بالكربون منها في كل شيء.. كل شيء.. كل شيء صدقني. إتفوه! فضها سيرة يا رجل!».

كدت أقول له: فضها أنت. لكن الضحك ناب عني في الكشف عما أريد. أخيرا قدم لي سيجارة كالصاروخ:

- «مساء الفل».

- «مساء النجف يا حاج مصطفى».

وضعتها بين شفتيَّ. أشعلها لي بالقداحة وراح يتأملني مبتسما ليرى كيف أشد الأنفاس. من خلال سحب الدخان الأزرق بدا وجهه في ناظري ملفوفا بغلالة من الدهاء الجهنمي إلا أنه لا يخلو من طرافة وخفة ظل. مال نحوي مادًّا بوزه كأنه يملي عليّ درسا غاية في الأهمية عن مادة لا يكون للحياة معنى بدونها:

- «أرأيت؟ الزيت ينضح على ورقة السيجارة! بُصّ! بُصّ! التعميرة تطشطش لأنها أصيلة وليس في مصر أخت لها..غنية بالكيف. على فكرة، أبوك ذاق هذه التعميرة ونحن في البلد..جننته! لكن قل لي يا بهاء، الولد الخلبوص حمادة كلمك عن المكان الذي يأتي منه بالحشيش؟ يعني قصدي هل يجيئه هدية؟ هل يشتريه؟ من الذي يبيع له؟ من الذي يهديه؟ أكيد طبعا دار بينكما مثل هذا الكلام! حصل طبعا، قل بصراحة».

- «أبدًا والله العظيم يا حاج مصطفى، أنا أصلا لا أشربه.. تمر الشهور ولا أرى حمادة إلا مصادفة!.. وأنا يا آبا الحاج مصطفى مزنوق في الشغل والجامعة، ولا أستطيع مجاراة حمادة في أي شيء».

- «مغزى كلامي أن هذا الولد الخلبوص خفيف! كلامه يصفصف على مافيش، يعني خلِّ بالك: لا تصدق أي شيء يقوله لك! وإن كنت تعتبرني أبًا لك هنا فاسمع كلامي ولا يَكُنْ لك أي شأن بهذا الولد الخلبوص وبأمه.. وبالذات أمه.. ربنا سبحانه وتعالى يكرمك ويكرمنا بحق جاه النبي!».

كلام الحاج مصطفى الشماشرجي يدخل في دماغي فلا أجد مناصًا من تصديقه. إن الود بيننا قديم منذ رأيته في دارنا في البلد لأول مرة وعمري آنذاك خمس سنوات، كما أن إعجابي بانفتاح شخصيته قديم، بطبيعته الميالة دائما إلى الفضفضة.. منذ طفولتي أدهشتني جرأته في الحديث بلا حياء، يسمي الأشياء بأسمائها وما في قلبه على لسانه دونما حرج. ثم أسرتني شخصيته بعد أن كبرت. أسرني شعوره بأحقيته في التحدث كيفما شاء واستخدام ما يطرأ على لسانه من مفردات. لا يتورع عن ذكر فروج الأمهات والآباء عند الغضب أمام أي حريم، لا يتوانى عن تهزيء التخين في العائلة واثقا بأن أحدا لن يجرؤ على مراجعته أو حتى الزعل من شتائمه الغليظة باعتباره الآن أكبر رأس في الشماشرجية على الإطلاق، وهناك عجائز في بلدتنا يقولون إنهم طلعوا على الحياة فرأوا الحاج مصطفى كما هو الآن دونما أي تغيير، فباسم الله ما شاء الله تجاوز التسعين من العمر ولا يزال يشرب السمن البلدي المقدوح بالكوب صبيحة كل يوم على ريق النوم. لجلبابه وعباءته هيبة تقصر دونها هيبة البدْلات والمعاطف والقبعات والطرابيش، يشهد جميع أهله وأصدقائه ومعارفه أن له ألف عين وألف أذن تأتي له بالأخبار من بزّ أمها. هو أول من يعرف وآخر من يحكي، لا يحكي إلا للضرورة القصوى، فإن حكى لا يترك شاردة ولا واردة إلا ونوه عنها بأمانة فائقة.

حكايات الشماشرجية كالشماشرجية: مليئة بأدغال من البوص والحلفاء تعشش فيها زواحف سامة ووحوش مفترسة ماكرة.. هكذا نعرف جميعا في بلدتنا. خشيت أن تكون سيجارة الحشيش قد استدرجتني إلى مواطن الكدر والغم. لم ينتشلني من الغرق في داخلي إلا عودة عنتر بك وعمرو بك من الشرفة. تربعا فوق شلتتين، تناول كل منهما صاروخا وأشعله بقداحته الخاصة. رشف عمرو بك رشفة شاي ممزوجة بسحب الدخان. نظر لي ملوحا بذراعه المبرومة داخل كم الروب دي شامبر ذي اللون الكحلي بخطوط بيضاء. لأول مرة منذ عرفته يلين في كلامه معي بلهجة أبوية بالغة النقاء:

- «بصراحة يا أخ بهاء أنا انزعجت لما علمت بأنك تبحث عن مسكن. أعرف أنك لم تجد للآن.. عيب علينا وأنت تشتغل عندنا. أنت منا وعلينا حقك أن تسكن في مطرح محترم يليق بك وبنا!».

جاشت عواطفي. كدت أبكي شاعرًا بالذنب أمام هذه الروح الأخوية التي كشف عنها الآن. سخطت على نفسي من جراء ما أوقعتني فيه، أو لعلني أوقعتها في لحظة جنون جمعت بين امرأة محرومة مقهورة مكسورة وبين فلاح مكبوت فقد السيطرة على عقله حين احتك باللحم الأبيض الشهي. ارتاع قلبي، ارتجفت خشية انقيادي تحت سيطرة المخدر إلى اللخبطة في الكلام بما قد يورطني في اعتراف لا علاج له إلا بقطع الرقاب. أطفأت السيجارة قبل انتهائها. حاولت التماسك بقوة، وقد وقر في وهمي أن هذه القعدة برمتها ربما كانت مصيدة لانتزاع مثل هذا الاعتراف مني بدلا من التحقيق معي بشكل مباشر، وبخاصة أن الحاج مصطفى لا تخفى عنه خافية. سمعت صوتي متهدجا:

- «يا عمرو بك، إن عملي عندكم يشرفني حتى ولو نمت

على الرصيف!».

تأتأ الحاج مصطفى بشفتيه الغليظتين:

- «تؤ تؤ تؤ! وهل هذا يرضينا؟!».

كشر عنتر بك، صاح محتجا:

- «ما لزوم هذا الكلام السخيف؟!».

علق الحاج مصطفى بابتسامة أوسع:

- «المسألة وما فيها أننا لا نريد أن تبدد مرتبك في إيجار مسكن .. فهمت؟!».

- «أنا متشكر. ما ترونه في صالحي اعملوه!».

دخل الخادم بصينية القهوة، وضعها على الطبلية وأخذ صينية الشاي ومال نحو عمرو بك:

- «المدام تريد حضرتك».

بمنتهى الصعوبة نهض عمرو بك مستندا على حمار خشبي:

- «حاضر يا سيدي، نشوف المدام عايزة إيه؟».

تعثر وهو يضع قدميه في الخُف على عجل. مضى نحو الشرفة فدخلها ثم اختفى، وكان صوت خطواته قد استمر ولكن في تباعد. توقعت أن تكون الشرفة ممتدة ومفتوحة على حجرة أخرى في الداخل. قال الحاج مصطفى لعنتر بك:

- «سأتولى أنا العملية. سأكلم السمسار يجمع لي غرفة بمنافعها في حي إفرنجي نظيف يكون قريبا من محل عمله ومن الجامعة!..».

ثم اتجه بنظره نحوي:

- «لا يهمك إن كان الإيجار كثيرا أو قليلا، فأنا الذي سأدفع باعتباري أباك هنا. بسّ ولا كلمة! انتهينا!».

ظهر عمرو بك عائدا من نفس الشرفة مبتهجا:

- «بس خلاص!.. انحلت! أنت فعلا ابن حلال يا بهاء! يالحسن الحظ! تصوروا أن الغرفة موجودة بالفعل ولائقة عليه كأنها معمولة على مقاسه!».

نظرنا إليه في لهفة:

- «أين؟!».

- «أولاد خالة زوجتي لولية هانم تخرجوا في العام الماضي. عادوا إلى بورسعيد. حلو؟ الهانم استخسرت الشقة، دفعت إيجارها وأبقت عليها لوقت عوزة!».

سأله عنتر بك:

- «شفتها؟».

- «طبعا! هي غرفة وصالة ودورة مياه ومطبخ واسع، فوق عمارة محترمة في حي الإبراهيمية تطل على ترام الرمل».

بدا الاهتمام على وجه الحاج مصطفى:

- «يلزمها عفش طبعا!».

- «فيها كل شيء، ونظيفة. معظم جيرانها من اليونانيين والأرمن لا تسمع لهم حسًّا. إيجارها جنيهان في الشهر، وربع جنيه للمياه والنور، كما أن خالة المدام مستغنية عن كل ما فيها حلاوة نجاح ولديها!.. هيه؟.. ما رأيكم؟ نقوم الآن لنقابل صاحب العمارة ليغير العقد باسم بهاء. المفتاح جاهز».

هتف عنتر بك في حماسة:

- «إنها لقطة، فلماذا ننتظر؟».

وقف متأهبا. وقف الحاج مصطفى:

- «جاءت له على الطبطاب».

تدحرج قنطار اللحم في الممر السحري:

- «اسبقوني. وراءكم حالا».

نزلنا. توجهنا إلى سيارة الحاج مصطفى المرسيدس حيث اقترح أن نذهب جميعا بها وعليه أن يعيدنا إلى سيارة عنتر بك هاهنا.

طلب صاحب العمارة - وهو يسكن في الطابق الأول منها - إيجار شهرين على سبيل التأمين. عدَّ الحاج مصطفى حفنة نقود ثم قدمها إليه:

- «معك إيجار عام ونصف عام، وهاك بقية العامين بالمرة! اسمع يا خواجة: نريدك أن تدهنها وتزخرفها وتصلح ما يكون فيها من سباكة. خلّها كالعروس. هاك عشرة جنيهات لهذه الشغلة. الرجل كان يسكن في قصر ولا نحب أن يشعر بالفرق الكبير! أمامك أسبوع ونستلمها منك على سنجة عشرة».

طوى عقد الإيجار على إيصال النقدية وسلمه لي مشفوعا بابتسامة تنضح بطيبة ملتبسة بنعومة شيطانية هامزة. فيما لا يزيد عن خمس دقائق وصلنا إلى بيت عمرو بك الذي صعد إلى شقته، فيما ركبت أنا مع عنتر بك في سيارته الرولز رويس الخاصة التي لايقودها أحد سواه في مشاويره التي لا يحب أن يراها أحد حتى سائقه الخصوصي. عدنا إلى محرم بك. وفيما كنت أفتح باب غرفة القصر وجدت ورقة مطوية محشورة في خصاص الشراعة. كانت مظروفا أبيض مغلقا بالصمغ. عرفت من الخط على ظهره أنه من عمي إسماعيل. على ضوء الأباجورة فوق الكومدينو قرأت خطاب عمي إسماعيل:

«ولدنا العزيز بهاء..

«مساك الله بالخير، وبعد.. من يوم ما كلمتني في أمر مسكن خاص بك، وإزاء إصرارك الغريب السمج على عدم السكن في بيت أحد من أعمامك الذين يحبونك ويتمنون راحتك، لم يهدأ لي بال، كنت أكثر منك قلقا، ولكن اطمئن، فالحمد لله عثرت لك على حجرة في شقة نظيفة واسعة يقيم فيها رجل وامرأته، وهما عجوزان لم ينجبا سوى بنتين تزوجتا فأصبحت الشقة واسعة على الفاضي، الحجرة مفروشة وإيجارها مائة وخمسون قرشا، فإن شئت أن تأكل معهما من طبق واحد أكلا منزليا صحيا، وأن تُغسل ثيابك وتكوى بانتظام، يكون المبلغ ثلاثة جنيهات، ورأيي أن هذه فرصة لن تتكرر بسهولة، فلعلك توافق. لا يهمك من الفلوس فأنا سأدفع جنيهين كل شهر وتدفع أنت جنيها واحدا، وإن لم تقدر عليه دفعته أنا.. هذا ما لزم أن أعرّفك، فأنا في انتظارك غدا بعد خروجك من الكلية لنذهب معا نأخذ الكونتراتو، وليكن في معلومك أنني دفعت عربونا كبيرا لصاحب الشقة على أساس الإيجار بالأكل والغسيل والخدمة التامة، فاحذر أن تتملعن ولا تجيء. إن هذا السكن لقطة، في شارع منشة، العمارة الملاصقة لعمارة المنوم المغناطيسي، وهو شارع هادئ نسبيا، والشقة في الدور الرابع، يعني ستنعم بالهدوء. أرجو الله أن يوفقك، والسلام».

خرجت من الكلية مبكرا، لحقت بعمي إسماعيل في مكتبه بالشهر العقاري. نزل معي، ركبنا سيارته إلى شارع منشة. استرحت لشكل العمارة، لصاحب الشقة، لزوجته. شعرت بالأمان. كتبنا العقد. شربنا الشاي مرتين، أصررت على دفع النقود التي دفعها عمي إسماعيل. أكدت له أن راتبي في الشركة تسعة جنيهات وأن لي دفتر توفير في البريد فيه ما قد أحتاج إليه للطوارئ، وما دمت قد ضمنت الإقامة والأكل والغسل والكَيّ كل ذلك بثلاثة جنيهات في الشهر، فإني لن أحتاج من بقية مرتبي إلا المواصلات، وهذه أمرها سهل. كان عمي إسماعيل سعيدا جدا بما أقول، حفزتني حماسته - بتشجيع من سيارته - على نقل ملابسي وكتبي ومذكراتي وأغراضي كافة وإخلاء غرفة القصر في نفس اليوم. الرجل الطيب خليل أفندي وزوجه اللطيفة الحنون الحاجة عمرانة ساعداني في وضع ملابسي داخل دولاب محندق بجوار السرير، أتيا لي بمكتب صغير كان في حجرة البنتين، وكأي أم رءوم أمرتني بأن أدخل إلى الحمام فأستحم وأغير ملابسي وأترك المخلوع منها في سلة الغسيل، وقد فعلت.

خرجت من الحمام منتعشا بمعنى الكلمة، وجدت المائدة معدة ممدودة، دعاني خليل أفندي إلى مجابرة الزاد، حلفت بأنني تغديت قبل مجيئي، أصر، قال إنه انتظرني حتى أجيء لأفتح شهيته، وكان العكس هو الصحيح: هو الذي فتح شهيتي فأكلت بلذة واستطعام لم أعهدهما في حياتي من قبل. لحظتذاك شعرت كأنني أولد من جديد، كأنني عدت إلى أهلي بعد اغتراب. عندما ذهبت إلى الشركة عصر ذاك اليوم كنت في أجمل حالاتي النفسية. تملكني إحساس دافئ ولذيذ بأنني قد أصبح لي بيت في مدينة الإسكندرية.

بعد حوالي عشرة أسابيع تذكرت غرفة الإبراهيمية بدهشة كبيرة، فمنذ أن تسلمتها على الورق سقطت من ذاكرتي، ربما لأن شقة خليل أفندي استوعبتني تماما فأدخلتني في رحم الأسرة فركنت إلى سكينته. من حسن الطالع أن محاضرتين ألغيتا يومذاك، اتخذت طريقي مباشرة إلى الإبراهيمية. مدخل العمارة نفخ صدري بالشعور بالعزة، استقبلتني بوابتها الحديدية المفتوحة يشع من فضائها نفسٌ إنساني دافئ يقول لك: تفضل على الرحب والسعة. صعدت السلم الرخامي ذا الدرج النائم في استرخاء رحيم بقلب الصاعد عليه، طوال الطوابق الأربعة لم أشعر بأي لهاث، السطح المبلط كاد يقف في استقبالي يملأ فتحة باب السطح بشرائح البلاط على متن الضوء الشمسي المنطرح كالبساط على السطح العريض. استكنَّ السطح تحت خطواتي واستوعب صوت وقعها.. يا إلهي.. ياللعجب.. الشقة على درجة كبيرة من الحميمية وخفة الظل والجاذبية!

في الحجرة سرير نحاسي بأعمدة صفراء مضلعة، مكتمل الفراش بناموسية وملاءة وكو□يرته وبطانية ولحاف ومخدتين وعدد من الخداديات، كلها على مستوى فاخر. بجوار السرير كومدينو فوقه أباجورة. لصق الحائط دولاب بمرآة بيضاوية في الدرفة الوسطى. على الأرض سجادة قيمة ونظيفة. في الصالة أنتريه عتيق الطراز أسيوطي متين. في الركن ترابيزة من الخشب تتحلقها ستة كراسي من الخيزران. في المطبخ نملية كبيرة من الخشب بيضاء اللون ملآنة بحلل وأطباق، فيه موقد كيروسين بخزان وماسورة ممتدة تحت سقيفة شبكية مكونة من عدة دوائر بأحجام مختلفة للحلل وبراد الشاي. في الحمام دُش بحوض مستطيل، كل جدرانه مبلطة بالسيراميك.

اعتبرت نفسي في عز حقيقي، إلا أنه ليس يخلو من توجس مقلق. قررت أن أجيء إليها من حين لآخر بحيث لا تكون هي مستقري الأساس على الأقل لعدة شهور أستبين فيها سر هذه الحفاوة المفاجئة بي وبمسكني بهذا الشكل المغالى فيه إلى حد غير مألوف.

في اليوم التالي، فيما أنا خارج من حرم الكلية، زحفت بجواري سيارة زرقاء اللون لا أعرف من أي ماركة هي، برز من شباكها وجه أستاذي الدكتور نجيب البدري أستاذ الفلسفة الحديثة. شكله أقرب إلى اليونانيين، لكن روحه بنت بلد صرفة. ناداني:

- «تعال يا بهاء، اركب أوصلك في سكتي».

لففت، ركبت بجواره، لما انطلقت السيارة على طريق الكورنيش سألته مندهشا:

- «حضرتك ساكن فين يا دكتور؟»..

- «في الإبراهيمية بجوارك مباشرة، ألست في عمارة أرتين؟».

كاد رأسي يطير.

- «كيف علمت يا دكتور؟».

- «شفتك البارحة فوق السطح».

- «إذن فهذا شرف كبير لي!».

بعد ثلاث حودايات على اليمين صار أمام عمارة أرتين فتوقف.

- «تفضل. أنا سألف لأن مدخل عمارتنا من الحارة. ما رأيك لو شرفتني بالغداء معي؟».

- «ألف شكر يا دكتور».

يبدو أن الأقدار تعمل على تثبيت أقدامي في هذه الشقة التي أحببتها قبل أن أقيم فيها.. هذا ما دار بخلدي وأنا أصعد السلم إليها في حماسة شاعرا بامتياز وضعها ومستواها وقربها من الكلية والشركة في طريق سالك سريع. يا لجمالها حقا!.. ما إن دخلتها حتى غمرني شعور براحة نفسية عميقة.

هذه هي الخلوة التي حلمت بها طوال فترة الصبا حيث لا أحد يتطفل على خصوصيتك، لا صوت لا صخب لا شيء سوى شقشقة العصافير فوق سقف اللبلاب في «روف» أستاذي نجيب البدري تختلط بموسيقى كلاسيكية منعشة

قادمة من مكان ما.

نظرت حواليَّ مستطلعا: هذا شباك في الجدار الشرقي يبدو أنني نسيته مفتوحا من البارحة، ارتكنت على حافته، إنه يطل على منور فاصل بين عدة عمارات ينتهي في الأسفل بعشة يسكنها بواب وزوجه الشابة، أو لعلها ابنته! ثمة نوافذ في جميع الجدران المحيطة بالمنور. أعطيت أذني للموسيقى بتركيز، تبين لي أنها صاعدة من حجرة تحت شباكي مباشرة، أسعدني ذلك وأشعرني بارتفاع مستوى الجيران. خلعت حذائي وسترتي، تمددت على السرير، صارت الموسيقى تهدهدني وشقشقة العصافير تشجيني تملؤني أنسًا وصفاء ذهن يعيدني إلى قعدتي في المقعد البحري في دارنا في البلد. تيقظت في داخلي رغبة فتية في أن أمسك بالقلم أدعه يجري على الورق ممتطيا صهوة أفكار ومشاعر في صدري تريد أن تصير كتابة ما، شعرا كان أو نثرا، المهم أن أكتب، أن أشهر القلم في وجه الورق متأهبا للمخاض، وعند الميلاد يتحدد كنه الوليد، لكنني سرعان ما غفوت..

عندما فتحت عيني كنت على يقين بأنني نمت عاما كاملًا على الأقل، بل لعلني سافرت في رحلة إلى ما وراء الكون وها أنذا عائد لتوي محمولا في زورق من سحابة تريكوازية تسبح على أمواج شمس خضراء منحت الزورق شراعًا من قوس قزح فيما ينهمر المطر بغزارة أرعشتني.. انتفضت قاعدا على السرير وصوت الموسيقى السمفونية يجسد صوت هطول المطر مصحوبا بالرعود، دَلَّيْتُ ساقيَّ على الأرض، باب الحجرة كان مفتوحا، صالة الشقة في مواجهتي مرئية بكاملها تقريبا، كانت شمس الأصيل قد تحاضنت مع شباكي الشرقي كأنه ابنها البكري من صلبها، بعد برهة رأيتها قاعدة تحتضن الشباك فوق الترابيزة، كان ضوءها متربعا فوق الترابيزة داخل إطار الشباك الذي بدا كأنه برواز من الأبنوس لصورة شمس موردة الخدين كعروس ساجية العينين في خفر حميم.

انتقلت إلى الترابيزة، فتحت الحافظة، فردت الكشكول المرافق لي على الدوام، استغرقت في كتابة مرسلة، في خواطر حرة في غير موضوع محدد، في غير قصد فني محدد بشعر أو بقصة أو بمقال إذ ربما يكون كل هذا في تدفق تلقائي، إلى أن صعد البرواز الأبنوسي بصورة الشمس وعلق نفسه أعلى الحائط ثم عطل السقف صعوده، استضافه لبرهة، ثم ما لبث البرواز حتى رافق شمسه إلى الخلاء فودعها واستكن في إهابه الخشبي مفتوحا على منور الموسيقى. أضأت مصباح السقف، انغمرت الشقة بضوء برتقالي مبهر، غسلت وجهي، لبست حذائي وسترتي ونزلت عائدا إلى حجرتي بشارع منشة.

تعشيت، تلقيت دعوات أمي الجديدة الحاجة عمرانة، أويت إلى حجرتي، وجدت على الكومدينو طبقا فيه برتقالة ويوسفية وأصبع موز، شكرت دعوات أمي في البلد. أقبلت على الكتب والكشاكيل بشهية، مكثت في مراجعة وتدوين واختلاق أسئلة للإجابة عنها كتابة حتى الثانية صباحا، ثم تمددت على السرير لأصحو بعد هنيهة على صوت نقرات خفيفة على الباب تبينت في صوتها نقرات أمي الجديدة الطيبة. تنحنحت علامة على أني صحوت. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا، نهضت ساحبا فوطتي وذهبت إلى الحمام.. ارتديت ملابسي، تناولت فطورًا من الفول والفلافل والجبن القريش والطرشي مع كوب شاي بالحليب، ومثلما يفعل أبي بالضبط قبلت يدي ظهرا لبطن وحمدت الله على نعمته، تأبطت حافظتي، تقافزت فوق درجات السلم بنشاط.

عند خروجي من الكلية في حوالي الثانية ظهرا لاحظت أنني أتلكأ في الحوش وأتلفت حواليَّ، سرعان ما فطنت إلى أنني أبحث عن السيارة الزرقاء لأستاذي نجيب البدري، وجدتها بالفعل مركونة بحذاء سور الحوش. من خلال الزجاج ظهر هيكل رجل جالس على المقعد المجاور لمقعد السائق، عرفته من أول وهلة: إنه زميل لنا معيد في الكلية رأيته قبل أن ألتحق بالجامعة، كنت أراه كثيرا جدا في محرم بك، ثم اكتشفت أنه يسكن في شارع الحياتي المتفرع من شارع عرفان في مواجهة الباب الجانبي لدكان سيد البنهاوي صديقي الذي يؤلف الأغاني، ظننته من أبناء الحي سكندريًّا، إلى أن التقيته في الجامعة فعرفت أنه فلاح من المنوفية، وأنه ينوي الاستقالة ليعمل بالصحافة.

قلت لنفسي: مالك وهذه السيارة؟ فلتلحق بالباص يعيدك إلى حجرتك في شارع منشة لتتغدى وتغفو ساعة أو أكثر. صرفت نظري عن السيارة، لكن حين رأيتها تزحف خارجة هرولت نحوها حتى حاذيتها، توقفت، تبسم الأستاذ في أريحية:

- «توقعت أن أراك. اركب».

هتف الراكب بجواره في ترحيب:

- «أهلا يا بهاء».

- «أهلا يا سالم».

ركبت في المقعد الخلفي. قال الأستاذ نجيب البدري:

- «تعرف سالم طبعا يا بهاء».

- «طبعا، سالم الأمير رئيس اتحاد الطلبة».

- «المزمن!».

هكذا علق الأستاذ نجيب ضاحكًا، فعقَّب سالم:

- «أو المدمن!».

قال الأستاذ كأنه يقرر حقيقة:

- «منصب الرئاسة دائمًا يصيب بالإدمان».

أكمل سالم بخفة ظل:

- «.. فتجنبوه يا أولي الألباب».

ضحكنا مقهقهين. قال الأستاذ نجيب البدري:

- «تعرف يا بهاء أن سالم صهري؟».

- «معقول؟! مَن متزوج مِن بيت مَن؟».

في تواضع خجول قال سالم الأمير:

- «الأستاذ نجيب البدري زوج أختي، ولي الشرف!».

- «يا بختك يا عم!»..

- «يصر أستاذي على أن يعزمني على الغداء».

- «وهل تطول يا سالم؟ احمد ربنا!».

قال الأستاذ نجيب:

- «عزمته في العام الماضي، ومن يومها لم أعزمه».

- «اتحاد الطلاب أكل وقتي ودماغي».

- «لكنه ممتع لك بلا شك!».

- «يجرك غصبا عنك إلى العمل السياسي».

- «أنت له!».

- «أنت مشهور بأنك قارئ ممتاز.. ما آخر كتاب قرأته يا بهاء؟».

- «اسكت يا سالم! اكتشفت أديبا شابا جديدا يكتب قصصا قصيرة بروح مصرية خالصة.. سحرني ولخبط غزلي وقلب كل ما أفهمه عن الكتابة رأسا على عقب!».

- «لابد أنك تقصد يوسف إدريس! إنه على فكرة طبيب حديث التخرج. طبعا تقصد مجموعته أرخص ليال؟».

- «بالضبط! لقد ذاكرتها حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب».

- «أنا لعلمك أعرفه شخصيًّا، أصله من بلدة أمي، ولعائلته صلة قربي بعائلة أمي في بلدة البيروم شرقية. طب تصور أنني قابلته في قهوة عبد الله في الجيزة؟ أنت ربما لا تعرف أنني فزت بالمركز الأول مرتين في عامين متواليين في مسابقة نادي القصة للقصة القصيرة!».

- «جميل جدًّا! ويوسف.. هل هو سياسي؟!».

- «هو غالبًا شيوعي!».

- «توقعت ذلك».

- «هل تكتب يا بهاء؟».

- «كنت أحاول في الشعر والآن أحاول في القصة».

استدرك الأستاذ نجيب:

- «الأبحاث الفلسفية التي أطلبها منه يكتبها بلغة أدبية راقية ممتعة».

رشقني سالم بابتسامة مضيئة:

- «تدفع كم وأنا أدربك على الكتابة بسهولة؟».

- «كيف يا سالم؟».

- «أضعك في المعمعة.. في الورشة الحقيقية».

اقتربت مستندا على ظهر مقعده بذراعي:

- «ليتك تفعل يا سالم، تكسب فيّ ثوابا!».

- «مستعد أنت للشغل في الصحافة؟».

- «صحافة؟! إنها حلم حياتي يا رجل! يا خبر أبيض! مستعد أن أمسح بلاط صاحبة الجلالة!».

قال الأستاذ نجيب البدري:

- «فعلا يا سالم، بهاء يصلح للعمل الصحفي».

ثم مال برأسه نحوي قليلا:

- «تعرف يا بهاء أن سالم يعمل بالصحافة؟».

- «كيف؟ وهو طالب؟! كنت أعرف أنها أمنيته».

- «من قبل دخوله الكلية يعمل محررًا بالقطعة في مكتب جريدة العصر هنا في الإسكندرية. هو الآن يعتبر الرجل الثاني بعد مدير المكتب. سالم موهوب، وله مستقبل باهر في الصحافة!».

قال سالم:

- «أعرف أن المكتب الآن محتاج ل «ري رايتر».. ديسك مان. هل تسلك في هذا العمل؟».

هتف الأستاذ نجيب البدري:

- «بهاء لا يسلك إلا في هذا العمل بالتحديد! إنه موهوب في الصياغة الموجزة الواضحة. جربه لو أردت».

هزَّ رأسه في اقتناع:

- «ماشي، سأجربه».

- «شكرًا يا سالم! ما هذه الفرصة الخيالية؟ ربنا وضعني في سكتك لتقودني إلى حلم عمري!».

واصلنا الحوار المحبب إلى نفسي فلم أفطن إلى أنني نسيت نفسي ومشيت معهما. أفقت فجأة فوجدتني جالسا مع سالم الأمير في صالون شقة الأستاذ نجيب البدري الذي راح يعرفني على زوجه الدكتورة لطفية الأمير شقيقة سالم، وهي تعمل طبيبة في مستشفى الطلبة. شعرت بأنني أوشك أن أكون طفيليا فانتفضت واقفا ألوم نفسي على نسياني لنفسي. أصروا على أن أبقى للغداء معهم وزعمت أنني عزمت ضيوفا يجب أن أكون في انتظارهم. أمام إصراري وافقوا على انصرافي بشرط أن أشرب هذا الكوب من عصير البرتقال، شربت نصفه واقفا وصافحتهم عائدًا إلى شقتي في عمارة أرتين.

يا ربي! ما كل هذه الفرحة التي تعتريني عند الذهاب إلى هذه الشقة؟! هذا أمر لا يُمكن تجاهله مطلقا. لئن آمنت بالسحر فإن هؤلاء القوم لا بد أن يكونوا قد «عملوا لي عملا» سحريا يجعلني أسيرا لحب هذه الشقة لغرض ما في تدابيرهم الغامضة. إنني بالفعل أصبحت منجذبا إلى هذه الشقة بهذه الفرحة الطاغية كأنني ذاهب إلى جنة الخلد. شرعت أفكر في تقليد أستاذي نجيب البدري فأشتري قصريات الزرع أرصها أمام الشقة وفوق السطح كله.. هي إذن شقة العمر في عقلي الباطن!

كاد يصيبني الروع من منظر سطح العمارة من وقفتي على البسطة الأخيرة للسلم. كان السطح أكثر إشراقا ونظافة كأن يدًا إلهية تتعهده باستمرار، بدأت أستشعر أنفاسًا ملائكية تشيع البهجة والأنس ها هنا. مددت يدي بالمفتاح إلى الكالون. ثمة رائحة منزلية حريفة نفاذة آتية لاشك من ذلك المنور الكثيف الشبابيك من جميع الاتجاهات: رائحة بط مقلي في السمن البلدي؟ رائحة طشة الملوخية؟ رائحة أرز بالشعرية؟.. فتحت الباب، ثمة رائحة عبقرية زاعقة، رائحة أنثى، نعم، هذا عطر أعرفه وأنتشي منه. عجايب!.. الشقة يرفرف عليها طائر السعادة المبهجة بغير حدود، موسيقى هنا تصدح بصوت أم كلثوم: على بلد المحبوب وديني زاد وجدي والبعد كاويني. النكهة النفاذة قادتني مع صوت الغناء إلى المطبخ مباشرة، فاقتحمته بقلب واجف سيما وأنه متاخم لباب الشقة: ثلاث حلل وصينية موضوعة فوق سقيفة الموقد الكيروسيني، «باسم الله الرحمن الرحيم»، قرأت آية الكرسي، رفعت أغطية الحلل والصينية: بطة محمرة بالفعل مكتفة فوق أرز مخلوط بالشعرية، صينية مكرونة بالبشامل، ملوخية، جُلاَّش، عنب وتفاح وتين في طبق كبير، راديو صغير من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب موصول بالكهرباء مفتوح.. تملكتني الرعشة: هل جاء سكان جدد واحتلوا الشقة في غيبتي؟! لابد أنها أسرة، ولكن أين هي؟! رميت الحافظة على الترابيزة، تطلعت إلى حجرة النوم فإذا بها مغلقة مع أنني تركتها مفتوحة ليلة أمس. الشباك المطل على المنور تمت كسوته بستارة أنيقة من الدانتيل الأبيض ثبتت في العوارض الخشبية بمسامير مكتب نحاسية. خطوت بحذر شديد نحو الغرفة، بوجل نقرت بأصبعي على الباب، جاوبني في الحال من الداخل صوت أنثوي ساحر باهر آمر:

- «ادخل يا بهاء».

دفعت الباب. جمدني الذهول سمَّرني في فتحة الباب. كانت لولية هانم في قميص نوم شفاف يكشف صدرها كله وظهرها كله ومساحة طويلة من ساقيها وقد تمددت على السرير. جدائل شعرها الأسود منطرحة حواليها كشال من القطيفة السوداء. كان وجهها في اتجاه الباب، أبرز ما فيه عيناها الواسعتان المخيفتان لشدة سوادهما، لؤلؤتان تتأرجحان نحوي بنظرة طيرتني في الهواء محلقا مضطربا لا أدري أمن الرهبة والشعور بالخطر الداهم أم من الفرحة الطاغية! اعتدلت هي جالسة ثم واقفة، تلقفتني في حضنها بنزق واشتياق عارم ذي عنفوان مضمخ بالجرأة والاستبياع.. وقعنا معًا على السرير في غيبوبة نشوانة، تزأر تمور كالقطط الهائجة..

في عز الانتشاء الساحق رفرف طائر الشك فوق رأسي وراح ينقرني في صدري بمنقار ثاقب، أفقت، عدلتها قاعدة على حافة السرير، أقعيت أمامها محملقا في عينيها بتركيز، أتحسس كل عقلة أصبع في جسدها لأتأكد من أن الأمر واقع وليس حلما خياليا غير قابل للتحقق، تمعنت في عينيها:

- «كيف جئت إلى هنا؟!»..

أطلقت ضحكة خافتة ذات مغزى:

- «أنا صاحبة المفتاح! هذه في الأصل شقة أولاد خالتي، كنت أجيء أنا وأختي لميس من بورسعيد كل أسبوع لتنظيفها وغسل ثياب الولدين وتجهيز طبخة ترم عظمهما. لما سمعتكم في بيتنا تتحدثون عن سكن لك صعبت عليّ! ناديت عمرو بك وقلت له إنني أتنازل عنها لك بفرشها. كان قصدي أن تقعد فيها مؤقتا. صدمت لما عرفت أنهم غيروا العقد باسمك، لكنني رجعت وفرحت لك وتسامحت بنفس راضية. مبروكة عليك!».

- «أقصد كيف استطعت المجيء الآن؟!»..

- «عمرو بك أوصلني البارحة إلى بورسعيد وسلمني لمامي وسافر إلى قبرص بالمركب. غاوي مراكب سعادته! سيقضي هناك من خمسة أيام إلى أسبوع مع عملاء يستوردون غزلًا من الشماشرجية، وسيخطف رجله إلى باريس في عملية كلفه بها هاني بك، يعني أمامه على الأقل عشرة أيام.. إنه يتلكك على أي مشوار يبعده عن البيت! يختلق المشاوير لكي يسافر! أسهل شيء عنده: البسي هدومك لأوصلك إلى بورسعيد. يتركني هناك ويهج. أمره صعب يا بهاء! في غيبتي يأكل نفسه من اللهفة على رؤيتي، وفي حضوري يسأم مني بعد ساعات قليلة ويذهب إلى نادي الاتحاد ليلعب البلياردو. إنه عضو في جميع أندية الإسكندرية، ومع ذلك لا يأخذني معه إلى أحد الأندية مرة واحدة!».

- «لكن كيف خطر على بالك المجيء إلى هنا وإغراقي بكل هذا الكرم العظيم؟».

- «حاجة غريبة يا بهاء! أنا نسيت أشياء مهمة في شقتي لا أستغني عنها فعدت لآخذها إذ ربما سفريته تطول، لكن.. بمجرد ما دخلت الإسكندرية رأيت سيارتي تتجه وحدها إلى الإبراهيمية! ركنت السيارة تحت العمارة ونزلت إلى السوق. اشتقت إليه وإلى المطبخ، فأنا ست بيت أعشق المطبخ والتسوق. كنت أتمنى زوجا مثلك أطبخ له بنفسي فرزقني الله بزوج لا منه ولا كفاية شره! طباخ وسفرجية وأكل كأكل الفنادق والمستشفيات يسد نفسي! قم لنغرف ونتغدى».

ما أسرع ما انتهى أشهى غداء تناولته في حياتي. بعده استحممنا، لبسنا ثيابنا. قالت:

- «اتركني أعود إلى البيت آخذ ما جئت من أجله».

- «ستأخذين روحي معك!».

- «بعد يومين سأجيئك لأسعد بك! أنا أحب السواقة على الطرق السريعة. تريد أي شيء من بورسعيد؟».

- «لا أريد من الدنيا كلها شيئًا سواك!».

- «تعال نأخذ لفة على الكورنيش مثل عشاق الأفلام!»..

نزلنا معا، ركبنا السيارة، انطلقت على الكورنيش في زحف كالترتيل الطروب، كهديل الحمام.

(٣٢)

.. «في عينيك علامات استفهام وبجوارها علامات تعجب كبيرة، وفي قلبي كلام كثير..

«المسألة التي في دماغك لم تكن تهمني. صدقني، عمري ما تعذبت بسببها.. حتى وأنا فتاة مراهقة لم أكن أفكر في الرجل كذكر لازم للأنثي، بل أفكر فيه كرجل بمعنى الكلمة، يعرف قيمة الأنثى ويقدرها باعتبارها مسكنا وسندا وشريك حياة وليست مجرد أداة للمتعة يطلبها وقتما يشاء ويزهدها عند الملل!.. ربما لهذا وافقت على الزواج من عمرو بك؛ فأنا منذ صغرى أحب الرجل الكبير، أعشق الشعر الأبيض وأعتبره تاجا على رءوس الرجال يرمز للعفة والاحترام والمسئولية والحنان والخبرة والحضن الكبير الدافئ!..

«نعم، كنت واعية بأن رجلا في سنه لن يكون فحلاً قويا قادرًا على الإشباع، فأنا ببساطة لم ولن أكون تلك الأنثى التي تطلب فحلا يشبعها، إنما كنت فتاة تطلب أبًا بديلًا يصلح أن يكون في نفس الوقت أخا كبيرًا وزوجا حبيبا.. في سبيله كنت مستعدة للتنازل - عن طيب خاطر - عما تحتاجه الأنثى من الذكر!.. أما أن يوحلني الحظ الأعمى في رجل فظ غليظ القلب فإن الصدمة تكون شنيعة بشكل أعجز
عن وصفه!..

«المرأة - خل بالك - ليست ذلك الكائن المسعور جنسيًّا كما يتصور الرجال، إنما السعار الجنسي يصنعه الرجال فينا.. فلأننا من مقتنيات الرجل المخصصة لمتعته، فإنه يتفنن في إثبات فحولته ولو بوسائل صناعية تجعله يضاجع يوميًّا كأن الجنس هو الهدف الأول والأخير من الزواج، بل من الحياة كلها، فتكون النتيجة أن بعض النساء يدمنَّ الجنس إدمانا مرضيا، وحينما ينهدّ الرجل يضيق بها وينفر منها فتفقد كرامتها وشرفها في مكابدة البحث عن علاج لإدمانها، ولا علاج إلا كما قال المثل القديم: وداوني بالتي كانت هي الداء!.. الواحدة منا يكفيها حنان ورقة الرجل يوصلانها إلى الشبع الكامل!..

«عمرو بك باختصار ليس هذا الرجل! لا يمكن لأي مخلوق على الأرض أن يحبه!.. الأكادة أنه خلصان، البداية عنده هي النهاية. في الحال يستغرق في النوم! يتركني أتقلى فوق جمر النار كالحمص فوق المقلاة!.. لا يعرف شيئا عن المداعبة، فالمداعبة لا تأتي إلا من رقيق الحس، وهو للأسف لا إحساس عنده!.. ساعات يا بهاء تراودني الرغبة في أن أرمي نفسي من الشباك، أضرب رأسي بمسدسه الذي يضعه تحت مخدته كأنه سيخيف به ناسا تهاجمه في الأحلام وهو نائم، مع أنه ينام كالقتيل غير شاعر بالنار المتقدة في قلبي من الهوان الذي رماني فيه حظي التعيس!..

«خيبة الأمل كانت قاعدة في انتظاري على السرير ليلة الدخلة!.. فرهدني أكثر من ساعتين، يشيلني ويحطني، يبعزقني ويلمني!.. في النهاية حاول أن يفض بكارتي بأصبعه. فوجئ بأنني مسدودة بأسمنت مسلح! جسدي كان رافضا فقاوم بقوة وعناد!.. ظفر سبابته الطويل الحاد كسن الفأس انغرس في ورق الوردة شرخها.. سال دمي، لكن بكارتي بقيت مكنونة في داخلي. هو تصور أنه فضّ أغلفتي واستعملني، وأنا من جانبي مثلت عليه وقمت متوجعة أطبب جرحي في الحمام!..

«عائلتي المتزمتة ليس من السهل إقناعها بالطلاق، وبخاصة إذا كانت الأسباب كهذه يخجل الواحد من الكلام فيها حتى مع أمه، وإن تكلم يعجز عن إقناع أحد بخطورة شأنها! كارثة والله يا بهاء أن تتعلم تعليما عاليًا وأهلك باقون على جهلهم وتخلفهم فكأنك ما تعلمت! تجلب لنفسك العذاب، تصبح في واد وأهلك في واد آخر بعيد!..

«والله إني لحائرة يا بهاء ومعذبة!.. هل أشذ عن العائلة وعن نساء مصر كلهن فأرفع قضية في المحكمة وأطلب قضاة من كوكب العدالة البعيد عن الأرض وأقول لهم إنني من يوم ما تزوجته إلى اليوم لم أهنأ بحقي في الجنس إلا مصادفة مع شاب مكبوت وضعته الظروف في سكتي في لحظة جوع وحشي وفي يد كل منا طعام شهي للآخر؟! أقول إنني لا أحتمل ثقل جسد عمرو بك وأنفاسه الكريهة المخمورة على الدوام؟! هل أقول إنه يتخذني مرحاضا يبول فيه وقتما يشاء من دون أدنى اعتبار لمشاعري وحقوقي كإنسان مثله؟!..

« أعطني عقلك.. بماذا تنصحني أنت؟!.. ليكن في معلومك مقدما أن ثروات الشماشرجية كلهم، سواء هنا أو في الخارج، ليست تساوي في نظري لحظة قهر واحدة من الأيام السوداء التي أعيشها تحت سقف أحقر واحد فيهم، ذلك الذي يدّعي أنه أفقرهم وهو ماء تحت تبن، وربما كان أغنى واحد فيهم! يكفي أن العمارة التي يسجنني في شقة منها مكتوبة باسمي بيعا وشراءً كمهر لي! هذه العمارة واحدة من ثلاث عمائر يملكها، غير أراضٍ زراعية في رشيد وأراضٍ للبناء في المعمورة!!..

«بماذا تفيدني الثروة إذا كان شبابي سيذبل كعود الزرع في قصرية من الفخار بتربة صناعية لا غذاء فيها؟!.. كيف أنتشل شبابي من هذه القصرية التي ملحت وجيَّرت؟!

«آخر ما كنت أتوقعه من هوان - مع أن سلم الهوان نازل إلى ما لا نهاية - أنه بعد أن يعريني يرغمني على فتح فمي ليضع فيه عضوه الرخو المقرف بشرط أن أمصه حتى يدلق فيه طراشه القذر!.. توسلت إليه أن يعتقني لوجه الله من هذا القرف! قلت له إن هذه الوساخة لم يقرها شرع ولا دين ولا حتى سلوك الحيوانات!.. ليلتها قال إننا متخلفون، وإن الناس المتقدمين المتحضرين يفعلون هذا لأنه هو الجنس الحقيقي! حدثني عن صور فوتوغرافية بالألوان تثبت صدق قوله، صور لناس في حالة جماع جنسي يفعلون هذا الفعل! سألته عن العاهرة التي شاف عندها هذه الصور، قال إنه شافها معك، تحديته أن يريها لي. وعدني أنه سيرغمك على أن تجيء له بالصور لحد عنده ورجلك فوق رقبتك!..

«لو بقيت مع قنطار اللحم هذا عامًا آخر سأتحول إلى مقعد من الرخام يجلس فوقه مُدليًّا ساقيه القبيحتين المترهلتين!..

«كنت طفلة يوم خطبني! عجوز من عائلة تحب الفلوس كعينيها خطب طفلة من عائلة تعبد الفلوس. الفلوس في النهاية تستعبد العائلتين، والإنسان في العائلتين عبارة عن فلوس! موروثة أو مسروقة لا يهم! عندهم وعندنا لا أحد يسألك: من أنت؟ إنما يسألك: كم أنت؟! الفلوس تكلمت، الفلوس اتفقت، الفلوس تقنعت وتقانعت. أصبحت الطفلة الغريرة طالبة الليسيه زوجة لقنطار اللحم عمرو بك الشماشرجي، وتلك قصة طويلة قد أحكيها لك ذات لحظة..

«حسبي الله ونعم الوكيل! سنوات ضاعت من شبابي وسط عائلة وسخة شرهة للمال والسلطان حتى لو دفعت فيهما شرفها إن كان لا يزال عندها شرف!..

«تصور أنهم جميعا يكرهونني؟ على ماذا الكراهية يا حسرة؟! أخذت منهم سبع البرمبة؟ جاتها نيله اللي عايزه خلف!.. هم على فكرة متأكدون أنني شربت المقلب حتى طلع من نافوخي!.. مع ذلك أقول لك لماذا هم يكرهونني، الرجال منهم قبل النساء..

«هل تصدق، أو حتى تتخيل، أن جميع رجال الشماشرجية طمعوا فيّ وغازلوني بإلحاح وانحطاط وسماجة؟!.. نعم، بمن فيهم الحاج قرد نفسه!.. حتى الولد البايظ التافه المدعو حمادة هو الآخر طاردني بكل ما تتخيل من الطرق والحيل! هداياه الغالية كنت أرميها أمامه في صفيحة الزبالة، أعامله أحقر من معاملتي لكلب جربان، أطرده من الشقة، أبصق في وجهه أحيانا، أرزع الباب في وجهه، أهدده بعلقة يموت فيها من أخي وأقاربي المستبيعين الملابطين مع الحكومة.. وكل ذلك - أف! يا ربي - لا يمنعه من معاودة التودد إليّ بلزوجة، فما كان مني إلا أن اتكلت على الله ونزلت فيه ضربًا بالشبشب حتى دحرجته على سلم العمارة ليتسلمه البواب ويكمل عليه! أوريته أن البنت البورسعيدية طالبة الليسيه لها وجه آخر، وجه بنت البلد الخشنة العفية أمّ لسان طويل ويد أطول!!..

«قل لي أي اسم من أسماء الشماشرجية وأنا أقول لك كيف تودد إليّ وكيف حاول معي!.. الحقارة الزائدة عن الحد أنهم جميعا متأكدون أن عمرو بك خلصان!.. جميعهم لوَّح لي بهذا المعنى، وبعضهم صارحني بأنه يستخسر شبابي في قنطار اللحم!..

«تخيل! إما أن أكون فرسا يركبونها كلهم وإما أن يكرهوني ويعاملوني بغطرسة حين يرغمني قنطار اللحم على زيارتهم معه!..

«أما نسوان الشماشرجية فأمرهم غريب! يكرهنني لاعتقادهن أنني عملت فتنة في رجالهن وأني أسحر لهم لأوقعهم في غرامي!.. أكثر من واحدة منهن قالت لي هذا بصراحة ولكن في مزاح وامتداح مسموم لجمالي!..

«كلهم وكلهن براميل معبأة بالزفت والقطران! كان من حسن حظي أنهم كرهوني فكرهتهم وتفرغت لدراستي في كلية الآداب قسم الأدب الفرنسي الذي سأتخرج فيه بإذن الله قريبا..

«ربنا ينجيك منهم على خير.. خل بالك.. أي منظر كرم يفعلونه معك لا تصدقه.. هذا هو أسلوبهم مع من يعملون عندهم، يعوّدونهم على العز والرفاهية ليتمكنوا من استعبادهم وربطهم بالجنازير كالخنازير في خدمتهم مدى الحياة!.. من تدخل عليه حيلهم ويأكل من كلامهم سيجد نفسه ذات لحظة غارقًا في ديون لا يذكر متى اقترضها ولا فيم صرفها.. ديون تلتف حول خناقه إلى أن يموت!..

«قنطار اللحم كثيرًا ما ينسى نفسه ويكلمني في هذه الأشياء في عنطزة هبلاء متفاخرًا بأنهم تعلموا فن الإدارة هذا -

شف البجاحة في تسمية هذه الخساسة بالإدارة - من جدهم الباشا الأكبر الذي تعلمها في الأصل من اليهود!.. قنطار اللحم دائم الغزل في اليهود: شطار، نشطاء، نبهاء، عباقرة، ينطبق عليهم المثل: من يجاور السعيد يسعد!..

«الشماشرجية - كما وصفهم جدي لأمي ذات يوم - هم كلاب حراسة اليهود، يعيشون على فضلاتهم ويكسبون من ورائهم!

«بالمناسبة، لا تصدق أنهم يحتقرون أم عود القصب الممصوص حمادة: مدام راشيل.. إنهم جميعا واقعون في عشقها لشوشتهم!.. طبعا هم يقولون إنها مفيدة بعلاقاتها، وهذا صحيح؛ فهي تستطيع الحصول على توقيعات من المسئولين، كل توقيع يساوي الشيء الفلاني.. عندها كفاءة جهنمية في الركوب على صفقات جاهزة تعب فيها غيرها وعجزوا عن تخليصها من الجمارك مثلا، فتدخل هي فتخلص وتأكل خير الصفقة.. لكن الشماشرجية يعتبرونها نتاية طايبة يريلون عليها!.. التخين فيهم - الحاج مصطفى يعني - الممثل البارع الذي يمثل دور المتصوف المؤمن الورع لا مانع عنده من أن تخرق راشيل واحدة من عينيه في سبيل أن تنام معه ليلة واحدة!.. قنطار اللحم يقول هذا عيني عينك أمامه وأمامنا جميعًا!.. إنهم يدللون الولد حمادة - شأن جميع من يعرفونه - مجاملة لأمه، يحتفظون به
ليربطهم بأمه!..

«و.. و.. آه.. يا ربي!.. والله العظيم أنا لست مفترية ولا كذابة إذا قلت لك إنني أشعر بوجود علاقة جنسية بين قنطار اللحم عمرو بك زوجي وبين حمادة الشماشرجي ابن أخيه!.. نعم، أنا لست عبيطة.. ضبطتهما كثيرًا يتناجيان يتحسسان بعضهما بعضا في الشقة الجوانية!!.. مرة رأيت الولد قاعدًا على حجر قنطار اللحم يقبله في شفتيه! انسخطت، عجزت عن الصراخ، فجريت إلى غرفتي أسح دموعا من كل عين حفان!..

«كان الود ودهم لو أكون مثلهم.. إنما لا.. فَشَر!.. ولعلمك، أنا لست محتاجة لأن أشرح لك ما في ضميري وشخصيتي!.. لن أصدع دماغي ودماغك بالبحث عن مبرر لما فعلناه معًا أنت وأنا أو أنا وأنت، لا فرق!.. هذا شيء وقعنا فيه دون إرادتنا.. إن كان الشيطان هو الذي أوقعنا فإننا ندعو الله أن يغفر لنا ضعفنا تحت وطأة الحرمان.. وإن كان الله سبحانه وتعالى قد كتب علينا هذه الخطيئة التي لم نسع إليها ولم نطلبها ولم نعرف حتى الآن كيف حدثت، فإن هذا يكون أمره، ولكنه لا بد سوف يحاسبنا على عدم مقاومتنا لإبليس اللعين حتى وإن اعتقدنا بأننا كنا غير قادرين على المقاومة!.. أنا شخصيًّا سأمتثل لأي عقاب يفرضه الله عليّ، فاللهم لا اعتراض، ولكني أسألك اللطف في العقاب!..

«المشكلة أنني صرت الآن مدركة بأن أحدنا غير قادر على نسيان الآخر، فماذا يكون الحال؟!.. هذا أيضا ما أسأل الله أن يلهمني الصواب فيه!..

«صدعتك؟ لكني فضفضت، أزحت جبلا كان باركا فوق صدري..

«أهذا هو شارع منشة الذي أردت أن أوصلك إليه؟.. تقول إن عمك يسكن فيه؟.. أتركك في رعاية الله وعمك، وأراك بخير إن شاء الله بعد يومين. إلى اللقاء».

عندما فتحت لي الحاجة عمرانة باب الشقة اختفت جميع ملامحها في ابتسامة واسعة خددت صدغيها. جعلت تتشمم بحركة مسرحية لطيفة، مشت ورائي في الممر الموصل للصالة المربعة المستخدمة كغرفة للمعيشة. صوتها الطيب الخالي من اللوع يلاحقني:

- «يا ترى حضنت من؟!».

توقفت مندهشا:

- «هذا العطر ملوكي.. تراك حضنت الملكة ناريمان؟!».

ضحكتُ إلى حد القهقهة:

- «ناريمان حتة واحدة؟! إيش وصلني للملكة ناريمان؟!».

واصلت المشي إلى الصالة.

نفس الحركة المسرحية اللطيفة في التشمم استقبلني بها خليل أفندي الذي كان منطرحا على «شيزلونج» عتيق من الخيزران يتصفح مجلة «آخر ساعة» التي يقول إنه يشتريها من قبيل الولاء لمحمد التابعي فحسب أملًا في أن يفاجأ بعودته للكتابة فيها، ففوجئ بمحمد تابعي صغير اسمه محمد حسنين هيكل سرعان ما كبر وصار في حجم جريدة الأهرام، ثم كبر أكثر فصار في حجم الثورة. رفع ظهره عن المسند المائل واعتدل جالسا يبدو عليه الانبهار هاتفا بلهجة خبير دارس:

- «لا لا.. ناريمان مين وبتاع مين؟! هذا العطر ثمن الزجاجة الواحدة منه ينفق على معيشتنا شهرا كاملًا!.. زجاجة في حجم الكف لا يفهمها ولا يشتريها إلا كبار الأثرياء في العالم».

استفزني صوته الواثق من معلوماته، فسألته:

- «لماذا تتكلم بهذه الثقة يا عم خليل أفندي؟!».

اعتدل أكثر، ظهر عليه ذلك الحرج الذي يطرأ على وجه نجم شعبي قديم اضطرته الظروف لأن يعرّف بنفسه، حيث تذرع بكل ما في الدنيا من لطف وتواضع:

- «ألم يقل لك عمك إسماعيل إنني خبير عطور؟».

هزتني المعلومة:

- «لا والله يا عم خليل أفندي. آسف جدا. هل أنت خبير في العطور فعلا؟».

- «هذه شغلتي الرسمية: خبير عطور».

أردفت الحاجة عمرانة:

- «عمك خليل أفندي كان خبيرا في مصنع عطور فرنسي له فرع إنتاج في مصر، كانت في يده كل أسرار التركيبات ومعامل التقطير. هذا القاعد أمامك يقرأ في «آخر ساعة» دربوه في المصنع الرئيسي في فرنسا لمدة ثلاثة أعوام».

- «في أي كلية تخرجت يا عم خليل أفندي؟».

- «في كلية الحياة الدنيا!».

تبسمت الحاجة عمرانة:

- «كان طالبا في كلية العلوم لكنه لم يأخذ الشهادة».

لوح خليل أفندي بذراعه:

- «أنا بعون الله دكتوراه في الكيميا! المسألة ليست مسألة شهادات!.. أنا من القلائل الذين لديهم علم بكيفية صناعة

العطور عند الفراعنة الذين أبدعوا في استحلاب الزهور النابتة في أرض
مصر الطيبة».

- «ولكن.. يا عم خليل أفندي...».

قاطعني:

- «وكلاء المصنع الفرنسي في مصر كانوا يهودًا طلاينة، فلما قامت الثورة بقيادة اللواء محمد نجيب صفوا المصنع والتوكيل وهاجروا إلى بلادهم».

استدركت الحاجة عمرانة:

- «والله يا بني ياما تحايلوا عليه ليهاجر معهم. ياما أغروه بالمال!».

أضاف خليل أفندي:

- «أصلهم نقلوا التوكيل إلى روما، وعرضوا عليّ أن أكون مديره، فأنا أجيد الفرنسية والإنجليزية وألطش في الطلياني!.. أنا مزاجي مصري. فقري! خفت على البنتين وأمهما من بلاد لا تعرف الله، رفضت السفر.. سأريك صورا لي في المقر الرئيسي في باريس».

قالت الحاجة عمرانة مبتسمة:

- «هو يتحجج بي وبالبنتين، والحكاية بصريح العبارة أنه خاف من ملاعيب اليهود التي ظهرت منهم بعد الثورة».

- «طبعا يا بهاء يا بني لازم أخاف! الثورة صحَّت فينا الوطنية، وهؤلاء الأجانب هاجروا بأموالهم بعد الثورة ليوقعوا بالاقتصاد المصري في الحضيض وتفشل الثورة قبل أن تسفر عن زعيمها الحقيقي جمال عبد الناصر.. فكيف أسافر معهم وأنا لا آمَن جانبهم بعد ما ظهروا على حقيقتهم؟!».

أظن أن خليل أفندي حكى لي - تقريبا - قصة حياته حتى بلوغه السبعين من العمر ولا يزال فتيا. أظن كذلك أن الحاجة عمرانة وضعت لي طعاما على المائدة وأنني اعتذرت عن عدم الأكل لأنني شبعان؛ ذلك أنني كنت شبه غائب داخل نشوة مبطنة بالقلق. كنت لحظتذاك أتمنى لو أنني استطعت أن أقصّ شريط الزمن بمقص لأختصر منه اليومين الباقيين على موعد لولية هانم.

كنت منجذبا إلى شقة الإبراهيمية بمغناطيس لا أستطيع الفكاك منه. كلما انصرمت ساعات من الوقت المتبقي يحلو لي أن أتصنع نسيان الأمر، أفتعل عدم الاهتمام؛ لا لشيء إلا لكي أتمتع بالمفاجأة لحظة حضورها، إلا أنني أضبط نفسي في الحال متلبسا بإعطاء أذني للسطح الخارجي مصغيا بإمعان، أترصد كل حركة تحدث في مدخل السطح أمام بسطة السلم: إذا داعبت الرياح ورقة، إذا ماءت قطة، حتى لقد وددت لو أن الموسيقى الكلاسيكية الصاعدة من المنور قد سكتت الآن فحسب، لو أن عصافير خميلة الدكتور نجيب البدري كفت لبرهة وجيزة عن الطيران والشقشقة حتى أهنأ بالاستماع إلى موسيقاي العظمى، موسيقى صوت حفيف ثوب الحبيب وهو قادم.. إلا أن الصوت كان قويا، واضحا صريحا، متحديا.. صوت الكعب النحاسي العالي يقرع بلاط السقف في إيقاع متناغم متصاعد متقارب يتماهى مع صوت دقات القلب بين أضلعي، صوت دوران المفتاح في الكالون دغدغ مشاعري، دلكها..

كانت محملة بأشياء كثيرة، جعب وأكياس ولفات مطبوع على ورقها أسماء محلات شهيرة، ألقت بها على الترابيزة نازعة حقيبة يدها من كتفها، رمت بنفسها في صدري، استراح رأس كل منا على كتف الآخر، أهصرها وتعصرني، بدا كأنه لا انفكاك بيننا إلى الأبد. على أنها انزلقت من بين ذراعي إلى المطبخ:

- «لماذا لا تفتح الراديو؟ تركتُه ليسليك».

- «والله ما تذكرته».

انطلق من المذياع صوت هدير غنائي: «أمجاد يا عرب أمجاد، في بلادنا كرام أسياد». راحت لولية هانم تغني على اللحن بأداء هزلي خفيف الظل:

- «كداب يا غُنا كداب.. في بلادنا قطط وكلاب!».

ثم حركت المؤشر حتى اقترب صوت محمد قنديل ثم اتضح وانضبط باللحن الشجي الهادئ: سماح يأهل السماح، لوم

الهوى جارح.. أصل السماح طبع الملاح، يا بخت من سامح.

عدت وراء لولية إلى الترابيزة، تابعتها بانبهار عظيم وهي تفك الربطات وتفض الجعب والأكياس: منامات من الحرير لي ولها، قمصان بديعة لكلينا، ملابس داخلية، فوطة، بشكير حمام، صابون غسيل، صابون «ج ١١» معطر، من كل شيء لكل واحد ثلاث قطع.

كانت يومذاك أجمل بكثير جدًّا منها في المرتين السابقتين، تحولت إلى مزاج صرف، رائق، نشوان، متبتل في النشوة، يتشخصن في امرأة اكتسبت ثقة بنفسها واقتناعا بما تفعل، ملأتني جرأة وتطامنا. عندما تأهبتْ للانصراف دخلَتْ إلى المطبخ، خلعتْ «فيشة» المذياع، لفتْ السلك حوله، توجهتْ به إلى غرفة النوم، وضعَتْه في قاع الدولاب، لمت الهدوم الجديدة وزجاجة عطرها ومشطها ثم وضعت كل ذلك في قاع الدولاب وأقفلته بالمفتاح، سلمت المفتاح لي:

- «خَلِّهِ في جيبك».

- «هل يجيء أحد هنا؟!».

هكذا سألتها متوجسا. تبسمت:

- «احتمال واحد في الألف أن أحدا من أولاد خالتي الذين لم أرهم بعد لأبلغهم بما حدث يكون في مشوار للإسكندرية فيحن إلى الشقة فيمر عليها».

- «يمكنني أن أغير الكالون».

- «لا داعي لذلك الآن حتى لا تدوخ في توصيل المفتاح الجديد إليّ.. كل ما في الأمر لكي تفهمني جيدًا أنني أحب الاحتياط لكل كبيرة وصغيرة.. هكذا تعلمت من جدي عبد السلام!».

في الزيارة الخامسة باتت العلاقة بيننا حبا حقيقيا ملتهبا قويا، مستعدا للدفاع عن نفسه ضد أعتى قوة في الأرض. عقل لولية كان بديعا كجسدها، عقل بنت البلد البورسعيدية ولكن بعد أن هذبه التعليم الفرنسي الذي جعل منها سيدة بمعنى الكلمة قوية الشخصية طاغية الجاذبية والتأثير لم تفقد مذاقها البلدي الحميم حتى وهي تقرأ لي - بفرنسية طلقة ممسوقة - فقرات من أشعار بودلير ورامبو وبول فاليري.. لقد أوصتني بالتأني والرزانة والكتمان، نبهتني من جديد إلى أنني يجب أن أكون على حذر ويقظة في علاقتي بالشماشرجية.. اتفقنا على أن تكون لقاءاتنا على غير موعد، وأن تكون ساعة اللقاء دائمًا في فترة المساء ما بين خروجي من الكلية إلى ذهابي إلى الشركة، أي أنني يجب أن أوجد في الشقة يوميًّا في هذه الحصة المسائية تحسبًا للزيارة المرتقبة.

انتظمت اللقاءات على هذا النحو طوال ما يقرب من عامين وربما أكثر. الغريب أن العلاقة الجنسية بيننا قد صودرت تماما بعد اللقاء الثاني، أي أن اتصالنا الجنسي لم يقم إلا مرتين اثنتين أفقنا بعدهما على ما هو أجمل وأكثر إشباعا لكلينا: مجرد الرؤية، التقارب، التلامس، الدفء العاطفي الحنون، المناقشات الحميمة فيما نقرأ من قصص وروايات ودواوين شعر.

لم تعد شقة الإبراهيمية هي مكان اللقاء وإن كانت مجرد محطة. دربت أذني على التقاط صوت بوق سيارتها المميز حيث يناديني من أمام بيت العمارة بثلاث صيحات متتالية متلاحمة، فأهرول نازلا إليها لننطلق إلى أماكن بعيدة جدًّا لنكمل قراءة أعمال لسارتر وألبير كامي ولورنس داريل وتشيكوف وديستويوفوسكي وشتاينبك وهيمنجواي، نكرر تحيزنا ليحيى حقي ونجيب محفوظ ضد أدبية محمود تيمور المفرطة وخفة يوسف السباعي، نعجب بشجاعة إحسان عبد القدوس وعالمه الأنثوي التحرري، لا نمل من الحديث عن ذلك «الولد» الجديد الطبيب المدعو يوسف إدريس وعالمه الفلاحي الساحر، وعن تلك البنت الجديدة المسماة بفرانسواز ساجان صاحبة «صباح الخير أيها الحزن».. كل ذلك تحتويه بهجة كبرى هي فرحة وجودنا معًا واكتشاف كل منا للآخر في وسط ليس يشغله سوى حديث المكسب والخسارة.

(٣٤)

استدعاني عمرو بك بمجرد حضوري إلى مقر الشركة. حين دخلت إليه كان يتحدث في التليفون باندماج كامل.. لا بد أن خبر نجاحي بتقدير متقدم قد وصل إليه مع خبر نجاح لولية هانم في الليسانس، مع ذلك هو الوحيد الذي لم يبارك لي بعد، في حين احتفل بي رشيد بك السيسي على طريقته المشعة بالدفء: قام واحتضنني في أبوة حقيقية مبديا إعجابه الشديد بعصاميتي، ثم غمزني بورقة من فئة الجنيهات الخمسة لكي أشتري تورتاية وأقيم احتفالا مع أصدقائي.

في تلك اللحظة دخل مسعود أفندي كيرلس وأبلغه بأنه نفذ أمره بإرسال باقة ورد إلى لولية هانم مع بطاقة تهنئة بحصولها على ليسانس الآداب، ولم ينس التنويه بأن البطاقة المرسلة هي التي كتبها رشيد بك بخط يده باللغة الفرنسية على اعتبار أن ليسانس لولية هانم في الأدب الفرنسي الذي يُعتبر رشيد بك من كبار قرائه في مصر ويفخر دائمًا بأن كلا من أندريه جيد وأندريه موروا يراسلانه ويراسلهما باستمرار.. عندئذ هزتني الفرحة، زلزلتني. كان الفرح بنجاح لولية في الليسانس أعمق من فرحي بنجاحي إلى السنة التي ستنتهي بالليسانس إن شاء الله في الفلسفة وعلم الاجتماع.

عمرو بك وضع سماعة التليفون منشرح الصدر مفرود الوجه مما يشي بأنه يزف لي الفرحة مقدما. أشار بذراعه التخينة القصيرة فاردا يده المتختخة:

- «اقعد يا بهاء».

قلت قبل أن أجلس:

- «مبروك يا عمرو بك، ألف مبروك».

رمقني في دهشة غيرت ملامحه تحت ثقل من التحفز:

- «مبروك على ماذا؟!».

ارتبكت، فتهاويت جالسا على الفوتيّ لاويًا جذعي لأنظر إليه في المواجهة، قلت بحذر شديد وعلى استحياء:

- «أليس في بيتكم اليوم فرح؟!».

انتفض كأنني صفعته:

- «فرح؟! قلت: فرح؟!».

- «كما أتخيل».

- «وتتخيل؟! تخترع لنا أفراحا من دماغك؟!».

- «يظهر أنني فهمت خطأ!».

- «على إيه فرح؟!».

- «بمناسبة نجاح لولية هانم في ليسانس الآداب!».

حملق في وجهي لبرهة، رأيت نفسي في عينيه مجنونا عبيطا يستحق السخرية. انفجر في ضحكة صاعقة:

- «أنت رجل طيب صحيح! هل تقيمون في بلدتكم أفراحا للناجحين في الدراسة؟!».

- «ليس ضروريا أن نقيم الأفراح، لكننا نفرح!».

- «يا سيدي العقبى لك تفرح بليسانسك! متى سيكون؟!».

نبرة السخرية والاستخفاف كانت واضحة، ومع ذلك تحديته متجاهلا استخفافه:

- «العام القادم بإذن الله».

- «يا ترى من يعيش!».

فزعنا معا من رنين جرس التليفون الذي اندفع بقوة على غير توقع. انعوج إلى اليسار، رفع السماعة، هتف:

- «آسف! الخط قطع من عندك أنت لا من عندي. لا مشكلة!.. يا ست الكل أنا قلت لك إني مستعد للمجيء ماشيًا على قدمي حتى ولو كنت في بلاد واق الواق. يكفيني رضاؤك عني. تقولين فيها؟ نعم وحشتني الترابيزة! يدي تأكلني أنا في عرضك على رأي الأغنية، لكنك تعرفين البئر وغطاءه. نعم؟! هاهاهاي، مت يا حمار إلى أن يجيئك العليق! على كل حال ماشي، ربنا معنا إن شاء الله، كله على الله! قلت لك كله تمام فلا داعي لكثرة الكلام. الولد الخلبوص عندك؟.. أين ذهب يا ترى؟.. أبدا والله، إني أحبه كما تعرفين. ماشي.. ماشي.. إلى اللقاء ستي أنا!».

وضع السماعة، نظرلي، بدا كأنه قد فوجئ بوجودي، بدا أنه غير مرحب بوجودي المفاجئ هذا. قال في سأم كأنه يريد أن يتخلص
مني بسرعة:

- «نعم؟ تكلم، إني مصغ إليك».

- «يا عمرو بك حضرتك طلبتني، فحضرتك هو الذي من المفروض أن يتكلم».

لمعت عيناه كثقبين مفتوحين على جهنم، خبط بكفه المتختخة على جبهته الضيقة قياسا على صدغيه المنتفخين:

- «يا ربي! دماغي سابت والعوض على الله!».

- «سلامة دماغ حضرتك!».

- «شف يا سيدي، أنت الليلة معزوم على العشاء عند الحاج مصطفى.. شف الأملة!.. يظهر أن الرجل الطيب أحبك فاصطفاك لتكون من بين أصدقائه وجلسائه».

- «مناسبة سعيدة، أم أنها مجرد عزومة؟».

- «العشاء مع الحاج مصطفى في حد ذاته مناسبة أكثر من سعيدة».

- «إشكال! ماذا أفعل الآن؟! هل يمكن أن أستسمحكم في الاعتذار الليلة؟».

هب واقفًا ثم انحط جالسا، صار وجهه مثل كرة انتشلوها من بركة آسنة. راح يتلفت حواليه كالموتور:

- «اعتذار؟.. يقول اعتذار!.. أنت أكيد أكيد جننت!.. الحاج مصطفى لو عزم جمال عبد الناصر سيستأذن من الرياسة ويأتي له في التو واللحظة.. ويجيء هلفوت مثلك ويقول بالفم المليان: أعتذر!».

- «أنا هلفوت يا عمرو بك؟!».

- «أنا قلت إنك هلفوت؟!».

- «تنسى في التو واللحظة؟!».

- «افرض يا أخي أني قلتها، أنت بالنسبة للحاج مصطفى تعتبر من الهلافيت، وأن تجيء كلمة الاعتذار على لسانك فهذه من غير مؤاخذة قلة أدب!».

دارت بي الأرض، كأن الأرض قد خففت من دورانها فجأة فبدأ كل شيء عليها يهتز ويفقد توازنه. ثقل دماغي، كل قواي مركزة في كيفية مصادرة دموعي قبل انهمارها، لم أجد مفرا من أن أشيِّع إليه نظرة أسف مشمئزة، تعمدت فيها تجسيد الاشمئزاز على ملامحي كحائط صد أتقي به انفلات لسانه، إلا أن صوته الشرطوي القبيح راح ينهال على أكتافي كالكرابيج:

- «من أنت حتى تقول للحاج مصطفى الشماشرجي: أعتذر؟!.. خيرا يفعل شرا يلقى؟!.. الرجل عنده ضيوف مهمون، ذبح لهم عجلًا. كنت أول من طلب حضوره في هذه الوليمة.. ميزك على كثيرين من الشماشرجية.. وهل كنت تطول أن تجلس مع الحاج مصطفى الشماشرجي في مجلس واحد لولا تواضع الرجل وطيبة قلبه، أم أن نجاحك في الكلية تخَّن أذنيك فتصورت أنك صرت نارًا على علم، بل تصورت أنك ند للحاج مصطفى وتقول له: أعتذر؟! يا أخي اختشِ قليلا! خل عندك حياء!».

نازعتني خواطر عنيفة حادة: أن أقلب عليه المكتب، أن أطسَّه بهذه المطفأة البللورية الثقيلة، أن أبصق في وجهه، أطبق في زمارة رقبته فأقضمها بأسناني، أشيّع لوجهه عدة روسيات تعجنه في بعضه.. امتدت يدي بالفعل إلى الطفاية. فوجئت بذراع لولية هانم تقبض بيدها على ساعدي ليمنعني، فيما امتدت ذراعها اليسرى زاحفة على كتفي ويدها تملس على رأسي برقة وأمومة. مؤخرة رأسي مدفونة في صدرها إذ هي تميل لكي تضع قبلة فوق قمة رأسي. سرى في عروقي خدر جميل مفعم برحيق البهجة: إنه صوت لولية هانم يهمس في أذني: «إياك أن تغضب! اسخر منه بدلًا من الغضب فإنه مثير للسخرية وللرثاء أيضا يا عبيط، فما هو إلا ضابط شرطة منحرف خلبوص! اصبر من أجل خاطري، لا تتهور في فعل يقف في طريق مستقبلنا. قل له حاضر يا عمرو بك، شكرًا يا عمرو بك، أوامرك يا عمرو بك، ثم ارمه وراء ظهرك. كن هادئ الأعصاب حتى لا يستدرجك إلى الغلط في الكبار ويكسب بنطا على حسابك حينما يشاع أنه شتمك من أجل فلان»..

ارتعد جسدي. تلفتُّ حواليَّ وخلفي بحثا عن لولية هانم، فما وجدت إلا خيالًا عبر ثم اختفى. وقفت مستردًّا هدوئي:

- «حاضر يا عمرو بك، سأحضر العزومة!».

- «قل لي إذن: لماذا كنت ستعتذر؟».

- «أعمامي الثلاثة سيحتفلون بي الليلة في بيت عمي صلاح في كوم الدكة.. ليس من المعقول طبعا ألا أكون موجودا!».

غرز أصابعه في صدغيه وزام:

- «على كل حال اذهب واحتفل معهم. اترك لي عنوان عمك صلاح، وفي وسط الليل أبعث لك السائق يأتي بك».

- «يعني هناك إصرار على حضوري!».

- «سيزعل الحاج مصطفى ويأخذ على خاطره منك. أنت لا تحتمل زعل الحاج مصطفى، فكن عاقلا واسمع الكلام!».

- «حاضر يا عمرو بك. هذا هو عنوان عمي صلاح».

خرجت أجرجر أذيال القهر والدهشة من هذا الإصرار الغريب على حضوري هذه العزومة كأنني صرت فجأة من علية القوم.

عمي صلاح قال هذه العبارة بنصها في مزاح حينما أبلغتهم أنني سأضطر إلى المغادرة في التاسعة مساء لتناول العشاء مع الحاج مصطفى الشماشرجي وأن سيارة شماشرجية ستأتي لتأخذني إلى قصره في غيط الصعيدي، وأن علينا أن نصغي جيدًا لصوت كلاكس سيطلق ثلاث صيحات متتالية لكي أنزل بسرعة. علق عمي إسماعيل بنبرة تهكمية:

- «أهو عشاء عمل يا ترى؟».

كاد الزعل يتحول إلى غضب حزين عند زوج عمي صلاح التي أتعبت نفسها وطبخت وليمة تليق بحفل نجاحي، لولا أنني تداركت الموقف وقررت العشاء عندها حتى الشبع وليذهب عشاء الشماشرجية إلى عرصات الجحيم.

- «يا امرأة عمي، إن عشاءك هو الأهم عندي وهو الأعز والأكثر إشباعًا وفائدة لي! يكفي أنه معمول لي بنية خالصة على
الحب وحده!».

حرارة الود بين أعمامي سيَّحت جمود الذكريات القديمة فقامت بينهم مباراة في حكي الذكريات العزيزة أيام كان أبي مقيما في الإسكندرية. ما أكثر النوادر والمواقف والطرف التي تركها أبي وراءه في الإسكندرية!.. ما أجمل أن تسمع ذكريات طفولتك التي لا تعيها. هؤلاء جميعًا شاهدوني لحظة مولدي وتبادلوا حمل الغربال الذي أرقدوني عليه يوم السبوع، و.. شفت تصاريف الأيام؟!.. من كان يتصور أن الطفل الذي غادر الإسكندرية قبل أن يعي سيكتب له العيش فيها في شبابه وربما بقية عمره؟!

عندما سمعنا صوت الكلاكس المرتقب نزل علينا كهمِّ الموت يقطع لنا تدفق الصفاء ودفء اللقاء وألق الذكريات الحميمة بما تحمله من زخم الصدق الإنساني. عمي عوض تنهّد مطلقا زفرة غَمُضَ معناها على فطنتي، ثم ضغط على يدي وهو يصافحني هامسا بلهجة آمرة:

- «كلمني غدا في التليفون. إن كان عندك وقت غدا يستحسن أن تمر عليّ في البيت. ستحكي لي معنى ما يحدث الآن، فأنا بصراحة لست مطمئنا إلى تطور العلاقة هكذا بينك وبين كبار الشماشرجية إلى هذا الحد مع أنك لست رشيد بك السيسي ولا مدام راشيل!».

تعمدت أن يسمع الجميع صوتي:

- «صدقني يا عمي، أنا أشد توجسا من حضرتك بهذا التطور!.. سوف أحكي لك ما دار بيني وبين عمرو بك من حوار سخيف عندما حاولت الاعتذار عن الدعوة المفروضة عليّ بالأمر المباشر. اطمئن يا عمي فأنا أوشكت أن أفهم تركيبة هذه العائلة!».

قال عمي إسماعيل بحكمته المعهودة، مشوحا في فروغ بال:

- «سنقلق الجيران بهذا الكلاكس الغتيت! مع السلامة يا بهاء، خل بالك من نفسك».

قبَّلوني جميعهم قبل وبعد المصافحة باليد. فوجئت بأن السائق حود إلى شارع الرصافة بدلًا من مواصلة الطريق إلى غيط الصعيدي. نبهته:

- «حيلك يا أسطى! العزومة في قصر الحاج مصطفى بغيط الصعيدي».

- «كان المفروض أن تكون هناك، لكن الحاج مصطفى غيَّر رأيه في آخر لحظة وقرر أن تكون هنا».

- «عجايب!».

تهادت السيارة نحو قصر عنتر بك. الحنين إلى غرفة القصر لوى عنقي نحوها، كانت كما هي لم تتحول إلى مكتب محاماة. سيارة نصف نقل راكنة أمامها عموديا في آخر ممر الحصباء، صندوقها في مواجهة باب الغرفة وبوزها في اتجاه باب الحديقة، يعني دخلت هنا بظهرها! الحاجز الخلفي للصندوق نازل. رجلان يقفان على الحافة، رجلان آخران يخرجان من باب الغرفة يحملان صندوقا خشبيا مستطيلا. عمود الضوء القريب من الباب كشف رسوما سوداء على سطحه وجنبيه عبارة عن شكل متكرر للكأس المشهور المرموز به إلى أن ما في الصندوق أشياء قابلة للكسر. من الواضح أن الصندوق ثقيل جدًّا. رحت أقترب من الغرفة أسائل نفسي: أكانوا محتاجين إليها كمخزن؟ وناداني السائق من بعيد صائحا:

- «إيه! الدخول من هنا. تصورتَ أنك لا تزال تسكن في الغرفة؟! تعال تعال، الدخول من الباب الذي على ترعة المحمودية. أظنك لم تدخل منه قطّ!».

- «فعلا يا أسطى، فهذه ليلة تاريخية بالنسبة لي.. سأدونها
في تاريخي!».

ضحك السائق:

- «هل أصبح لك تاريخ ونحن لا ندري؟!».

صعدنا الدرج الرخامي. التقانا على الباب الداخلي للبهو مدير القصر الذي تسلمني من السائق وصرفه، ثم تقدمني إلى حجرة الصالون المطلة شرفتها على الحديقة. ما إن رأوني حتى هبوا واقفين، فانتفضت قامتي وتمطت حتى كادت رأسي تضرب في نجف السقف. ظننت أنهم يقفون في استقبالي؛ فإذا بصوت عنتر بك يعيدني من السقف إلى الأرض إذ يقول:

- «وجب العشاء».

فطنت إلى أنني دخلت في اللحظة التي أعلن فيها مدير القصر أن العشاء جاهز وأنهم كانوا على وشك القيام إلى المائدة سواء جئت أم لم أجئ. المائدة ضمت عنتر بك وعمرو بك والحاج مصطفى وشابا يقاربني في العمر. تقاطيع وجهه جذابة رغم خشونتها بصدأ شمس صحراوية حامية، دماؤه المطلة من صفحة بشرته تكاد تتطابق - مع قليل من اللبس والغموض - مع تقاطيع وجه لولية هانم، سيَّما وأن لهجته البورسعيدية وضحت من أول ما صافحني بيده الصلبة قائلا:

- «ميت حلاوة على الناس الحلوين! سلامين وحتة».

رمقني الحاج مصطفى بنظرة ثعلبية:

- «تعرف هذا الولد الجدع؟ لو شغَّلت ذكاءك ستعرفه في الحال!».

تمعنت في ملامحه:

- «يقرب ل.. ل.. »

ألهمني الله إلهامًا فزعت منه، ذلك أني كنت سأندبُّ في أول غلطة غير محمودة العواقب؛ فالمفروض أنني لم أرَ الست لولية هانم على الإطلاق، فبأي منطق أقول إن ملامح هذا الشاب قريبة من ملامحها؟!

- «يقرب لمن؟ قل!».

هكذا استدرك عمرو بك وهو يغمز بعينه للباقين غمزة غامضة أربكتني بشدة! تعمدت إطالة التأمل في وجه الشاب موحيا إليهم بأنني لست أجد له شبيها، وفي النهاية لم أجد أسلم من الاستعباط:

- «يكون حفيد حضرتك يا حاج مصطفى؟!».

ضحكوا جميعا. علق الحاج مصطفى:

- «لم تذهب بعيدا.. هو في مقام حفيدي».

بجدية قال عنتر بك:

- «هذا ولدنا عربي الشافعي، ابن عم مدام لولية هانم الشافعي زوجة عمرو بك».

هتفتُ بترحيب حار:

- «أهلا وسهلا.. طيب يا حاج مصطفى كنت تتوقع مني معرفة ذلك، كيف؟ وهل أنا شرفت برؤية الست لولية هانم؟!».

كان عربي ينقنق في الأكل مثلي، إلا أنه يركز على شرب الويسكي بشراهة والتدخين في لذة.. فلما انتقلنا إلى الصالون لنشرب الشاي ونأكل الفاكهة، أمر السفرجي بأن يأتي وراءه بالكأس والزجاجة ودلو الثلج. صرنا نشرب الشاي، ندخن سجائر محشوة بالحشيش. دقت ساعة الحائط منتصف الليل حينما صعد سلم الشرفة واحد من خدم القصر هاتفا على استحياء:

- «السواق يتعجل».

قال عنتر بك:

- «قدمتم لهم العشاء والشاي؟».

- «أكلوا بالهناء والشفاء».

قال الحاج مصطفى لعربي:

- «ما رأيك يا عربي أن تقوم معهم يوصلونك في سكتهم إلى موقف السيارات؟».

يرد عربي في سأم:

- «وجب يا آبا الحاج».

أشار الحاج مصطفى للخادم بيده إلى ما خلف المقعد المجاور لباب الشرفة:

- «خذ شنطة الأستاذ عربي إلى السيارة».

انحنى الخادم ورفع حقيبة تكاد تكون في حجم كنبة صغيرة، حملها الخادم ثم نخّ بها فوضعها على الأرض وجرجرها فإذا هي ذات عجلات تفر على الأرض. لحق به خادم آخر يعاونه في حمل الحقيبة من الخلف حتى تنزل درجات الشرفة. ترى ما الذي يمكن أن يكون في حقيبة سفر بهذا الثقل إلا أن يكون المسافر قد طوى فيها بيتا بأكمله؟

- «ليلتكم فل بالصلاة على النبي. أشوف وشكم بخير. لا مؤاخذة فأنا لا أحب الوداع».

- «في رعاية الله».

هكذا قال عنتر بك، فاستطرد الحاج مصطفى:

- «أفق لنفسك يا عربي.. ارحم نفسك فأنت على سفر! كفاك سُكْرا وتحشيشا!».

صاح عربي يرد التشاؤم:

- «صَلِّ على النبي صَلِّ!.. قُل يا رب».

قالوا جميعا في ابتهال حار:

- «يا رب».

فأدركت عن يقين أنهم جميعا في احتياج إلى ستر الله فعلا وبإلحاح في تلك اللحظة. لقد نطقوا كلمة «يا رب» بحرارة عالية تعكس توترا داخليا يشملهم جميعا! صحيح أن الإنسان يستعين بالله ويطلب رضاءه وتوفيقه في كل وقت، ولكن في مثل هذه اللحظات يكون الطلب بالغا حد الابتهال والوقوع في عرض السماء كما سمعت الآن. ترى هل هم متورطون في موقف حرج؟ عِلْمُ ذلك عند الله، وإن كانت العزومة تشي بأن في الأمر صفقة مربحة ربحا فاحشا إلا أنها فيما يبدو محفوفة بالمخاطر. سرعان ما فك الحاج مصطفى بعض الطلاسم حين نظر لي قائلا في ود مبالغ فيه:

- «الطريق وعر يا بهاء أفندي من هنا لبورسعيد في الليل!.. معهم صفقة نجف من البللور الطلياني الأصلي ثمنها الشيء الفلاني».

ثم سحبني إلى الداخل من الشرفة. وجدتني أجامله:

- «ندعو الله أن يكفيها ويكفيهم شر الطريق».

فربت كتفي بديلا عن الشكر. ما إن جلسنا حتى قدم لي سيجارة ملفوفة. قلت: كفى يا حاج. قال: هي الأخيرة نشربها سويا. ثم أشعلها وقدمها لي في أريحية وتواضع. سحبت عدة أنفاس متلاحقة ثم أعدتها إليه.

طالت القعدة. أتشبث بحبال الصبر في انتظار أن يبلغني الحاج مصطفى بشيء أفهم منه سر إصراره على حضوري هذا العشاء رغم علمه بأن أعمامي يحتفلون الليلة بنجاحي، أو حتى يأذن لي بالانصراف، إلا أن باب الحواديت الفارغة انفتح. حواديت أشبه بالنكت المطولة، عن معارف لهم وقعوا في حبائل النصابين في الأسواق، عن طرائف أقاربهم الطيبين في بلدتنا، عن مغامرات بعضهم وهم في زمن الصبا!.. حكايات لا معنى لها - كما بدا لي - سوى ملء الوقت، كانوا يضحكون خلالها ضحكا هستيريّا.. ولكن بَرْق التوتر كان مع ذلك يلمع في عيونهم بشكل واضح حتى اقتنعت بأنهم يقاومونه بهذه الحكايا وهذا الضحك الجالب للدموع. يبدو أن أعراض الضجر والتبرم ظهرت على وجهي، إذ لكزني الحاج مصطفى متلطفا:

- «مالك شايل طاجن ستك على رأسك؟! الإجازة وبدأت.. لا صحو مبكرا ولا شغل مذاكرة.. أم تراك ضقت بقعدة الرجال؟! ساعة الحظ لا تعوض خل بالك».

- «الجلوس معكم شرف كبير لي يا حاج».

ربت ركبتي:

- «أظنك الآن تعبت من سؤال نفسك: لماذا دعاني الحاج مصطفى الليلة؟».

اقشعر بدني، شعرت بأني انكمشت وتضاءلت:

- «فعلا يا حاج مصطفى! معقولة شفافيتك هذه يا حاج؟! لا بد أنك شفت دماغي وهو يفكر!».

ضحك، فانتبهت إلى أسنانه الكبيرة المتينة البنيان:

- «ستعرف الآن حالا».

ونظر إلى الجماعة:

- «أظن أنه من حق بهاء أفندي أن نحتفل بنجاحه! ألسنا أهله نحن أيضًا؟!».

هتف عمرو بك:

- «أنا جاهز. أريد أن أصالحه لأني زعلته اليوم».

- «وماذا تنتظر؟».

قال عنتر بك ناظرا في ساعته:

- «نستطيع أن نلحق بصالة عطيات حسين على الكورنيش.. على الأقل سنلحق راقصة السهرة الأساسية».

- «صالة عطيات أو غيرها، تعالوا ورائي ورزقنا على الله ببركة بهاء أفندي».

ثم وقف، فوقفنا. نظرت إليهم ضارعا:

- «يا بكوات، كم الساعة الآن؟».

لكزني عمرو بك مع غمزة من عينيه وشفتيه:

- «لا شأن لك بالساعة! أنت الليلة لا شأن لك بنفسك. نم طول النهار غدا».

دفعني إلى الردهة لنخرج من الباب المطل على ترعة المحمودية حيث تبيت سياراتهم في جاراج خاص بهم في بدروم القصر ذي بابين أو فتحتين مطلتين على نفس الترعة، واحدة لدخول السيارة والأخرى لخروجها، وهذا - فيما سمعت - هو التجديد الوحيد الذي أحدثه عنتر بك؛ إذ حوَّل البدروم من مخازن إلى جاراج.

في كازينو عطيات حسين استلبتنا راقصة كالحية الرقطاء تتلوى فوق كل الجالسين واحدا بعد الآخر. طلبوا مشروب الجعة فلم أمانع من شرب زجاجة واحدة. بعد انتهاء الرقص وظهور منولوجست اسمه حسان شرارة فوجئت بأن عمرو بك اختفى منذ وقت طويل! كنت أظن أنه ذهب إلى دورة المياه فلم يشغلني غيابه إلا بعد مرورٍ ما يزيد على ساعتين أمضيتهما في حالة ترقب لمجيئه، إلى أن رأيته قادما من الباب العمومي للكازينو. تلقاه كلٌّ من عنتر بك والحاج مصطفى بنظرة ملؤها اللهفة والقلق. جلس قائلا دون مناسبة:

- «الحمد لله، راح المغص! فُتّ على الصيدلية أخذت دواءً! انتهزت الفرصة وقست الضغط فوجدته تمام التمام والحمد لله، يعني سأنام بعمق. أشرب معكم زجاجة بيرة وأتكل على الله».

قال عنتر بك:

- «وطبعا ستأخذ بهاء أفندي في سكتك».

قال عمرو بك:

- «أنا وسيارتي تحت أمره».

وجدتني أندفع قائلا دون ترتيب سابق:

- «تفضل أنت يا عمرو بك، أنا سأنام عند عمي صلاح الليلة. هدومي كلها عندهم في الغسيل، ولا بد أن أغير هدومي وأنام جيدا».

الغيظ واضح على وجوههم. قال عنتر بك:

- «كنت تنوي المبيت عنده من أول الليلة؟!».

- «من ليلة أمس اتفقنا على هذا».

شوح الحاج مصطفى ضاغطا على أسنانه:

- «يا أخي قل هذا من الصبح وأرحنا! ليتك بقيت عند عمك صلاح بدلًا من.. ولكن لا بأس، آنستنا واحتفلنا بك».

- «صباحكم سعيد إن شاء الله».

ورفع عمرو بك يده بالتحية ثم انصرف. في الطريق إلى محرم بك قلت للحاج مصطفى:

- «أنزلني أمام محل حلبوني الحلواني في أول محرم بك وأنا أخرم على بيت عمي».

كان ضوء الصباح يحاول الانعتاق من شبورة ضبابية تسيل قطراتها على زجاج السيارة. محل حلبوني الحلواني كان فاتحا. نزلت إليه مباشرة. منظره جذبني مع رائحة الهريسة المغمورة بالسمن البلدي. طلبت تشكيلتين على علبتين، واحدة لنا: خليل أفندي والحاجة عمرانة وأنا، والأخرى أكبر قليلا لعمي عوض الذي سأزوره اليوم بعد أن أصحو من النوم مباشرة.

رويت لعمي عوض كل ما حدث بالتفصيل الممل. أعدت حكاية بعض التفاصيل، بعض المرئيات، بعض الملاحظات أكثر من مرة. أجبته على كثير من أسئلته الاستطلاعية الساعية إلى تلمس تفسير معقول. بدا عليه الانشغال العميق، بوادر قلق أرعشت ملامحه. قال:

- «قم بنا ننزل».

أخذني وذهب بي إلى عمي إسماعيل. أعدت حكاية كل شيء من جديد. قال عمي إسماعيل وهو يخلع المنظار الطبي في عصبية ليمسحه:

- «المقلق في هذه الحكاية كلها سؤال لا إجابة له في الحكاية: لماذا الإصرار على حضورك المائدة لتتعرف على الضيف؟! تقول إن حكاية الاحتفال بك جاءت عرضا، يعني لم تكن واردة أصلا، وإذن فإن الهدف الذي أستطيع استنباطه الآن هو أن تبقى أنت تحت أنظارهم طوال الليل. طيب! ماذا يكون الهدف من ذلك أصلا؟!».

عمي عوض - كعادته - لا يستوعب طريقة تفكير عمي إسماعيل الهادئة المرتبة الممنطقة، فيشرد منه دائمًا إلى موضوع آخر أو إلى نقطة بعيدة. قال ردا على سؤاله:

- «يفتحون عينيه على عمليات التهريب ومحلات الملاهي الليلية تمهيدا لتدريبه على القيام بعمليات، وهذا المدعو بعربي الشافعي واحد ممن أوقعوا بهم. إنهم يبدءون بإفساده خلقيا، يجرجرونه إلى الإدمان ليبقي تحت سيطرتهم، ينومونه مغناطيسيا ليفعل ما يطلبونه!».

قال عمي إسماعيل بلهجة تعكس احتراما كبيرا لعمي عوض:

- «احتمال له وجاهته طبعا».

برق الإلهام في عيني عمي عوض برقا جهنميا. طرقع بأصبعيه لإثارة الانتباه إلى ما سيقول:

- «شوفوا، قلبي يحدثني أن اهتمامهم بتأجير شقة للولد في الإبراهيمية على حسابهم ودعوته للعشاء مع مهرب شاب والسهر في صالة رقص، كل هذا يؤكد لي أنهم يخططون لتدريبك على التهريب!.. إن ثروتهم الكبيرة تكونت في الأصل من تهريب البضائع والسلع الحيوية أثناء الحرب العالمية وتخزينها للبيع في السوق السوداء. ضع عينك في وسط رأسك. إنهم يريدونك في شقة لوحدك بعيدًا عن رقابتنا، وكل يوم يزورك ناس منهم فيشغلونك عن دروسك حتى تفشل والعياذ بالله فتبقى تحت رحمتهم. هذا هو أصل الموضوع وفصله في نظري باختصار!».

كان الهول يتجدد على وجه عمي إسماعيل وهو ينصت إلى هذه القنابل التي يفجرها عمي عوض، فصاح:

- «الحمد لله أن وجدت له هذه الحجرة عند خليل أفندي الطيب، والولد ما شاء الله شايف شغله ولا خوف عليه من هذه الناحية، ولكن عليك أنت يا بهاء أن تقطع رجلك نهائيا عن هذه الشقة المشبوهة، وإن فسخت عقدها يكون أفضل لك ولنا».

- «ليس الآن يا عمي. أنا إن شاء الله سأتخرج في العام القادم ويحتمل أن تكون الشقة بعيدة عن الشبهات فتصلح لإقامتي مستقبلا، كما أنني أستطيع أن أمنع من أشاء من دخولها».

شوح عمي عوض:

- «تخرَّج واسكن مطرح ما يعجبك، المهم أن تتخرج. نفسي ومني عيني أن تحمل مؤهلا عاليا وتُفرح أباك وأمك بوظيفة مرموقة. لقد تعب أبوك ولا يزال يتعب في حمل مسئوليتنا بعد موت جدك في وقت مبكر؛ فلا أقل من أن نحرس له ابنه وهو أمانة في رقابنا».

- «ادع لي يا عمي».

انهمرت الدعوات آتية من دهاليز شقة عمي إسماعيل حيث اجتمعت زوجات أعمامي الثلاث.

تكاثفت واجبات المقررات بصورة كابوسية، حيث بدأ العام الدراسي ساخنا من أول يوم؛ ذلك أن عمي إسماعيل قرر أن يجعل مني شغلته الأولى والأخيرة في الحياة. استقضى كتب ومذكرات ليسانس العام الماضي من الخريجين وقرر تدريسها لي قبل بدء العام الدراسي بحوالي شهر أو شهر ونصف لأكون سابقا على جميع الزملاء في الإلمام بما سأتلقاه من محاضرات.. كلفني بعدة أبحاث في صميم المنهج مضنية، لكنها تعتبر من أرقى أساليب المذاكرة في اكتساب وتثبيت العلم والمعرفة في رأس الطالب وفي سلوكه العلمي؛ مما جعلني أواصل الليل بالنهار في مراجعة وتسويد وتبييض، أعيش مناخ الامتحانات مع أن العام الدراسي يوشك بالكاد أن ينتظم.

الحاجة عمرانة كانت تقوم بالواجب في التذاذ كأنني ابنها من صلبها. حقا إن الأم في حاجة دائمًا إلى من تربيه وتسهر على راحته كما تفعل الحاجة عمرانة التي أصبحت تستخسر في نفسها الأطايب لتدخرها لي.. ميزت وجباتي لما رأتني منهمكا في المذاكرة، رفعت مستوى الطعام بشكل عام. أصابني الخجل، عرضت عليها فلوسا إضافية كثيرة لكنها أبدًا لا تقبل، تلكزني بساعدها قائلة في خفة ظل:

- «احترم نفسك! فيه أم تأخذ من ابنها أجرة خدمتها له؟! وحياة بنتي المغتربة عن بلاد المسلمين لولا أن ظروفنا بعافية ما كنت أخذت منك إيجارا ولا فلوسا من أصله! يكفي أنك نورت شقتنا، أعدتني إلى الأمومة بعد أن عطلتها الأيام سنين طويلة. هذه وحدها تجعلني أخدمك طول العمر بالمجان!».

كثيرا ما كان خليل أفندي ينقر على الباب نقرتين خفيفتين ثم يدخل حاملا كوب شاي ساخن لم أكن طلبته، يضعه أمامي:

- «روّق دماغك».

ثم ينصرف في الحال قبل أن يسمع كلمة الشكر. كان هو والحاجة عمرانة وعمي إسماعيل وراء حماستي في الإقبال على الدرس بجدية كبيرة واستغراق صبور.

انقطعت صلتي بشقة الإبراهيمية تماما طوال الأشهر الثلاثة الماضية. كنت أخرج من الكلية في وقت مبكر فأعود رأسا إلى شارع منشة لأتمدد أو أغفو قليلا بعد الغداء، لأصحو بعد حوالي ساعة على صوت عمي إسماعيل في ردهة الشقة يؤم خليل أفندي والحاجة عمرانة في صلاة العصر على سجادة متهرئة يختص بها الإمام وحده، وما إن أسمع التسليم النهائي لقراءة التحيات حتى أكون قد صحصحت ونزلت عن السرير. عمي إسماعيل يريد أن يتأكد من أنني لم أذهب إلى أي مكان آخر بعد خروجي من الكلية، ويطمئن إلى أنني نزلت من البيت إلى مقر الشركة، ولسوف يعود في المساء ليكمل دور الشطرنج - الذي لا ينتهي أبدا - مع صديقه القديم خليل أفندي.

أغدق عليّ عمي إسماعيل من الجهد المخلص ما لم يغدقه على أحد من عياله، أفادني أكثر من جميع الأساتذة الذين حاضروني في الكلية، كان بثقافته العلمية وتبحره في قراءة الفلسفة وغرامه بعلم الاجتماع كمن يذيب الدروس في أكواب من العصائر السكرية ويسقيها لي حيث يصير الدرس لونا من الدردشة الشائقة المثيرة.. أيّ كلكعة أو عقربة في مسألة فلسفية أو رياضية أو في نظرية علمية كان بارعا في تبسيطها إلى.. بالبلدي كده.. كذا وكذا.. بشروح عامية غاية في الوضوح، حيث أكتشف أن العامية المصرية التي نتحدث بها في حياتنا اليومية تصير على لسان عمي إسماعيل قادرة على أن تكون لغة فكر وعلم بقدر ما هي لغة عمل وعاطفة مشبوبة.

في اللحظة التي يشعر فيها بأنني قد بدأت أتبرم لسبب أو لآخر سرعان ما ينحي الورق جانبا ويقفز من الدرس إلى نكتة أو طرفة، فيكون ذلك إيذانا لخليل أفندي بأن يشارك في الحديث بعد طول صمت قضاه منصتا إلينا في تركيز كأنه أحرص مني على تحصيل العلم والمعرفة من كل مصدر يلتقيه. يتضح لي يوما بعد يوم عمق العلاقة والمودة بين عمي إسماعيل وخليل أفندي إلى حد التطابق في الآراء والاقتناعات وكثير من المفردات..

وكنت أظن أن أعمامي يغالون في كراهيتهم واحتقارهم للشماشرجية لأسباب شخصية أو طبقية، فإذا بالقعدة مع عمي إسماعيل وخليل أفندي تحيطني علما بأن الشماشرجية مكروهون من جميع أولاد البلد في الإسكندرية.. حكاياتهما التي تثبت نتانة الشماشرجية وحقارة أصلهم لا تنتهي في قعدة خليل أفندي مع عمي إسماعيل لدرجة أنني أصبحت على اقتناع بأن المعلومات التي زودني بها أبي عنهم كانت مجرد عناوين سطحية. أصبحت أشعر بالعار لأني أعمل في معيتهم! في بعض الأحيان كنت - لسذاجتي الريفية - أضطر إلى الدفاع عنهم كأنهم قفاز ألبسه للدفاع

عن نفسي في حقيقة الأمر. في واحدة من تلك المرات القليلة علق خليل أفندي بهدوء وهو يبرم سيجارة حراقة من تبغ البايب:

- «عدم المؤاخذة يا بهاء أفندي، خل بالك معي: الشماشرجية الذين تراهم الآن باعوا أصولهم القديمة في سبيل أن يبقوا أثرياء عصرهم مثلما كان أجدادهم البدو الذين أكلوا حلاوة بعقل محمد علي باشا ونهبوا الأراضي وسخروا الفلاحين والأنفار كالعبيد!.. الذين تعمل عندهم الآن - عدم المؤاخذة - أثرياء السوق السوداء والبضائع المضروبة والتهريب بجميع أنواعه!.. فليفعلوا ما يشاءون لأن الأسواق بطبيعتها يا بهاء أفندي لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية، ولكن ليس لهم الحق في التسيد علينا وعلى مَن أحذيتهم برقابهم.. إنما نحن الأسياد عدم المؤاخذة بقى!.. طبعا نحن أسياد باحترامنا للأصول والتزامنا بمبادئ الشرف حتى لو الدنيا كلها باظت أخلاقها نزداد نحن تماسكا، إذ ربما يجيء يوم نكون فيه عضلة قوية من العضلات التي تشد حيل المجتمع ليصلب حيله ويسترد أخلاقه المفقودة من عصر فاروق الملك إلى عصر الثورة التي شطبت الأخلاق ووضعت بدلًا منها الجبن والخساسة!.. وعلى فكرة يا بهاء أفندي.. أقولها لك أمام عمك إسماعيل، فإن كنت مخطئًا فليصححني، فليس من بأس فهو أستاذ بالنسبة لي: عهد الثورة أوسخ من عهد الملك فاروق بطوفان!.. الفضل الوحيد للثورة في نظري هو أنها كسرت شوكة الشماشرجية وأمثالهم.. هدّت طغيانهم.. وفي النهاية هم ورجال الثورة ما أوسخ من ستي إلا سيدي!».

بجدية هائلة اعتدل عمي إسماعيل مرتديا قناع السخرية الذي هو أحد وجوهه:

- «صدقني يا خليل أفندي، بعد عمر طويل سترى شجرة الشماشرجية الفاسدة هذه تسيطر على المجتمع المصري بشكل أو بآخر!.. واخد لي بالك؟ إنها العائلة المستعدة دائمًا للتحالف مع الشيطان. فاهمني طبعا!.. اليوم ضربوا جذورهم في كل الحقول، منهم الطبيب والمهندس والمحامي والوزير والكاتب والفقيه والتاجر والمقاول.. جميعهم في النهاية شماشرجية. فاهمني؟! يعني تنطوي نفسياتهم على مصاص الدم! فاهمني؟ مصاص الدم في مهن ومراكز وأزياء مختلفة.. فاهمني؟ إنهم كالجراثيم التي تكمن في الجسم حين تشتد عليها مقاومته، لكنها لا بد أن تعود من جديد بعدما تكتسب مناعة ضد الأدوية! حتى وهم في الكمون لا يسكتون: في الخفاء تحت السطح يهبرون يسلبون يهربون يخربون يقتلون القتيل ويمشون في جنازته أكثر حزنا عليه وتأثرا برحيله من أهله! فاهمني طبعا!.. للأسف سيعودون ولو بأسماء جديدة لأنهم لهم في قعر المجتمع خميرة معتقة تتعيش عليها كائنات كثيرة!.. بلدتنا تعرفهم وتعرف كل هذا خل بالك! لا تتصور أن الفلاحين لا يفهمون إنما هم مكارون لا يصرحون بما يفهمون، بل يشترون دماغهم ويتقون شر الإفصاح!..

مغزى كلامي يا بهاء يا ولدي أننا المحترمون في البلد لا هم. نحن صحيح الأفقر، لكننا الأفضل في نظر الناس خل بالك! فاهمني طبعا! مغزى كلامي كله أنه لا يجوز أن يخرج من صلبنا ولد فاسد، يعني إذا كان أبوك بطيبة قلبه وسلامة نيته سلمك إليهم فأنا دون أعمامك لن أدعهم يورطونك في شماشرجيتهم السافلة.. فإياك إياك.. أقولها لك وخليل أفندي والحاجة عمرانة شاهدان علينا: إياك أن تشمِّت فينا من لا يساوي مسمارا في حذائي وإلا قسما برب الكعبة لن يكفيني أن أقتلك بيديَّ هاتين!».

بمناسبة نجاحي في «التيرم» بتفوق أطلق عمي إسماعيل سراحي، أذن لي أن أتصرمح لي يومين لعلني أتجدد قبل الدخول إلى معمعة «التيرم» الثاني. أول فسحة فكرت في القيام بها أن أحج إلى شقة الإبراهيمية. كان الشوق إليها يفرم نياط قلبي، ولكنني محجم عن زيارتها خوفا من رقابة عمي إسماعيل ورعبا مما أحاطوها به من شبهات جعلتها تبدو في مخيلتي فخا منصوبا للإيقاع بي! مع ذلك كنت أشعر في أعماقي بأن ثمة مبالغة في تضخيم الخطر، ربما لأن عشقي للشقة كان راسخا في وجداني بشكل عجيب لدرجة أنني لم أعد أتصور مستقبلي في الإسكندرية دون هذه الشقة البديعة الهادئة الشجية كأغنية لعبد الحليم حافظ!.. ما أجملني في الطريق إليها كأنني شاعر أو موسيقيّ أو مفكر ذاهب إلى عشه.. منتجعه المكسو
بورق اللبلاب!

خفق قلبي بشدة مع دوران المفتاح في الكالون. شعرت بغصة من مرارة التأنيب على إهمالي للشقة كل هذا الوقت حتى لقد خيل إليّ أنها زعلانة مني برغم دفء الترحيب الطالع منها يعانقني في شوق وحرارة. صوت التكات الثلاث كلمني بصوت لولية هانم كأنه يلكزني في صدري لكز الحبيب قائلا: كيف تغدر بي في خسة وأنا لا أستحق الغدر؟ أما تستحي؟

الشقة صامتة إلا من الموسيقى الكلاسيك المتصاعدة خلف درفتي شباك المنور. الناموسية مسدلة على السرير، أزحت طرفيها، صافحت السرير بنظرة استطلاعية، وجدت الفرشة نظيفة مرتبة، لم أستطع مقاومة جاذبيتها، خلعت

الحذاء، غصت في قلب الناموسية متمددا على ظهري ناظرا في سقف الناموسية، لاحظت وجود شيء صغير جدّا يتدلى في ركن الناموسية مربوط في عسكري السرير بفتلة خيط. اعتدلت قاعدا ثم وقفت، خطوت إلى ذلك الركن الملاصق للحائط، مددت يدي أتحسس كنه هذا الشيء، فإذا به حجاب من قماش مخيط على ورقة مطوية في حجم البرشامة. نزعته بفتلته، عدت إلى الاضطجاع ضاحكا؛ إذ لاشك أن خالة لولية هانم أرادت أن تحرس ولديها من عين الحسود ومن شبح الفشل في الدراسة فذهبت إلى ساحر مشعوذ كتب لها تعويذة أو تحويطة طوتها في هذا الحجاب وعلقته في هذا الركن فوق رأسيهما. نويت الاحتفاظ به في حوزتي باعتباره من رائحة لولية. لم أجد بأسا في أن أضعه تحت وسادتي لعله يحرسني أنا الآخر، سربته تحت الوسادة.

بعد برهة خطر لي أن أقرأ هذه التحويطة لأرى كيف ينصب المشعوذون على الناس البسطاء! الفضول الصحفي الغريزي عندي لا يعرف الروية أمام أي شيء فيه ولو قليل من الإثارة. في الحال قطعت الخيط، ففككت الغرز، لاحظت أن قماشة الحجاب جديدة تماما تهب منها رائحة فاضحة من عطر لولية؛ إنه منديل صغير من مناديلها. تسارعت دقات قلبي بعنف كالطبول المدوية المزلزلة. العطر كان راقدًا بين طيات الورقة المبرشمة. ورقة خطاب مما يباع في المكتبات، فردتها:

- «كنت مشغولة عنك فسامحني!.. العلاقة بيني وبين قنطار اللحم ساءت.. غضبت عند أهلي ثلاث مرات، كل مرة استمرت أكثر من عشرين يوما.. لكنني زعلانة لأني جئت إلى هنا أربع مرات ولم أرك.. أول أمس مررت على الكلية لعلني أراك.. علمت بخبر نجاحك في التيرم الأول، العقبي للتيرم الثاني.. من فرحتي جئت إلى هنا متوقعة أن تجيء.. ولكن.. ولكن.. آه يا ربي.. ماذا أقول لك؟.. قلبي وجعني بالشك فيك مع أنني واثقة منك ومن رجولتك ونظافتك.. وإذن فما معنى هذا الذي رأيته في الشقة وصدمني بل دوخني؟.. ضع نفسك مطرحي وقد جئت مثلي لكي ترتب الفرشة وتنفض المراتب والمخدات وتعدل مُلَّة السرير فتفاجأ بما شفته أنا تحت السرير.. لطمت وجهي.. يا ربي ما هذا الذي تحت السرير؟! من الذي يأتي هنا غير بهاء وغيري؟! أيكون بهاء هو الذي وضع هذه الأشياء؟ أو جيء بها بموافقته؟! أنا ارتعبت.. أنت لا بد أن تقول لي ما الذي داخل هذه الصناديق الخشبية المرصوصة تحت السرير وهي ثقيلة جدًّا جدًّا.. وماذا في حقيبة السفر المدفونة بين الصناديق؟!.. الرعب قتلني.. تخيلت أن الشقة مسكونة بأرواح شريرة.. حاولت زحزحة صندوق فكاد يغمى عليّ، وسبحان من جعلني أقوى على تسوية الفرشة وكتابة هذا الجواب..

«أرجوك يا بهاء، قابلني فورًا بأي شكل لتوضح لي هذا اللغز.. اسمع.. سأعطيك فرصة أسبوعا من اليوم.. يعني يوم الخميس الآتي سأكون وحدي في حديقة أنطونيادس الساعة العاشرة صباحا لأن قنطار اللحم سيسافر إلى باريس لهاني بك مساء الأربعاء ويأتي مساء السبت.. يمكن أن نجلس معا خمس ساعات حلوين أتركك بعدها إلى بورسعيد.. لاحظ أن قلبي سيظل يرتجف إلى أن نلتقي.. مساك الله بالخير يا جميل».

طويت الورقة والمنديل، حشرتهما في جيبي، نفضني الفزع وألقى بي على الأرض، طويت نصف المرتبة على نصفها بقوة، رفعت خشب الملّة.. يا للكارثة!.. يا للخسة والغدر والفظاعة!.. إنها نفس الصناديق التي تم تحميلها أمام عيني من غرفة القصر ليلة العشاء مع الحاج مصطفى الشماشرجي وعربي الشافعي ابن عم لولية. هذه نفس الحقيبة التي كانت معه. الآن يتضح لي كل ما كان غامضا؛ فالمؤكد أن هذه الحقيبة مع هذه الصناديق نقلت إلى هنا في نفس الليلة. أجزم أن عمرو بك حين طلب منا أن نسبقه يوم جئنا لتأجير الشقة كان قد رسم في خطته أن يفوت على محل المفاتيح ليخرط له نسخة - وربما أكثر - من مفتاح الشقة قبل أن يسلمه إليّ. المرجح أنه في وقت اختفائه من الكازينو - صالة عطيات حسين - كان هنا يشرف بنفسه ويطمئن على التخزين ويسترد المفتاح عائدًا إلينا. كانوا بالفعل - بالضبط كما استنبط عمي إسماعيل بنظرته النفاذة - يريدون إبعادي عن الشقة طوال فترة السهرة لأكون تحت أنظارهم، بل تحت يدهم إلى أن تتم عملية النقل من وراء ظهري، وذلك مؤقتا إلى أن يتمكنوا من تفتيح مخي وإشراكي في العمليات بوضوح وسلاسة. منتهى الإجرام حقا؛ فليس من شك في أن هذه الحقيبة وهذه الصناديق تحوي أشياء محرمة ممنوعة؛ أي أنني كنت - وربما لا أزال - على وشك أن ألبس قضية تودعني السجن إلى الأبد وربما تقودني إلى حبل المشنقة!

لو كان في يدي سلاح ناري آنذاك لأفرغت معظم النار في قلب الحاج مصطفى الشماشرجي وبقيتها في قلب ورأس عنتر بك وعمرو بك المملوءيْن بشرور فطرية قاتلة، ناعمة عند أحدهما خشنة غليظة عند الآخر، ناهيك عن شرور الكَهِين الأكبر!

صرت أتقافز فوق درجات السلم هابطا كأنني مطارد من البوليس، قد ركبني الجنون، صرت أبكي أرتعش أنتفض

بصورة يرثى لها! أمي وأبي وإخوتي وأعمامي وأولادهم جميعهم ماثلون شاخصون في عيني من خلل الدموع الحارقة يبكون بحرقة يلطمون الخدود يشقون الجيوب، أكاد من فرط الرعب والشعور بالمسئولية عما حدث أن أرمي نفسي في البحر لأنجو مما ينتظرني من لوم وتأنيب وضرب بالحذاء وبصق في الوجه، كل ذلك لأني - فحسب - تعاملت مع الشماشرجية ببراءة تامة!.. يوم استسلمت لنعيرهم الكاذب كنت في الواقع قد أسلمتهم مصيري يتحكمون فيه كيفما يشاءون.

واصلت المشي المحموم على الكورنيش أتلفت حواليَّ وخلفي بين لحظة وأخرى كأنني قد صرت مجرما بالفعل، كأنني قد تم القبض عليّ فعلا وثبتت التهمة عليّ وها أنذا مسوق بالكلبش إلى حتفي! فوجئت بأنني صرت أمام مقر إدارة الشركة. أحجمت عن الدخول، عرجت على مقهى شعبي مقام على جزء مقتطع من جاراج تحت عمارة خلف عمارة الشركة، جلست ألتمس قدرا من الرشد والهدوء لعله يلهمني كيفية الخروج من هذه الوحلة دون فضيحة لأن أي صخب في علاج الأمر سيغرق ثيابي لا محالة برذاذ الوحل. خايلتني نصائح عمي إسماعيل، مشورات عمي عوض، عنف عمي صلاح، طردتهم جميعا من حسابي بقوة درءًا للفضيحة، ضرعت إلى الله أن يلهمني الصواب قبل إزعاجهم بالخبر.

- «وحِّد الله يا أفندي.. إيه؟ مالك؟ انهدت الدنيا؟!.. تبات في نار تصبح رماد، لها رب يعدلها!».

رفعت رأسي عن يدي. شعبان - الجرسون الأسواني العجوز ذو القلب الأبيض والنفس السمحة والبسمة المضيئة الهتماء - لم يعجبه منظري وأنا منكس رأسي بين يديَّ وآثار الدمع تخطط وجهي.

- «واحد شاي يا عم شعبان».

- «سآتي لك بواحد ليمون يروق أعصابك».

بعد برهة وجيزة وضع كوب الليمون أمامي وجلس بجواري:

- «خير؟ عامل في نفسك كده ليه؟ حرام عليك! مات واحد من البكوات؟ في ستين داهية! المركب اللي تودي أحسن من المركب اللي بتجيب لنا بكوات من عينة الشُّضلية.. قصدي الشماشرجية بتوعكم دول!.. واحد من قرايبك؟ يا سيدي الله يرحمه ويخفف عنك البهدلة دي!».

- «لا يا عم شعبان».

- «ضاعت منك أموال؟».

- «لا».

- «رفدوك من الشغل؟!».

- «لا! لا شيء من كل هذا».

- «إذا لم يكن شيئًا من هذا حصل فاضرب الدنيا صرمة قديمة.. كل عقدة ولها عند الكريم حلَّال.. كل أزمة تنفرج لا محالة؛ فالأصل في الدنيا هو الانفراج، لكن الأزمات طارئة عابرة وإن طالت! خصيمك النبي إن كنت تخفي عني ما يوجعك! أنت معذور في قرشين؟!».

- «الحمد لله مستورة يا عم شعبان».

- «البكوات الأوساخ مزعلينك؟».

- «جبت الفايدة».

- «ديك أم البكوات!».

- «بالضبط! هذا ما توصلت إليه و...».

- «مفهوم يا أفندي مفهوم! البني آدم منا دم ولحم، مشاعر وأحاسيس. اسأل مجرب.. وأنا من غير مؤاخذة جربت العمل مع أسياد عبيد في أصلهم! كفاك الله شر تحكم الندل في الأصيل!».

- «طول عمري أقرأ وأسمع هذا التعبير في المواويل، ولم أكن أتصور أن حقيقته مؤلمة إلى هذا الحد يا عم شعبان!

اليوم جربت بالفعل معنى أن يتحكم النذل في الأصيل!».

- «شوف: إذا شتمك النذل ببذاءة فلا ترد عليه، ويكفيك أن الشتمة البذيئة تشبه الكرة، تضرب في المشتوم ثم ترتد إلى الشاتم بنفس القوة.. وإن أجبرك اللئيم على فعل شيء يغضب الله فاعتق نفسك منه ورزقك على الله، أما إن كنت لا تقدر على الفلفصة منه لسبب من الأسباب ففوض أمرك إلى الله ولكن لا تطاوعه وإن قطعوا لحمك ورموه للكلاب.. وما دمت امتنعت عن فعل ما يغضب الله فإنه سينصرك في النهاية! ابعد عن الشر وغَنِّ له بالموال تسلم من عذاب الضمير ومن عقاب الله.. عند اللزوم قل الحق تنجو من الورطة.. وما دمت صادقا في قولك سيصدقك السامعون لا محالة.. أما إن كنت يابو العم قد تورطت في شيء خطر فحدثني، فربما أشرت عليك بما يصلح من موقفك».

تهدجت مشاعري، أخذت عم شعبان في حضني، ربتُّ كتفيه في امتنان مؤكدا له أنه قد أفادني فعلا بما يصلح من موقفي الذي لم أتورط فيه بعد. أصررت على دفع ثمن كوب الليمون شلنا كاملا. مشيت متطامنا بعض الشيء، قال وازع من التريث: إنك لم تعرف بعد شيئا عن طبيعة المنقولات المخزونة في شقة عقدها باسمك وتوجد تحت سريرك، أليس من المحتمل أن تكون سلعا تجارية؟ نجفا بللوريا مثلا كما زعم الحاج مصطفى الشماشرجي؟ ربما كانت بالفعل نجفا مستوردا غالي الثمن يصعب بيعه إلا للأثرياء الفاهمين لقيمته.. أما أن تكون آثارا مهربة أو مخدرات فإنني لن أتورع عن الإدلاء بشهادتي عليهم بكل وضوح. فكرت أن أذهب من فوري إلى الخواجة أرتين لأفسخ عقد الشقة وأسلمه مفتاحها مطمئنا إلى أنه لا منقولات لي فيها على الإطلاق ولا أي ورقة تشير إلى شخصيتي، كما أن الخواجة أرتين يمكنه أن يشهد بأن من تفاوض معه على الإيجار ودفعه من جيبه هو الحاج مصطفى الشماشرجي بحضور كل من عنتر بك وعمرو بك.

دهمني خاطر كحائط صد دوخني من عنف اللطمة: لسوف تتسبب بهذا الفعل في فضح لولية هانم حينما يتسلمون الشقة ويعثرون في دولابها على الملابس الداخلية المضمخة بعطرها ومعها ثيابي، ولسوف يتهمونني بأنني فعلت فعلتي وهربت؛ وإذن فالعلاج الأمثل لقلقي هو أن أتجاهل الأمر تماما حتى ألتقي لولية بعد يومين لأستنير برأيها كشريكة لي في الموقف بشكل أو بآخر.

صعدت إلى مقر الشركة متماسكا، تجنبت التحدث في أي شيء خارج عن نطاق العمل. كعادته احتضنني رشيد بك السيسي بقوة. من عجب أن حرارته لم تنعشني بالعاطفة الإنسانية التي اعتدتها. يبدو أن السلوك الإنساني الدافئ في محيط من الكذب والبهلوانية الألعبانية الإجرامية يفقد كثيرًا من وقعه الطيب. ما آلمني أنني الآن أكاد أتشكك في صدق عواطف رشيد بك السيسي الذي أشهد بأنه أرقى من عرفت من البشر. أكاد أتوجس أن يكون رشيد بك تلقى توصية بأن يخدرني بمثل هذا التعاطف الناعم جدا حتى أتغافل وأتجاهل ما قد أستكشفه من أمور غامضة فأمسك عن طلب تفسير لها. لكنني - برغم القرصة التي لا تزال أسنانها قابضة على لحم قلبي من الداخل - ميال لتصديق عواطف رشيد بك السيسي تجاهي، كما أن الكارثة الكامنة تحت السرير من الواضح أن رشيد بك لا صلة له بها من قريب أو بعيد.. هكذا يلوح لي من نظراته الصافية المتزنة وكلامه المحدد المباشر وأسلوب تعامله الذي لا يعرف اللف أو الدوران أو الغمز.

في تلك الليلة طلبت من خليل أفندي أن يعلمني لعبة الشطرنج، فإذا بها لعبة تعالج قلقي.. لكن التركيز الشديد، المطلوب لدراسة المربعات والتفكير في كيفية تحريك القطع وتخطيط مؤامرات للقبض على الوزير ومهاجمة الملك، كل ذلك بقدر ما أثار فيّ من لذة فإنه أكل دماغي لليلتين متتاليتين تمكنت فيهما من الصبر والكتمان.. وفي صباح الخميس المرتقب لبست البدلة الكاملة برباط العنق، لمعت حذائي، ركبت سيارة أجرة لكي أحتفظ بأناقتي من بهدلة الباص، انجعصت في الكنبة الخلفية صائحا مثل الرجال المهمين: حديقة أنطونيادس يا أسطى.

كل الشواهد تشير إلى أن القدر يربط بيننا على شكل من الأشكال يعلم الله ماذا سيكون؛ فأن نصل معا إلى حديقة أنطونيادس في نفس اللحظة فهذا أمر لا يخلو من الدلالة التي أصبحت أبحث عنها وراء كل ظاهرة ألتقيها. ها هي ذي قد رأتني وأنا أجلس لتوي على الأريكة الخضراء.. يا إلهي ما أجملك إذ تخلق كل هذا الجمال الفاتن المقبل نحوي يخطر خلل الأشجار العريقة! أكاد أجزم أنني أراها لأول مرة؛ عصفور رقيق الجناحين يتطاير، خريطة حية بالألوان فيها أودية وسهول وهضاب عالية وكثبان من القشدة في تناسق مذهل كأن هناك نحاتًا يواليها بالتشذيب كل يوم! ليس في الدنيا كلها سوى عطرها هي، يسبغ على حدائق أنطونيادس عبق الحياة والشباب والفتوة. لست أريد من الدنيا شيئا أكثر من حضنها الدافئ هذا الذي احتواني فور اقترابها مني. لا أظن أنني يمكن أن أعيش بدونه.

جلسنا متجاورين على الأريكة، انزاح الضباب عن عيني، صرت أرى الخضرة في صفاء عينيها، في عمقهما الشبقي العريق تشخيص لبهجة الارتواء مع أنها دائما أبدا مجرد فتاة صغيرة عذراء. عندما تهيأت لأتكلم بدوت طفلا يغالبه البكاء وهو يحكي لأمه كيف أهانه أولاد السفلة في مدرسة الحياة.. لكنني ما لبثت حتى اندفعت أحكي لها كل شيء بالتفصيل عن ليلة العزومة المشبوهة وكيف أثارت شكوكي وشكوك أعمامي فنصحوني بالابتعاد عن الشقة حتى تنجلي الأمور.

كان وجهها كصفحة الموج يوم نوَّة شديدة.. غاضت الدماء كلها من وجهها.. أخيرا ضربت بيدها فاتحة حنكها عن شهقة أقرب إلى أن تكون صرخة حيث اضمحل الصفاء من عينيها وحل محله ضباب فجيعة مرتاعة:

- «عربي؟! عربي كان هنا؟! وتعشى وسكر وحشش مع الحاج مصطفى؟!.. الكلب!».

ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى في غيظ مكتوم، اصطبغ وجهها بلون مربد تلوح فيه ظلال من القهر والشعور باليأس مع الضغينة العاجزة عن الانتقام.

- «هو ابن عمك حقا يا لولية؟».

- «إنه.. أخي!».

- «عربي أخوك؟! تقولين إنه أخوك؟!».

- «أصغرنا.. ديك البرابر!».

- «ليس لك أخ سواه؟».

- «كان.. وانحرق قلب أمي عليه. بكريها مات في سن عربي هذا الذي شفته. مات في نفس هذا الطريق المعوج المشئوم. قتله رصاص البوليس في مطاردة لقافلة كان بسلامته يقودها في صحراء القنطرة شرق. أف ف ف ف ف! كانت العملية لحساب الشماشرجية الملاعين!.. هو لبس القضية ومات، وهم طلعوا منها كالشعرة من العجين! آه لو كان ربنا يأخذهم!».

- «يعني عربي أخوك شريك لل- ...»

- «أنت طيب وعلى نياتك! عربي شيَّال! نعم.. مجرد شيال، انتهت مهمته بمجرد توصيل البضاعة إلى شقتك.. رجع من شقتك إلى بورسعيد في الحال.. أنا متأكدة أن قنطار اللحم نسخ المفتاح».

- «وهل عملية الشيالة هذه مربحة؟».

- «جدا».

- «يعني كم جنيها يأخذ عربي في شيلة كهذه؟».

- «ما يمكن أن يشتري به سيارة على الزيرو!».

- «أي شهادة دراسية يحملها عربي؟».

- «شهادة؟! شهادة ماذا يا رجل يا طيب؟ الحاج مصطفى وعنتر بك وقنطار اللحم هم المسئولون أمام الله عن إفساد هذا الولد! فلوس من غير حساب أغرقوه بها حتى عرف الإدمان وأصبح في احتياج دائم لفلوس كبيرة. نحن

مستورون والحمد لله، وكل واحد من إخوتي له سيارة ملاكي من ميراث أبي، ولكل واحد منا مدخرات في دفتر توفير من ميراث أمي. بدد هو كل نصيبه وباع السيارة، وها هو ذا سيشتري الأجدد منها ماركة اللاندروفر التي يحلم بها. كم أنت مسكينة يا مامي!».

- «وإذن فالحقيبة المدفونة تحت السرير فيها مخدرات؟».

- «لا شيء غيرها».

- «نهار أسود ومنيل بستين نيلة!».

لمع الشر في عينيها ساذجا مضحكا لكنه جريء:

- «سأكشفها لك بنفسي لتتأكد من حجم المصيبة التي غرزك فيها الحاج قرد وزفت الطين عنتر وقنطار اللحم زوجي».

وقفت أنتفض، أصابتني رعدة صارت تزلزلني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، انهمرت الدموع على خدي.

- «لن أقوى على الدخول من باب هذه العمارة. سأبعث بعمي إسماعيل إلى صاحب العمارة ليفسخ العقد ويسلم المفتاح، وإن اعترضني أحد سأبلغ البوليس وأقول كل ما حدث من طقطق لسلامُه عليكم».

- «اهدأ واجلس.. براءتك في يدنا معا فلا تخف هكذا ولا تتعجل. كن في غاية الاطمئنان فأنا شاهدة معك. خوفك لا يكون من البوليس فإني متأكدة أنه لن يهاجم الشقة بأي حال من الأحوال لأن كل قسم بوليس وكل مكتب نيابة فيه واحد من الشماشرجية، حتى المحاكم، حتى الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة فيهم شماشرجية؛ يعني يدهم طائلة وقابضة!.. إنما خوفك يكون حقا من الشماشرجية أنفسهم، هم الذين في يدهم الإضرار بك وقتما يشاءون لأي سبب من الأسباب المخترعة من دون مراعاة لقرابة أو صداقة أو جيرة أو بلديات أو أي حرمة من الحرمات! ما أسهل على المخدوم أن يسلم خادمه للبوليس بتهمة سرقته أو الاعتداء على حريمه! إن البوليس في بلادنا لا يحترم إلا السادة».

- «وماذا أفعل الآن يا لولية؟! دبريني».

- «شف يا حبيبي، إن أردت أن تجعل لحمك مُرا لا يؤكل، وأن تكسر عيونهم جميعا فيخشون بأسك مدى الحياة، فتعالَ معي».

- «كيف؟ إلى أين يا لولية؟ إنه لجنون!».

- «اسمع كلامي تكسب.. إني كفيلة بأن أنتقم لثلاثة أُعِزّهم: أخي ياسين وأخي عربي وأنت».

- «لا داعي للجنون يا لولية.. أنا معجب بعقلك فلا تشككيني فيه وفي نفسي!».

- «أنا منذ كم يوم فكرت في الانتحار عن اقتناع.. طهقت من القهر والهوان والوحدة، فلماذا لا أنتحر اليوم بفائدة كبيرة؟!».

- «ومن أدراك أنني سأتركك تنتحرين؟!»

- «هذا هو الانتحار الوحيد الذي يمكن أن أسترد فيه حياتي! يعني إن لم يتحقق الموت فعلا سأحيا على كيف كيفي، أبرطع في الحياة كما أهوى، أعوض ما فاتني من عزة وكرامة! هات يدك».

- «يا لولية!».

- «هات يدك».

- «أرجوك ت- ..».

- «هات يدك».

تشابكت يدانا كعاشقين والهَيْن. الواقع أن كل يد من يدينا كانت تتشبث بالأخرى لتستمد منها الشجاعة والتضامن ولذة المشاركة القلبية في مصير واحد.

فكت يدها من يدي لتفتح باب سيارتها، ركبت وفتحت لي الباب من الداخل فركبت بجوارها مستمتعا بلطشات يدها

اليمني وهي لا تني تحرك قبضة عصا الفتيس. لفتّ الصينية، اتجهت إلى الشارع الموصل إلى طريق الكورنيش حيث تزحف السيارة ببطء يتماهى مع إيقاع صوتها المملوء بالشجن والشفافية... ...

«.. جدي لأمي - الحاج عبد السلام الخُطري - هو الذي أصابنا بلعنة المخدرات تجارة وتهريبا!.. بابي وعائلته ليس لهم أي اتصال بهذه المهنة الخطرة لأنهم مستورون من الأساس. هم من كبار الأثرياء وملاك الأراضي وتجارة القطن والمحصولات الزراعية في محافظة الشرقية. بابي تخرج في كلية الهندسة بامتياز، بعثه أهله الأثرياء على نفقتهم - حتى لا ينتظروا الدور في بعثة الحكومة المقررة له - ليأخذ الدكتوراه من جامعة السوربون في علم الميكانيكا البحرية، وحصل عليها بامتياز أيضا وهو في العشرينيات من عمره عليه رحمة الله.. اختطفته شركة السويس صاحبة الامتياز في إدارة القناة. نبوغة أهَّله لأن يصبح في زمن قياسي المدير الفعلي للشركة.

«جدي لمامي الحاج عبد السلام الخطري كان داهية من دواهي الزمن، مرهوب الجانب في مدن القناة كلها.. عاش مائة عام بالتمام ومات في يوم مولده!.. ضيّع من المائة عام خمسة وسبعين في تهريب المخدرات إلى مصر من لبنان وتركيا وإيران وأفغانستان، يتخذ من البحيرات المُرة وبحيرة المنزلة مخازن تحت الأرض تحت الماء لا يكتشفها جني! مع ذلك.. بقي نشاطه طوال عمره أشبه ما يكون بالشائعة!.. كل محاولة للقبض عليه متلبسا تنقلب على مدبرها ومنفذيها!.. قويَ رصيده من دلائل النفي القاطعة.. استشيخه كثيرون.. أصبح مضرب المثل على الاستقامة والورع.. صدقهم وصدق نفسه.. قام ببناء مسجد كبير ألحق به ضريحا له يدفن فيه، وقد دفن فيه بالفعل حينما توفاه الله قبل قيام ثورة يوليو بأشهر قليلة!.. قدرته الجهنمية كانت في موهبة الزعامة التي منحها الله له! كل الناس حتى الأكبر منه سنًّا يقولون له: يا عم.. كل مستمع لحديثه ينجذب إليه وسرعان ما يمتثل لأوامره دون اعتراض حتى لو طلب منه أن يرمي نفسه في النار أو في البحر!.. في الواقع كان هذا ما يحدث بالفعل!

«جدي لمامي الحاج عبد السلام الخُطري كان موهوبا في إيقاظ الهمم الخاملة، يبث فيها الشجاعة فتغادر مرقدها! كان بارعا في زرع الرجولة المبكرة في الصبيان لينفذوا ما يأمر به من مغامرات وما يرسمه من خطط ومخاطرات.. من يقع منهم في تلبس ينقطع لسانه قبل أن يذكر في التحقيق اسم جدي!.. هل تصدق؟.. معظم رجاله وصبيانه كانوا من ضباط البوليس المكلفين بمكافحة المخدرات!.. ليس يرشوهم ولا يستدرجهم لخيانة واجبهم الوظيفي.. لا.. لا.. إنما هو يغدق عليهم من الأبوة والحنان والنصح والعون المادي بغير حدود في أزماتهم الشخصية: ديون؟ يسددها لك.. زواج؟ يعاونك في المهر أو في الجهاز.. خلاف مع رؤساء؟ يتوسط لك بما يعرفه من مئات الشخصيات الكبيرة.. مزنوق في بناء بيت؟ يمدك بحديد وطوب وأسمنت وربما برجال يحملون القصاع، من دون أن يطلب منك أي خدمة لا بالتصريح ولا بالتلميح لأن هذا السلوك هواية من هواياته تحقق له لذة كبيرة، مما يجعل الجميع يتمنى أن يخدمه!..

«كل ذلك لا يكلفه أموالا كما تتخيل! إنه يكلفه جهدا فحسب في الاتصال بناس والتوسط لناس عند ناس وتعريف ناس على ناس! قد يضمن شخصا في مبلغ في سلعة في أمانة، فإن اضطر إلى الدفع من جيبه فسوف يعمل بنظرية: من ذقنه تفتل له حبلا!.. الجميع يقعون في أسره والسلام.. رجاله من أهل المهنة الذين يلعبون بالبيض والحجر كانوا أحرص عليه من نفسه لأن أسرار اللعب دائما في حوزته، وكل عملية يقومون بها يتبقى منها ذيل مربوط بعملية أخرى قادمة!.. العملية تنسحب وراءها عمليات، والمكسب الفاحش يوصل إلى
مكاسب أفحش..

«من أولئك الضباط المتصلين بجدي عبد السلام كان زفت الطين قنطار اللحم عمرو بك الشماشرجي.. احتواه جدي من لحظة وصوله إلى مقر شرطة القنطرة شرق.. كانت تحريات جدي ومخابراته الواسعة قد أكدت له أن عمرو الشماشرجي - ابن العائلة الكبيرة المرموقة فاحشة الثراء لتاريخ طويل والذي تم تعيينه حديثا - سيكون ممتلئ العين صاحي الضمير، إلا أنه ضعيف الشخصية رخو مستهتر مغرور!.. بالغ جدي في احتضانه، أضفى عليه هيبة بين الناس، أسبغ عليه حمايته.

«حقيقة الأمر أن جدي عبد السلام الخُطري كان طول عمره يحلم بمصاهرة هذه العائلة ذات السمعة العالمية في الغزل والنسج الرفيع وفي صباغة الأقمشة. إن جدي في الأصل سليل عائلة من الغزالين والنساجين بالأنوال اليدوية، ولهذا فرغم اغتنائه بالأموال بقي طموحه معلقا بنجوم أبناء هذه المهنة في تطورها الحديث، وبخاصة لأنه كان يخطط لغسل أمواله ونفسه من خطايا التهريب، فيستثمر أمواله في مشروعات صناعية مضمونة النجاح، ويا حبذا لو كانت صناعة يفهم فيها ولو قليلا!

«مامي آنذاك دون العشرين من عمرها بشهور قليلة تضاف إلى عمر النقيب عمرو الشماشرجي!.. في عزومة الغداء

رآها النقيب عمرو فجن بها.. هي الأخرى وقعت في حبه لأول نظرة كما تقول الأغاني.. كان في شبابه حلوا رشيقا.. ابن باشوات.. كما أن منظره في البدلة الرسمية كان فاتنا. تقدم النقيب عمرو الشماشرجي لخطبة مامي.. وافق جدي في الحال، لكنه أرجأ إعلان الخطوبة حتى يجيء الشماشرجية الكبار لخطبتها منه.

«جدي الداهية كان على علم بأن سيادة النقيب قد لان وانطوى تحت ذراع الصبيان الجبابرة متوهما أن الأمور بعيدة عن جدي ولا شأن له بها من قريب أو بعيد.. فالنقيب العامل في مكتب مكافحة المخدرات واثق تمام الثقة بأن جدي الحاج التقي الورع السَّباق إلى فعل الخير لا علاقة له لا بالتهريب ولا بالترويج، بل وليس يعرف شيئا عن هذه الأمور الشائنة، وأن الشائعات التي كانت تتهمه سابقا كانت محض شائعات، بدليل أن بعض رؤساء النقيب عمرو الذين يئسوا من الإيقاع به فلفقوا له تلبسات متقنة الحبك قدموه بها إلى المحاكمة فأثبت القضاء بطلانها عدة مرات!..

«الغبي غبي طول عمره! لم يكن يعرف - أو لا يدرك بمعنى أصح - أنه لا شيء في هذا العالم الشائك الواسع يحدث إلا وقد خرج به التصريح من تحت شوارب الحاج عبد السلام الخطري.. لا صفقة تمر إلا مشمولة برعايته.. لا تحديد للأسعار للأجور للمكافآت للإكراميات للمصاريف السرية إلا بكلمة منه أو إيماءة أو غمزة عين!

«الحاج عبد السلام كان على علم بالطبع بأن سيادة النقيب قد فوت عدة صفقات نظير أجر معلوم، واشترى لحسابه الشخصي عدة صفقات باعها قبل استلامها في غيط العنب بالإسكندرية، وساعد المشترين على استلامها في قارب في بحيرة المنزلة تحت حراسته، وشارك مع الصبيان في مجاملة رؤسائه - لإثبات أنه شايف شغله - بعدة صفقات مضروبة مصنعة من الحناء وورق الكافور.. كل ذلك وجدي - الذي أعُدّه أنا أسوأ من الحاج مصطفى الشماشرجي في الكهانة وإتقان الورع والتقوى - عامل كأنه ليس يعرف أي شيء عن أي شيء! يطرمخ بمزاجه مع أنه مدبر لكل شيء!

«كوَّن النقيب عمرو ثروة معتبرة في الخمس السنوات التي قضاها في الخدمة. في الموعد المحدد لإعلان الخطوبة سافر النقيب عمرو إلى الإسكندرية ليأتي برءوس العائلة ووجهائها ليخطبوا ود العروس.. سافر من ورائه وفد من مخابرات جدي عبد السلام.. قالوا بعد عودتهم إن القيامة قامت على سيادة النقيب في الإسكندرية وفي بلدته «ميت الديبة» وأن الباشا الكبير هدد بحرمانه من كل شيء حتى من اسم العائلة ما لم يمتثل للقرار الذي اتخذه بوصفه رئيس العائلة بأن يتزوج من ابنة عمه الفلاحة المقيمة في البلد تحمل الشهادة الابتدائية وتنتظر أرضا زراعية شاسعة سترثها بعد عمر طويل.

«طار العريس من مامي.. طار أيضا من وظيفته.. قال جدي لمامي إن سيادة النقيب تزوج بالفعل من ابنة عمه التي لا تزال تحتمله إلى اليوم، وأنه استقال من الشرطة، وكوفئ بمنصب مهم في مصنع من مصانع العائلة بمرتب كبير زائد عمولة.

«العجيب أن مامي طيبة القلب لم تقو على طرده من قلبها طوال حياتها رغم ما أحاطها به بابي من عز وحنان وحب وقيمة ومهابة؛ فلله في خلقه شئون!..

«الأعجب أن جدي لم يصدمه الخبر ولو لبرهة واحدة!.. كان يتوقع حدوث ما حدث.. إنما العقل المحنك المتودك إن كان على شخصية زعامية موهوبة مرهوبة زانها وقرّب العالي والبعيد إليها.. الرجل الذي يلين له الصخر ليس يفرط في معارفه بسهولة إن فرط فيها أصلا، فما بالك لو كانوا أصدقاء أو معاونين؟.. أشهد له بأنه كان نفسا تخلو من أي ميول انتقامية! يؤكد بسلوكه دائما أن الرد بالخير على الإساءة هو أعنف عقاب، هو أنجع سلاح لرد العدوان، أو على الأقل تأجيله أو تعطيله إلى أن تنصلح النفوس! كان رجلا عظيما والله لولا هذه الشغلة الرذيلة التي يحقق فيها زعامته الفطرية الفياضة، فآه وآه لو اشتغل بالسياسة من صغره. تصور.. لقد أرسل برقيات التهاني إلى الشماشرجية على زواج ابنهم سيادة النقيب!.. نشر تهانيه في أشهر الجرايد والمجلات.. ثم إنه سافر إلى الإسكندرية بصحبة كبيرة من الأعيان وصبَّح على العروس بخاتم سوليتير فخم لا يزال عندها إلى اليوم! يومها ملأت شخصيته المهيبة اللطيفة دماغ الباشا الكبير وجميع وجهاء العائلة لدرجة أنهم تمسكوا باستضافته لعدة أيام، فلما أصر على العودة إلى بورسعيد في نفس اليوم قام الباشا بنفسه بتوصيله بسيارته الخاصة إلى قرب الحدود البورسعيدية تكريما له.

«الدور والباقي على مامي، تلك الفتاة التعيسة خائبة الرجاء!.. كانت تحبه حبا حقيقيا، وصورته منقوشة في قلبها لا يمحوها الزمن وإن طال.. لكن الله كان يحب مامي فطيَّب جرحها، أرسل لها عريسا يحبها أشد من حبها هي لعمرو.. أحلى وأطول قامة ورشاقة.. أكثر ثقافة ولباقة ورقة حاشية.. إنه بابي، العميد المهندس بحري مأمون الشافعي، أحد

أنجب الشباب المرموقين في شركة قناة السويس. كان محترما مهيبا.. عائلته المرهوبة الجانب في الشرقية على صداقة عميقة بجدي عبد السلام من قديم الزمن وبينهم زيارات وعزومات في أفراح ومجاملات.. في واحدة من هذه المناسبات شافت نسوان العائلة حلاوة مامي، فلفتن نظر بابي إليها ثم دبرن له أكثر من فرصة للرؤية عن قرب، فهام بها.. جدي الذي لا يباريه أحد في فرز واكتشاف معادن الرجال استفرد بمامي ذات مساء:

- «يا نجفة عريسك لقطة! من أغني أغنياء الشرقية، وشخصيته قوية! ملآنة بالعفة والرجولة.. يعني أعطيك له وأنا مغمض العينين مطمئن البال، فاقبليه زوجا يسعدك الله طول العمر».

«صدق جدي! ما إن زفت مامي إلى بابي حتى انفتحت أمامه عتبة سلم الترقي.. صعد بسرعة حتى أصبح رمانة الميزان في شركة القناة.. ارتفع شأنه. تشاء الظروف أن يموت أبوه فيرث عنه أموالا كثيرة جدا وأراضي زراعية ومتاجر ومحصولاتٍ وماشية وخيولا ودنيا أخرى، فاضطر إلى الاستقالة ليرعى مصالحه بعد أن أصبح صاحب ثروة ضخمة.

«من الظواهر الطريفة المستلفتة للنظر في عائلتنا ظاهرة الاتفاق في الأرقام: كأن يولد جدي يوم خمسة من إبريل ويموت يوم خمسة من إبريل! وأن ينجب جدي أربعة أبناء: خالتي حفيظة ومامي وخالي عبد الستار وخالي يوسف! وأن تخلف خالتي حفيظة ولدين وبنتين أيضا من زوجها تاجر المانيفاتورة! الولدان هما اللذان كانا يسكنان شقة الإبراهيمية: مأمون وفؤاد، أحدهما الآن مدرس رياضيات والثاني محاسب يدير محلات أبيه، أما شقيقتاهما سلوى وسميحة فقد تزوجتا بعد شهادة التوجيهية. نفس الرقم بالنسبة لمامي نجفة؛ خلفت لميس وياسين ولولية وعربي، تزوجت لميس من مهندس بحري في شركة القناة من اختيار بابي وفي بطنها الآن إبن رابع، أما ياسين فقد مات في عز شبابه في حادثة سخيفة فاجعة، وأما لولية فقد تزوجت من قُنطار اللحم لحظها المهبب بهباب، وأما عربي فالفلوس الكثيرة أفسدته، فلما قطعتها مامي عنه راح يسلك سلوك الفُجار!

«ألبوم ذكرياتي في الطفولة فيه صور من المنغصات كثيرة.. تلك الغيبوبات التي كانت تصيب أبي تحت وطأة مرض السكر.. في واحدة من هذه الغيبوبات لم يُفق قَط. نقلوه إلى المستشفى.. قالوا إن الأدوية التي أعطيت له تضارب مفعولها وتناقض.. فقدناه في غمضة عين.. أصبحنا بلا ظهير.. كثر عدد الفارضين وصايتهم على حياتنا مدفوعين بدوافع خيرة: أعمامي تولوا زراعة أرضنا وتشغيل مشروعات الماشية والخيول والتقاوي والمحصولات ويحاسبوننا بأمانة وشرف. خالي عبد الستار وخالي يوسف يشرفان على أمور حياتنا ورواحنا ومجيئنا ومدارسنا وتنظيم مصروفاتنا ومدخراتنا وحمايتنا من أي عدوان طامع فينا بعد وفاة جدي عبد السلام الخطري.

«أنا الوحيدة التي أحبت القراءة في العائلة.. قراءة الأدب بالذات.. كنت في طفولتي مبهورة بمنظر بابي وهو كمشان في ركن في حجرة مكتبه مستغرقا في القراءة في ضوء الأباجورة إلى آخر الليل والكتب من حواليه تزدان بها رفوف مكتبته الجميلة، حيث تبدو حجرة المكتب في ناظري حديقة من الألوان، فكانت هي الحجرة المحببة لي منذ الطفولة، أقضي فيها الساعات أتمسح في ركبتي بابي وأتمنى لو أستطيع قراءة هذا الكتاب الذي أخذه وألهاه عني! ولهذا تعلمت القراءة بسرعة، فما كدت أصبح قارئة بحق حتى ودعنا بابي وترك لي مكتبته، فعشقتها عشقي لبابي واعتبرتها أعظم ميراث تركه لي!

«وعما قريب سأفاجئ الدنيا كلها بطبع ونشر كتاب من تأليف بابي وجدته بين أوراقه، يصفه بابي في عبارة في صدر الغلاف بأنه: من أدب علوم البحار.. أما عنوان الكتاب فإنه من أغرب ما قرأت: «مواطنة المياه»! فيه فصول أغرب وأغرب من قبيل: «جنسية الماء»، «الهوية المائية»، وفيه يقول إن مياه النهر الواحد تختلف باختلاف البلدان التي تستوطن أرضها!.. اكتشفته منذ حوالي شهرين في خزنة أوراق أهملناها إلى أن نفرغ لها ونفرزها، ونحن نعلم أن بابي كان يحب الكتابة التي توقعنا أن تكون مشروعات أبحاث علمية كان يشغل نفسه بها طول حياته.. وعلى كل حال ربما ألجأ إليك قريبا لتشاركني في قراءة هذا الكتاب والتعرف على محتواه، وأنا مستعدة للإنفاق على نشره تخليدا لذكرى بابي.

«موت جدي عبد السلام الخطري بعد موت بابي المهندس الدكتور مأمون الشافعي كسر نفوسنا، وأصبحت حياتنا التي لا ينقصها أي شيء من الرفاهية في طعم المياه الجوفية التي تسحبها الطلمبة اليدوية.. ورغم أن خالي عبد الستار لم يكن يقل عن أبيه زعامة وقوة شخصية ودهاءً، فإنه لم يستطع إعادة أمجاد أبيه وهيبته الطاغية المؤثرة.

«أصيبت حياتنا بالركود والكآبة، وسكن الحزن عيني مامي بفقد زوجها ومن ورائه ابنها ومن بعده أبيها.. كانت تحاول أن تخدع نفسها لكي تخدعنا بأنها امتثلت لقضاء الله صابرة غير معترضة.. يتراءى لي الآن أنها فطنت إلى أنني عروس في عمر الفرح وأنني الوحيدة المقيمة معها في بيت كبير وجهي في وجهها طول النهار، إذ إن عربي لا

نراه إلا آخر الليل، وإن حزنها المبروز في فستان أسود وطرحة سوداء قد طبع نفسه على عجينة مشاعري في تلك السن الحرجة فأصبح الحزن محفورًا في قلبي على الدوام تظهر صورته في صوتي في كلامي في قعدتي في سرحتي في مخاصمتي للابتسام والموسيقى والأشياء المفرحة كافة احتراما مني لمشاعرها على الأقل، ولكن الظرف كان في منتهى الحرج، إذ إنني بعد أشهر قليلة سأدخل امتحان شهادة التوجيهية، وما لم يتغير الجو المحيط بي فمن المستحيل أن أنجح تحت وطأة النكد الثقيل!.. كان الله في عون المسكينة مامي..

فاجأتني ذات صباح مفاجأة مذهلة: صحوت من النوم في الضحي ففوجئت بمامي الشابة الفتية المشرقة الوجه الصافية العينين واقفة أمامي تصحيني!.. ظننتني في حلم! دعكت عيني وتأكدت أنها مامي التي كانت قد اختفت منذ رحيل بابي كأنها رحلت معه تاركة لنا شبحها الحزين المؤلم!.. نعم هذه هي مامي التي وحشتني، ترتدي ثوبا منزليا وردي اللون تاركة جدائل شعرها تمرح فوق ظهرها وكتفيها، كما ظهر جسدها الجميل في الثوب المحبوك بقدر ما هو مكشوف، فوشى ارتفاع صدرها وامتلاء ردفيها بأنها لا تزال أنثى طازجة!.. أمرتني بنظرة عين حانية وحاسمة معا بأن أقوم من فوري إلى الحمام لأغير منظري الصدئ كما وصفته!.. لحظة خروجي من الحمام أذهلني أن صوت الراديو الفليبس الموبيليا قد راح يمرح في البيت بأغنية عبد الغني السيد: آه م الزمان والهوى!

«أخيرا نطق البيت وصاحت فيه الحياة.. صوت الراديو راح يعلو يوما بعد يوم، ودولاب ملابس مامي راح يعرض على جسدها كل ما كان مدخرا فيه من موديلات أشكالا وألوانا وصفاء الذهن يتصالح معي.. نجحت بتفوق في امتحان التوجيهية، وخالي يوسف الذي كان يراقب ما طرأ علينا بفرح وتشجيع نظرا لميله الشخصي إلى النزاهة والفنجرة والعبّ من متع الحياة بغير حساب.. كان أسرع مما توقعت في الاستجابة لرغبتي، فحمل أوراقي وسافر معي ليلحقني بكلية الآداب قسم اللغة الفرنسية ويحجز لي في المدينة الجامعية وأحظى برعاية مأمون وفؤاد ولدي خالتي حفيظة اللذين سبقاني إلى الإسكندرية بعام، على أن يجيء خالي يوسف من حين لآخر ليرعانا معا.

«بانصراف الحزن عن البيت شممت نفَسي فتوسعَتْ قراءاتي في الأدب في مكتبة بابي وفي كتب أصبحت أشتريها.. المنفلوطي أكل دماغي لوقت طويل، ثم تلقفني إحسان عبد القدوس فلحس عقلي بقصصه ورواياته الفاتنة، أصبحت أجري وراء كل حرف يكتبه، أقرؤه مسلسلا في روزا وفي صباح الخير وأشتريه عند صدوره في كتاب.. عشقت عالم إحسان عبد القدوس وسيمون دي بوفوار وسارتر وألبير كامي وفرانسواز ساجان الطالعة..

«في زيارة ليلية مفاجئة جاء خالي عبد الستار لكي يشرب الشاي معنا كما زعم.. وإذا به بعد تمهيد طويل وناجح يلقي الخبر أمامنا على ترابيزة الصالون. كان خبرا مثل طلقة الرصاص المدوية أزعجتنا قليلا ثم أضحكتنا بطرافتها.. قال خالي عبد الستار لأمي في بساطة مدهشة إن عريسا يدور عليها بإلحاح!.. قبل أن نستوعب الخبر جيدا فاجأنا خالي عبد الستار قائلا إنه شخصيا يؤيد فكرة أن تتزوج مامي خدمة لصحتها وحالتها النفسية طالما أن العيال كلهم كبروا واستقلوا ولم يعودوا يحتاجون إليها، وأنه قد آن الأوان لكي تشم نفَسها وتعيش ما تبقى من عمرها سعيدة، خصوصا أنها لا تزال في عز شبابها!..

«الجدية التي تكلم بها خالي عبد الستار خففت وقع الصدمة وأزالت عن الخبر خشونة غرابته لدرجة أن مامي بعد صمت طويل مبهم نطقت بطريقة من يتذرع بالسخرية ليخفي بها ميوله: ويطلع مين بقى العريس اللقطة ده يا عبد الستار؟! قال بلهجة ذات معنى: إنه أعز الحبايب في الدنيا كلها، حبيبك القديم تاب وجاء راكعا يطلب الصفح والمسامحة ويخطب الود مستعدا للتضحية بكل ما يملك في سبيل رضائك!.. ثلاث من علامات التعجب قامت بين حاجبيها وانعقد الدم في خديها المتكورين: مين يا عبد الستار؟! قال خالي وفي عينيه طبل وزمر ورقص ودفوف ومزاهر وصاجات: افهمي يا نجفة.. إنه سيادة النقيب!.. هتفت مامي بصوت متهدج فقدت السيطرة عليه فخانها وفضحها: عمرو؟! مش معقول! عمرو الشماشرجي؟! لا يزال يتذكرني؟! يا حبيبي!.. فيه الخير والله! إن شا الله يخليه!..

«أمام هذه الإشراقة العاطفية تأكد خالي عبد الستار أنه لم يعد محتاجا لأن يسمع ردها، إذ اعتبر أن ما رآه يعني القبول التام لدرجة أنه فتح موضوعا آخر للكلام، وعند انصرافه لم يسأل مامي عما إذا كانت توافق أو ترفض!

«بعد انصراف خالي عبد الستار نظرت لي مامي وابتسمت - لأول مرة بعد رحيل بابي - ابتسامة يجري الدم فيها بحيوية وتفاؤل.. كانت قد حدثتني من قبل عن شخص أحبته بجنون ولم يكن لها نصيب فيه، لكنني لم يكن يدور بخلدي أنه قابض على قلبها إلى هذه الدرجة!.. في الأيام التالية كانت تتحدث في التليفون مع خالي عبد الستار لمدد طويلة أراها خلالها في غاية الانتعاش والزأططة كأنها ارتدت إلى الوراء ثلاثين عاما فصارت فتاة مراهقة تنتعش بمجرد ذكر اسم الحبيب!.. من إحدى المكالمات التليفونية علمت أن العريس قادم لنا في زيارة يوم كذا.

«في اليوم الموعود لوصوله تناولتني مامي طول النهار بتركيز مكثف من المرح لإدخال البهجة على قلبي، إلى أن نجحت في أن تفرد وجهي بالانبساط فصار نسخة طبق الأصل من ذلك الوجه الذي يواجهني ليل نهار من صورة زفاف مامي المبروزة على الحائط فوق التسريحة.. فاجأتني بأن أشرفت على استحمامي وتصفيف شعري كأن العريس قادم من أجلي أنا وليس من أجلها هي!.. كانت جالسة مع خالي عبد الستار في غرفة الصالون بصحبة العريس حينما دخلت عليهم بصينية الشاي.. كانوا في حالة من المرح يطلقون ضحكات صافية عميقة، ويبدو من الواضح أن بحرا من ذكريات حميمة علا موجه فوق الشطآن فكاد يجرف العاشقين القديمين إلى تيار السحب التحتي.

«كان العريس هو عمرو الشماشرجي! رأيته من بعيد وأنا داخلة بخطو وئيد قبل أن يراني، فارتاع قلبي وانتفض كعصفور يتأهب للطيران!.. سحرني شعره الأبيض كأنه التاج فوق وجهه الأحمر! بدا لي في تلك اللحظة جميلا أنيقا خفيف الظل توحي ملامحه الناعمة الخادعة بأنه ينبوع رجولة ودفء وحنان.. بدا شكله باعثا على التطامن!.. يا ربي! إنه الرجل الذي يكمن شبحه في مخيلتي وصنعته قراءاتي الواسعة في الأدب الرومانسي حينما كنت أطلق لخيالي العنان في عالمي الذاتي السري حول صورة الرجل الذي يمكن أن أختاره زوجا! إني الآن متأكدة أن عشقي لشخصية بابي واعتقادي بأنه النموذج الأمثل للرجولة والدفء والحنان والمشاعر المثقفة التي طالما احتوتني في حضنها باعثة في أوصالي لذة حميمة، ثم فقداني له وأنا في سن التعلق به، ومعاناتي بسبب الحرمان منه! كل هذا كان له دخل كبير في استقرار أمواج مشاعري تجاه الزوج المرتقب على شطآن رجل كهذا الذي يجلس الآن في صالون بيتنا واسمه عمرو بك الشماشرجي وقد جاء يخطب مامي نفسها لتتزوجه!.. خيل إليّ لحظتها أن مامي سوف تسرق رجل أحلامي الذي لا أدري لماذا تصورته على هذا الشكل متغاضية عن امتلاء جسده مع تبييت النية على استخدام نفوذي الأنثوي فيما بعد لإنقاص وزنه حتى يناسبني تماما!

«هو الآخر رآني فارتبك! جحظت عيناه.. أطلق صيحة شجن ثم أصيب بالخرس.. ضحكت مامي لارتباكه قائلة له: هذه هي ابنتي لولية الطالبة بآداب إسكندرية، يعني راحت نجفة وبقيت لولية.. قال عمرو واقفا كأنه يصلي: إن وافقت الآنسة لولية أدفع حياتي مهرا لها! ثم شفع قوله بأن أخرج من جيب سترته الداخلي علبة هدية، فتحها بين أصابعه في وضع مائل فإذا بالهدية عقد بسلسلة ذهبية من الياقوت يتكون من ثلاثة طوابق مقوسة: كبيرة فصغيرة فأصغر.. كان العقد مبهرا بشكل يدوخ.. بكل بساطة وضعه فوق صينية الشاي هاتفا بحرارة: هذه الهدية عربون المحبة من جانبي خارج حساب الشبكة والمهر ومؤخر الصداق، إضافة إلى شقة تمليك في عمارتي باسمها، فإن وافقت عروسنا أقوم الآن فورًا لأشتري لها الشبكة التي تختارها على ذوقها مهما تكلفت!

«ملت للموافقة في الحال، لكنني باسم الحياء وحده طلبت مهلة عشرة أيام أراجع فيها نفسي.. بيني وبين نفسي بدا لي جذابا مريحا يمكن لفتاة مثلي أن ترمي حمولها وهمومها على أكتافه وهي مطمئنة إلى أب كالزوج وزوج كالأب! إنه خير من شاب طائش يحمّلني نزواته وشقاءه، وما دام الرجل بصحة جيدة وثريًّا كبيرًا لهذه الدرجة فإن جميع مشاكل الحياة ستكون محلولة، ثم إنه كما ظهر يبدو محبا شاريا مضحيا، مما يشي بأنني سأركب على كتفيه وأسوق الدلال.

ناقشت نفسي في كونه يقارب الستين من عمره ولديه زوج وأولاد وأحفاد.. العجيب أنني لم أنزعج من وضع كهذا طالما أنني سأكون في بيت خاص بي وحدي، خصوصا أن زوجه وأولاده ليسوا يمانعون في زواجه بل يباركونه كما قال بلسانه.. إني بهذه المناسبة متأكدة - برغم قلة قراءتي في علم النفس - أن البنت يمكن أن ترث أحلام أمها وهواها القديم لنفس الرجل أو رمزه، وربما تعيش نفس القصة بحذافيرها تماما، كما أنها قد تدفع ثمن غلطة وقعت فيها أمها ذات يوم أو تتحمل نتيجة حلم أخرق ملأ عليها حياتها في صباها القديم.

«أعجز عن وصف فرحة أمي بالموافقة على الزواج من فتاها القديم حبيب قلبها الذي اختطف منها لحظة استعدادها لحضنه. راحت تبث في قلبي الفرح كأنه فرحها هي! كأنها أخيرا ستزف إلى الحبيب الأول.. تلقنني الأسلوب الواجب أن أعامله به، كيف ألتقيه في فراشي، كيف أحنو عليه أهدهده أهننه!.. أكاد أصرخ في وجهها بغيظ ودهشة: يا مامي إنك الآن تتزوجينه باسمي في شخصي! يجب أن تتذكري أنني العروس لا أنت!.. فتلكزني ضاحكة: فليكن! هل أنكر؟!.. وهكذا تم زفافي على زفت الطين عمرو بك الشماشرجي قنطار اللحم في حفل كبير في مسرح الهمبرا حضره كبراء البلدين.

«أف ف ف! ليلة الدخلة كانت أسود ليلة في حياتي، توالت فيها الصدمات بسرعة جنونية أقنعتني من أول بوادرها أنني منحوسة تعيسة الحظ أتعس بكثير من حظ مامي!.. هي أكلت الحصرم وأنا ضرست!.. كان المشهد مؤلما يا بهاء: بدأ هو يخلع ثيابه ويرمي بها على طول ذراعه ويتكعبل في ملابسه الداخلية كطفل زنقته الحاجة قبل

الوصول إلى المرحاض فصار يوحوح ويتطوح، فيما أنا جالسة على حرف الكرسي بطرحة الزفاف كالمشلولة المتجمدة!.. صوت شخيره ولهاثه أشعرني بالتعب والإرهاق كأنني تحت وابور الزلط!.. عرقه يتصبب في خيوط تهطل من وجهه على الأرض!.. كان على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة!..

«يا لبشاعة منظره: متكرمش مترهل أجرد.. يهجم عليّ بظل كثيف خانق، بحركة جلف غليظ القلب خلع عن رأسي التاج بالطرحة ورماهٍ بعيدا كيفما اتفق. بدأ ينزع عني ملابسي بنفس الخشونة.. لحظتئذ فحسب أدركت معنى أن تكون أداةُ متعة جارية يشتريها القادرون بأموالهم! كل جمال بثمنه لا بذاته وكبريائه وقيمته!.. وحق من جمعنا على غير ميعاد أنني كنت مستعدة لأن أتقبله كعجوز كركوب ولكن بشرط أن يكون على شيء من اللطف والكياسة والإنسانية، يعني يفهم أنني كائن بشري مساوٍ له في كل شيء ومثله لي مزاج ورغبة وإرادة وموقف يجب احترامه!..

«ثيابي الداخلية تمزقت من عنفه الأجوف! حملني على ذراعيه جثة عارية .. رمى بي فوق السرير وارتمى فوقي لاهثا يصب فوق صدري وعنقي شلالات من العرق الزنخ والرائحة الكريهة للخمر والمأكولات الحريفة النتنة.. استسلمت لغيبوبة أتقي بها الشعور بالغثيان.. خلالها كان جسدي مستنفرا مستفزا للدفاع عن نفسه بوعيه الفطري الخاص. كنت أشعر بشيء لزج كدودة رخوة ميتة أمسكتها يد قاسية غشيمة وجعلت منها كرباجًا يسوطني في موطن العفة!.. دهر طويل يمضي ولسعات السوط متتالية دون أن أعي لها مبررا أو نهاية!..

أخيرًا شعرت بشيء حاد كسن المطواة يشرخ سطح اللحم الطري، فشالت النار في أوصالي فصرخت قاعدة! كان ظفر إبهامه المدبب الحاد قد ذبح الشفرتين فسال دمي، ورحت أتلوى من شدة الألم والشعور بالقهر والهوان، في حين جعل هو ينظر في أصبعه الغارق في دمي ثم شد طرف ملاءة السرير ومسح به دمي عن أصبعه مشمئزا مشمئنطا!.. قمت أجري إلى الحمام أحاول إيقاف النزيف.. اكتسحت المياه آخر أثر للون الأحمر، لكن الألم بقي ملتهبا بالنار.

«خيوط الدم كتبت أول سطر في ذلك الحلم المأساوي الذي عشش في قلب مامي فولدتني به، أرضعتني خياله الجامح الغبي، هيأتني للالتحاق بحطامه لأعيش نهاية المأساة التي كان من المقرر أن تعيشها قبل حوالي ثلاثين عاما مضت.. مسكينة مامي؛ كانت تتوهم أنها تفني ذاتها في خدمتي، تختار لي عشا سعيدا، ولم تكن تعي أن الحلم الذي أشقاها ذات يوم بعيد لا يمكن أن يسعد ابنتها بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا!

«لعلمك.. أحلف بتربة بابي وأخي المرحوم ياسين وجدي عبد السلام وبكل عزيز عندي بأنني رضيت بالمقسوم لي.. حاولت إصلاحه بقدر ما أستطيع، ولكن إيش تعمل الماشطة في الوجه العكر؟! ماذا يفيد النفخ في رماد رطب؟.. لقد جمحت بي حالتي النفسية إلى محاولة معاقبتها على امتثالها للحلم المستحيل، ولكن الإنسان دائمًا أبدا حين يجيء على نفسه ويرضى بالغلب يفاجأ بأن الغلب نفسه غير راض به!.. يدخل قنطار اللحم آخر الليل سكران يتطوح، ينزع الكتاب من يدي يلقي به بعيدًا ولسان حاله يقول لي: قومي يا جارية جهزي العشاء لسيدك فقد انصرف الطباخ والسفرجي!.. يحشر الأكل حشرا، يزلطه دون مضغ، يأكل بمفرده بطة كاملة ويمزمز بدجاجتين مع طبق من السلاطة الخضراء مع الأرز والخضار باللحم مع زجاجة نبيذ أحمر! يحلي بعدة أطباق من المهلبية وأم علي، ثم يكرع زجاجة اسباتس مثلجة في نفَس واحد ثم يتجشأ، فكأن السماء ترعد في يوم شتوي دامس!..

«يمضي بعد ذلك إلى السرير مباشرة.. يتعين عليّ أن ألحق به في الحال تاركة السفرة على ما هي عليه إلى أن يأتي في الصباح من يلمها! يطلب دائمًا أن أكون في ربع ثيابي، المهم أن أترك على جسدي شيئا يخلعه أو يمزقه منفسا عما يعتمل في صدره من غلّ.. يعبث بجسدي كله في حركات عشوائية جنونية محمومة تعيسة فاشلة لا تعرف إلا القرص المؤلم والضغط القوي واللسع والرجرجة!.. إهانة وبهدلة للجسد عن عمد وفي تلذذ دون مستوى رقي الكلاب!.. في النهاية يتقيأ على جسدي لزوجته العاجزة وهو يخور كالثور الذبيح، ثم ينهار متهاويا كالعمود المسلح!

«سرعان ما يعلو شخيره متفوقا على صوت تلاطم السحُب، فأتسلل من جواره إلى الحمام، ومن الحمام إلى الغرفة الورانية لأواصل القراءة والمذاكرة إلى أذان الفجر، فأرفع وجهي للسماء في صمت وأنا واثقة بأن الله يراني ويتعاطف معي!.. سنوات طويلة على هذا الحال وأنا صابرة صبر أيوب.

«أظن أنك الآن هدأت قليلا!.. هل تعرف كم مرة قطعنا طريق الكورنيش ذاهبين عائدين كالمكوك؟.. خمس مرات! والآن قد وصلنا. نعم سأركن هنا أمام باب العمارة. تفضل انزل. يستحسن أن أخفي السيارة في الحارة الجانبية. انتظرني على باب العمارة».

مضت أمامي، منفعلة متحمسة، تمشي بخطى واثقة ثابتة، فبدت كضابط شرطة جسور سيقتحم عصابة خطيرة في مقرها الحصين،قالت وهي تصعد السلم:

- «مهمتي الآن أن أتأكد مما في الصناديق وفي الحقيبة، وعلى ضوء ما سنكشفه سنتصرف. من يدري؟ ربما كانت بضائع نادرة تستحق الإخفاء، وفي هذه الحالة لا يكون لنا عندهم سوى العتاب على ما فعلوه من ورائك في شقتك، ويحق لك طبعا أن تغير الكالون أو تترك الشقة أنت حر!».

- «الخوف أن نجدها أشياء ممنوعة مجرَّمة!»

- «وإذن فتكون مصيبة رموها عليك دون ذنب ويحق لك أن تبلغ البوليس وتتحول من متهم إلى شاهد ملك، يعني تخرج من هذه المصيبة.. وأنا مستعدة للشهادة معك».

- «بجد؟!».

- «طبعا! هذه هي فرصتي الوحيدة التي تعطيني الحق في طلب الطلاق ليخرج قنطار اللحم من حياتي إلى الأبد، وبذلك يكون الله قد أنقذني من جريمة قتل! نعم، إن الرغبة في اغتيال زفت الطين هذا تناوشني بإلحاح وقوة! ربنا يستر ونوفق في فتح الحقيبة والصناديق! اقرأ الفاتحة معي، وبفضل الفاتحة سأفتح الأقفال ولو مزقت الأغطية!».

رحت أتمتم بقراءة الفاتحة، الرعشة تنفض ساقيّ تجعلني أبدو كالسكران فوق السلم. أما لولية هانم فكان وجهها يبدو لي وهي تلف أمامي مع اتجاه البسطة قبل الأخيرة مزموم الشفتين متجمد القسمات معقود الحاجبين في غضب مكبوت محتقن. يالها من كائن غريب وساحر! يا إلهي، كم أحب هذا الكائن ويزداد حبي له كل دقيقة كأنه ساعتي الخاصة، حركة زمني الخاص في اضطراده!

الآن فحسب أوقن أنها أنثاي التي خلقها الله من أجلي أنا، لتكملني حقا!.. إنها تشبهني إلى أقصى الحدود، إنها الوجه الأنثوي لي. إني مثلها مطبوع على الصراحة المطلقة، وهي مثلي مضيئة حتى وهي تقع في الخطيئة، كما أني مثلها أتوق إلى الانعتاق من كل ما يمكن أن يكبل حريتي أو يضعف شخصيتي.. هي وأنا كلانا متورط في ظروف خرقاء، كلانا تعيس ومعذور. لقد وقعنا معا في حفرة كانت تحت أقدامنا مباشرة لكنها مغطاة بخديعة شرك نصبه لنا قدر عشوائي غشوم..

خففت من وقع خطواتها إذ تقترب من باب الشقة؛ أشارت لي برأسها أن أفتح. أدرت المفتاح في الكالون ثم دفعت الباب ودلفت إلى الداخل ولولية في أثري.

شهقة صارخة عنيفة دوت في الشقة متلاطمة الأصداء تفجرت في وجهينا، ثم ارتدت ساحبة من حلقينا صرخة مثلها بل أشد فجيعة، أعقبها خرس تام.

تجمد المشهد لحظة طويلة واجفة راجفة، على فريقين كلٌّ منهما يحملق في الآخر بعيون جاحظة: لولية هانم وأنا واقفين في منتصف الصالة، وعمرو بك الشماشرجي ومدام راشيل وحمادة الشماشرجي على مرمى حجر منا في الغرفة المفتوحة على الصالة. كانوا مقعيين تحت حافة السرير قبل أن يهبوا واقفين متلاصقين من هول المفاجأة. تحت أقدامهم الحقيبة الكبيرة وصندوق خشبي كبير مستطيل كلاهما منزوع الغطاء، محتوياتهما منكوشة متناثرة على الأرض، فإذا بالحقيبة ملآنة بعلب الذخيرة، وبعض العلب تالفة تتساقط منها طلقات رصاص بأحجام مختلفة، أما الصندوق فملآن بالبنادق، وعلى الأرض عينات من بنادق ومسدسات ومدافع رشاشة.

- «يا خبر أسود ومنيل! كل هذه الجريمة تحت سريري؟!».

وتقدمت لولية هانم وهي ترمي زوجها بنظرة تهكمية:

- «حالًا رجعت من باريس؟!».

ثم هزت رأسها ناظرة إلى راشيل:

- «كان ينام على الترابيزة من أول الأسبوع؟!».

وجدتني ألطم خدي في انهيار:

- «ما ذنبي أنا لكي أوضع في جهنم؟!».

صوت لولية هانم خرج من حلقها زاحفا سريعا كالرمح المندفع نحو هدفه بإحكام:

- «كل هذه المصيبة كان من الممكن أن يلبسها أخي عربي الذي أفسدته وجننته، وهذا الشاب الغلبان الذي يخدمكم بإخلاص وبراءة مقابل ملاليم؟!».

قاطعها عمرو بك بغلظة مشيرا إلى الأسلحة والذخيرة:

- «هذا هو شغلنا إذا كان يعجبه!».

قاطعته لولية هانم بأكثر حدة:

-«شغلكم؟! شغلكم تهريب الأسلحة والذخيرة لليهود في فلسطين ليقتلوا بها الفلسطينيين من أهالينا المسلمين؟! أتظنني نائمة على أذني؟ تهربون المخدرات وتشترون بثمنها أسلحة وذخيرة للعصابات اليهودية والاسم أنكم مسلمون؟! من أي جنس أنت وعائلتك؟ من يهود خيبر؟!».

جمعت راشيل آخر ما في طوقها من صفاقة وكبرياء زائف:

- « من فضلك يا هانم،سَبَّخي للبيك بتاعك على راحتك! إنما كلام فارغ عن اليهود وما اليهود لا! احفظي لسانك البمبوطي!».

ببساطة وتلقائية مدت لولية هانم ذراعها نحو حذائها في محاولة لخلعه:

- «اخرسي أنت يا حية مسممة! ليس لك عندي سوى ترقيع وجهك بالجزمة وهي خسارة فيك! لك عين يا مهرة سايبة؟ يا جاسوسة يا وش الخراب يا مكنسة؟!»

- «احفظي لسانك قلت لك!».

- « سترين بعد قليل ما سيقوله لساني في محضر التحقيق في النيابة!»

- «نيابة؟! الحق يا عمرو بك، تعملها البمبوطية!».

- «بس. كفى».

هكذا صرخ عمرو بأعلي صوته وبقوة انتفخت منها عروق رقبته القصيرة المدكوكة باللحم المتورد. ثم دقق النظر في وجه لولية هانم عاقدا ما بين حاجبيه في توجس وقلة حيلة:

- «وأنت ماذا جاء بك إلى هنا؟ انطقي».

كانت ممسكة بأصابعها نظارتها السوداء، فشوحت بها في وجهه بازدراء، شخطت بحدة وحقد دفين:

- الزم حدودك! هذا الشاب طيب القلب أراد أن يفسخ عقد الشقة لأنه لم يعد يحتاجها، سأل عن عمك وعنك فلم يجد أحدا، اتصل بي في التليفون وطلب واحدا من طرفي يسلمه البضاعة وشنطة ابن عمي.. مغمص بالي.. عفش الشقة لا يساوي أن أجيء بنفسي لأتسلمه، لكن ابن عمي والبضاعة جعلت الفأر يلعب في عبي! خفت أن أجيء الشقة وحدي! قلت له رجْلي على رجلك لتريني هذه البضاعة التي تركها ابن عمي عندك. وفعلا، جئت لأرى الكارثة التي كان من المحتمل أن تحرق مامي للمرة الثانية على ولدها الثاني! ثم إن قلبي يطمئن لهذا الشاب لأنه أشرف منكم جميعا!».

صرخ عمرو بك مشوحا نحوي في ازدراء:

- «هذا الولد سوسة وكذاب! هو الذي طلب أن يشتغل معنا في هذا الشغل، ووسَّط مدام راشيل وجاءني منها برسالة مكتوبة».

وجدتني أنتفض كالإعصار:

- «اخرس! يقطع لسانك! وأنت يا مدام، بذمتك ودينك هل كنت أنا أعرف شيئا عما في الرسالة؟ هل طلبت منك أي شيء؟ أنا لم أرك في حياتي إلا لمدة عشر دقائق وأنت خارجة من الحمام!.. أنا يا عمرو بك ذهبت إلى حمادة لأرد له مظروف الصور إياها لكي يعطيها لك بنفسه، فطلبت مني المدام أن أوصل لك هذه الرسالة.. هل تنكرين يا مدام أنك قلت لي بعظمة لسانك إن ظهورك أو ظهور ولدك عند الشماشرجية يثير الأقاويل ولهذا رجوتني أن أوصل الرسالة بدلًا منكما؟!.. وأنت يا عمرو بك هل تنكر أنك أحرقت الورقة بعد قراءتها؟ لماذا أحرقتها؟ هه؟! قل!.. وأنت يا حمادة، هل حصل هذا بالفعل أم لا؟!».

هز حمادة رأسه المنكس:

- «حصل، حصل!».

نظرت راشيل إلى عمرو نظرة تأنيب وتقريع:

- «أنا اقترحت عليك أن تنتفع بذكاء هذا الشاب لأن شكله أنسب من شكل حمادة!».

رفعت لولية ذراعها:

- «هي كلمة واحدة يا عمرو بك: طلقني! الآن حالا. لن أكون لك دقيقة واحدة بعد الآن، لن أفتح لك باب البيت وسأطرد كل خدمك. الآن أمامك خيار من اثنين: إما أن تطلقني الآن حالا! وإما أن أقوم بالتبليغ عنكم جميعا وأفتح دفاترك القديمة والجديدة!.. الأحسن أن يذهب كلٌّ منا إلى حال سبيله وإلا فإنني ذات لحظة سأقتلك لا محالة!.. فماذا اخترت؟».

- «أنت طالق، طالق. طالق،مع السلامة!» .

التفتت نحوي وهي تقبض بيد قوية على ذراع عمرو:

- «من أجل خاطري يا بهاء، أستأذنك في أن يبقى كل شيء على ما هو عليه لمدة نصف ساعة. سأذهب مع عمرو بك إلى مكتب المأذون. يا حمادة رتب كل شيء كما كان وادفنه تحت السرير».

امتثل حمادة لأمرها وأخذ يفعل، فساعده عمرو وراشيل بسرعة. خرجوا جميعا وتخلفت أنا لأغلق الباب، فتخلفت لولية لتهمس
في أذني:

- «لا تخف! أنا حفيدة الحاج عبد السلام الخطري! لقد تعمدت أن يتركوا بصماتهم على كل شيء، فإن ضُبطت البضاعة سأطلب رفع بصماتهم الثلاثة! تعال معنا».

ذهبنا إلى مكتب المأذون سيرا على الأقدام في عمارة خلف مسرح كوتة. كانت نسمات العصرية تهب علينا من البحر مشبعة برائحة اليود والزفارة والتراب المرشوش بالماء تحت أشجار الشوارع. تم الطلاق رسميا وشهدنا عليه. دفعت لولية ورقة بعشرة جنيهات كاملة تعبيرا عن فرحتها الجنونية بالخلاص من ذلك الكابوس، ووعدت بمثلها إذا تسلمت القسيمة غدا. خرجنا من مكتب المأذون إلى الخواجة أرتين، سلمتُه المفتاح وفسخت العقد وصررت كل ما في الدولاب من أشياء في صرة، وقالت لولية للخواجة أرتين إن الشقة ستبقى في حوزتها ولكن من دون عقد مكتوب إلى أن تتصرف في عفشها أو تستأجرها، وبخاصة أن الخواجة أرتين يقبض حقه مقدما. على باب العمارة ولولية تساعدني في إيقاف عربة أجرة قالت راشيل لحمادة:

- «رح يا حمادة مع الست هات هدوم عمرو بك! بيتي مفتوح لك يا عمرو بك إلى أن تجهز لنفسك قصرا».

قالت لولية:

- «آسفة يا مدام! حمادة من غير مؤاخذة لا يدخل بيتي! هدوم عمرو بك موجودة في الحفظ والصون، وما عليه إلا أن يكلمني في التليفون أبعثها له في أي مكان يعجبه!».

قال عمرو بك لراشيل:

- «يلزمني الآن أن أذهب لعمي الحاج مصطفى».

قالت لولية:

- «على فكرة يا عمرو بك، أنا لا أريد منك مؤخرا ولا نفقة ولا أي شيء، ولكن بحق العيش والملح دع أخي عربي في حاله! إنه الرجل الوحيد الباقي لي ولمامي، فَحِلّ عنه إلهي ربنا يخليك!».

واتجهت إلى الحارة الجانبية التي ركنت فيها سيارتها، واتجه عمرو بك وراشيل وحمادة إلى سيارة عمرو بك فركبوها وانطلقت بهم.

فوجئت بنفسي لا أزال واقفا على الرصيف ذاهل اللب، فلما تذكرت أنني في انتظار التاكسي تذكرت أيضا أن تاكسيات كثيرة فاتت ولم أستوقفها؛ وإذ تأهبت حاملا الصرة لملاقاة السيارة القادمة، رأيت سيارة لولية تزحف بظهرها خارجة من الحارة ثم تعتدل واقفة أمامي. نزلت لولية، فتحت الحقيبة الخلفية للسيارة ثم أخذت الصرة مني وألقت بها فيها، ثم أشارت لي وهي تركب أن أركب. ركبت بجوارها، قدمت لي مفكرة جيبها الجلدية، طلبت مني أن أكتب فيها عنواني بالتفصيل، فكتبته، ثم طلبت مني ورقة فأعطيتها الكشكول، فرفعت غلافه وكتبت عنوانها بالتفصيل في بورسعيد. أنزلتني عند مقر الشركة واتكلت على الله لا أدري إلى أين على وجه التحديد.

اجتمع أعمامي الثلاثة بدعوة من عمي إسماعيل، فاستمعوا مني إلى ما حدث بالتفصيل، فصاروا من الذهول كالمخبولين. إلا أن عمي إسماعيل نصحني بأن «أكفي على الخبر ماجور» فلا أحكيه لأي مخلوق، واستدرك عمي عوض:

- «احمد الله أنه نجاك».

قال عمي إسماعيل:

- «لم ينج بعد!».

ثم اتجه بعينه نحوي:

- «إن أردت أن تنجو حقا فلا تتكلم! هم الآن يريدون التأكد من أنك لا تزال مصدر ثقة.. الفضيحة ستخيفهم منك، وإن خافوا منك عليه العوض فيك!».

اندفع عمي صلاح بعصبية:

- «وما الذي يزنقه؟ يترك العمل عندهم وينجو بنفسه وينتهي الأمر!».

هتف عمي عوض:

- «لا .. لا تتركهم الآن. اصبر، وكن عاديا كما كنت وأكثر!.. لو مشيت سيفهمون أنك تتعمد إحراجهم وتنوي فضحهم فيتعقبونك حتى يخلصوا منك».

قال عمي إسماعيل:

- «عمك عوض يقول الحق! لا تجعلهم يحسون أنك أمسكت عليهم نقطة ضعف. عليك أن تتجاهل ما حدث كأن لم يكن!».

وقد عملت بنصحهم؛ تجنبت لقاء أي شماشرجي على انفراد. لم يحاول أحد منهم مفاتحتي في أي موضوع خارج دائرة العمل الذي اجتهدت في تأديته على أكمل وجه وبمنتهي الحيطة والحذر.. كل ما في الأمر أن نظراتهم كانت تلسعني خلسة لسعا حارقا خاطفا ولكني لا أبالي.

حينما استؤنفت الدراسة أعلن عمي إسماعيل حالة الطوارئ وبات يسهر معي ليلة بعد ليلة ندهس في المقرر دهسا وندرسه بمعنى الكلمة، بمعنى الدراس في مفهومنا نحن القرويين، حيث يعني الدراس أن تمر عجلات النورج فوق أعواد السنابل حتى تخرطها وتفتتها وتحولها إلى تبن نقوم بتذريته في الجرن لنخلص القمح منه. هكذا نبهني عمي إسماعيل إلى معنى الدرس، وهكذا فعلنا بجميع المواد الدراسية حيث مررنا عليها مثنى وثلاث ورباع إلى أن فتتناها ثم قامت عبقرية عمي إسماعيل بدور التذرية لتخليص المعلومات المهمة من الحشو الفارغ. الرغبة في النجاح بتفوق كانت تنسيني كل شيء في الحياة ما عدا لولية هانم.. كان النجاح بتفوق يعني لولية، كما كانت لولية تعني النجاح في الحياة بوجه عام؛ لهذا كان طيفها هو المصباح الحقيقي الذي راجعت دروسي في ضوئه المبهر.

وكان من حقي الحصول على إجازة أستعد فيها لامتحان الليسانس، إلا أن عمي إسماعيل نصحني بالتنازل عن هذه الإجازة، منها أن أبقى تحت نظر الشماشرجية، ومنها استرواح للنسمات في العصاري في مقر الشركة على الكورنيش تجديدا للنفس وتريحا للمعلومات فيها.

عندئذ لاحظت أن علاقة الشماشرجية بي قد أمست لينة سلسة أكثر من ذي قبل، بل كان معظمهم يلاطفني ويسألني عن أخبار الدراسة. اختفت من عيونهم النظرات المسمومة، صفَت مشاعرهم تجاهي من الغيظ والغضب، بدأ عنتر بك يتودد إليّ ويسألني عما إذا كنت على اتصال بالجماعة في البلد، ثم يجدد وصيته لي بأن أطلب منه كل ما أحتاجه من خدمات.

ذات مرة أصر الحاج مصطفى على أن يوصلني بسيارته من المكتب إلى شارع منشة؛ دونما تمهيد قال متلطفا إنني فرضت عليهم احترامي وإنني طلعت بالفعل ولدا جدعا يثمر فيه العيش والملح، ومد لي يده مطبقة على ورقة نقدية

ثمينة. أزحت يده برفق شاكرا. ألح عليَّ راجيا ألاّ أكسفه. ازددت إصرارا على الرفض قائلا إنني مبسوط ومرتبي يكفيني، كما أن أعمامي يمدونني بما أعجز عنه من مال.. قال وهو يعيد الورقة إلى جيبه:

- « أنت تستأهل السلامة حقا. رجولتك لا تقدر بمال.خصيمك النبي إن احتجت شيئا ولم تقل لي ! مع السلامة يا أستاذ بهاء. ربنا يوفقك يا بني ويطعمك من نعيمه».

ذات مساء خرجت من مكتب رشيد بك السيسي فاصطدمت بعمرو بك متجها إلى مكتبه. لم يتعفرت كما توقعت، بل ابتسم في خجل كالمقهور. دفعني إلى مكتبه:

- «خش اشرب قهوة معي».

دخلت مرتجفا من خشيتي للغدر، لكنني كنت على ثقة بأن علاقتي الطيبة العميقة برشيد بك السيسي لن تسمح بأي خسة معي في شركة هو المسئول عن كل كبيرة وصغيرة فيها.

ما إن جلسنا حتى قال عمرو بك:

- «إياك أن تكون غضبان مني!.. أنا مثل أخيك الأكبر على كل حال.. وبصراحة أنا احترمتك وقدرتك.. أنت أثبتَّ أنك رجل تخاف على سمعتك وكرامتك وتخاف أيضا على مصالحنا! من حقك طبعا أن تحمي نفسك في أي موقف تشك فيه، لكن يجب أن تتأكد من أننا جميعا نحبك ونعزك!».

- «نفس الشعور والله يا عمرو بك! ».

شرد بصره طويلا. كان القهر والهوان واضحين في عينيه، ثم شوح في ضجر يائس كأنه يكلم نفسه:

- «يللا! كل واحد يأخذ نصيبه في الحياة».

وجدتني أقول بغير تدبير سابق:

- «لكن صدقني يا عمرو بك، لقد حزنت على حدوث الطلاق بينك وبين الهانم، إنه أبغض الحلال! ».

ثم ندمت في الحال على اقترابي الغشيم من هذه المنطقة الحرجة الشائكة! لكنني فوجئت به يعتدل مرددا في بساطة وأريحية:

- «بالعكس، أنا استرحت! كان لا بد أني سأطلقها في يوم من الأيام! فالعائلة تكرهها وهي أيضا تكره العائلة!.. زواجي منها كان غلطة.. نزوة طائشة على رأي رشيد بك! إنها طفلة شعنونة مغرورة، وعقيم لا تنجب،فلماذا أبقي عليها؟! هي صحيح أخذت مني شقة، ولكن.. تغور بها.. الحمد لله نجوت من شرها وشر عائلتها ذات الأخلاق الإجرامية! منه لله الذي كان السبب!».

- «حضرتك تقيم الآن في بيتك القديم مع الأسرة؟».

- «هه؟! آه.. نعم.. في البيت.. مع الأسرة في.. في الجناح الخاص بي فوق!».

حين جاءت القهوة اعترتني ربكة، لكن الاطمئنان داخلني لما رأيت الفنجانين فارغين وعامل البوفيه ممسك بكنكة واحدة كبيرة:

- «أستاذ بهاء أفندي يشربها على الريحة طبعا!».

- «طبعا ».

أفرغ ملء فنجان أزاحه نحوي. أخذ يهز الكنكة ليذيب السكر المتجلط في قعرها ثم أفرغها في الفنجان الثاني وانصرف. بعد رشفتين سألني:

- «رشيد بك مشغول؟».

- «عادي، مثل كل يوم».

- «لحظة خروجي من عنده لم يكن هناك أحد».

وشت نظراته القلقة بأنه يريد أن يسألني عن شيء آخر. اغتصب ابتسامة عرجاء عوجت حنكه إلى ركن:

- «لا يزال غاضبا؟!».

- «رشيد بك تقصد؟».

- «ومن غيره؟! ».

- «ولماذا يغضب؟ هل حدث شيء يا عمرو بك؟! أنا والله لا علم لي بأي شيء ».

- «إه!.. أما سمعت من أحد؟».

- «والله ما سمعت شيئا. خيرا يا عمرو بك؟».

شوح متصنعا الاستخفاف:

- « أبدا.. صوتنا ارتفع بعضنا على بعض في لحظة ارتباك عمياء!.. لأول مرة في التاريخ أرفع صوتي عليه ويرفع صوته عليَّ!».

- «يا ساتر! متى؟ ولماذا؟ أنتما حبايب».

بضيق وانفعال مفاجئ:

- «مناقشة سخيفة لم يكن لها أي داع! ».

- «اليوم؟ ».

- «من حوالي أسبوع».

- «ولكن.. ماذا؟.. قاطعته يعني؟! ».

- «لم تصل للمقاطعة.. لكن لم يطلبني ولم أذهب إليه».

- «إن سمحت لي .. المناقشة كانت خاصة بالشغل؟ ».

- «إطلاقا! لهذا قلت إنها سخيفة!».

- «لكن.. رشيد بك آخر من نحتاج لرفع صوتنا عليه.. إنه كالنسمة.. نموذج للجنتلمان! ».

- «أنا لا أطيق أن يتدخل أحد في أموري الشخصية، وهو يعرف ذلك عني، ومع ذلك لا أدري كيف..».

- «إذا كان ناقشك في موضوع الطلاق فـ ...».

- «الأمر أهيف بكثير، إنما أسئلة غير مريحة من عيّنة: أين كنت ليلة أمس الساعة كذا؟ من كان معك؟ ما سر ذهابك إلى المكان الفلاني والمكان الترتاني؟ ».

- «حضرتك تضايقت طبعا! ».

- «شخطت فيه غصبا عني، أهي محاكمة؟ كنت مطرح ما كنت يا أخي فما شأنك أنت؟.. في الحال قامت القيامة!».

- «عفوا عمرو بك.. رشيد بك السيسي أخوك الكبير.. كان يداعبك ولكن يبدو أنك كنت متوعك المزاج لحظتها! على كل حال هو من النوع الذي...».

- «هو مقدور عليه.. الدور والباقي على عمي الحاج مصطفى وعنتر بك.. لا يعطياني وجها من ساعتها. واضح طبعا أنهما زعلانين لزعل رشيد بك.. أنا أيضا زعلان من نفسي ولكن.. كان عليهما أن يقدرا ظروفي النفسية! ».

- «حصل خير على كل حال! إن شاء الله ربنا يهدئ النفوس قريبا».

- «هو على فكرة يحترمك جدا! » .

- «أفديه بعمري».

- «عرضت عليه البريد؟ ».

- «سأدخل عليه ثانية بعد قليل أستأذنه في الانصراف مبكرا من أجل الامتحانات».

- «ممكن خدمة بسيطة من أجل خاطري؟! ».

- «ممكن طبعا».

- «حاول أن تنكشه في الكلام حول سيرتي. أريد أن أعرف هل نسي وسامحني أم أن كبرياءه المعتادة لا تزال تنفح عليه؟».

- «آسف يا عمرو بك، هذه مهمة فوق مركزي! أنا أعرف مركزي ولا أتجاوز حدودي. من أنا في الشركة أو في العائلة حتى أبيح لنفسي الدردشة مع الرأس الكبيرة فضلا عن النكش فيها؟! وهل سيتقبل تطفلي أم سيعاقبني على وقاحتي؟! ».

- «عندك حق. غلبتني. بقي طلب واحد تافه، إن وافقت يكون لك الشكر ،وإن لم توافق يا دار ما دخلك شر ».

- «تفضل حضرتك ».

- «إذا سمعت كلمة عني من الحاج مصطفى أو عنتر بك أو رشيد بك، هل أطمع في أن تبلغني بها لأكون على علم من أجل المصلحة العامة؟».

- «جاسوس يعني؟!».

- «وما دخل هذه الكلمة الكبيرة هنا؟! ».

- «عمرو بك، أرجوك! أعفني من هذه المهمات الخطرة!.. كان المفروض أن تكون قد تأكدت أنني لست هذا النوع من الناس!».

- «اعتبر أني لم أقل شيئا».

- «عن إذنك ».

- «اتكل».

وشفعها بتشويحة من يده نحو باب الغرفة كأنه يرميني إلى الخلاء أو في سلة المهملات. مع ذلك وقفت، هززت له رأسي بالتحية ومضيت.

آخر يوم في الامتحانات راجعت إجاباتي على عمي إسماعيل، فاطمأن قلبانا للنتيجة المتوقعة. كنت مشتاقا إلى الصرمحة في كل مكان خلال اليومين المتبقيين لي من إجازة الامتحانات. كالعادة مشيت في محطة الرمل، قلبت في الكتب الجديدة عند محمد بائع الجرائد على المحطة، اشتريت رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي وفرحت بها لدرجة أنني رحت أتصفحها وأنا ماش، مسحورا بذلك الأسلوب الجديد الذي ابتكره الشرقاوي في لغة الحكي الروائي، وبرسوم حسن فؤاد المعبرة عن جوهر الشخصية الفلاحية المصرية. تلكأت أمام سينما ريالتو، وقفت أنتظر حفلة الساعة السادسة مندمجا في قراءة رواية الأرض بشغف كبير، حيث أشعلت حنيني إلى القرية وكشفت لي عن الأعماق البعيدة لأهالينا الفلاحين من خلل عنائهم وشقائهم في جلب المياه لري الأرض. كانت هذه أول مرة ألتقي فيها فلاحين حقيقيين أقحاحا في رواية من الأدب المصري ،حيث الكاتب يعرفهم حق المعرفة ويقدمهم لنا في صورة حية ساخنة.

فوجئت بمن يقف أمامي مادا ذراعه ليحول بين عيني والورق.. رفعت رأسي ضائقا بهذا المزاح السمج فإذا بي وجها لوجه أمام حمادة الشماشرجي بعوده السمهري وقامته الطرية الرخوة.

- «أهلا حمادة.. فرصة سعيدة ».

- «قطعت تذكرة؟ ».

قالها وهو يلقى بنفسه في حضني باشتياق مقدما لي خديه واحدا بعد الآخر أقبله فيهما. قلت:

- «أنتظر حتى يخف الزحام عن الشباك ».

- «خلاص، لا داعي لأن تقطع تذكرة.. أنا حجزت تذكرتين من البارحة لهذه الحفلة. عزمت صديقة طليانية على هذا الفيلم لمؤلفه الإيطالي ألبرتو مورافيا، المتخصص في الأدب الجنسي كما قالت صديقتي.. لكن أباها عاد من السفر فكلمتني واعتذرت! في ستين سلامة! ندخل أنا وأنت وننبسط ».

- «فين أراضيك ياحمادة؟ ».

- «من السوق للمطبعة للكلية. الحمد لله خلصنا من كابوس الكلية، وتقريبا ضمنت النجاح! ».

- «وشقة الإبراهيمية؟ ».

صاح مهللا في ابتهاج:

- «جاءت لي على الطبطاب! اتفقنا مع الخواجة أرتين ولولية هانم أن أقيم في الشقة دون عقد إلى أن تنتهي البضاعة، وبعدها تعود الشقة إلى لولية هانم».

- «هنيئا لك يا عم! ».

- «هدية من السماء! تخيل أنني لم أعد أجد راحتي إلا فيها؟! ما هذا الفراش يا رجل؟ لو قلت لك إنه مسحور صدقني! فرش يأخذ الواحد في حضنه! حنون يا جدع كصدر الأم مع أنني لم أعرف صدر الأم من قبل! ».

شعرت بغيرة احتقن منها دمي! كدت أبكي على فقداني لهذا الفراش الجذاب. ذهبت نفسي حسرات على ضياع هذه الشقة مني. لعنت الشماشرجية على بكرة أبيهم.

- «يعني أنت الآن مقيم في شقة الإبراهيمية بشكل دائم؟ ».

- «شرفني بالزيارة فيها.. لماذا لا تفعل؟ لم يحدث بيننا شيء يستحق القطيعة! هذه على فكرة أمور عادية بالنسبة لمن يلعبون في السوق. البضاعة مخزنة تحت السرير، ما الخطر في ذلك؟! إن البوليس لا يجرؤ على مهاجمتها من الباب للطاق. لا تؤاخذني فأنت فلاح غشيم تموت في جلدك من هبة ريح!».

- «يعني أنت مقيم في الشقة على الدوام أم تزورها من
حين لآخر؟».

- «هي أصبحت مسكني، فيها هدومي وكل أغراضي ومتعلقاتي.. وخادمة أمي تجيئني كل يومين لتغسل وتنظف

وتطبخ وتَحاك.. ميت فل وعشرة! ».

- «بالمناسبة،ما حال السيدة الوالدة؟ ».

- « تزوجت عمرو بك الشماشرجي».

- «ماذا قلت يا حمادة؟».

- «تزوجت عمرو بك الشماشرجي. إيه؟ حادثة؟! ».

- «غريبة! ».

- «لا غريبة ولا دياولو! ما الغريب فيها؟ هي امرأة وهو رجل ».

- «اختلاف الديانة».

- «هأوْ! خل الديانة في حالها!».

طوال عرض الفيلم لم يكن حمادة على بعضه. كتفي كان ملتصقا بكتفه في الظلام فأشعرني أن جسمه غير مستقر في قعْدته. شعرت بأن يده اليمني في الجانب الآخر للكرسي تتحرك بسرعة، فيهتز كتفه الأيسر الملاصق لي. حاولت النظر فلم أفلح. أغمضت عيني لمدة دقيقة تقريبا، ثم وجهت عيني إلى اليمين حاجبا الشاشة بكفي اليسري. فتحت عيني، هالني المنظر: الرجل الملاصق لحمادة على يمينه قد مدد ساقيه تحت الكرسي الأمامي فاتحا أزرار بنطلونه شاهرا عضوه الذي أمسك حمادة به بيده اليمني واندمج في تدليكه صاعدا هابطا بلذة فائقة. انتابني غضب عارم وشعور بالخجل كأنني الفاعل والمفعول له معا. ارتعشت.

قمت في الحال مبلولًا من العرق المتفصد من كل أنحاء جسدي. أخذت أنسلت بكل صعوبة بين سيقان الجالسين، ما دريت إلا ويد خبيثة قد امتدت إلى مؤخرتي وربتتها بحركة شديدة البذاءة. تجمعت البصقة في فمي، لكنني لم أحدد بالضبط من هو الذي يستحقها بين الذين فلفصت منهم. آثرت السلامة بدلًا من اكتمال الفضيحة. أخذت أطبش في الممر المظلم إلى أن خرجت إلى الشارع غارقا في الهوان. قراري بقطع العلاقة نهائيا بحمادة الشماشرجي لم يكن كافيا لإطفاء نار الغضب التي ظلت مشتعلة في قلبي زمنا طويلا.

وأنا ماش كالمذهول في شارع النبي دانيال سمعت من ينادي: بهاء يا راوي، تلفت خلفي فلم أجد أحدا فمشيت، فتكرر النداء بصوت أكاد أعرفه، كان آتيا من سيارة تاكسي توقفت على الرصيف المقابل، عبرت الشارع إليها في بهلوانية، فإذا بسالم الأمير هو الراكب
الذي يناديني.

- «اركب ».

ركبت في الحال دون مناقشة. كنت قد زرته في مكتبه بجريدة العصر في شارع فرنسا وقدم لي شغلا أعدت صياغته فانبهر به وعرفني على مدير المكتب الذي استحسن أسلوبي وحاستي الصحفية الناضجة، فاتفق معي على أن أعمل معهم في المكتب ثلاث ساعات كل يوم من الضحى إلى الظهيرة أو من الرابعة عصرا إلى السابعة مساء، وقد انتظمت في العمل لمدة شهر كامل واضطررت إلى التوقف قبل عشرين يوما من بدء الامتحانات.

قال سالم الأمير كأنه يواصل حديثا بيننا انقطع منذ برهة وجيزة فحسب:

- «سنشوف شغلنا طبعا! الامتحانات وخلصنا منها.. الشغل في المكتب متراكم للركب!»

- «إن شاء الله سأجيء له صباح غد وكل يوم ».

- «علمت بالمفاجأة؟».

- «لا.. ولكن أي مفاجأة هي؟».

- «جاءتك مكافأة من القاهرة».

أوشكت أن أصرخ:

- «مش معقول! أنا أستحق مكافأة من القاهرة؟!».

- «لقد اشتغلت معنا شهرا كاملا؛ واسمك نزل بالطبع في كشف الأجور والمكافآت، وهي بالمناسبة مكافأة معقولة جدا».

- «حتى لو كانت عشرة مليمات فإنها ستكون أجمل فلوس قبضتها في حياتي! لن أصرفها. سأحتفظ بها كذكرى لأول قرش قبضته من الصحافة، من كد ذهني».

- «يا سيدي، يا ما ستقبض!».

كانت المكافأة أكثر من عشرة جنيهات بجنيه ونصف جنيه وبضعة شلنات وقروش.. يأيتها النشوة ما أعظمك! . في تلك الليلة سودت رزمتين من الورق الدشت الذي تكونت بيني وبينه حميمية خلاقة بثت الحيوية في القلم فيجري متحررا من عقدة الحرص على سلامة الورق الثمين المصقول من الشطب ومن كثرة التمزيق. دماغي أفاق، انتعشت مخيلتي.. من فرط عشقي الذاتي للمفردات وتركيب الجمل كنت أتلذذ بعملية الكتابة نفسها وأتبتل في عشق الورق وفي هوى الأقلام. صرت أكتب كأنني أغني. أعدت صياغة كثير من الموضوعات، خلقت من الأخبار تحقيقات وتعليقات، تفننت في تخليق مانشتات كبيرة وعناوين فرعية، في تدبيج مقدمات مثيرة كاللازمة الموسيقية المنتقاة من عناصر اللحن قبل الدخول في الأغنية، أضفت إلى الأخبار تعريفا بالشخصيات.. وكان سالم الأمير - الذي وضع لي مكتبا صغيرا في حجرته - يتلقف مني الصفحات فيقرؤها بشغف واستمتاع وهو لايني يردد: يا سلام! يا حلاوة! يا سيدي! عيني يا عيني! إيه الجمال ده؟ بس يا ريت ما تتقعرش قوي عشان ده جرنان يومي عايز كلمة ورد غطاها.

بعد انتهاء إجازة الامتحانات استأنفت العمل في شركة الشماشرجية إخوان، إلا أنني كنت غير قادر على ابتلاع قرفي من عائلة الشماشرجية بجميع أفرع شجرتها الضاربة جذورها في أرض الفساد لدرجة أنها تصلح أن تكون أنموذجا لعائلات الفساد في مصر كلها، وهي مجموعة قليلة نسبيا من عائلات تجذرت في السياسة المصرية من عصر محمد علي باشا الكبير إلى اليوم تتلون مع العهود والعصور، تأخذ - مثل الجراثيم المرضية - مناعة ضد الأدوية كافة، وحين تواجه بمقاومة جبارة تتوارى إلى كمون حتى تعيد حساباتها ليقوم عيالها بغزو المجتمع والسيطرة عليه في سرعة قياسية متسللة إلى أهم وأخطر المراكز من المناطق الرخوة في المجتمع في القانون في المسئولين في ذوي الحل والربط، ناهيك عن المنافذ الطبيعية المفتوحة على البهلي أمام من يملك القرش والكرش والصولجان.

أما وقد انفتحت لي نافذة جديدة على أمل مشرق فقد وجب التحرر فورا من هذه العائلة قبل وقوع الطوبة في المعطوبة. قال عمي إسماعيل بصوت يتهدج بالغبطة إنني يجب أن أعض على هذه الفرصة بأسناني لأنها بكل بساطة فرصة سماوية تمثل استجابة لدعاء الوالدين ولن تتكرر؛ إذ إنها تجيء في العمر مرة واحدة، والمحظوظ الحق هو من يصونها.

أصبحت أصحو من النوم في موعد الدراسة المعتاد، أتناول فطوري، أرتدي أجمل ما عندي من ثياب، أتوجه بكل زهو واغتباط إلى مكتب جريدة العصر في شارع فرنسا، أمكث فيه حتى الثالثة مساء أستمتع بالكتابة وملاحقة الأخبار والاتصال بالمقر المركزي في القاهرة لتلقي الطلبات والتعليمات والاستعلامات. كان رئيس المكتب فرحا بانضمامي للمكتب كأنه عثر على كنز، ولايني يثني على موهبتي واستعدادي الفطري الكبير لأن أصبح صحفيا كبيرا، وبخاصة أنني - في نظره - متأثر بمحمد حسنين هيكل ومحمد التابعي وأحمد بهاء الدين وأحمد قاسم جودة وآخرين من هذا الطراز الجاد الجذاب في آن. من مكتب الجريدة أعود إلى حجرتي في شارع منشة، أتغدى، أتمدد ساعة، أغير ملابسي وأتوجه كارها إلى الشماشرجية إخوان في الوردية المسائية.

أمسيت أقارن بين قعدتي هذه المنزوية في ركن ملحق بمكتب مسعود أفندي، وقعدتي في مكتب الجريدة بشارع فرنسا معززا مكرما وأمامي التليفون وجميع الجرائد والمجلات والقهوة والشاي من ساع نظيف محترم. تقودني المقارنة إلى ضرورة الإسراع بالرفض القاطع للعمل مع الشماشرجية، بل وقطع العلاقة بهم نهائيا، إلا أن حبي الحقيقي واحترامي العميق لشخصية رشيد بك السيسي كان وراء تأجيلي المستمر للبت في أمر إنهاء علاقتي بالشماشرجية إخوان.

في مكتب الجريدة وجدتني ذات صباح جميل بمفردي في الغرفة الهادئة الرصينة وليس ثمة من موضوعات ملحّة. كان التليفون أمامي وتحت أمري. هتف لي هاتف لطيف: كيف يكون أمامك ولا تفكر في الاتصال بلولية هانم برغم اشتياقك لصوتها الموسيقى كآلة السلاّمية. أدرت القرص برقم الهاتف الذي أحفظه عن ظهر قلب، أعطيت أذني لامتداد صوت الرنين متخيلا لولية هانم وهي تقوم عن سريرها إلى الهاتف. حين سمعت صوت رفع السماعة على الطرف الآخر وجف قلبي ودق بعنف، فإذا بصوت خادم يردد في ضجر:

- «من معي؟».

- «من فضلك، لولية هانم موجودة؟».

- «أقول من المتكلم؟».

- «أنا ابن عمها، أتكلم من الإسكندرية».

- «منذ متى حضرتك لم تر الهانم؟».

- «منذ.. منذ.. مدة طويلة في الواقع! كنت مسافرا للخارج وعدت بالأمس فحسب. أهي موجودة؟».

- «الهانم ليست تقيم هنا، الهانم عند أمه في بورسعيد».

- «باعت الشقة؟».

ضحكة مؤدبة ذات رنين خلاب:

- «الهانم يؤجر بالجدك وليست يبيع».

- «آسف! يعني إيه بالجدك؟!».

تكررت نفس الضحكة:

- «بالمفروش يعني. حضرتك تتكلم الآن في منزل المهندس سيد بك النمرسي سكرتير عام محافظة الإسكندرية.. أي خدمات؟».

- «شكرا.. ألف شكر».

وضعت السماعة قبل أن أفطن إلى أن في محفظتي قصاصة ورق فيها عنوان لولية في بورسعيد. قررت أن أكتب لها خطابا في لحظة روقان مرتقبة.

كنت مستغرقا في الكتابة وضوء شمس الضحى الماشي إلى الاصطياف على شاطئ الكورنيش قد طرح طرف عباءته البرتقالية فوق الورق وفي فنجان القهوة حينما سمعت نقرا خفيفا على الباب. وجدتني نسخة طبق الأصل من البكوات الشماشرجية إذ إنني هتفت في شعور بالأهمية:

- «ادخل».

ثم انتبهت فندمت على ذلك في الحال.

وورب الباب. ظهرت رأس مألوفة الجمال والشعر الطويل والوجه القمحي الدائري كالرغيف البلدي الشهي. سرعان ما تبينت أنها زميلتنا الدمياطية «بهيجة الوزان»، زميلتنا في نفس قسم الفلسفة والاجتماع، وخطيبة سالم الأمير. كانت أشهر وأهم أعضاء مجلس إدارة اتحاد الطلابِ السكندري. الطريف أنها كانت من أقوى المنافسين لخطيبها سالم الأمير على رئاسة الاتحاد، وكانت دعاية كلٍّ منهما لنفسه مباراة بديعة في التزام جانب الذوق والأخلاق والحرج من تفضيل نفسه على الآخر بأي ميزة، وقد أعيد الانتخاب بينهما مرتين لضمان الحيدة والنزاهة،وفي المرتين فاز سالم الأمير بفارق صوتين اثنين لا أكثر، فرضيت بهيجة بأن تكون نائبة الرئيس عن طيب خاطر، فكانت في حقيقة الأمر هي الطاقة المحركة لنشاط الاتحاد.. فلما تخرج سالم الأمير فازت هي برئاسة الاتحاد عن جدارة، وها هي ذي الآن تتأهب لتسليمه إلى فائز جديد في الدورة القادمة.

بهيجة الوزان من أجمل طالبات الجامعة على الإطلاق. عقلها المتزن الممتلئ بالمنهج العلمي والثقافة الفلسفية أضفى على جمالها كثيرا من الهيبة ردعت العيون المتسلقة أمام الجاذبية الطاغية المستفزة. تنجح بامتياز في كل امتحان تتعرض له في الجامعة أو في الحياة. خدمها أبوها الشيخ الوزان - شيخ الأزهر الأسبق - بأن سقاها شراب اللغة العربية فأصبحت لايباريها حتى كبار الأساتذة في الخطابة المرتجلة بالعربية الفصحي دونما خطأ في تشكيل واحد، مع العلم بأنها قضت مراحل تعليمها الأولى في مدارس أجنبية مثل لولية هانم، إلا أنها تمكنت من الارتجال - بنفس المهارة والطلاقة - في اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

انتفضت واقفا:

- «بهيجة الوزان؟ ياللمفاجأة!».

كانت تحمل بعض اللفائف الأنيقة التي تشي بأنها تحتوي شيئا ثمينا، وضعتها على كرسي وأقبلت نحوي تصافحني في حرارة. ارتكزت براحتيها على حافة المكتب المواجه لمكتبي، رفعت خلفيتها برشاقة فجلست على سطح المكتب مُدْلِيَةَ ساقيها في الفراغ بمرح طفولي يبدو أنها حرمت منه طوال طفولتها، فتنتهز الفرصة الآن لاسترداد حقها فيه:

- «قل لي مبروك!».

- «اشتريتم الشبكة خلاص؟».

نظرنا معا إلى اللفائف. قالت:

- «العقبي لك. الآن جاء دوري لأقول لك: مبروك».

- «لم أخطب بعد!».

- «مبروك على النجاح يا أستاذ.. أنت خلاص أخذت الليسانس مثلي».

- «ألف مبروك لك أيضا.. النتيجة ظهرت؟».

- «ستعلن غدا أو بعد غد.. لكن سالمًا وأنا عرفنا سريا من الكونترول.. أنسيت أننا من الواصلين؟!»

هجمت عليها بفرحة طاغية. أعطتني خديها لأقبلهما. كدت أحلق في الفضاء طائرا من هذا الشباك حيث يظهر منه الأفق البعيد لزبد الموج المتلاطم في خرخشة مطربة:

- «أمال فين سالم؟».

- «سيصعد حالا. دخل محل الحلواني يشتري تورتاية».

- «كان المفروض أن أشتريها أنا احتفالا بكما!».

أرادت أن تشوح بذراعها فلكزتني برقة في كتفي على البعد:

- «ستتشبع مجاملات في حفل الشبكة. العقبى لك».

وجف قلبي، نقره طائر الحب بمنقاره الحاد:

- «ربنا يتمم بخير يا بهيجة.. ستكونان أسعد زوجين بإذن الله!».

- «إن شاء الله نحتفل بنجاحك غدا».

اندفع الباب وظهر سالم الأمير ممسكا بعلبة التورتة. ارتميت عليه أحتضنه:

- «مبروك، ألف مبروك».

- «بهيجة طلبت منك مبروكيْن، أليس كذلك؟».

ابتسمت بهيجة فتورد وجهها كالتفاحة:

- «وتلقيت منه مبروكيْن؟ ».

رفع سالم أصابعه الثلاثة:

- «مطلوب منكما ثلاثة مبروكات ».

صاحت بهيجة صارخة:

- «مضبوط! أهم خبر نسيت أبلغك به يا بهاء! ».

- «أبلغيني من فضلك بسرعة».

أشارت إلى سالم بيدها المحندقة:

- «قرار تعيين البك مديرا للمكتب صدر البارحة!».

اندفعت إليه لائذا بحضنه أقبله وأربت ظهره في فرح حقيقي:

- «هذا أسعد خبر سمعته في حياتي».

- «وشك خير عليّ! كنت فين من زمان؟ ».

ثم استدرك:

- «وعلى رئيس المكتب أيضا! صدر قرار بترقيته مساعدا لمدير التحرير في القاهرة».

- «إذن فهيا بنا لنبارك له».

- «سنأكل التورتة عنده. إنها من أجله هو خل بالك. إنه عزيز عليّ جدا. أستاذي طبعا!».

وخرج مناديا:

- «عم حسن.. عم راضي نادِ على البواب وتعال.. يللا يا أساتذة (ثم بلهجة غنائية) معنا تورتة معتبرة ابتهاجا بترقية رئيس تحريرنا!».

خرج رئيس المكتب والمحررون من الحجرات وجاء الساعي وعامل البوفيه والبواب، دفعهم سالم الأمير إلى غرفة رئيس المكتب ثم تقدمهم إلى ترابيزة الاجتماعات. قامت بهيجة بفك العلبة، فاستمهلها سالم برهة. قال كلمة لطيفة جدا تفيض بالدفء والمحبة لرئيس المكتب الذي نهض بمكتب الإسكندرية وجعله مصدرا أساسا يعتمد عليه الجورنان تحريريا وإعلانيا ،وأن هذه الترقية التي حصل عليها وإن تأخرت عليه قليلا فإنها في النهاية تكريم لكل العاملين في المكتب من أقدم واحد فيهم - وأشار إلى نفسه - إلى أحدث واحد - وأشار إلى شخصي - وأنه باسمنا جميعا يتقدم بخالص التهنئة لهذا الرجل المخلص الأمين.

صفقنا جميعا بحرارة، فتقدم رئيس المكتب في تواضع جم، شكر سالم الأمير وأثنى على أدبه وأخلاقه وعلى جده واجتهاده وكيف أنه سيطمئن غاية الاطمئنان إذ يسلم المكتب ليد أمينة تواصل الارتفاع به، وأنه من موقعه الجديد في القاهرة سيتعجل صدور القرار بتعيين سالم الأمير رسميا رئيسا للمكتب، ثم جاملني بعبارة طيبة إذ أعرب عن يقينه بأني إضافة مهمة جدا لمكتب الإسكندرية، ثم شكر جميع المحررين والمخبرين والسعاة والبواب.

عندئذ رفعت بهيجة غطاء العلبة وأخرجت التورتاية بفرشتها الورقية السميكة، تناولت السكين الطويلة من البواب، وأطباق الفناجين من عامل البوفيه، ثم شرعت تخرط وتوزع. وفيما كان عامل البوفيه يوزع علينا كل ما عنده من ملاعق الشاي، أعلن سالم الأمير أن هذه التورتاية تعتبر في نفس الوقت بطاقة دعوة للجميع كي يحضروا حفل تقديمه لشبكة عروسه بهيجة الوزان التي يتعشم بأن تعين معيدة بقسم الفلسفة والاجتماع بآداب الإسكندرية، أما الحفل فيقام مساء بعد غد الخميس في إحدى قاعات نادي الاتحاد.

ليلتذاك لم أنم. أحلام اليقظة صعدت بي إلى جبال شاهقة، نزلت بي إلى أودية خضراء. كنت متفائلا بما جرى، تملؤني ثقة في مستقبل مشرق. قبل أن أرى النتيجة رؤية العين أرسلت برقية تهنئة لأبي في البلد مستلذا بفرحة الجميع التي شخصت أمام ناظري، إلا أن غصة في حلقي كادت تفسد عليّ إشراقة الفرح، نابعة من اقتناع داخلي بأنني لن أكون سعيدا في مستقبلي على الإطلاق ما لم تكن لولية هانم حاضرة في حياتي وأقرب إليّ من حبل الوريد.. نعم هي هانم بمعنى الكلمة رغم تنبيهها عليّ بمناداتها بغير هذا اللقب، لكنني أبدا لا أستطيع نزعه عن اسمها.. إنها هي الهانم لا أحد غيرها..

لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أنام في حضن امرأة غيرها، أنا الذي فضضت بكارتها في الواقع فأنا الملزم بها، وما أسعده من إلزام! لقد حفرت لنفسي خندقا آمنا فيها ولا بد أن يتحول إلى بيت أسكن إليه بقية عمري. إني لواثق في نظافة نفسها وسلامة قلبها. إن الخطيئة لا تعتبر انحرافا يدين الشخصية إلى الأبد، إنما الخطيئة نتاج لحظة ضعف تحت ضغوط نفسية وإلحاح احتياج إنساني جارف. الانحراف مرض في العقل في النفس في القلب في التربية يتحول تلقائيا إلى سلوك لا إرادي يصعب علاجه، أما الخطيئة فيمكن التكفير عنها، والغُسل من ذنبها يؤهل الخاطئين لرحاب الغفران.

لولية هانم لم تخطئ؛ إنما المخطئ حقا هو أنا ،لكن المسئول أسرة بل مجتمع بأكمله لم يعد يتسق واقعه مع عقائده وقوانينه. آه! إني لأتحرق شوقا إلى أن أعالج خطيئتي حتى وإن كنت غير مسئول عن أسبابها.سأدفع غرامة كبيرة أفرضها على نفسي لليتامى والمساكين وأبناء السبيل، سأصلي لله وأدعوه أن يغفر لي بما أنه الغفور الرحيم، ولكن ماذا يكون مصيري لو أنه سبحانه حرمني من لولية؟ إنه وحده يعلم، إنه وحده سيلهمني الصبر والسلوان.

قام سالم الأمير بتوصيل الأستاذ جبريل محمود رئيس المكتب سابقا إلى محطة القطار السريع الذي سيستقله إلى القاهرة ليتسلم عمله الجديد مساعدا لمدير التحرير. عاد سالم في الواحدة مساء، فاستأذنته في الانصراف لمدة ساعة واحدة أنجز فيها مشوارا مهما. ثم ركبت إلى الجامعة لأتأكد من النتيجة بنفسي.

اخترقت الزحام المتجمع أمام حوامل الكشوف.. لكن الجو تغير فجأة في ناظري؛ زحفت على المكان روح من الأنس والحميمية جعلت هذا الوقت من القيلولة يبدو كأنه الصباح الأخضر. انتشرت في المكان نكهة جاذبة منعشة طقطقت مشاعري وأضاءت رأسي بلون الفسدق. من خلف هبطت الغشاوة السعيدة المنعشة بيدين رخصتين كل منهما تستقر فوق عين لتغميها. استمرأت الوضع كأنني عدت إلى صدر أمي بعد غيبة طويلة جدا. مؤخرة رأسي تلاطمت مع ثديين نافرين، فما أروع هاتين الوسادتين القادمتين لاشك من فراش بنات الحور! أمسكت باليدين في رفق، رفعتهما عن عيني، أبقيتهما في يدي مستديرا إليها؛ ارتميت على صدرها، دموع الفرح تنهمر من عيني بغزارة:

- «لولية هانم! كدت أجن مساء أمس وأنا أحاول الوصول إليك بأي شكل!».

- «أنا أيضا. تصورتَ أني يمكن أن أنساك! لست أقدر!.. جئت مرات عديدة إلى هنا كي أراك. اليوم جئت من بدري لأقرأ النتيجة. مبروك يا بهاء!».

انزاحت إلى الأمام قليلا. مدت أصبعها وأشارت إلى اسمي الذي حفظت موقعه جيدا.

- «ها هو ذا. هيه..اطمأن بالك؟ ».

- «صدقيني إن فرحتي بمجيئك أقوى من فرحتي بالليسانس! والله العظيم لست أكذب».

- «صادق من غير حلفان. تعال نحتفل بك».

تعاشقت أصابع يمناها مع أصابع يسراي، سحبتني ومشينا إلى سيارتها، ركبناها، انطلقت في اتجاه المكس وهي - السيارة - أكثرنا نشوة، كانت تزغرد على الأرض، وكان من الواضح أن كلينا لايعرف إلى أين نذهب على وجه التحديد.

- « تروح قلعة قايتباي؟».

- «أروح أي مكان أنت فيه».

الكافتيريا ساحرة بالفعل، جزء كبير منها تمتد أرضه داخل البحر في انبعاجات كدوائر الورد، كل انبعاج تحتله ترابيزة بكراسيها. في واحدة من هذه الانبعاجات جلسنا،البحر من خلفنا ومن أمامنا وعن يميننا. قدم لنا النادل دفاتر الأصناف. سألتني لولية:

- «أسماك أم لحوم أم طيور؟».

- «الذي تحبين أكله أموت في حبه».

توردت الابتسامة الصافية على وجهها، طلبت تشكيلة من البوري والوقار المشوي، وطبقا كبيرا من الجمبري والكابوريا. انهالت على المائدة أطباق السلاطة وأرغفة الخبز حتى كدنا نشبع، ثم وفدت الأسماك في مهرجان من الأطباق الكبيرة والروائح الشهية النفاذة.

قامت لتغسل يديها في دورة المياه. انتهزت الفرصة وناديت على النادل في طلب الحساب. حمدت الله أن كانت محفظتي عامرة بالمبلغ المطلوب. صحيح أنه كان باهظا يقصم الظهر لشهر قادم، إلا أنني كنت في غاية السعادة والرضا. أثناء عودتها من دورة المياه كانت يدها تعبث في الحقيبة المعلقة في كتفها حتى خرجت ممسكة بمحفظة الفلوس، فلمحت النادل وهو يغادرني شاكرا على البقشيش السخي. نادته:

- «تعالَ خذ حسابك».

- «الحساب وصل يا آنسة!».

تورد خداها وتقافزت الفرحة في عينيها من كلمة «آنسة» كما هو واضح، لكنها اتجهت نحوي غاضبة:

- «لماذا تسرعت بالدفع؟! أنا عازماك لأحتفل بك».

- «يا لولية أنت يا ما عزمتني! اعزميني على الشاي».

قالت للنادل في حسم:

- «ردّ له فلوسه».

نظرت أنا إلى النادل في وعيد وتهديد. قال في بسمة لبقة:

- «لا أستطيع يا آنسة!».

قالت له بعنف وحدة:

- « رد له فلوسه . أنا عازماه».

- «يا لولية هانم خلاص ال- ..»

قاطعتني بانفعال مسرحي هذه المرة:

- «يا أخي أنت سمعته يقول إني آنسة، فما هانم هذه؟!».

ضحكت وضحك النادل وتأهب للانصراف. نادته:

- «خد دول علشانك.. تحية من الآنسة».

أعطته عدة برايز ورقية، أخذها بامتنان كبير. عبرنا المطعم
إلى الكافتيريا.

ونحن نشرب الشاي حدثتها عن التحاقي بالعمل الصحفي في جريدة العصر وأن احتمال تعييني قائم وعلى وشك أن يصدر خلال أسابيع قليلة. حدثتها عن رغبتي العارمة في رؤيتها على الدوام وكيف أني قد أصاب بالجنون إذا خرجت هي - لا قدر الله - من حياتي لأي سبب من الأسباب. استمعت لي بوجه مضيء كالمصباح، لم تسألني عن عمرو الشماشرجي ولا عن أي شيء خاص بالعائلة.

في السيارة وهي تزحف بروية على الأسفلت قالت إنها بعون الله لن تخرج من حياتي أبدا، لأنها - ببساطة - لم تعد تستطيع ذلك. أحاطتني علما بمواعيد نومها وصحوها، كلمتني عن قراءاتها، عن هوايتها في شغل الصوف بالإبرة اليدوية المعقوفة. كتبت لها عنوان المكتب وأرقام تليفوناته. أمام مسرح إسماعيل ياسين توقفت، نزلَتْ، نزلْتُ معها. فتحَتْ حقيبة السيارة الخلفية وأخذت منها جعبة ورقية كبيرة نزعت منها سترة من الصوف شغل يدها، سترة مفتوحة بأزرار صدفية شكلها وألوانها خلابة وغاية في الأناقة. قدمتها لي:

- «هدية نجاحك. شغل يدي».

أمسكت بيديها، رفعتهما، قبلتهما في امتنان. قالت إنها مضطرة للعودة إلى بورسعيد قبل حلول الظلام لكنها سوف تراني قريبا، سوف تدبر ذلك بمعرفتها وتتصل بي في هاتف المكتب. ظللت واقفا أرقب السيارة في ابتعادها حتى صارت كالإوزة ثم اختفت في الأفق اللانهائي. خرمت من أمام مسرح إسماعيل ياسين إلى أول ناصية في شارع بورسعيد. طويت السترة على ذراعي. صعدت إلى مكتب الشماشرجية إخوان وفي نيتي الاتصال فورا بسالم الأمير أستأذنه في عدم قدرتي على الرجوع إلى المكتب الآن لعائق طارئ.

فوجئت بعمرو بك في مكتب رشيد بك. كانت مسحة من الهوان بادية على مظهر عمرو بك. كل منهما ممسك بفنجان القهوة والسيجارة. تقدمت من رشيد بك لأعرض عليه البريد. رمقني عمرو بك من تحت لتحت بنظرة فيها كثير من الضغينة والتحدي. وضعت دفتر البريد أمام رشيد بك، وفوقه مظروف طويت فيه طلبا بإعفائي من العمل. قرأه رشيد بك عاقدا حاجبيه:

- «زهقت من العمل معنا يا بهاء؟ مبروك أولًا على الليسانس.. لعلك وجدت عملًا أنسب يليق بالليسانس».

وجدتها فرصة سانحة أرد فيها سخرية عمرو بك مني يوم علم أنني التحقت بكلية الآداب. نظرت إليه نظرة ذات معنى ووجهت كلامي لرشيد بك:

- «التحقت بالعمل الصحفي. أصبحت صحفيا بالفعل في جريدة العصر في مكتب الإسكندرية أعيد صياغة الموضوعات وأكتب الأخبار والتعليقات».

تأملني رشيد بك في دهشة ممزوجة بالإعجاب والتقدير والفرح، ثم استدرك:

- «اشتغلت فعلا؟!».

- «وقبضت مرتب شهر».

وقف رشيد بك فاتحا صدره:

- «مبروك علينا! من جدّ وجد حقا! لقد شرفتنا!».

أخذني في حضنه، قبلني، أشار بذراعه إلى الكرسي المواجه للكرسي الجالس عليه عمرو بك:

- «اقعد يا بهاء دع البريد الآن. اقعد قلت لك».

لففت وجلست في مواجهة عمرو بك دون أن أعنى بالنظر إليه، مع ذلك اختطفت عيني نظرة إلى وجهه فإذا هو في شحوب واشمئناط، لم يقل حتى: مبروك. كان رشيد بك قد مال بجنبه وفتح درج المكتب التحتي وأخذ يعبث بيده فيه، إلى أن رفعها حاملة علبة شديدة الأناقة فتحها وأمالها نحوي:

- «هذا قلم حبر باركر واحد وعشرين من الذهب، محطوط في مكتبي من مدة طويلة، لعله كان في انتظارك! هو هديتي لك بمناسبة نجاحك وتفوقك!».

أغلق العلبة وقدمها لي، فقمت واقفا وانحنيت شاكرا قبل الإمساك بها. أشار لي رشيد بك أن أعود للجلوس فجلست.

- «أكيد في يوم من الأيام ستكتب عنا، أم أننا لم نترك في نفسك أثرا تتذكره؟!».

- «بالعكس يا رشيد بك! حضراتكم أصحاب فضل عليّ، وأنا لست ممن ينكرون الجميل. إن صوركم في قلبي وفي عقلي، ولحم أكتافي من خيركم، فكيف أنسى؟!».

ضغط على زر بجواره، دخل مسعود أفندي.

- «ابعث لي بالأستاذ كردي حالا».

ساءلت نفسي: لماذا يطلب رشيد بك مدير شئون العاملين؟ ليس في عهدتي أي شيء أسلمه، ثم إني أعمل بالمكافأة وحتى دون عقد، فهل يطلبه لأمر يتعلق بي أم لسبب آخر. آنئذ اندمج رشيد بك في الكتابة باستغراق وتركيز على ورقة فلوسكاب، ها هو ذا يوقع بإمضائه أسفل الصفحة، يرفق الورقة التي كتبها بالورقة التي طلبت فيها الإعفاء من العمل، يدبسها.دخل كردي أفندي رئيس شئون العاملين. أشار له رشيد بك أن يجلس. جلس في وضع من ينتظر الأوامر.

- «يا كردي أفندي، الأستاذ بهاء الراوي يخدم عندنا ما يقرب من خمس سنوات.. كان مثالا للجد والاجتهاد والأمانة. هو صحيح بدون عقد، إلا أنني (ونظر إلى عمرو بك) بعد إذن رئيس مجلس الإدارة طبعا قررت له مائة جنيه مكافأة نهاية خدمة! شرفنا بتوقيعك الكريم يا عمرو بك».

وقدم له الورق. تململ عمرو بك، ترك يد الرجل معلقة في الهواء. هز رشيد بك يده صائحا فيما يشبه الأمر:

- «توقيعك يا عمرو بك!»

كان عاقدا يديه فوق بطنه، عاقدا كذلك ما بين حاجبيه وقد زمّ شفتيه في اشمئناط وامتعاض:

- «عفوا رشيد بك،ألا يمكن تأجيل هذا الموضوع الآن؟».

- «ولماذا التأجيل؟!».

«أصلي ي ي.. أنا في الحقيقة.. المبلغ كبير!.. لو كان الربع مثلا تكون مبلوعة! ثم إنه...».

قاطعه رشيد بك رافعا يده بالورقتين نحو كردي أفندي صائحا بلهجة باتة حاسمة:

- «كردي أفندي، نفِّذ هذه التأشيرة! الآن. يعني بهاء أفندي لا بد أن يقبض مكافأته غدا صباحا مع مرتب هذا الشهر

الجاري. شكرا كردي أفندي».

كردي أفندي أخذ الورقتين:

- «ربنا يعمر بيت حضرتك! أمر سعادتك. غدا بإذن الله يا بهاء أفندي تمر عليّ».

وخرج.

هب عمرو بك واقفا في حركة احتجاج مكبوتة، ثم غادر القاعة دونما استئذان. وقفت شاعرا بالذنب:

- «رشيد بك، عفوا ! اسمح لي حضرتك.. أنا...».

قاطعني بحدة رقيقة:

- «انتهى الموضوع يا أستاذ بهاء!».

أغلقت فمي، ولففت لآخذ دفتر البريد، فوضع يده عليه ليمنعني من أخذه:

- «دعه لي حتى أراجعه . تفضل أنت .. لايهمك مما رأيت! هذا حقك ولا بد أن تأخذه، ومن يعترض على الحق يخبط رأسه في الحائط! أرجو أن تزورني في كل وقت».

- «شكرا يا أفندم».

صافحته بحرارة، خرجت من مكتبه إلى الشارع مباشرة تجنبا للاصطدام بعمرو بك. عرجت على عم شعبان لأشرب الشاي معه، لا أستطيع وصف سعادتي. لم أكد أصدق أنني - أخيرا - قد تحررت من كابوس الشماشرجية!

صحبة الورد الكبيرة التي أرسلتُها إلى قاعة نادي الاتحاد باسم كل من بهيجة الوزان وسالم الأمير كانت موضوعة على يمين العروسين في زاوية بارزة من بين ورود آل الوزان وآل الأمير. وفيما رحت أعانق العروسين قال سالم:

- «شكرا على هذه الصحبة الجميلة، سنأخذها معنا إلى البيت».

وقالت بهيجة:

- «سنحتفظ بها لنردها لك هي نفسها عندما تشبك».

ضحكنا بصوت عال، سرعان ما ظهر الاهتمام المفاجئ، خفَّ لاستقبال من وضح أنه من المهمين بالنسبة له، لكن الرجل كان أسرع منه فلحقه قبل نزوله عن الكرسي. عانقه، صافح بهيجة، وضع سالم يده على كتفي وقدمني له:

- « زميلنا الجديد بهاء الراوي».

صافحني الرجل بحرارة:

- «يا أهلا وسهلا. الأستاذ جبريل يحبه ويمدح فيه».

قال سالم يقدم الرجل لي:

- «الأستاذ مخلص مصطفى مدير تحريرنا، جاء من القاهرة ليشرف حفلنا السعيد».

تهدجت عواطفي وأنا أصافحه بقوة:

- «نورت الإسكندرية.. أنا من قرائك الذين هم بالملايين، أقرأ زاويتك اليومية بانتظام وأتعلم منها ».

- «العفو.. العفو!».

- «تفضل حضرتك معي».

انتقيت ترابيزة في ركن هادئ يكشف كل ما سيدور أمام العروسين من رقص وغناء. أجلسته إليها، طلبت له عصير البرتقال. ناداني سالم الأمير فذهبت إليه، أعطاني علبة الشبكة وأشار لي بأن أدور بها على المدعوين، فتحتها، أخذت ألف بها بين المقاعد وأتوقف أمام كل ترابيزة لأعرضها على الجالسين إليها. أعدت الشبكة إلى سالم لتلبسها بهيجة. كانت الفرقة الموسيقية قد اصطفت على منصة أرضية بجوار العروسين.

همس سالم الأمير في أذني بأنني سأشاهد الآن راقصة سكندرية جديدة ستهز عرش الرقص الشرقي تحت أقدام تحية كاريوكا وسامية جمال ونبوية مصطفى، وهي فتاة صغيرة من النوع البلدي الذي يؤكل اسمها سهير زكي، استطاعت أن تدير رءوس الشعب السكندري فأصبحت راقصة درجة أولى في الإسكندرية، وهو - سالم - ينوي أن يتبناها ويقدمها للوسط السينمائي في القاهرة، ولهذا سيطلب رأيي فيها. بالفعل كانت لهلوبة، جعلت الجماد في القاعة يتحرك! الكراسي والترابيزات والجدران انتعشت من فرط النشوة ودبت فيها الحيوية والبهجة، فما بالك بالمدعوين؟ كان المطرب العتيق فايد محمد فايد يصاحبها في الغناء بأغنيته الشهيرة: «ياسي علي لوز: حلاوتها زايدة حتة ياكلوها الساعة ستة ياسي علي لوز.. إلخ». الكل كان يصفق ويرقص بقيادة سهير زكي التي نجحت في صرف أنظار المدعوين عن جسدها البديع المنحوت بعبقرية إلهية فذة، وتركيزه على ما تقدمه من فن الحركة المعبرة عن طاقة البهجة المكبوتة في أعماق الإنسان. لقد نفضت الناس تنفيضا حتى أزالت عنهم تراب الكدر والهموم اليومية الملحاحة!

يبدو أن العروسين قد اكتفيا بحفلة الشبكة؛ إذ بعد حوالي ثلاثة أشهر دعينا لحضور عقد القران والدخلة معا في حفل عائلي فوق سطح عمارة الشيخ الوزان والد بهيجة في حي كامب شيزار، حيث أقيم سرادق من محل مفروشات أتى بكراسيه الخيزران. أقيم مسرح مكون من كنبتين عتيقتين لصقتا بعضهما فى بعض. هكذا أصر الشيخ على أن يكون الفرح ذا طابع بلدي صرف يحضره أهل الحي من غير جمهور الأندية، فكان كما قال سالم مازحا: «الشيخ يقيم الفرح لجمهوره الخاص»، حيث امتلأ السطح بالعشرات منهم ومن أقارب الشيخ الدمايطة وأقارب سالم من المنوفية. أقيمت - وقد طرمخ الشيخ بمزاجه - قعدات للتحشيش وشرب البيرة المثلجة شأن جميع أفراح أولاد البلد في

الإسكندرية، وكشأن هذه الأفراح أيضا زاط الجميع واختلط المدعوون بالموسيقيين فصار الجميع يكاد كل منهم يؤدي عمل الآخر.. وفي النهاية صار الجميع يغني ويرقص ويحشش ويجرع البيرة رغم امتعاض القليلين من أقارب الشيخ وتمادي كثيرين من أقارب سالم. أثناء تقبيلي للعروسين همس سالم في أذني بمرح:

- «أولاد الكلب سيهدمون السطح فوق شقتي! إن هذا السطح سطح شقتي في الواقع وليس سطح العمارة».

لكزته بهيجة العروس:

- «احمد ربنا أنك أصبحت سقفا لعمارة!».

شهق سالم مشوحا بيديه في استهوال:

- «كان زماني خدتهم ونزلت!».

قالت بهيجة:

- «شفت الشقة يا بهاء؟ انزل شُفها».

نزلت في الحال. شقة بديعة بمعنى الكلمة. إن العمارة قائمة على ثلاث شقق في كل طابق من طوابقها الخمسة، لكن شقة بهيجة وسالم بحجم العمارة كلها ،يعني ثلاث شقق في شقة فيها ثلاث دورات للمياه بحمامات ومرحاضين لقضاء الحاجة العابرة للضيوف، وثلاثة مطابخ، وتسع غرف واسعة، مساحات شاسعة مفتوحة، مفروشات قليلة لكنها ثمينة جدا ومفصلة على قد المساحات المطلوبة لها، شغل دمياطي بذمة وضمير، ثلاثة صالونات، ثلاثة أنتريهات، غرفة للسفرة ملآنة بالفضيات وبالفخامة، ثلاث غرف للنوم بطرز مختلفة، غرفة للأطفال، غرفة للمعيشة بطاقم جلوس أسيوطي، ستائر مخملية ثقيلة ومن تحتها أخرى حريرية خفيفة..

واضح أن الشيخ الوزان قد أنفق بسخاء على تجهيز ابنته الوحيدة على ولدين سمعت أنهما أستاذان كبيران في كليتي طب القاهرة، أحدهما تخصص أطفال والثاني تخصص باطنة، وأن لكل منهما عيادة وفيلا خاصة به في منيل الروضة بالقاهرة، إضافة إلى شقة لكل منهما في هذه العمارة يأويان إليهما كلما أتيا إلى الإسكندرية.

تذكرت أن سالمًا قال لي منذ يومين إن أباه الميسور طهق من مصاريف زواجه حتى كاد يبيع أرضا زراعية - أو لعله باع بالفعل وهو الأرجح - لأن سالمًا علق بقوله على سبيل التفجع إن نصيبه في أرض أبيه وممتلكاته قد أنفق عليه بالكامل ولم يبق إلا أنصبة إخوته الفلاحين لا يسألهم فيها عن شيء. ومعنى هذا أنه لابد وأن ينجح في حياته العملية لأعلى سقف حتى لا تتعرض بنت الأصول للهوان معه سيَّما وزواجه منها تتويج لقصة حب كانت مضرب المثل في الكلية على التفاهم والتوازن والتكافؤ وحرارة العاطفة ،وإنه لمستعد لأن ينحت في الصخر ليهيئ لها حياة إن لم تتفوق على فخامة الحياة في بيت أبيها الثري فعلى الأقل لا تنزل عنها. فيما أنا مندمج في الفرجة على الشقة مع إخوة وأخوات سالم الأمير وبعض أقارب العروس الذين رافقونا مستمتعين بإعجابنا، كانت ضجة الزفة قد هجمت على الشقة ثم ما لبثت حتى تباعدت هابطة السلم، ثم سرعان ما صارت في الشارع. انتبهنا إلى أن العروسين سيركبان الآن واحدة من السيارات المزينة بالورد الورقي والمنتظرة تحت العمارة ليتوجه بهما موكب السيارات إلى أكبر وأشهر محل للتصوير في محطة الرمل.. منها تصوير ومنها فسحة وإعلان زفاف. نزلت مسرعا،لحقت بإحدى السيارات.

عند محل التصوير تفرقنا. استقل العروسان أفخم سيارة اتضح أنها سيارة أخيها الأكبر أستاذ طب الأطفال - وهي ماركة «تاونس» ملاكي القاهرة يقودها سائقه الخاص - ذهبت بهما إلى حيث يقضيان السهرة معا في واحد من الملاهي العائلية الكبيرة على كورنيش رأس التين. أما نحن فقد انصرفنا جميعا كلٌّ إلى حال سبيله.

شهر عسل سالم الأمير كان عشرة أيام فحسب، لكنها كانت بالنسبة لي فرصة حرجة أثبتُّ من خلالها أني كفء للعمل بصورة لم أكن أنا نفسي أتوقعها على الإطلاق. لقد كلفني سالم الأمير رسميا بأن أنوب عنه في إدارة المكتب طوال فترة إجازته.. كنت واجف القلب مضطرب الأعصاب لحظة أن قرأت صيغة التكليف على لوحة الإعلانات في ردهة المكتب ممهورة بتوقيعه الذي أصبح حميما بالنسبة لي. خوفي من مسئولية التجربة كاد يصيبني بالفشل قبل أن أبدأها، إلا أن حبي الفطري للمهنة، وثقة سالم الأمير في قدرتي وأمانتي، وسخرية قنطار اللحم التي زرعت في نفسي طاقة من التحدي هائلة، ودماثة رشيد بك السيسي التي بلسمت جروحي وملأتني بالثقة وبالعزة ..كل ذلك تفاعل في وجداني، فإذا بي أصير بالفعل مديرا للمكتب بمعنى الكلمة!

الشغل يمضي في سلامة دونما أدنى ارتباك أو عراقيل. التقرير اليومي يصل إلى القاهرة في موعده، أتلقي البرقيات وأرد عليها، يكلمني مدير التحرير في الهاتف يستفهم أو يستعلم عن بعض ما ورد عن أحداث في الإسكندرية أو يطلب معلومات إضافية أو يطلب تكليف محرر، ومصور بتغطية الحدث الفلاني. كان سالم الأمير قد استحدث في المكتب وحدة فنية وإدارية خاصة بالإعلانات سهَّلت مهمتها ،حيث استدعى رساما ومساعدين له من كلية الفنون الجميلة يقوم برسم الإعلانات على الماكيت بالمساحة المطلوبة بالشكل الموافق عليه بتوقيع من المعلن، ومحرر للإعلانات التحريرية والإعلانات المبوبة والتهاني والتعازي.. إلخ، وإداريًّا للتعاقد والتخليص والتحصيل والملاحقة، وأكثر من مندوب متخصص في جلب الإعلانات.

صرت لا أ كف عن الصياغة والمراجعة ومتابعة ما يترتب على النشر من مشكلات بسبب أخطاء مطبعية في الإعلانات أو من غضب ينتاب بعض المسئولين في الإدارات السكندرية من انتقادات حادة يترتب عليها كتابة ردود وتوضيحات يتسلمها المكتب لإرسالها ضمن البريد الرسمي اليومي بعد إعادة صياغتها وتهذيبها مما قد يكون فيها من خشونة وغلظة وتطاول.. كل ذلك أدرته طوال الأيام العشرة بكفاءة كشفت عن نفسها بنفسها بمجرد أن ألقي بي في قلب المعمعة.

حين عاد سالم الأمير في اليوم الثاني عشر ولم يفاجأ بأي كارثة حدثت في غيبته، أمضى اليوم كله في مكتبه عريسا لا يفعل أي شيء سوى التدخين وشرب القهوة وإجراء مكالمات تليفونية لبعض الجهات والأفراد من أصدقائه. بلغ به الاطمئنان حدا جعله يتلذذ بالفرجة عليّ إذ أنوب عنه - في حضوره - في القيام بمهمات كانت تجلب له الصداع والقلق. ثم جعله الاطمئنان يقضي بقية أيام شهر العسل على راحته، يحضر يوما ويتغيب ثلاثة، فما إن انتهى منسوب العسل في رحلات وسهرات وبدأ سالم الأمير ينتظم في مباشرة إدارته حتى كنت قد عشقت المهمة.. أصبحت أمارسها في شغف واستمتاع..

وفي نفس الوقت استمرأ سالم الوضع واستحلاه.. وجد وقتا كافيا لكتابة عمود أسبوعي ثابت أشاركه في تحضير مادته.. بدأ يهتم بفخامة مكتبه وتعيين سكرتيرة وساع خاص به..اندمج في شخصية رئيس تحرير المكتب يباشر الاتصال بكبريات المحلات التجارية والشركات ويجامل أصحابها بنشر أخبار ذكية عنهم يقبض ثمنها إعلانات غزيرة تتدفق على المكتب عن طريقه، ومع ذلك يتعفف عن العمولة فيحولها إلى حساب المندوبين والقسم الفني ليخلق جوا من الإخلاص والأمانة والدفء في المكتب.

كان صحفيا بالفطرة ورئيسا بالسليقة. عموده الذي ينشر في العدد الأسبوعي في صفحة المحليات كان يتناول فيه شئون الحياة في الإسكندرية وضواحيها والمشاكل الإدارية، أما الاجتماعية فينبه إليها محرريه لتغطيتها؛ كذلك كان نشطا في تغطية الاجتماعات الحكومية والمؤتمرات السياسية الكبرى التي تعقد في الثغر. وحينما يكون الرئيس عبد الناصر في الثغر ولو لزيارة خاطفة، يكون هو على مقربة دائمة من مؤسسة الرئاسة، يتابع مجيء الوزراء وكبار الضيوف الأجانب ويجري معهم الحوارات بكفاءة عالية، حيث يفرد له الجورنال اليومي أو الأسبوعي صفحة كاملة وربما أكثر مع صورة له في صدر الصفحة. كان يجيد الكتابة بسرعة كبيرة وبسهولة مذهلة بأسلوب يكاد يكون بالعامية المصرية مع أنه غاية في البلاغة والفصاحة، يصنع من الحبة قبة ومن الفسيخ شربات. الخبر الصغير يحوله إلى حدوتة جذابة مثيرة. إلى ذلك هو متفائل بالعهد الجديد، شديد الولاء للثورة والتقديس لعبد الناصر، تقع عين القارئ على مانشتاته وعناوينه الفرعية فيتصور أن الدنيا أخيرا انصلح حالها وعم الخير الوفير في رحابها.

لهذا كنت على يقين جازم بأنه سيصبح في القريب العاجل من الرءوس الكبيرة جدا في هذه الجريدة ومن ثم في الصحافة بوجه عام.. يدعم ذلك أنه شخص مسالم، حبوب، خدوم، ميال لفعل الخير، يحفظ الود، يتذكر الواجبات في

حينها، يراعي المشاعر وقدسية العلاقة مع الجيران. وبما أن بهيجة الوزان قد اصطفته من بين المئات ممن خطبوا ودها وأحبته طوال فترة الدراسة ثم تزوجته، فإنه لا بد أن يكون بالضرورة على جانب كبير من الرقة والأخلاق الحميدة الطيبة وإلا طردهما الشيخ الوزان من حياته.

عزمتني بهيجة الوزان على حفل عيد ميلادها. انتقيت هدية مبتكرة كلفتني ليس مالا كبيرا فحسب، بل وجهداً مضنيا في اللف على المكتبات في الإسكندرية والقاهرة دون جدوى..وإنه لمن المفارقات الساخرة من ناحية والمؤكّدة بأن بهيجة فيها شيء لله من ناحية أخرى، أن أتلكأ كعادتي أمام محل تحف في شارع العطارين فأفاجأ بوجود الهدية كاملة غير منقوصة: الأعمال الكاملة باللغة الفرنسية للأديب الفرنسي الفيلسوف ألبير كامي الذي أعرف أن بهيجة مفتونة بالحديث عنه. بالفعل كادت بهيجة تجن من الفرح! أذهلني فيه أن الإنسان يمكن أن يكون على هذا القدر من الفرح والسعادة لمجرد امتلاكه كتابا أو مجموعة كتب بعينها. قالت بهيجة بنبرة تنضح صدقا:

- «والله، والله العظيم، لو أن أبي كتب باسمي هذه العمارة كلها ما فرحت كفرحتي بهذه الأعمال الكاملة لهذا الكاتب الذي يضيء عقلي وقلبي معا!».

فهتف سالم الأمير:

- «بمناسبة العمارة، ما رأيك في شقتي في شارع الحياتي في محرم بك؟».

- «زرتك فيها مرة واحدة أول تعارفنا».

- «تتذكرها طبعا!.. ثلاث غرف وصالة وعفشة مياه وشرفتان على شارعي الحياتي وعرفان. إيجارها جنيهان ونصف الجنيه».

- «ياه!.. إنها إذن مؤجرة من زمن طويل!».

- «عمك الحاج محمد الأمير استأجرها من عشر سنوات ليقيم فيها أسبوعين كل شهر أيام كان متعهدا لتوريد البصل.. فلما اتسعت أرضه الزراعية في بلدتنا هورين مركز بركة السبع، أقنعته ستك الحاجة هنية أم سالم بأن يخلصنا من صنان البصل وينتبه لأرضه، وقد حصل.. لكنه لم يفرط في الشقة.. تركها بعفشها تحسبا للطوارئ.. فجئت أنا إلى الجامعة لأحتلها!».

- «هي فعلا خسارة أن يفرط فيها!».

أشار بذقنه إلى بهيجة غامزا بشفتيه:

- «حكومتي الرشيدة تطالبني الآن بالاستغناء عنها فورا وإلا سرقت مني مفتاحها وسلمته لصاحبها!.. أمري لله، قررت أن أستغني عنها شراءً لخاطر بهيجة، لكني لن أتنازل عنها إلا لمن يستحقها.. فما رأيك؟ تأخذها؟».

دقات قلبي كانت تتصارع في انتظار أن ينطق هذه العبارة الأخيرة التي تمنيت أن أسمعها:

- «ولكن.. أنت قلت إن العقد باسم والدك!».

- «إيصالات الإيجار كلها باسمي وهي بمثابة عقد.. ثم إن الحاج محمد الأمير ليس بعيدا عنا وقت اللزوم!».

- «أريدها فورا.. أريدها الآن.. هذه تكون أعظم خدمة قدمتها لي بعد إلحاقي ببلاط صاحبة الجلالة».

- «هاتي المفتاح يا بهيجة».

- «تمزح طبعا!».

- «سنرى».

أتت بهيجة بالمفتاح، سلمته لي بغمزة لطيفة من أصبعيها السبابة والإبهام:

- «مبروكة عليك. ادع لي».

قال سالم:

- «اذهب وأقم فيها من الليلة لو أردت.. حتى الفرش لست أريده فهو لك إلى أن تغيره عند الزواج! فكرت في نقله إلى الشاليه في سيدي بشر فوجدته غير مناسب لشدة عتاقته، ثم إن الشيخ الوزان عنده كنز لاينفد من المفروشات

شغل أقاربه في دمياط.. هنيئا لك يا عم!.. أمك داعية لك والمصحف.. في أي لحظة أنزل معك إلى صاحب البيت لنساومه على تغيير العقد، يعني جهز مبلغا في حدود عشرة عشرين جنيها بالكثير نسد بها حنكه».

- «بسيطة جدا!».

علمت بعد ذلك أن بهيجة هي التي ألحت على سالم بأن يتنازل عن هذه الشقة إليّ طالما أن الله قد وسع عليه؛ ذلك لأنها كانت قد سمعتني ذات يوم أوصي الزملاء المغتربين بإرشادي إلى مسكن مشترك أو منفرد، أو لعلني أكون قد كلمتها ذات مرة عن الحجرة الصغيرة التي استأجرتها من أسرة تقيم في شارع منشة. تعاطفت بهيجة الوزان معي، وهذه من بين الصفات الكثيرة الجميلة التي تتميز بها بين جميع من عرفت من الزملاء. لئن كنت مقتنعا بأن دعوات أمي هي السر في تفتيت كل الصعاب أمامي وتسهيل أموري على هذا النحو المدهش، فإنني أكثر يقينا بأن دعوات الحاجة هنية أم سالم تتفوق على دعوات أمي لي. يكفي أن الله أهداه بهذه الهدية الإنسانية الثمينة من بديع صنعه: بهيجة الوزان.

الشقة كانت أعظم مكسب أتاني، نعمت فيها بالمفروشات التي يسميها سالم بالعتيقة وهي في نظري كلاسيكية أصيلة جدا ومحترمة جدا وفي غاية المتانة، ثم إنها ليست بالقليلة: سرير ودولاب ومكتب وترابيزة سفرة بستة كراسي وأنتريه، مع كنبة بلدي منجدة لزوم التربيع والتمدد.. حتى الكتب لم يفكر سالم في استردادها لأنه كون مكتبة أخرى بذوق مختلف واتجاهات قرائية مختلفة، مزودة بموسوعات عالمية ومجلدات ضخمة في التاريخ والعلم والفلسفة والأدب والدين، ناهيك عن مكتبة الشيخ الوزان في الطابق الأرضي حيث كانت بهيجة تعيرني منها كتبا من التراث الثقافي الإسلامي صدرت في أواخر القرن التاسع عشر.. كما أن سالمًا قد استقال من الجامعة ولم يعد محتاجا إلى هذه المصادر التعليمية التي كان يستعين بها في تحضير محاضراته.

الشقة باتساعها وجمالها كانت على مرمى حجر من قصر الشماشرجية الكبير حيث كنت أسكن في غرفة ملحقة به وطردوني منها بصنعة لطافة، وإلى الآن لم يفتحوا فيها أي مكتب لأي أحد. إذا وقفت في الشرفة المطلة على شارع الحياتي رأيت شواشي أشجار حديقة القصر. لا أدري لماذا كنت في الحال أرى وجه لولية هانم كأنه القمر ينبثق من بين الأفرع المتكاثفة الأوراق؛ ربما لأنها في الأصل حاضرة في خاطري يتجسد حضورها كلما انفردت بنفسي في أي مكان في أي لحظة، حتى باتت هي النفس التي أنفرد بها لا نفسي أنا!.. أظل طول الليل أحاول إبعادها عن رأسي بالقراءة أو بالاستماع إلى صوت الراديو فلا تزداد روحها إلا حضورا يحتويني يبعث النشوة في أعطافي.. ما بات يشغلني الآن بقوة كونها لم تحاول الاتصال بي منذ أن هنأتني بالليسانس من مدة طويلة جدا تكاد تكون دهرا.

عمي إسماعيل كان دائم الزيارة لي كل ليلة تقريبا. كان يحمل نسخة من مفتاحها طلبها بنفسه في إلحاح رغم أنه لم يحضر في غيبتي مرة واحدة، لكن مجرد علمي - كما أدرك وجهة نظره - بأن مفتاحا للشقة مع عمي سوف يمنعني إذا ما وسوس لي الشيطان باصطحاب امرأة ساقطة قد ترمي بلاءها عليّ وتسوئ سمعتي في الحي فتلوث ملف حياتي من أوله وتعكر صفو مستقبلي المرتقب. مهما يكن من أمر فإنني كنت سعيدا جدا بمعلمي الأول الذي لم أجد له نظيرا في الجامعة أو في أي مكان.

ذات ليلة كنا واقفين في المطبخ نشترك معا في خرط زردة شاي يحلو لعمي إسماعيل أن يطبخها على وابور السبرتو. كنت منشغلا بلذة في غسل الكوبين جيدا ووضع السكر فيهما في استقبال الرائحة العبقرية النفاذة للشاي السيلاني ماركة «بروك بوند» وهي صاعدة من بزبوز السخان تهدر ملفوفة في ملاءة من دخان على شكل قرطاس كشعاع الشمس.. ليلتذاك قال وهو يصب الشاي - بنفس اللذة - من السخان في الكوبين ناقلا الملعقة من الكوب إلى الآخر قبل الصب لتقوم الملعقة - كما يقول - بتوزيع الحرارة على جسد الكوب الزجاجي فلا ينكسر:

- «جمال عبد الناصر سيخطب هنا غدا».

ثم سكت، فاندهشت بالغ الدهشة من أنه يكتفي بإبلاغي خبرا تعرفه حتى الأوراق المتطايرة في الشوارع. إلا أنه بعد هنيهة راح يقلب السكر بالملعقة فيما يرمقني بنظرة ثاقبة، فبدا كأنه يقلب بالملعقة في رأسي، ثم استطرد:

- «ماذا تتوقع أن يقول؟».

- «ماذا تتوقع أنت يا عمي؟! ».

لوح بيده الممسكة بالسيجارة محاذرا ألا تقع زهرة رمادها في
أي كوب.

- «دعك من توقعاتي.. أنت الآن صحفي، يعني شغلتك أن تتوقع! فاهمني طبعا! صحفي يعني أن تعطي دماغا في كل ما يدور في البلد من أحداث وأعمال وقرارات واجتماعات ومؤتمرات إلخ إلخ إلخ.. فاهمني؟.. يعني لا بد أن تكون متابعا لجميع الخيوط الداخلة في نسيج السياسة في البلد.. عندئذ يسهل عليك أن تتوقع! غير أن الأمر مرهون بقدرتك على الربط بين الظواهر المتشابهة.. بين المقدمات والنتائج.. تقيس نتائج هذه المسألة على نتائج تلك. فاهمني؟ تمسك بالخيط الرابط بين هذه وتلك.. هذا في الواقع هو البئر الذي ستمتاح منه مقالات وعواميد وقصصا وروايات مدهشة، فاهمني؟».

- «أكون كاذبا لو قلت نعم!».

- «انظر إلى الولد الذي يرأس مكتبكم، ذلك المدعو سالم الأمير.. إنه يفعل هذا الذي أقوله لك بحذافيره.. ولد عفريت! صحفي بالسليقة! وذكي! ولكن عيبه الخطير أنه لن يكون صاحب رأي مستقل أو معارض في يوم من الأيام مهما كبر؛ فعشقه للسلطة واضح، إلا أنه على المستوى الإنساني نبيل غاية النبل. فاهمني طبعا!».

- «في هذه نعم!».

جعل يرشف الشاي حذرا من لسعة السخونة:

- «ويرجع مرجوعنا لجمال عبد الناصر. ماذا تتوقع أن يقول في خطابه غدا؟».

- «يا عمي، أنا أفقي السياسي محدود!».

- «إذن ستعيش حمارا وتموت حمارا عدم المؤاخذة! لا ردَّ عندي غير هذا الوصف على صحفي يقول بعظمة لسانه أنا أفقي السياسي محدود!».

- «أقصد بالنسبة لواحد مثلك!».

- «عذر أقبح من الذنب!.. إن لم تكن تفهم في السياسة فاقعد في البيت أحسن لك! هنالك فرق بين أن تفهم في السياسة وأن تشتغل بالسياسة. فاهمني؟ صحيح أن معظم المشتغلين بالسياسة الآن في بلادنا لا يفهمون في السياسة على الإطلاق، إلا أن فهم السياسة مطلب أساسي لكل من يمسك بالقلم. فاهمني طبعا؟.. أنت من ضحايا ثورة يوليو! حكومة الثورة قتلت في الناس روح الاهتمام بالسياسة.. فطست السياسة! فاهمني؟ الأفسال والهلافيت والسوقة هم الآن فرسان السياسة المفرغة من السياسة، يمثلون تجمعا وهميا اسمه تحالف قوى الشعب العاملة!.. كل هذا صحيح، والأصح منه أن تكون واعيا به جيدا ولديك رأي فيه حتى وإن لم تكتبه».

- «أعدك يا عمي أن أوسع دائرة اهتمامي بالسياسة. ولكن قل لي من فضلك: ماذا يدور الآن بخلدك وتتوقع أن يتناوله جمال عبد الناصر في خطابه المرتقب غدا؟ ».

ضحك ضحكة قصيرة دمثة. رشف رشفة:

- «لا شيء محدد يدور في ذهني، إنما هي خواطر تؤدي
إلى توقعات».

- «مثل؟».

- «استقرائي للأمور يقول لي إن عبد الناصر سيفجر قنبلة يثأر بها لكبريائه المهيض برفض الأمريكان تمويل مشروع السد العالي!».

- «قنبلة بمعنى؟!.. ».

- «عقلي يحدثني بأنه سيزف إلى الشعب خبرا شديد الأهمية».

- «من قبيل؟!..».

- «هو طبعا مفلوق من مؤامرات الغرب على أي مشروع نهضوي مصري! نذالة البنك الدولي وخسة الموقف الأوربي ونفسية عبد الناصر الصعيدية المؤمنة بالثأر، كل ذلك جعل خيالي يتجه نحو قناة السويس!».

- «قناة السويس؟! ».

- «أليست باب رزق لفرنسا وباب مرور لمصالح الغرب وأوربا وأمريكا؟».

- «في رأيك، ما الذي يمكن أن يفعله بالقناة؟!».

- «لست أدري بالضبط.. إنما هناك شيء ما خاص بقناة السويس سيحدث، ما هو على وجه التحديد؟ هذا ما أرتجف إذا فكرت فيه!».

- «ما هو بالضبط؟».

- «يؤمم القناة مثلا.. صعيدي جريء ويفعلها!».

- «وإن فعلها؟!..».

- «أوهووووه.. تكون الكارثة!».

في الليلة التالية تلاقينا على نفس الوقفة في نفس المطبخ نفعل نفس الفعل فيما نستمع إلى خطاب الرئيس عبد الناصر الذي كان يذاع للمرة الثانية أو الثالثة. كان عمي إسماعيل كأنه صغر في العمر عشرين عاما فصار شابا مثلي تفيض منه الحيوية والبهجة والحماسة:

- «شفت؟!».

ورفع ذراعه بحركة هتافية مقلدا عبد الناصر في خطبته:

- «تأميم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية..».

ثم يكمل العبارة بالصيحة الجماهيرية:

- «هاااااا..».

- «فكرتني يا عمي.. حضرتك قلت ليلة البارحة إنها الكارثة لو جُن عبد الناصر وأمم القناة! أي كارثة تقصد؟».

تجعدت الابتسامة على شفتيه من فرط الاستنكار لما يمكن أن يكون قد حل بي من غباء:

- «هل تظن أن فرنسا ستأخذ الصفعة على قفاها وتقف متفرجة؟! وبريطانيا التي ندمت على الرحيل عن مصر وتتلكك على أي سبب تحتلنا به من جديد لسبعين عاما أخرى، ماذا سيكون رد فعلها؟! وإسرائيل المتربصة بنا على الحدود تبحث عن سكين حادة تذبح بها عبد الناصر،ماذا ستفعل يا ترى؟ كل هؤلاء كوم ورعاة البقر القراصنة كوم آخر! فاهمني طبعا؟ ربنا يستر!».

في صباح اليوم التالي استعرضت مخاوف عمي إسماعيل على سالم الأمير؛ فهب من فوره يقلب في رفوف المكتبة خلف ظهره ويفتش في أدراج المكتب مرددا لنفسه: أين ذهبت اتفاقية الجلاء؟ ثم رفع رأسه نحوي:

- «فعلا يا بهاء، بريطانيا يمكن أن تعود لاحتلال مصر. عمك هذا عُقْر في السياسة!».

ثم شرد قليلا وقد انخطف لونه من تصور المصير، إلا أن وجهه أشرق فجأة فاستدرك هاتفا بفرح:

- «لكن لا! كيف ننسى علاقة مصر اليوم بالاتحاد السوفيتي الذي ينفذ مشروع بناء السد العالي.. ناهيك عن اتجاهنا الاشتراكي الواضح؟!.. هل يتركنا الاتحاد السوفيتي نغرق؟ أنا شخصيا
لا أتصور هذا!».

وبدا أنه تنازل عن اتفاقية الجلاء مؤقتا، لكن القلق لم يفارقه. جلس أمامي على الفوتيْ:

- «فكر معي، نريد أن نفعل شيئا للجورنال. اسمع، ما رأيك في تحقيق شعبي على نطاق واسع؟.. نستطلع آراء الناس فيما حدث: ردود فعل تأميم القناة عليهم، توقعاتهم لما يمكن أن يحدث».

- «مستعد أن أنزل بنفسي إلى ريف الدلتا لاستطلاع آراء الفلاحين والحرفيين».

- «لا! أنت لا! المكتب يحتاجك هنا أكثر من أي وقت».

على امتداد أيام طويلة صار المكتب خلية نحل لا تهدأ. كانت الرسالة اليومية متخمة بتحقيقات تستطلع آراء جميع فئات الشعب. كان من حسن حظي حقا أنني راجعت هذه التحقيقات لأني تعلمت منها ما كان يجب أن أتعلمه وأنتبه إليه منذ سنوات مضت. أثناء ذاك احتقرت نفسي، تعجبت بازدراء كيف يكون أبي سياسيا حريفا أكثر من عمي إسماعيل، ومندرتنا في البلد مطرح للكلام في السياسة ثم لا أكون سياسيا أو على الأقل صاحب نظرة على السياسة؟!..

فوجئت بالوعي السياسي الباهر لدى كثيرين من عامة الشعب المصري حتى وإن صدق عمي إسماعيل في مقولته بأن حكومة الثورة فطست روح السياسة! فوجئت بشموخ روح الوطنية عند الناس، حماسهم، استعدادهم للوقوف وراء الزعيم، إلخ إلخ.. المدهش أن آراء الشارع كانت أنضج من آراء الساسة ومحترفي العمل السياسي من المثقفين.

هذه العبارة الأخيرة قالها سالم الأمير وهو يزيح أوراقا من أمامه مفسحا المكان لفنجان القهوة. ما إن رفعه إلى شفتيه حتى تجمدت أصابعه على الفنجان معطيا أذنه لصوت الراديو الخافت على يساره. وضع الفنجان، غاضت الدماء في وجهه، استدار إلى الراديو، رفع صوته، كان الراديو قد قطع إرساله فجأة ودخلت موسيقى عسكرية حماسية، ثم طلع صوت المذيع يقول:

«جاءنا الآن ما يلي».. لا أذكر صيغة البيان بالضبط، لكن فداحة النبأ كانت بيانا وحدها: عدوان ثلاثي غاشم على مصر. قوات فرنسية إنجليزية إسرائيلية هاجمت بورسعيد وهبطت بالمظلات على أرض المدينة واشتعل القتال في الشوارع.

دارت بنا الأرض! الرعب جمدنا، شل تفكيرنا تماما فلم ندر ماذا ينبغي أن نفعل. راحت الأنباء تتتالى في سرعة البرق عن شعب مدينة بورسعيد الذي يحارب بالسكاكين والنبابيت وغطيان الحلل وأيدي الهاون والأواني. القتال يدور من بيت لبيت، وجنود المظلات يهبطون على الأسطح والشرفات بالبنادق والقنابل.

خطاب عبد الناصر في الأزهر كان إعلانا للتعبئة العامة المصرية. حزني العميق على مصر كان يتضخم ويزداد عمقا كلما ازددت قلقا على مصير لولية. قلبي بات ينتفض بعنف مع كل دقة من دقاته، يكاد ينط من بين أضلعي يسافر وحده إلى بورسعيد الباسلة، يهتف على البعد من وجع أليم: حبيبتي لولية، ترى هل طالك العدوان يا قلبي؟ هل استلبوك؟ انتهكوا حرمتك؟ اغتالوك؟ .. من لي بطائر صديق يأتيني بخبرها كما جاء الهدهد لسليمان من سبأ بنبأ عظيم؟ أريد طائرة تقلني الآن فورا إلى بورسعيد. فليقتلني البرابرة قبل وصولي إلى عقر دار الحبيب أشفى لقلبي من المكوث هاهنا في انتظار الأخبار، لعلني أصل ناجيا فأدافع عنها وعن بورسعيد، وعن حياتي، مستقبلي الميمون، مصر الحبيبة.

طوال الليالي الفائتة كان عمي إسماعيل يحترم مشاعري الوطنية وإن كان مندهشا من عنف ما وقع عليها من تأثير جعلني أبدو كأم ثكلت جميع عيالها حتى شعر عمي إسماعيل بأن حزنه - وهو الرجل ذو الوطنية العارمة - يتضاءل أمام حزني المقيم والمتزايد بشكل غامض أثار شكوك عمي.. فلما رآني في تلك الليلة منفطر القلب من شدة البكاء إلى حد الانهيار، سحب كرسيًّا وجلس في مواجهتي كالمحقق المصر على زنق المتهم وانتزاع الاعتراف منه بأي شكل من الأشكال:

- «تعرف أحدًا في بورسعيد؟.. شخصًا عزيزًا عليك مثلًا؟!»

- «يعني!».

- «لو كان أحدا من عائلتنا مقيمًا في بورسعيد لعرفته».

- «لا تشغل بالك يا عمي».

- «شوف.. ما حدث لبورسعيد أصابنا جميعًا في مقتل ما في ذلك شك.. إنما خل بالك.. ما أنت فيه الآن حالة شخصية..
فاهمني طبعًا؟».

- «هه؟!».

- «قل لي ما الحكاية بالضبط؟ صارحني».

- «صراحة يا عمي، أنا.. أحب!».

- «آا..ا..ه.. وحبيبتك من بورسعيد لا تعرف عنها شيئًا وتريد الاطمئنان على مصيرها!».

- «قلبي يوجعني.. عقلي شاتت!».

- «كيف عرفتها؟ من أين؟».

- «ظروف!.. كانت.. زميلتي في الكلية».

- «أهي شبيهة بطليقة عمرو الشماشرجي؟».

أفزعتني العبارة. نظرةٌ في عيني عمي إسماعيل أرعدتني. في عينيه دهاء رهيب رأيتني فيه صغيرًا مكشوفًا.

- «كيف عرفت يا عمي؟ أقصد: لماذا هي شبيهة بطليقة الشماشرجي بالذات؟!».

- « أحدهم شافك معها في مكان عام».

- «من الشماشرجية؟».

- «سائق رشيد بك السيسي».

- «هل تعرفه؟!».

- «كان له مصلحة في الشهر العقاري».

- «و.. ولكن.. ما مناسبة أن يقول لك هذا الكلام؟!».

- «ظن أنك خطبت وتفسّح خطيبتك!».

- «غريبة.. غريبة جدًّا.. وهل تعرف عليها؟».

- «قال إنها تشبهها، جميلة مثلها.. نفس القوام، نفس الطَّلَّة».

- «يظهر أن بنات بورسعيد يشبه بعضهن بعضا!».

- «من حقك طبعًا أن تحب! من الواضح أنه حب حقيقي متمكن منك.. وبما أن الحبيبة من بورسعيد، فإنني أشاركك الحزن والقلق على مصيرها، ولكن ليس إلى هذا الحد الصبياني! فاهمني طبعًا؟ إن الكارثة أكبر.. فاهمني؟ ليتها كانت داهية واحدة من بورسعيد، بل ليتها كانت داهية بورسعيد نفسها وحدها! فاهمني؟ مصر كلها الآن مهددة بالدمار، لن ينفعها عبد الناصر ولا عبد المتجلي! فاهمني طبعًا!».

- «فاهم يا عمي.. والله فاهم جدًّا».

- استهدَ بالله إذن وشف ماذا تستطيع أن تفعله لمصر في
هذه المحنة».

- «أنا مستعد للتطوع والسفر للقتال في بورسعيد».

- ليس مكتوبا لك القتال.. الجيش أسقط عنك واجب التجنيد لضعف بصرك».

- «يمكن أن أقاتل دون أن أحمل السلاح! أخدم الجنود
في مواقعهم».

- «أحسن شيء تفعله أن تغلق الراديو وتلبس هدومك!.. تعال نتمشى في الهواء الطلق!».

من شارع الحياتي عبرنا إلى شارع أنجا هانم، فشارع عثمان جلال. أمام مطابع محرم استوقفنا الملحن السكندري عبد الرءوف عيسى الذي يأتي من الرمل لزيارة أخيه صاحب صالون الحلاقة في شارع عرفان، كلاهما صديق لعمي إسماعيل. كان الملحن شاردًا، قال لعمي من دون أن يسأله إنه ممتلئ بلحن عارم من وحي ما يجري في بورسعيد، وهو متجه الآن إلى حي البياصة لعله يعثر في مقهى الفنانين على أحد المؤلفين يترجم له اللحن إلى كلام. تمنينا مؤلفًا على مستوى المهمة. عبرنا إلى مصنع الزجاج ثم إلى شاطئ ترعة المحمودية. انعطفنا إلى اليسار في اتجاه الملاحة. تلفتنا تلقائيًّا إلى قصر عنتر بك الشماشرجي، وجدناه غارقًا في ظلمة كئيبة زادتها الأشجار كثافة؛ كان يبدو برغم الأضواء الشاحبة المنبعثة من بعض خصاصه كأنه مهجور منذ آلاف السنين! قام في رأسي خاطر عجيب. قلت لعمي إسماعيل:

- «تصور يا عمي، منذ دخلت هذا القصر أول مرة وإلي اليوم لم أره مشرقًا في يوم من الأيام حتى وإن ازدحم بالضيوف أحيانًا.. وبرغم ارتفاع مستوى الأكل والشرب والنوم فيه، فإنه دائمًا أبدًا - والله يا عمي - كان يبدو لي أنه غاب عنه عزه ومجده ومات الأنس فيه! الأنس الذي رسمه خيالي وأنا في البلد».

- «لعلمك، هو طول عمره هكذا، حتى وهو جديد! كل قصور الشماشرجية هكذا على فكرة.. نفس الريبة والصمت كأنه ليس مسكونًا ببشر!».

- «أقمت في هذا القصر سنوات لم أر فيه حفلة واحدة.. امرأة جميلة.. ضحكة صافية.. قطعة موسيقى أو أغنية.. لا ترى لوحة على أي جدار اللهم إلا صورا فوتوغرافية عتيقة باهتة لوجوه غليظة بشوارب وأجساد ضخمة. المرات القليلة التي بلغني فيها صوت الراديو قادمًا منه بأغنية صباحية، كان يتضح لي أنه راديو الخدم في الجناح الخلفي،وكان يسكت بعد قليل!.. أعوذ بالله من هذا القصر وأمثاله!».

صرنا على مقربة من مصانع كبريت البنا، الملح من حوالينا يلمع في ضوء النيون الخافت على لافتة المصنع كالمكسوف من ضوء القمر الذي يبدو أشد كسوفًا كفص من البرتقال مهمل على طبق السحاب. توقف عمي إسماعيل وأشعل سيجارة:

- «خذها من عمك حكمة إلهية مجربة على امتداد تاريخ البشرية».

- «قل يا عمي».

- «الثراء الفاحش دائمًا أبدًا غير شريف.. غير مشروع.. فاهمني؟.. والثراء غير المشروع لا أنس فيه ولا مودة حتى وإن كان باذخًا في مصروفاته ومظاهره مسرفًا في مباذله. فاهمني طبعًا!».

- «ما السر يا عمي في رأيك؟».

- «إنه ثراء هارب من العدالة! فاهمني طبعًا! يتوقع في كل صديق طامعًا خبيثًا،وفي كل طارق عدوًّا لدودًا!.. إن جامل الصديق فإنما ليكسر عينه عن الحسد والطمع.. فاهمني؟ وإن توهم العدوان في أحد تعامل معه بأحد سلاحين

كلاهما خسيس وجبان:إما أن يخترع له مصيبة يوحله فيها، وإما أن يستشعر قوته فيحاول شراءه بأي ثمن!».

قفلنا عائدين. عبرنا الجسر المتهالك فوق ترعة المحمودية، عرجنا على حي غيط الصعيدي حيث يوجد عدد كبير من أصدقاء عمي إسماعيل يلتقون في بورصة الحاج يويو ذي الجلباب والطربوش والمظهر الجاد المتناقض تمامًا مع الاسم الذي اشتهر به. وجدناهم جميعًا حاضرين على المقهى ولكن في محزنة. شربنا الشاي معهم في صمت وقور،حيث كان من الواضح أن الجميع سئم الكلام وصاروا من قلة الحيلة والحيرة كأنهم يترقبون زحف الخطر الداهم. انصرفنا صامتين. على ناصية شارع الحياتي حياني مهرولا إلى بيته وصعدت أنا إلى شقتي لأقع تحت طائلة نوم كابوسي كاتم للأنفاس.

كان قرار تعييني قد صدر قبل حوالي عشرين يوما، ولكنني لم أبلغ به رسميًّا إلا بمحض المصادفة. كنت أكلم الإدارة المركزية في التليفون أطلب منها ورقة رسمية تفيد بأنني محرر في الجورنال لكي أرفقها بطلب عضوية نقابة الصحفيين، حولوني إلى المدير العام، فإذا به يقول لي:

- «ولماذا ورقة؟ قرار تعيينك يكفي! أرفقه بالطلب أو حتى اكتب الطلب واختمه بخاتم الجريدة ينتهي الأمر!».

- «عفوًا! حضرتك تقول: إن قرار تعييني يكفي! أين هو قرار تعييني؟ أنا لا أزال أعمل بالمكافأة!».

- «ألم يبلغوك بقرار التعيين بعد؟!».

- «نعم والله للأسف!».

- «لا بأس على كل حال. إهمال إداري!».

- «منذ متى صدر؟».

- «ما يقرب من شهر. جهزت مسوغاتك؟».

- «جاهزة».

- «ابعث بها إلينا».

كان يومًا تليق به البهجة. بحثت حواليَّ عمن يشاركني الفرحة. اكتفيت بأن تلفنت لأعمامي الثلاثة أبلغهم بالخبر، فكانت أصداء فرحتهم كافية لمسح كثير من غبار الكآبة عن صدري. مصدر الكآبة كما أدركه وكشف عنه عمي إسماعيل كان هو عمي إسماعيل نفسه! هو الذي قال هذا عن نفسه بالفم المليان، وشرح ذلك بقوله إن حديثه المتواصل معي حول متابعاته للموقف السياسي العالمي تجاه مصر المثير للتشاؤم، والإنذار السوفيتي شديد اللهجة، وصلف البلطجة الأمريكية المخططة لاحتلال المستعمرات الإنجليزية السابقة في الشرق الأوسط والمنطقة العربية بالذات بكونها مصدر الطاقة البترولية.. كل ذلك كان حديثًا مفجرًا للرعب مثيرًا للهموم، وبخاصة أن عمي إسماعيل غير راض عن السياسة الناصرية التي تقوم على تأميم الإعلام والصحافة بما يمكنها من حجب الحقائق الجوهرية وتجميل المواقف الشوهاء للحكومة. ولقد وعدني عمي إسماعيل بقفل حنكه عن أي تعليق على الأوضاع الراهنة، لكنه يعجز عن تنفيذ وعده حتى في أثناء نطقه بعبارة الوعد. سرعان ما يستدرك موضحًا بعض الأسباب أو بعض المبررات التي تفرض عليه أن يسكت، وياحبذا لو قطع لسانه طالما أن الكلام لا فائدة ترجى من ورائه في دولة لا تعنى بآراء المواطنين ولا تقيم أي وزن للمواطنين من الأساس كأن حكومة الثورة هي الحكومة والمواطنون معًا وهي الكل في الكل وليس من حق أحد أن يحاسبها على أي غلطة بسيطة، فما بالك لو كانت الغلطة جريمة في حق الوطن؟! ثم تجرفه حماسة الانفعال فينسى أنه يعد الآن بعدم الكلام:

- «شوف، نحن تلقينا خبر العدوان على بورسعيد من الراديو، وسوف نتلقى خبر رحيل العدوان من الراديو أيضًا! فاهمني؟ وأتحداك إن عرفت شيئًا عن حقيقة ما يجري الآن من مفاوضات ومساومات. فاهمني طبعًا!».

لكأنه كان لسان حال الواقع!.. فجأة هطلت علينا أغنيات حماسية مستبشرة متفائلة متفاخرة بجلاء قوات العدوان عن مصر، تتخللها نشرات أخبار تلامس سطح ما تم من اتفاقيات وتقدمه في صيغ وردية تشي بأننا انتصرنا وأن الزعيم قد خرج بسلام من المكيدة التي دبرت لكسره نهائيًّا: الله أكبر فوق كيد المعتدي.. الجنة هي بلادنا وجهنم هي حدودنا، اللي يخطيها راح يهلك فيها ويشوف الموت على إيدنا.. يا سايق الغليون عدي القنال عدي، وقبل ما تعدي خد مننا وإدي، ده اللي فحت بحر القنال جدي.. لا لن يموت الثأر في صدر وإن طال مداه.. أمانة عليك أمانة يا مسافر بورسعيد، أمانة عليك أمانة لتبوس لي كل إيد حاربت في بورسعيد. عند هذه الأغنية كنت أرفع صوت الراديو وأشعر بأن صوت المطربة الحبيبة شادية يجلد قلبي
بعذوبة حزنه.

فيما كنت سابحًا في موجات هذا اللحن أحاول ترديده بصوتي، ضحك عمي إسماعيل وهو يقلِّب سكر الشاي في البراد:

- «شفت؟ رحل العدوان عن بورسعيد. هل عرف الشعب ما الذي حدث في كواليس السياسة المصرية ليحدث ما حدث؟ هل عرف أحد شيئًا عن جزء من أراضينا يكون قد وقع في قبضة إسرائيل، في شرم الشيخ مثلًا؟ فاهمني طبعًا!.. أنا شخصيًّا متأكد أن العدوان الثلاثي على مصر لم ينته لصالحنا! افهمني جيدًا لو سمحت. المؤكد أن إسرائيل قد استفادت منه.. وضعت يدها على جزء من سيناء. الصحفيون المأجورون أتباع الحكومة الذين أخشى أن تصبح واحدًا منهم فيما بعد سواء أردت أم أبيت، لاشك في أنهم قرءوا الصحف العالمية واستمعوا إلى ال «بي بي سي» وغيرها من المحطات وعرفوا أننا مضحوك علينا في عودة السلام.. يا نيل يا شعب حر أصيل! خسارتنا في الواقع فادحة، فهل يستطيع واحد منهم أن يقول ذلك؟ فاهمني طبعًا!».

- «المهم أن السلام عاد يا عمي، وإذا...».

- «طظ في هذا السلام! ليته ما جاء!».

- «ولكن الاتحاد السوفيتي..».

- «ديك أم الاتحاد السوفيتي! نصَّاب دولي هو الآخر! ما أسخم من القرصان الأمريكي إلا الدب الروسي! نحن بالنسبة لكليهما كعكة، إما أن يأكلها أحدهما وحده وإما أن يحترق العالم!».

كنت واثقًا تمامًا في صدق ما يقول عمي إسماعيل، بل كنت أعرف كثيرا من المعلومات استقيتها مثله من الصحف والإذاعات العالمية، وكانت مصلحة الاستعلامات تبعث لنا بنشرة سرية شبه دورية بعنوان: «ممنوع من التداول» تتضمن مقتطفات مما ينشر ويذاع في الخارج وفوقها علامة إكس حمراء ومعها علامات إكس مكتوبة في صيغة تحذير من تصديق هذه «الأكاذيب» المضللة التي يروجها أعداؤنا في الخارج.. وقد فات على العقلية الضيقة التي تحرر هذه النشرات أن طعم الصدق الواضح في المقتطفات المحظورة إنما يزداد وضوحًا وحقيقية في مذاق الكذب الفج السمج الذي تنضح به صيغة الحظر.

وكانت الهوة العميقة الفاصلة بين الصدق والحقيقة فيما أصبحت أستكشفه في بلاط صاحبة الجلالة يومًا بعد يوم تزداد عمقًا حتى لقد خشيت أن أنقسم على نفسي بين رجل فاضل وصحفي ألعبان بهلوان مرن قابل للتغاضي والطرمخة والممايئة ليس مع المسئولين والحكام بل مع نفسه، حيث يتدرب الرجل الفاضل على الانحناء والتواري أحيانًا أمام الطموح الصحفي الذي جُبل على ألاَّ يهدأ أو يقنع، تمامًا مثل.. مثل.. لماذا لا أقول مثل سالم الأمير: أنا صحيح أعترف بأفضاله على حياتي وأحبه بعمق قدر حبي لمهنة الصحافة، لكن مجرد وروده على ذهني الآن عبر هذه المفاضلة العفوية لهو دليل على أني غير راض عنه تمامًا برغم حبي له.. غير راض عنه بنفس القدر الذي أصبحت أتوجس به من ارتباطي الحميم بمعشوقتي صاحبة الجلالة؟!

ربما كان عمي إسماعيل بالنسبة لي هو عضلة الضمير التي باتت تؤرقني فيما يختص بالشرف وقلة الشرف، الكرامة والانتهازية، التعفف والتدني، إلى آخر هذه الضديات التي كرست لها الثقافة العربية في إشراقها الإسلامي كمحطات رئيسة تحدد سلوك الإنسان؛ إذ حرصت هذه الثقافة على الاحتفاء بإبراز الضد لإظهار محاسن ضده، فالضد يُبرز حسنه الضد كما قال شاعرنا القديم،وبالإمعان في إظهار محاسن الأضداد يعرف الإنسان كيف يتجنب السقوط في المهاوي الفاصلة بين الضد والضد.

ها أنذا، وأنا بعد على أول درجة من سلم الترقي في بلاط صاحبة الجلالة، صرت مرعوبًا منها، أتوجس من غوايتها السحرية، أتوق بالطبع إلى الترقي في سلم التعبير عن إنسانية الإنسان، عن الوطن، عن الأمنيات والأحلام العارض للأمة، عن الشقاء العظيم الخلاق، عن النضال ضد أي طاغوت، أي تابو، أي خور وانهزام.. في نفس الوقت - على نفس السكة - أخشى أن أصبح ضخمًا مفرودًا على أربعة أعمدة وصاحب سطوة وسلطان وحرس ومال وأبهة، ولكن كل وظيفتي في الحياة أن أبرر أخطاء الحاكم وألتمس للحكومة الأعذار وأضلل الرأي العام بصفاقة منقطعة النظير إلى حد تسمية الأشياء بضدها، حيث تصير الهزيمة نصرًا والطغيان انضباطًا والجوع رغدًا والسرقة استثمارًا.. إلخ إلخ. لا! لن أكون هذا على الإطلاق!

لقد دخلت إلى الصحافة من باب الأدب، ويلوح لي أن الأدب هو مستقبلي في عالم الكتابة.. ولكن، أخشى ما أخشاه أن يقوم في مُقبِل الأيام صراع بين الأديب والصحفي يكتب فيه النصر للأخير!

شهور طويلة مضت، كل شيء فيها كان على ما يرام. استأنفت الحياة عمارها في بورسعيد، واسترد المكتب هدوءه وعادت الحياة فيه إلى إيقاعها الطبيعي دون لهاث وراء موضوعات وتغطيات عاجلة.. تزايدت قراءتي في الأدب والفلسفة بغزارة منعشة للرأس تغني قاموسي بالمفردات الجديدة الطازجة. بدأت أجد في المكتب متسعا من الوقت لتبييض مسودات كتبتها في شقتي ليلة أمس عبارة عن أقاصيص أحاكي فيها قصة « نظرة» ليوسف إدريس وقصائد من الشعر الحديث أحاكي فيها بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الشرقاوي في قصيدته « من أب مصري إلى الرئيس ترومان»، إلا أن قصيدته الجديدة « بورسعيد» التي قرأتها اليوم في مجلة الرسالة الجديدة قلبت كياني رأسا على عقب!

في ضوء قصيدة بور سعيد للشرقاوي اتضح لي أنني في محاولاتي الشعرية كنت أحوم حول طيف لولية التي ارتبطت في قلبي ببورسعيد الباسلة محاولا التعبير عن صور من العذابات الشعورية أناجي بها طيف الغائبة الحاضرة لعل طيفها يحمل إليها رسالتي القلبية العاجلة ليأتيني برد منها يطمئن فؤادي على حياتها قبل أن يلتاث.. إلا أن قصيدة الشرقاوي أشبعتني فكأنها صادرة عني، وإن كنت لا أمتلك لغة الشرقاوي البديعة السخنة ولا خياله الخصيب ومشاعره الوطنية الملتهبة.

عم جاد الساعي وضع فنجان القهوة أمامي.

- «سالم بك يسأل إن كنت مشغولا».

- «الآن لم أعد مشغولا».

هز رأسه مبتسما:

- «سأقول له».

-«انتظر يا عم جاد. سأشرب القهوة وأذهب إليه».

هز رأسه بابتسامة أوسع:

- «سأقول له أيضا».

شربت القهوة وذهبت إليه. كان في حالة استرخاء تعكس رضاء عن النفس من تلك الحالات التي تطرأ على الإنسان الواثق من نجاحه عقب استماعه إلى خبر مفرح. ضغط على زر الجرس:

- «نشرب قهوة معا».

- «لتوي شربتها».

- «اشربها معي ثانية يا أخي!».

- «يا مرحب يا مرحب!».

بعد برهة قال إن الإدارة المركزية استدعته اليوم للسفر إلى القاهرة وإنه متوجس من هذا الاستدعاء، غير أن اللهجة التي قال بها الخبر ليست تعكس أي توجس على الإطلاق، بل على العكس كانت تنضح بطعم البهجة، مما يشي بأن في الأمر مناورة ما. ثمة خبر مفرح يريد إعلانه، وفي نفس الوقت يتردد في التسرع بإعلانه.

استجبت للإثارة. قلت بلهجة ذات معنى:

- «على خيرة الله.. لعله خير بإذن الله».

- « ادع لي على كل حال».

- « دعواتي لك تفوق دعوات أمك الحاجة هنية!».

ضحك بصوت عال:

- «أعرف.. وهل يكرمني الله من فراغ؟».

- «متى ستسافر؟».

- «غدا أسلمك محتويات المكتب، وبعد غد أتوكل».

- «ولماذا تسلمني محتويات المكتب؟!».

- « من يدري؟ ربما....».

وأمسك عن البقية، لكن نظرة عينيه لخصت بقية العبارة في بوارق خاطفة تدعو للتفاؤل.

سلمني محتويات المكتب وهو في حالة من التهدج العاطفي بين الفرح والتوتر. قال إنني يجب أن أضاعف من يقظتي وجهدي لأن سفره - وأفلتت منه ابتسامة مبهجة - قد يطول بعض الشيء. اللهجة التي نطق بها عبارة «بعض الشيء» هذه أشعرتني بأنها عبارة زائدة عن الحاجة، بما يوحي أن غيابه عن المكتب ربما يكون نهائيا.. فلما فوجئت به يعطيني مفتاح مكتبه لكي أشغله في غيبته ويراجع معي ما تحتويه الملفات الإدارية ورقة ورقة، أيقنت أن سالم الأمير قد حصل على تذكرة في الدرجة الأولى في قطار صاحبة الجلالة ليبدأ محطات النجومية الحقة في هذه المهنة التي عشقها كلٌ منا بطريقته الخاصة.

وأنا أوصله مع بهيجة الوزان إلى محطة مصر حاولت استدراجه لمعرفة ما وراء سفره بالضبط ولماذا يتكتم الخبر عني لأول مرة في حياته؟ قال إنه لا يريد أن يستبق الأحداث قبل وقوعها، ولكنه قد استنبط من صيغة الاستدعاء أنهم قد يعينونه مراسلا للجورنال في بلد أجنبي لم يعرفه بعد، ثم نظر إلى بهيجة بامتنان:

- «يبدو أن الشيخ الوزان قد أوصى ابن أخته بي!».

- «من يكون ابن أخت الشيخ؟!».

- « مدير مكتب رئيس مجلس إدارة الجورنال!».

- «وهل له مثل هذا النفوذ؟!».

شوحت بهيجة بذراعها الشبيهة بصحبة الياسمين:

- «أوهووه!.. عقبال أملتك!».

قال سالم:

- «إنه قوي الشخصية جدا! هو الكل في الكل في حقيقة الأمر.. له دماغ في كل قرار يخرج من مكتب رئيس مجلس الإدارة. إنه الحاكم الفعلي للجورنال!».

- «هل كان ضابطا في الجيش؟».

- « في الصف الثاني من الضباط الأحرار!».

استدركت بهيجة:

- « لكنه صحفي من يومه .. حتى وهو ضابط كان يكتب ويترجم وينشر في الصحف من قبل قيام الثورة».

غمز سالم بعينه هامسا:

- «بيني وبينك هو من جناح علي صبري في مجلس قيادة الثورة. إنهم يجهزونه ليكون رئيس مجلس إدارة في أقرب تعديل صحفي قادم!».

- «مبروك على كل حال. إني أتوقع لك صعودا سريعا بإذن الله. وذلك يسعدني جدا لأن صعودك صعود لي في الواقع!».

- «لكني خائف من تجربة السفر مع أنها مغرية لي، خصوصا أني أجيد الإنجليزية قراءة وكتابة ومحادثة كما تعلم!.. غير أن الأمر ليس سهلا يا بهاء.. مشكلة بهيجة مثلا: هل أقدر على تركها وحدها في مصر لتباشر عملها في إعداد الماجستير؟ وهل نستطيع تدبير بعثة دراسية لها في البلد التي سأعين فيها سواء كانت واشنطن أو لندن؟».

- «يا سيدي ربك يعدلها».

علقت بهيجة بلهجة ذات معنى:

- «ألا تقول إنك لا تحب أن تسبق الأحداث؟!».

قال سالم ملوحا بأصبعه السبابة في وجهي:

- «على فكرة، بهيجة هي الأخرى في عهدتك!.. لمدة أسبوع على الأكثر أكون قد عرفت دخلي من خرجي وأطلبها للحاق بي».

وجدتني أقول صادقا:

- «أنا الذي سأكون في عهدة بهيجة! سأتصل بها دائما لأشعر بأني لا أزال مشمولا برعايتك».

وقفت مع بهيجة على الرصيف لصق شباك القطار نطلب المزيد من سلامة الوصول إلى أن تحرك القطار. كانت سيارة بهيجة الفيات الصغيرة المسماة بالقردة مركونة وراء السور الحديدي المتاخم لحي كوم الدكة.. ركبناها، وعند باب المكتب في شارع فرنسا أنزلتني وانطلقت إلى الجامعة.

بعد أيام قليلة من سفر سالم الأمير إلى القاهرة وصلتنا الأنباء المروعة؛ ذلك أن انقلابا بمعنى الكلمة قد حدث في الجورنال! عُين الأستاذ نجيب أبو الخير - ابن أخت الشيخ الوزان - رئيسا لمجلس إدارة وتحرير الجورنال، فبادر من فوره بسحب البساط من تحت أقدام مجموعة لايستهان بعددها من الكتاب والمحررين، قيل همسا واجتهادا إنهم من اليمينيين غير الموالين لسياسة الاتحاد السوفيتي التي يخلص لها وينتهجها علي صبري، ثم قيل: بل لأنهم من الموالين لعبد الناصر، ثم قيل إن للمشير عبد الحكيم عامر يدًا فاعلة فيما حدث. كلها محض شائعات تهامس بها المحررون والمصورون والموظفون، بل تهامس بها وجوه من المجتمع السكندري، لكن عدم وضوح الرؤية كما قال عمي إسماعيل هو أكبر مزرعة للشائعات، وما دامت الصحافة قد سرقتها الحكومة من أصحابها ومن الشعب وسلمتها للضباط، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يحدث مثل هذا «العكّ».. ثم دعك عقب السيجارة في المطفأة وأشعل غيرها بحماسة وسرعة قبل أن يضيع خيط الكلام من ذهنه:

- «للجيش زعيم، وللاتحاد الاشتراكي زعيم، ولمجلس الأمة زعيم، ورئيس الوزراء زعيم، ورئيس الدولة زعيم! كل زعيم يحسد الآخر على حجم صوره المنشورة في الصحف فيمسك له جريدة تسبح بحمده! فاهمني طبعا! كثر الزعماء حتى أصبحنا نشتهي الحرية! إتفوه عليكِ بلد معرصة!».

- «أعصابك يا عمي.. لا داعي للانفعال».

- «يا أخي أنا أريد أن أفهم، أهي تكية ورثها عن أبيه؟! هؤلاء الكتاب والمحررون الذين منعهم من الكتابة، ألم يخطر بباله أن لهم قراء يسألون عنهم؟ فاهمني؟ إنه يهزأ بالقراء وبالناس.. وبالصحافة.. يا راجل بلا خوتة دماغ ! ربنا يولي من يصلح».

ثم ضحك ساخرا من نفسه؛ إذ إنه من أشد الساخطين على هذه العبارة بالذات ولا يطيق أن يسمعها من أحد لأنها في رأيه تعني منتهى السلبية الحقيرة. بعد نفَسين اثنين من السيجارة استطرد إلى الخوتة التي رفضها منذ هنيهة:

- «صديقك سالم الأمير مثلا.. صحفي نابه أي نعم.. موهوب؟ طبعا موهوب.. لكن أن يقفز مرة واحدة من مدير مكتب إقليمي إلى مساعد مدير التحرير، فهذا.. اسمح لي.. كثير! أنت فاهمني طبعا؟ هناك بلا شك عشرات من الموهوبين مثله وأصحاب أقدمية وخدمة في الجورنال كانوا أحق بهذا المنصب، وبخاصة أنهم مدربون على السمع والطاعة ويجيدون الرقص في الزفة! فاهمني؟ اكتب كذا يكتب.. اسكت يسكت .. خذ مرتبك من جنب الحائط كالشحاذ وعد إلى بيتك فاسترح فيه، يفعل.. كل ذلك من انتشار آفة أهل الثقة المفضلين على أهل الخبرة.. ومن الواضح طبعا أن صديقك سالم الأمير من أهل الثقة.. ولكن.. يا خوفي من...».

- «أرجوك يا عمي لاتكمل! كفاك تعذيبا لي! أنا لن أكون سالم الأمير ولست أستطيع.. تلك موهبة لم يمن الله بها عليّ. أنا دخلت الصحافة لكي أجد مكانا أنشر فيه ما سأكتبه من أدب. فاهمني طبعا يا عمي!».

ابتسم من إتقاني في تقليد لهجته، ثم هب واقفا يشوح بحركة استفزازية:

- «طيب.. نحن في انتظار توفيق الحكيم الجديد!».

يومها كان يزورني في المكتب لأول مرة. كنت فرحا بزيارته، ولكني ما لبثت حتى انزعجت من علو صوته الذي لا يعرف الهمس عند الكلام كأنه يحاضر أو يناقش في ندوة حامية. فكرت في عبارة لبقة ألفت بها نظره إلى أن آراءه هذه بصوتها المدوي قد تسبب لي بعض المتاعب، وبخاصة أنه يعلم جيدا أننا نعيش في مجتمع نصفه من المخبرين على النصف الآخر إلا أنني سرعان ما تبينت عدم جدوى ذلك لأن رخامة صوت عمي إسماعيل بالذات جزء أصيل في شخصيته، فانتويت أن أحدّ من مجيئه إلى المكتب قدر الإمكان. العجيب أنه أدرك ذلك من تلقاء نفسه؛ إذ خبط بكفيه على ركبتيه وعدل نظارته الطبية البيرسول فوق أنفه:

- «يظهر أنني يجب أن أمشي من هنا قبل أن أتسبب في رفتك أو دخولك السجن!».

ثم وقف معلقا عوجاية عصاه الأبنوس في ذراعه لكي يصافحني بيديه الاثنتين، ثم ضغطني لأجلس رافضا أن أوصله إلى الباب.

سبحانك يا مدبر الأمور بحكمتك! لقد انصرف عمي إسماعيل في الوقت المناسب تماما. كنت أريد الاختلاء بنفسي

لأعالج في نفسي وجعا غامضا لاعقار يداويه إلا الكتابة؛ فبالكتابة وحدها أستطيع الغوص في داخلي لفرز مشاعري لاجتثاث ما ذبل من أعوادها حتى لاتتلف غيرها. هي كتابة لا أستطيع وضعها في خانة أي جنس من الأجناس الأدبية، لكنني أشعر بأنها أدب صرف، كما أنني كنت في اشتياق إلى التدخين، وهذا ما يستحيل عمله أمام عمي حتى وإن كان هو مدخنة. استدرت لأضبط الراديو على موسيقى أو غناء خافت. برق يختطف بصري في ومضة أرعدتني، أشعرتني بوجود سالم الأمير في الغرفة. تلفتُّ حواليَّ كالملتاث، عادت نظراتي إلى موقع البرق الخاطف. يا ربي.. لقد نسي سالم الأمير علبة سجائره الفضية ومن فوقها القداحة البيضاء المبططة. كيف لم يسأل عنها إلى الآن؟ رفعتهما من فوق الراديو، أشعلت سيجارة باستمتاع، وباستمتاع أكبر قررت أن تكون العلبة بالقداحة ملكا لي إلى الأبد وليخبط سالم رأسه في الحائط.

تشنجت يدي على القلم الحائر المتوتر في البحث عن عبارة البداية، أول الخيط.. ولكن بحر الشعور مضطرب تتلاطم أمواجه العالية كالأبيض المتوسط في نوة عاصفة. عبثا أحاول الإمساك بشعور محدد فأسلس قيادي له. ترفعني موجة إلى علو شاهق ثم ما تلبث حتى تلقي بي في قاع سحيق. أخيرا وضعت القلم وأشعلت سيجارة أخرى، ثم أمسكت بالقلم ورحت أرسم دوائر وأملؤها بأعين وشوارب وأشخبطها، بعصبية أنزع الورقة وأكورها وأرمي بها في سلة المهملات. حقا إن الكتابة - الكتابة الحقيقية لا شغل الصحافة - ليست سهلة على الإطلاق، حتى وإن كان لديك ما يصلح للكتابة!

نقر خفيف على الباب.

- «ادخل».

اقترب عم جاد بوجهه البشوش إلى حد مستلفت للنظر:

- «ست هانم تسأل عن حضرتك».

- «ست هانم؟ ما اسمها؟».

- «لم تقل».

- «هاتها يا عم جاد!».

هرول إلى الباب، دفعه للوراء وبحماسة:

- «تفضلي يا ست هانم».

البهاء يدخل مشرقا، مشخصا في أنثى ترتدي ثوبا خفيفا مختصر الكمين والطول والعرض.. لكأنه مجرد قميص منزلي بسيط إلا أنه شديد الاحترام، الجسد الذي يرتديه أضفى عليه الاحترام.. رأسها ملفوف بإيشارب حريري مشجر بألوان من مشتقات البنفسجي، في قدميها صندل بسيط، تتدلى من كتفها حقيبة نسائية سوداء من جلد الماعز أشبه بالمخلاة تتدلى منها رزمة جرائد ومجلات وبعض معلبات غذائية، وجهها الوردي غير ملوث بأي مساحيق، بشرته تنضح بالنضارة والطزاجة والحيوية، عطرها الفواح أدار رأسي، لولاه ماعرفتها. تسارعت دقات قلبي، انتفضت واقفا:

- «لولية؟!».

اندفعت إليها بلهفة عارمة، احتويتها بقوة، صوت بكائي يتكسر على كتفيها. رفعتها عن الأرض، أجلستها على الفوتي الجلدي، جلسْت قبالتها ممسكا بيديها:

- «لولية! روحي رُدت إليّ. أين كنت؟ أقصد في أثناء الحرب. هل أنتم بخير؟ ما هذه المفاجأة المذهلة يا لولية؟ ياه! أنا غير مصدق! هل أنت قادمة من بور سعيد؟».

- « أنا حاليا في الإسكندرية في شقتي، معي أمي وعربي أخي».

- «ولكن الشقة مؤجرة بالجدك لسكرتير عام المحافظة!.. أنا طلبتك فيها وعلمت».

- « سلمها لنا في الحال وبحث عن شقة أخرى».

- «منذ متى؟».

- «من ثاني يوم للعدوان. فرق المقاومة نجحت في تهجيرنا.. تهجير الحريم فحسب، بطرق غريبة تبعد عن مجالات القصف. رحلة قدومنا إلى الإسكندرية تصلح رواية لوحدها!».

- «حدثيني بالتفصيل الممل إن أحببت».

- «تركنا بيوتنا أنقاضا بمعنى الكلمة! الهول كله رأيته مركزا في منظر واحد ونحن نتسلل في غبشة الفجر حاملين صرر الثياب.طلع الصبح علينا ونحن مارون بآخر مساكن الضواحي، شاهدنا بقايا جدران عمارة منهارة: سرير طفل منكفئ ومحشور في بقايا ركن، والطفل الذي لا يزيد عمره على سنتين يتدلى في الفراغ كخرقة يطوحها الهواء، لا يمنعه من السقوط من الطابق الخامس إلا قدمه المحشورة بين أسياخ الحديد المعجونة بعضها في بعض!».

دخل عم جاد بكوبين من الليمون، وضعهما أمامنا ثم انصرف.

- « ولماذا لم تتصلي بي ما دمت في الإسكندرية؟!».

رمقتني بنظرة احتجاج ثاقبة وهي ترشف الليمون:

- «من الذي كان يجب أن يتصل بمن؟!».

غرقتُ في الخجل!

- «كان من الصعب أن أسافر بورسعيد!».

- «ما علينا».

- «المهم أني رأيتك بعد يأس وعذاب».

- «مبروك استقرارك في العمل».

- «استقراري يبدأ من هذه اللحظة».

- «قل لي.. ما أخبار حمادة الشماشرجي عندك؟».

خبطت جبهتي براحة يدي:

- «ياااه.. تصوري أنني نجحت في نسيانه كأن لم يكن! جسمي يقشعر الآن قرفا من ذكره».

- «لا تعرف أي أخبار عنه؟!».

- «إطلاقا».

- «تحب أن تسمع آخر أخباره؟ باعتبارك صحفيا على الأقل!».

- «يظهر أن وراءه أخبارا مزعجة!».

- « راشيل هانم الشيطانة خافت من غضب الناس على إسرائيل واليهود.. خلصت كل أمورها، خلعت رجليها من أرض مصر، أخذت ابنها وزوجة أخيها وهاجروا إلى غير رجعة إن شاء الله».

أفزعني الخبر:

- «متى؟!».

- « من حوالي أسبوعين. يهود كثيرون من القاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية وبورسعيد ودمياط هاجروا».

- «هذا خبر نشرته الصحف. ولكن أن يهاجر حمادة هو الآخر فهذا ما لم أتوقعه!».

- «كلهم كانوا يجهزون أنفسهم للهجرة من وقت طويل».

- «وحد علمي أن الحكومة لم تطلب منهم الرحيل».

- « لكنها سهلته لهم!».

- « سأقول لك خبرًا سوف يدهشك يا لولية»..

- «عرفته».

- «ماهو إذن؟».

- «زواج قنطار اللحم من راشيل؟».

- « أنت إذن لم تكوني بعيدة عنا!».

- «كل هذا عرفته من يومين اثنين!».

- «هل قابلت قنطار اللحم ؟!».

شوحت بذراعيها في حركة تفجع مسرحي:

- «على قنطار اللحم والذي جرى له!».

- «ماذا جرى يا ترى؟!».

- «راشيل قبل أن تغادر دبسته في قضية! انتقمت الفاجرة من الشماشرجية كلهم في قنطار اللحم.. دبرت للرحيل على الهادئ.. باعت حصتها وحصة ابنها لرشيد بك وعنتر بك وقبضت ثمنا تعرف أنها مضحوك عليها فيه، لكنها قبضته في الحال عدًّا ونقدا. قنطار اللحم كان يبيت عندها في شقتها.. أقنعته بأن يشتري الشقة بتراب الفلوس، فاستدان من البنك واشتراها، وخاف أن ترجع في كلامها فسجلت له عقد البيع في الشهر العقاري! عاشت باعتبارها زوجته!..

«حضرته كان يأكل الأرز باللبن مع الملائكة في حجرة نومها .. المسكين مستغرق في النوم لايعلم أن الشيطانة نقلت شحنة مخدرات وأسلحة من شقة الإبراهيمية إلى شقتها وخزنتها تحت السرير الذي ينام فوقه!.. سفَّرت ابنها قبلها بأسبوع.. وأول أمس في الفجر ركبت السفينة المسافرة إلى نابولي، لكنها قبل المغادرة أبلغت النيابة العامة عن مهرب خطير يخفي تحت سريره بلوي مسيَّحة!..

«قبل الظهر كان البوليس يهاجم شقة الإسكندراني وينتشل قنطار اللحم من بحر النوم ليفتش تحت سريره.. حرزوا المضبوطات وقبضوا عليه فسقط على الأرض يصرخ. أصابه شلل نصفي! انعوج حنكه وتعطل لسانه، فنقلوه إلى المستشفى تحت حراسة مشددة، وأصدر النائب العام قرارا بحبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق في انتظار أن يصبح قادرا على الكلام. شفت الفاجرة بنت الفاجرة؟ شفت الغدر يا بهاء؟! الرجل صعبان عليَّ جدا برغم نذالته! قلبي وجعني من أجله رغم أني لست أطيق سيرته!».

أنا الآخر وجعني قلبي، غرقت في الحيرة والارتباك، ساءلت نفسي: هل يمكنني مساعدته على النجاة من هذه المصيبة؟ فكرت في الاستعانة بسالم الأمير، لكنني أحجمت في الحال دونما سبب واضح. فكرت في بهيجة الوزان وأقاربها ذوي الكعوب العالية، سرعان ما أحجمت أيضا.

على أن الرعب داهمني فجأة إذ فطنت إلى أنه سيصبح مطلوبا مني تغطية هذا الخبر الذي يعتبر حدثا خطيرا في ثغر الإسكندرية . ياله من مأزق رهيب! هل ستواتيني الشجاعة والجرأة على نقل تفاصيل الحدث بأمانة صحفية؟ ربما أكون - واقعيا - أنسب وربما أنجح من يكتب في مثل هذا الحدث بحكم قربي من شخصياته، لكن المؤسف - وتلك مصيبة أخرى - أنني كان من الممكن أن أكون الآن طرفا أصيلا في هذه الجريمة النكراء فبأي شجاعة أكتب فيها؟ وهل ستطاوعني العاطفة التي ربطت بيني وبين الشماشرجية رغم احتقاري لهم حاليا - في وصفهم بالمتهمين أو المجرمين؟ الحقيقة أنني قد أكون على استعداد لتحدي هذه العاطفة، ولكنني لست مستعدا لاحتمال الصدمة التي لاشك ستشرخ قلب أبي وتقهره مدى الحياة! وأين أهرب أنا وعائلتي من أحقاد ثلاثة أرباع بلدتنا؟!.. فاللهم ألهمني الصواب.

- «إيه؟ مالك؟ زعلت على قنطار اللحم أنت أيضا؟».

ورمقتني بنظرة باسمة تهدف إلى التخفيف عني، إلا أنني سرعان ما انتبهت:

- «ولكن يا لولية.. نسيت أن أسألك: كيف علمت بكل هذه التفاصيل بهذه السرعة؟».

تعكر صفو عينيها، تجهمت:

- « أخي عربي جاءت رجله في محاضر الشرطة. أخذوه البارحة وسألوه عن علاقته بعمرو، فقال لهم: كان زوج شقيقتي. وعن علاقته براشيل؟ قال: لا أعرفها! قالوا: إن التحريات - وهم يقصدون من بلغهم بالطبع - تتهمك بأنك الوسيط بين عمرو الشماشرجي والمهربين في القنطرة شرق. قال لهم عربي: لا علم لي بشيء من هذا.سألوه:هل تعتقد أن عمرو يمكن أن يعمل في التهريب؟ قال: إنه من عائلة كبيرة غنية وليس يحتاج لهذه البهدلة.. سألوه:ما تفسيرك لوجود هذه الممنوعات تحت سريره؟ قال: لا تفسير عندي سوى أنها مدسوسة عليه، ولماذا لاتكون تخص صاحبة الشقة التي وجدوا عَمْرًا نائما فيها؟! قالوا: لقد اشتراها منها بعفشها منذ أكثر من شهر!.. المحامي الذي أخذته معي كان شاطرا؛ خلص عربي من الحجز على أنه لا دليل ولا حتى مجرد شبهة تدينه! أفرجوا عنه من سراي النيابة بضمان عنوان سكنه. ذهب عربي ليطمئن مامي وجئت أنا إلى هنا لكي أبلغك الأخبار وأبلغك بالمرة أن شقة الإبراهيمية عادت إليّ فإن كنت تريدها...».

- « عادت بعد فوات الأوان! أنا الآن في شقة كبيرة في عمارة في محرم بك. مع ذلك لا بأس.. نعم أحتاجها.. سنتكلم في هذا الموضوع في وقت آخر».

- « تذكرت شيئا يخيفني».

- «قولي».

مالت نحوي، مطت رقبتها، فقربت رأسي من رأسها، فهمست بدفء وشفافية:

- « أخي عربي.. دائما أبدا أخي عربي!».

- «ما له؟!».

- «ذات مرة، من حوالي شهر، قال لي دون مناسبة إنه آن الأوان لينتقم لي من قنطار اللحم.. أنا بصراحة خفت ساعتها! تعفرتّ، نبهت عليه بأنه لا شأن له بقنطار اللحم، لكن...».

ثم أطلقت زفرة واربد وجهها وبدت عاجزة عن تكملة ما كانت تريد قوله. أنا الآخر انزعجت:

- «ماذا يكون قد فعل في رأيك؟!».

- «لا أدري بالضبط، ولكن.. قلبي يحدثني بأنه اشترك مع راشيل في تدبير ما حدث!».

شهقت ثم قطمت شهقتي:

- «ممكن؟!».

- «ممكن جدا.. إنه ولد مخه طاقق! أخي وأنا أعرفه؛ يموت في النساء اللبؤات مثل راشيل.. وهي لا تتوصى!.. لماذا لا تكون ضحكت عليه وأعطته لحسة من طبقها لحست بها عقله فدبر لها الخطة؟!».

- « تتصورين؟!».

- «أقطع ذراعي إن ما كانت الحكاية هكذا!.. إن عملية نقل البضاعة من شقة الإبراهيمية إلى شقة راشيل عملية صعبة لا يقوم بها إلا ولد مدقدق مثل عربي!».

- « هل كان له علاقة براشيل تسمح بـ ..».

- « من يوم ما كشفناهم أصبح هو ذراعها اليمين!.. أنا كنت أراقبه، وكانت سيرتها دائما على لسانه، ويتلقى تليفونات منها باسم مستعار!»

- « تعلم أنكِ صرتِ عدوتها وتصادق أخاك؟!».

- «هكذا الفجار دائما!».

- «أنا لا أستبعد».

- «هو لا خوف عليه من القضية طالما أن الفاجرة ليست هنا وليس لها وجود في القضية. لكن المشكلة تخصني. ماذا أفعل لو تأكدت أنه شارك في هذه المؤامرة؟! لا أقل من أن يتغير خاطري من ناحيته، وقد أكرهه رغم أني أحبه كابني! إنما أنا لا أحب الغدر أبدا وأكره الغدارين.. يا ربي!.. دبرني يا بهاء ماذا أفعل لإصلاح هذا الولد؟!»...

- «التدابير لله. لا تشغلي بالك الآن! غدًا يلهمنا الله الصواب
بإذن الله».

هبت واقفة:

- « سرقني الوقت!».

انخطف قلبي:

- «ستتركينني؟!».

- « مضطرة!»..

- « أنا لم أصدق بعد أنك معي».

- «إذن.. سأنتظرك بعد ساعتين من الآن».

- «أين؟».

- «عندي».

- «في شقتك؟!».

- «أنت معزوم على الغداء اليوم. سأعرّفك على مامي.. أم أنك مشغول؟».

- « حتى لو كنت مشغولا.. سأجيء».

وهل كان بوسعي التفريط في هذه الفرصة؟ هل بوسع الأرض الشرقانة أن تحجب نفسها عن الغيث إذا الغيث هَمَى؟

السيدة نجفة أم لولية استقبلتني على الباب بحفاوة كبيرة، كانت تكاد تكون صورة طبق الأصل من الأميرة نفرتاري المنقوشة صورتها على جدران معبدها: الطرحة البيضاء تحيط بوجهها الوردي وتسخو على كتفيها على الطريقة الفرعونية في غطاء الرأس، حيث تظهر على الجبين من تحت الطرحة حافة المنديل الحريري القرمزي المشغول بالفل والترتر في وحدات تشكيلية دقيقة الحجم لطيفة مريحة الألوان. كانت أشد جاذبية من لولية لدرجة أنني دون وعي ارتميت في حضنها وهي تصافحني بيدها الدافئة وقد وقر في مشاعري أن هذا الحضن هو مسكني الأبدي وما لولية إلا جناح خاص منه لي. مشت أمامي في الردهة، فإذا هي مرتدية ثوبا كاسيا حتى الكاحلين من قماشة ثمينة جدا، ثم توقفت واستدارت ناظرة لي فكأن الشمس تشرق من عينيها متكئة على ثغرها الباسم. أشارت لي إلى الممر الداخلي هامسة برقة:

- «آخر الطرقة على اليسار.. تعرف هذه الغرفة طبعا!».

- «مرة واحدة!».

مشيت على استحياء. كان عربي واقفا في انتظاري فاتحا ذراعيه:

- «مسائين وحتة!»..

تعانقنا. سحبني بذراعه المخشوشنة قائلا بلهجة أمر خفيفة
الظل جدا:

- «اخلع نعليك إنك ستجلس على الشلت المقدسة طوى! ولو أني لا أعرف ما معنى كلمة طوى هذه، لكن لها علينا الاحترام طبعا!.. أمال يا جدع.. ما في أحلى من قعدة الأرض.. ويا عيني على الطبلية.. سفرة إيه وبتاع إيه يا بن عمي؟! أنت طبعا فلاح وذايق حلاوة الطبلية!».

- «طبعا يا عربي.. من فات قديمه تاه!».

تربعت، لكن عربي هتف فجأة:

- « لحظة واحدة.. متأسفون يا بن عمي! فاتتني هذه».

ثم هب واقفا، قفز إلى الشرفة المطلة على ترام الرمل، حود يسارا، توقف صائحا:

- «القلوب عند بعضها. يا سلام عليك يا مامي! بس أنا برضه واد عترة.. كنت جاي أعمل اللي انتِ عملتيه».

سمعت ضحكة أمه الخافتة. ظهر عربي ممسكا بجلباب من جلابيبه. اقترب صائحا:

- «اقلع الهيصة دي عدم المؤاخذة! قصدي يعني الجاكت والقميص.. اقلع بَدَل ما أجيب لك البوليس يقلعك!..».

ثم ضحك بصوت منطلق كالدهل الذكي:

- «ولو أن البوليس بيلبس لبس كده والعياذ بالله!.. حلو كده؟.. البس الجلابية وبعدين اقلع البنطلون! تمام كده».

أخذ بدلتي وقميصي وعلقهما في مشجب خشبي في ركن الغرفة على شكل شجرة متفرعة.

ظهر قوس من دائرة قرص الطبلية يفر ببطء على أرضية الشرفة، لحق به عربي وتلقفه، ثم سحب الطبلية كلها فإذا هي عريضة جدًّا. ثبتها أمامي، ثم تحول إلى مكوك بين الشرفة والطبلية ينقل أطباقًا وسلطانيات شوربة، وفي لمح البصر امتلأ قرص الطبلية بكل ما لذ وطاب، ثم ظهرت الملكة ومن ورائها الأميرة. القسمة كانت متوازنة: رجلان في جانب، أمامهما امرأتان في الجانب المقابل، كل واحدة تكفلت بواحد، الأم تكفلت بي ولولية تكفلت بعربي كلٌّ منهما تفصص وترمي على تخوم ملعقتينا. الأكل كان شهيًّا إلى حد لا يوصف.

رأيت نفسي في عيني الأم ابنها الذي كانت فقدته وها هو ذا قد عاد إليها في شخصي. كان من الواضح أن لولية كلمتها عني كثيرًا، أما عربي فإنني قد أحببت نزقه، وبرغم الصورة السيئة التي كونتها عنه، استشعرت فيه روح الأخوة من أول وهلة.

انفردت به بعد الغداء مع أدوار لا تنتهي من الشاي الفلاحي الثقيل المطبوخ على السبرتاية، وسجائر الحشيش التي يبرع هو في برمها ولفها بدربة وسرعة هائلتين. استدرجته في الحديث الأخوي الدافئ، أذهلني بتصريحاته التي أزعجتني بنزقها أول الأمر، ثم سرعان ما تبينت أنه ولد واعر غويط، وأن هذا النزق المخلوط بالهبل مجرد قشرة سميكة تؤكد أنه بالفعل ماء من تحت تبن على رأي المأثور الشعبي! لقد اعترف لي دون مواربة أنه هو المدبر والمنفذ للكارثة التي لبسها عمرو الشماشرجي، وأنه ليس نادمًا على الإطلاق، بل إنه فعلها بلذة ومزاج ليشفي غليله انتقامًا من الشماشرجية عمومًا ومن قنطار اللحم بالذات: من الشماشرجية لأن أخاه المرحوم ياسين مات في عملية لصالح الحاج مصطفى ولم يعوضوهم بمليم واحد.. ومن عمرو بالذات لأسباب كثيرة، منها أنه خدع أمه وأكل من عمر أخته سنوات صباها وأهانها، ومنها أنه أكل عليه حقوق عمليات كثيرة لم يعطه من حسابها سوى العربون، ولم يكن ليدقق معه وهو زوج أخته.. أما وقد طلق أخته فعلام يجامله؟

وكان عربي يتعشم أن استمرار العمليات سيتيح له أن يأخذ حقه ذات لحظة بصنعة لطافة، ولكن عقله باظ وأعصابه شاطت حينما عرف من أخته أن الأسلحة والذخائر التي تسرقها عصابات العيال من معسكرات الجيش ويقوم عربي بتجميعها منهم بتراب الفلوس يقوم عمرو وراشيل بإرسالها في السر إلى يهود إسرائيل ليقتلوا بها إخوتنا الفلسطينيين المسلمين، فقرر أن يخرب بيته بأي شكل! فما صدق أن شاف نية الغدر في عيني راشيل حتى شجعها وساعدها، وكان ينوي ضربها هي الأخرى لولا أنها رحلت في ستين داهية.

وعلى كل حال لقد ضرب عَمْرًا وأخذ كراء يديه، أعطته راشيل مبلغًا لا بأس به لكنه لم يكتف، فعزمته على نفسها في شقة الإبراهيمية أسبوعًا بحاله... ثم وهو ينقل البضاعة من شقة الإبراهيمية إلى شقة شارع الإسكندراني صعبت عليه البضاعة أن تفوز بها الحكومة، فأخفى أكثر من نصفها ليبيعه لحسابه ووضع الباقي تحت سرير عمرو، وأصر على أن يودع راشيل حتى باب السفينة، طلع معها إلى ظهر السفينة وزنقها في دورة المياه وخلص معها على الواقف في السريع، وكان في الواقع يريد أن يخنقها ويرمي بها في البحر لولا أنه خاف من شيئين: تلويث البحر وتنجيسه، ودخوله السجن. ثم إنه نزل من السفينة إلى الميناء فالخلاء فأقرب كشك سجاير، ومن تليفونه طلب رئيس نيابة محرم بك وأبلغه بالخبر، ثم اتكل على الله عائدًا إلى بورسعيد!

فعلًا لقد صدقت لولية، إن أخاها عربي نبتة برية حوشية! لعله موروث الجينات من عالم جده الحاج عبد السلام الخطري المملوء بالمخاطرات وبالقسوة إلى حد النذالة أحيانًا، لكنني مع ذلك لم أخف منه؛ فهو قابل للاستئناس بسهولة! لقد أخذت على عاتقي هذه المهمة وإن أشفقت على نفسي من صعوبتها؛ فأنا من أشد المؤمنين بصدق الحقيقة الإنسانية التي يحتويها مأثورنا الشعبي الدارج: «عشان الورد ينسقي العُلّيق» (أي الشوك)، بل إن الشاعر حسين السيد عكس المعنى في أغنيته لمحمد عبد الوهاب: علشان الشوك اللي في الورد باحب الورد! وهكذا سأغدق على عربي كل ما في وسعي من عاطفة إكرامًا لحبيبة القلب لولية، وتقديرًا وامتنانًا لأم لولية.

كان لا بد أن أرد العزومة في أسرع وقت. ولما كان عمي إسماعيل معزومًا من تلقاء نفسه أردت أو لم أرد، لذا فقد وجب عليّ أن أستمع لنصيحته بأن أعزم على الأقل عمي عوض طالما أني أخطط لزواج من ابنة هذه الأسرة التي سأعزمها ،ولنترك عمي صلاح في شغله لعزومة أخرى قادمة، ثم سألني عمن سيطبخ ويجهز السفرة؟ قلت له إنها ليست عزومة بالمعنى الذي يتصوره، إنما هي قعدة للتعارف ليست تحتاج إلا إلى مأكولات ناشفة جاهزة سوف أستقضيها بمعرفتي.

الحقيقة أن لولية قد نبهت عليّ بألاّ أفعل شيئًا إلا بعد حضورهم لتتصرف هي بمعرفتها مع وعد قاطع بأنها لن تحضر معها أي شيء. وقد كان؛ وقفت في الشرفة المطلة على شارعي الحياتي وعرفان أترقب وصولهم طبقًا للوصفة الدقيقة التي رسمتها لهم على الورق. فعلًا لم تخطئ لولية بل لم تتوقف لتسأل! زحفت سيارتها المميزة الشكل ثم تباطأت قليلًا على ناصية عرفان ثم حودت يمينًا إلى شارع الحياتي لتتوقف بحذاء الرصيف بعد خطوات معدودة، ثم نزل ثلاثتهم ولوحوا لي بالتحية، فهرعت لاستقبالهم على السلم.

الابتهاج بالشقة وبموقعها وجوّها اللطيف كان واضحًا عليهم. صافحهم كلٌّ من عمي إسماعيل وعمي عوض بترحاب حار. فيما كان عمي إسماعيل يطبخ الشاي على السبرتاية فوق ترابيزة الأنتريه وعمي عوض يتبادل الدردشة مع الحاجة نجفة وابنها عربي عن شجاعة أبناء بورسعيد الباسلة، كانت لولية تنتقل معي بين غرف الشقة وتبدي إعجابها وابتهاجها بكل شيء فيها، فلما دخلنا غرفة النوم رأيتها تفتح الدولاب وتمرر يدها بين ملابسي تتحسس جيوبها إلى أن اصطدمت بمحفظة النقود فأخرجتها، وبكل بساطة فتحتها، سحبت منها ورقة بخمسة جنيهات دستها في صدرها ثم أعادت المحفظة إلى مكانها. خرجت متجهة إلى المطبخ، فتحت أدراج وأبواب النملية واطمأنت إلى وجود حلل وأطباق وملاعق وشوك وسكاكين، ابتسمت، عرجت على الردهة:

- «أستأذنكم في خمس دقائق».

واتجهت إلى باب الشقة ففتحته ثم استدركت:

- «تعالَ معي يا عربي».

قال عمي عوض في دهشة:

- «على فين يا ست هانم؟».

- «مشوار قصير هنا حول البيت».

قال عمي إسماعيل في قليل من الحرج:

- «إذا كنت تريدين شيئًا نبعث من يشتريه لك».

تمددت الابتسامة الدمثة على ثغرها:

- «سأعود حالًا».

سحبت عربي ونزلا. نظر لي كل من العميْن نظرات تفيض بأسئلة غامضة. لقد حدست ماذا ستفعل، إلا أن الحاجة نجفة أعفتني من الشرح، إذ راحت تحكي عن بورسعيد أشياء يشيب لها الطفل جعلت عمي عوض على وشك البكاء من فرط التأثر، في حين راح عمي إسماعيل يصفق كفا على كف لاعنًا أبا الإذاعة والصحافة لأنهما لم ينقلا إلى الناس هذه المآسي ليضربا عصفورين بحجر واحد: يبرزون صور التضحية فيتعمق الإحساس بالوطن في قلوب الناس، وفي نفس الوقت يفضحون سفالة العدو ومدى إجرامه. استغرقتنا الحالة تمامًا لدرجة أننا لم نلحظ عودة لولية وعربي إلا بعد أن فاحت رائحة الطعام وهو ينضج على النار.

بعد الغداء غمزني عمي عوض بنظرة بليغة تعني رضاءه التام عن هذه الأسرة المحترمة النظيفة، كل هذا عبَّر عنه بنظرته وبتضاريس وجهه. على حوض الغسيل نشف عمي إسماعيل يديه بالفوطة ورمقني بنظرة فيها من الحسد أضعاف ما فيها من إعجاب واستحسان، وأضاف بهمهمة:

- «فعلًا يا ولد، كنت محقًّا في انشغالك. هذه هانم بمعنى الكلمة.. سيدة محترمة جدًّا يا عكروت، ومثقفة حقًّا.. فرنسيتها أفحمتني. على بركة الله.. هل تريدني أن أقنع أباك بها؟ فاهمني؟ ثم إن عمك عوضًا يبدو مبسوطًا».

- «أرجوك يا عمي.. الموضوع حتى الآن مجرد صداقة.. إننا حتى لم نتكلم في أي شيء لا بالتصريح ولا بالتلميح!».

- «واضح أنها ميالة».

- «لعل وعسى!».

- «ولكن.. ذاكرتي توجعني! فاهمني؟ لا أذكر متى رأيت هذا الوجه من قبل. عمك عوض أيضًا قال لي على جنب إنه يشعر كأنه يعرفها من قبل معرفة جيدة!».

الرعشة تسري في ساقي؛ ذلك أنني - ربما لأول مرة في حياتي - كذبت على عمي إسماعيل وعمي عوض إذ قلت لهما إنها فتاة عذراء لم تتزوج من قبل! الآن أخشى أن يتذكرها أحدهما وهي عروس ليلة زفافها على عمرو الشماشرجي فتكون الكارثة ويفشل موضوع الزواج من أساسه قبل أن يبدأ،ناهيك عن الفضيحة التي يمكن أن تترتب على معرفة أبي بالحقيقة لأن أبي إذا غضب يفقد السيطرة على لسانه. قلت لعمي إسماعيل:

- «ميزة هذه الفتاة يا عمي أن شكلها مصري جدًّا ومألوف جدًّا ويشبه فتيات كثيرات».

- «ربما.. ربما».

لكنه بعد أن تركني ومشى إلى الصالة ارتد عائدًا باهتمام مفاجئ، وكنت منحنيًّا على الحوض أغسل فمي، فمال برأسه على رأسي:

- «ما هذا الذي حدث لعمرو الشماشرجي؟! أكيد عندك شيء من التفاصيل باعتبارك صحفيًّا!».

ارتج قلبي! هل ربط عقل عمي بين وجه لولية وعمرو الشماشرجي؟ أم أنه تذكره بحكم انتشار خبر محنته في حي محرم بك؟!.. تلكأت قليلًا في المضمضة، ثم تلقفت الخيط منه واستدركت:

- «بالمناسبة يا عمي، أريد أن آخذ رأيك في شيء نويت أن أفعله بخصوص عمرو الشماشرجي».

طرطق أذنيه مصغيًا بانتباه عظيم رافعًا حاجبيه فوق النظارة الطبية في شعور بالتوقع:

- «إني أسمعك».

- «نويت أن.. أدافع عن عمرو الشماشرجي بعدة مقالات أكتبها في الجورنال أشهد له فيها بأنه ضحية للفاجرة الملعونة راشيل!».

تجمدت نظرته الغامضة فوق عيني حتى شعرت كأنها مثقاب يغوص في صدري. أخيرًا تكلم:

- «أكون جبانًا لو قلت لك لا تفعل! فاهمني طبعًا؟.. ولكن.. خل بالك معي.. من غير حماسة.. هل لديك أدلة كافية لإثبات ما ستقول؟».

- «أدلة عقلانية نستقيها من استقرائنا للواقع ولمحضر التحق- ..».

- «آااه.. دخلنا في الكلام الإنشا! تؤتؤتؤ.. يفتح الله!.. أنت فاهمني طبعًا؟.. خل بالك معي،حين أقول أدلة يعني براهين دامغة.. خل بالك.. لعدم وجود أدلة معك ستنزلق من دون أن تدري إلى اعترافات بأنك كنت خادمًا عند هذه العائلة، ومن ثم تعرف كل شيء عنها، فإما أن تجيء رجلك في التحقيقات وإما على الأقل تشوشر على نفسك وأنت في مقتبل العمل الصحفي!.. غرضك نبيل أي نعم، ولكن الأمر شائك وفي منتهى الخطورة.. فاهمني؟ الباب الذي يجيئك منه الريح سدّه واسترح؛ يعني تغلق ملف هذا الموضوع وهذه العائلة بالضبة والمفتاح وترمي بالمفتاح في عرض البحر. فاهمني؟.. انسَ أنك في يوم من الأيام كنت مرمطونا عند عائلة قذرة سافلة نجاك الله منها بمعجزة إلهية!.. اعلم أن الله يسلط أبدانا على أبدان تنتقم للحق بعضها من بعض!.. فاهمني؟!».

وقرصني في ساعدي بأصبعيه قرصة موجعة، ثم سبقني إلى الردهة يغدق على الضيوف مزيدًا من عبارات الترحيب.

ذات عصرية عزمتها بمفردها على فنجان قهوة في مقهى التريانون بميدان محطة الرمل كي نتفرج معًا على توفيق الحكيم الذي يدمن الجلوس فيه أصيل كل يوم من أيام المصيف حيث يلحق به الروائي نجيب محفوظ، فما يلبث جو المقهى حتى يمتلئ بجلجلة ضحكات نجيب المنطلقة الصافية.. لكنني ما كدت ألمحها تدخل التريانون حتى هرعت إليها، أخذتها من يدها، انزوينا في ركن قصي داخلي.

كنت مرتبكًا بشكل ملحوظ، فاقدًا لطلاقتي التي اعتدتها في حديثي معها. خيل إليّ أنني تكلمت في أشياء كثيرة كلامًا تافهًا بلا معنى. خيل إليّ كذلك أنها كانت تجاملني بمواصلة الاستماع لما أخرّف به من دون أن تفتح فمها بأي تعليق. أخيرًا ثقبتني بنظرة نفاذة مدعومة بابتسامة رفعت ظل الخدين فضاعف من سواد العينين فصارتا متاهتين، أردفت:

- «فعلًا فعلًا أنت فلاح.. تلف سنة لكي لا تخطي قناة! ثق بأنك لن تغرق إذا عبرت!».

- «حتى وإن كنت لا أجيد السباحة؟».

- «في دماغك كلام يحيرك ويحيرني، قله وخلص نفسك.. لماذا أنت متورط هكذا؟ هه؟! ماذا في دماغك بالضبط؟ قل».

- «صدقت والله.. أنا فعلًا عندي كلام أحب أن أعرضه عليك..».

- «لعل المانع خير!».

- «كنت أريد أن أقول: ما رأيك لو.. لو.. لو أنني يعني..».

ضحكتها الرنانة جلجلت، أدارت رءوس جميع من يجلسون حوالينا ومن يمشون في الميدان، حتى نجيب محفوظ رمقنا ببسمة عريضة فيها تشجيع لنا وتحريض على الفرح والانتشاء. أصداء ضحكتها الفاتنة راحت تتكسر على بلاط التريانون وتتلوى كدخان السجائر تحملها مويجات الهواء لتعانق زبد الموج ووشيشه على شاطئ ميدان محطة الرمل. قال خاطر مرَّ بي: لا عجب؛ فإنها ضحكة بلطية بورسعيدية محملة برائحة اليود!

انكمشت البلطية خجلًا مما أثارته ضحكتها من استلفات الأنظار. استكنت بمرفقيها فوق المنضدة كبطة نفضت عن نفسها قطرات الماء ثم لمَّت جناحيها وأشعة عينيها:

- «أمري لله، أتكلم أنا بدلًا منك!».

- «أرجوك.. خففي الحمل عني!».

- «كنت تريد أن تسألني ماذا يكون رأيي لو أنك عرضت عليّ الزواج!».

- «بالضبط.. هو ذاك».

- «وما الداعي لكل هذا الارتباك يا فلاح؟!».

- «الخشية من عدم موافقتك».

- «أنت الآن أفضل مني بكثير!».

- «لا لا.. هذا غير صحيح أبدًا!».

- «أنت صحفي موهوب، تتمناك حوريات كثيرات، ولسوف تكبر».

- «ولكني لا أريد سوى حورية بعينها.. لن يكون لي نجاح في المستقبل إلا بها».

- «ولماذا تتوقع أن هذه الحورية ترفضك؟!».

- «لا أدري بالضبط!.. دائمًا عندي شعور بأني لست أستأهلك وأنك حلم صعب المنال».

- «عجايب.. مع أنك نلتني من قبل!».

- «وكأنني لم ألمسك! كل ما كان بيننا صار الآن في منطقة الخيال.. صرت أنا نفسي محتاجًا إلى دليل قاطع يثبت لي أنه قد حدث أن رأيت جوهرك المكنون في يوم من الأيام! هل قد حدث بالفعل، أم أنه كان محض خيال ولّد في داخلي أوهامًا أصابني منها مس من الجنون؟!».

- «ياحبيبي!.. ما هذا الذي تقول يا بهاء؟!» .

- «صدقيني يا لولية.. أنت الآن في اقتناعى جوهرة ثمينة غير قابلة للابتذال تبقى أبد الدهر جديدة طازجة صافية صفاء اللؤلؤة!».

هطلت دموعها بغزارة. يا إلهي! عيناها زورقان يحاولان الرسو على شاطئ الخدين، إلا أن هطول الدمع يردُّ الزورقين
يغمرهما بالبلل.

توقفت عن الكلام شاعرًا بالذنب، أعطيتها منديلي، جففَتْ عينيها، راح جسدها ينتفض بعنف وهي تغطي عينيها بالمنديل، فلما رفعته تبين لي أنها كانت تضحك بعمق وها هي ذي ترسل نظراتها المشرقة في اتجاه الترابيزة الملاصقة لميدان محطة الرمل حيث يجلس توفيق الحكيم ونجيب محفوظ.

- «أهو ضحك أم بكاء؟!»...

- «كان بكاءً من شدة الفرح.. لكن نجيب محفوظ رماني بنظرة مندهشة مغمومة مصدومة، فشعرت بأنه يريد أن يقول لي هل أنا حسدتك؟ فضحكت رغمًا عني لكي أطمئنه على أن البهجة التي يحبها لا تزال مستمرة!».

ضحكتُ، وتلقائيًا تلفتُّ إلى نجيب محفوظ فوجدته يرمقنا من تحت لتحت بنظرات نمس خطير. قالت لولية:

- «أنت قلت عني ما كان يجب أن أقوله أنا عنك!.. هل أنت محتاج لأن أقول لك إن كثيرين تقدموا للزواج مني مقابل امتيازات مغرية، آخرهم سكرتير عام المحافظة؟.. هل تذكر يوم قلت لك في شقة الإبراهيمية إنني كنت أتمنى الزواج بواحد مثلك أكون له ست بيت برغم المؤهل العالي والتعليم الفرنسي؟».

- «إذن فأنت توافقين على الزواج مني؟».

- «هذا يوم المنى يا بهاء».

- «تعرفين طبعًا أني فلاح!».

- «هذا أجمل ما فيك».

- «يعني سنتزوج على طريقة بلدتنا وتقاليد أهالينا!».

- «تزوج بالطريقة التي تعجبك، المهم أن تتزوجني أنا!»..

- «سنتزوج ونقيم في شقتي بشارع الحياتي».

- «ما أجملها!»...

- «طبعًا سنفرشها بجهاز تختارينه على ذوقك!».

- «أنت السكن والفرش والغطاء والزاد والزواد!.. ما دمت لي فكل شيء ما عداك رخيص وسهل وميسور!».

إن هي إلا أيام قليلة حتى جاء أبي مع أمي وأختي الكبيرة فأخذتهم إلى شقة لولية حيث قام الود بين الأسرتين من أول وهلة، لم نتكلم في أي شيء على الإطلاق سوى التعبير المتبادل عن السعادة بقيام هذه العلاقة الطيبة.. ثم نزلت لولية لكي توصلنا بسيارتها إلى شقتي حيث تعرفت على زوجات أعمامي وعمي صلاح. سعدوا جميعًا بها. مكث أبي وأمي في ضيافة أعمامي ثلاثة أيام بمعدل يوم لكل واحد، وقبل سفره قدم لي منديلا محلاويًّا معقودًا على رزمة فلوس:

- «هذا هو مهرك ادخرته لك.. مائة جنيه بالتمام.. جهز بيتك على أكمل وجه، وإن احتجت للمزيد كلمني وربنا يسهل إن شاء الله».

لذكائه المعهود تعمد أن يعطيني المبلغ أمام لولية لتعرف أن هذا هو مهرها وأن عليها أن تراعي حدود هذا المبلغ

عند تجهيز الشوار، فلا تتطرف في طلباتها شأن بنات هذه الأيام اللائي يغالين في مهورهن وشبكاتهن، وبخاصة المتخرجات في الجامعة. لم يكن أبي يتوقع منها هذه المفاجأة المذهلة:

- «يا بهاء، غدًا صباحًا سآخذك إلى بنك مصر في الفرع الذي أتعامل معه لتودع فيه هذا المبلغ».

ظهرت الدهشة على وجوهنا جميعًا. بقليل من الاحتجاج،
قال أبي:

- «يا بنتي هذا هو ثمن الشوار الذي يجب أن يُشترى من الآن، فكيف يضعه في البنك؟!».

- «لأننا يا عمي لن نشتري الآن شوارًا!».

ولولا الابتسامة المشرقة على شفتيها لتصورنا أنها تهزأ بنا وبمهرنا. لزم أعمامي الصمت، صار نسوان العائلة يملن بعضهن على بعض يتهامسن في وجوم. استعار أبي ابتسامة لولية المشرقة ومال نحوها بلهجة أب صبور يداوي ابنته العنيدة:

- «بحق الله، ما هذا الفأل السيئ يا آنستي؟ ولماذا لا نشتري الجهاز الآن؟! هل ستدخلين على هذا العفش العتيق مثلًا؟!».

- «نعم!».

- «لماذا؟ أحب أن أفهم؟!».

- «وجهة نظري يا عمي أن مستقبلنا ليس في الإسكندرية بل في القاهرة. أنا واثقة بأن بهاء سيطلبه الجورنال في القاهرة خلال أشهر قليلة ليبدأ حياته الصحفية الحقيقية على نطاق واسع. سالم الأمير سيحتاج إليه.. يعني أننا لابد سنجهز شقة في القاهرة تكون هي شقة العمر.. فبدلًا من التجهيز هنا ننتظر قليلًا لنجعله تجهيزًا بالمرة على المستوى الأليق. هذا العفش لا بأس به.. يؤدي الواجب!».

زام أبي وتراجع إلى الوراء حيث ظهرت على وجهه بوادر اقتناع ممزوج بالإعجاب بهذه المخلوقة العجيبة.. أما النساء فقد انفردت وجوههن بالابتسام، وتبادل أعمامي الهمس وهز الرءوس. قال عمي إسماعيل:

- «فكرة طيبة!».

قال أبي:

- «ستدخلين على هذا العفش؟!».

قالت لولية:

- «أنا مكتفية ببهاء! هو العفش وكل شيء!».

- «أنت جادة في هذا الكلام؟!».

- «وأقترح على حضرتك أن نبعث في طلب المأذون الآن لنعقد القران لكي تطمئن إلى أنني لست أتهرب! سنعقد القران الآن حالًا!».

هتفت أمي:

- «والدخلة؟ أريد أن أفرح بابني!».

قالت لولية بكل بساطة:

- «نكتب الكتاب اليوم، والأسبوع القادم بإذن الله نحضر كلنا عندكم في البلد لنقيم الفرح».

اندفعت قافلة من الزغاريد قادتها أختي زلزلت الستائر وقرعت جميع شبابيك الجيران. عقدنا القران بالفعل، وسافر أبي ليجهز للفرح. في الأسبوع التالي دب الانتعاش في بلدتنا من أقصاها إلى أقصاها. أقيم فرح على الطريقة الفلاحية، فكنا أنا ولولية كأننا نلعب دورين في فيلم سينمائي يجري تصويره ويهمنا أن نتقن الدور جيدًا!

ما أشد شفافية لولية! لم يكد شهر العسل ينتهي حتى تلقيت استدعاءً من سالم الأمير حيث تقرر نقلي للعمل في

المطبخ الصحفي أو «الديسك المركزي» للجورنال في القاهرة، وقد مُنحت شهرًا كمهلة أنتهي خلالها من تسليم المكتب إلى مدير جديد، وتدبير أمر السفر وحل مشكلة الإقامة. ولما كان للولية عم يعمل رئيسًا لمجلس إدارة هيئة النقل العام في القاهرة ويسكن في شارع شمبليون، فقد بادرنا بإرسال عربي شقيق لولية إليه لعله يساعده على إيجاد شقة مناسبة لنا.. وفيما كنا مرابطين بجوار التليفون في انتظار «ترنك» من عربي في القاهرة ،إذا بسكون الليل ينشرخ فجأة بصوات حاد ينبعث من مكان قريب ثم يتعالى ويتواصل ويتضاعف.. يصير فرقة كبيرة من الصارخين في ولولة وفجيعة!

جرينا إلى الشرفة نستطلع الخبر. كان محمد بتاع الموز ساهرًا بعربته الكارو على ناصية شارع الحياتي، ناديته:

- «من أين يأتي الصوات يا محمد؟».

رفع رأسه نحوي صائحًا بصوت لا يخلو من حزن:

- «عمرو بك الشماشرجي تعيش أنت.. مات في المستشفى».

ألجمتنا المفاجأة، صرنا على وشك البكاء، لولا أن الترنك أفزعنا برنينه الملحاح، فألهتنا المكالمة، ثم استغرقتنا الفرحة بخبر العثور على شقة كبيرة في شارع شمبليون مكونة من خمس غرف ومطبخ وحمامين وصالة كبيرة في الطابق الثالث من عمارة تطل على دار القضاء العالي وإيجارها خمسة جنيهات في الشهر، فظللنا بقية الليل نحلم برؤيتها وبالفرش الملائم لها.

حينما أوينا إلى السرير قالت لولية على سبيل المداعبة:

- «طبعًا سنفرش غرفتين للنوم ،واحدة لي وواحدة لك!».

- «بل ثلاثًا: واحدة لنا معًا، الثانية للضيوف، الثالثة لـ.. مامي وعربي».

- «سنأخذهما معنا؟!».

- «ولمن نتركهما؟!».

اغرورقت عيناها بالدموع ،ثم عالجتها بالابتسام، ثم احتوتني في حضنها وسحبت الملاءة فوقنا. أطفأت بلحة الضوء المتدلية فوق الوسادة. أضاء في الظلام شراع زورق راح يتهادي فوق موج نشوان زاحفًا نحو الأفق البعيد البعيد.. البعي ي ي ي د.

تمت

٢٩/٤/٢٠٠٥

المعادي الجديدة

Table of Contents

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
(١٥)
(١٦)
(١٧)
(١٨)
(١٩)
(٢٠)
(٢١)
(٢٢)
(٢٣)
(٢٤)
(٢٥)
(٢٦)
(٢٧)
(٢٨)
(٢٩)
(٣٠)
(٣١)
(٣٢)
(٣٣)
(٣٤)
(٣٥)
(٣٦)
(٣٧)
(٣٨)
(٣٩)
(٤٠)
(٤١)
(٤٢)
(٤٣)

(٤٤)
(٤٥)
(٤٦)
(٤٧)
(٤٨)
(٤٩)
(٥٠)
(٥١)